كتاب

حضارة الاسلام
في
دار السلام

تأليف

الفقير اليه تعالى

جميل بن نخلة المدوَّر

طُبع بالرخصة الرسميَّة نمرو ٧١ في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٨٨٨

على نفقة الامام السيّد المرغني ومطبعة المقتطف


LIBRARY
JUN 12 1973
UNIVERSITY OF TORONTO

الحمد لله

هذه رسائل أُودعتها طرفًا من مآثر العَرَب ومفاخر الاسلام ووضعتها عن لسان امير من الفرس قدم العراق في المئَة الثانية للهجرة وتقلَّب بالمناصب في دولة البرامكة الى ان نكبهم الرشيد كما ستراهُ في موضعهِ من الكتاب

فكان في النفس ومن عزم بعض الخلّان اليَّ ان أُبقي الحديث عن لسانهِ الى خلافة المأمون لذكر ما هو حقيقٌ بان يوصف بهِ من الحلم والفضل والمروءة والعفاف غير اني كنت أَحرص على التاريخ من ان أُدخل فيهِ الحكاية التي لا أُرجع بحجتها الى الاسناد في ابقاء المناصب بيد الفرس بعد نكبة البرامكة اذ كنت أَوجبتُ على نفسي ان لا آتي الاَّ على ذكر الحقائق وتقييد الاحوال كما كانت عليهِ في ذلك الزمان ولذلك لما اوردتُ الاسباب التي رفعت العَرَب الى العظمة وجلالة القدر أَعرضت عن ذكر ما دعاهم من بعد الى التواني والانحطاط كما اني في ذكر آدابهم وفنونهم وصناعاتهم وقفتُ على حدّ الإِخبار المجرَّد من غير ان اتفهمَّ الغاية التي وصلوا اليها من العلوم لِما لا يخفى من حدوث ذلك كلهِ بعد الرحلة وما وَجب في هذا التأليف من النظر الى عصرِ الرشيد وليس الى ما بعدهُ من الأَيام

وقد اتخذت في هذا الكتاب طريقة الاسناد للدلالة على ما ذكر اهل العلم مما انا بصدده من الكلام واني لأرجو ان ينفع اخواني من اهل الوطن العزيز بما اروم لهم من الخير والله أسأل ان يرشدني واياهم الى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل

جدول الاسفار التي وجدت بين يدي واسندت اليها رواية الرحَّالة

عُلوم الدّين والشرع

الاتقان في تفسير القرآن للسيوطي	طبع بولاق سنة ١٢٨٧
الاحكام السلطانية للماوردي	" بُنْ ١٨٥٢
ردّ المحتار على الدرّ المختار لابن عابدين	بولاق ١٢٨٦
مجمع الانهر في ملتقى الابحر لشيخ زاده	القسطنطينية ١٢٧٦
شرح الزرقاني على موطإ مالك	بولاق ١٢٧٩
كليات لابي البقاء	مصر ١٢٨٧

ومطالعات في صحيح البخاري وكشاف الزمخشري وتفسير البيضاوي

علوم اللغة

الجوهري صحاح اللغة

الفيروزابادي المحيط

الثعالبي فقه اللغة

الممالك والبلدان

احسن التقاسيم في معرفة البلدان والاقاليم للمقدسي	ليدن ١٨٧٧
المسالك والممالك لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣

الرحلة (الى المشرق) لابن جبير	ليدن ١٨٥٢
معجم البلدان لياقوت	ليبسيك ١٨٦٦
تقويم البلدان لابي الفداء	باريس ١٨٤٠
المسالك والممالك لابن خرداذبه	باريس ١٨٦٥
الفيض المديد في النيل السعيد لأحمد المنوفي	باريس ١٨٢٧
مسالك الممالك للاصطخري	ليدن ١٨٧٠
الخطط والآثار للمقريزي	بولاق ١٢٧٠
آثار مصر لعبد اللطيف	توبنك ١٧٨٩
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي	رومية
تحفة النظار في عجائب الاسفار لابن بطوطة	باريس ١٨٥٣
اخبار العباد وآثار البلاد للقزويني	غوتنغين ١٨٤٨
جواهر البحور ووقائع الدهور لابرهيم بن وصيف شاه	
نشق الازهار في عجائب الاقطار لمحمد بن اياس	(خط)

السير والاخبار وايام الناس

ابن الاثير الكامل	بولاق ١٢٩٠
الطبري تاريخ الملوك واعمارهم	ليدن ١٨٨٠
ابن خلدون ديوان المبتدا والخبر	بولاق ١٢٨٤
ابو الفداء التاريخ	قسطنطينية ١٢٨٦
الفخري الآداب السلطانية والدول الاسلامية	غَرَيفِزْوَلْد ١٨٥٨
المسعودي مروج الذهب	بولاق ١٢٨٣
المقري نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب	بولاق ١٢٧٩
ابن خلكان وفيات الاعيان	بولاق ١٢٧٥
ابو الفرج الملطي تاريخ مختصر الدول	اكسفور ١٦٦٣
الخميس اخبار الدول والاسلام	طبع بولاق
السيوطي تاريخ الخلفاء	(خط)

السيوطي	الانس الجليل في تاريخ المقدس والخليل	مصر ١٢٨٣
السيوطي	حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة	مصر طبع على حَجَر
ابو المحاسن	النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة	ليدن ١٨٥١
الاتليدي	اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس	بولاق ١٢٨٠
الواقدي	في فتوح الشام	(خط)
القرماني	آثار الأُول	بولاق ١٢٩٠
محمد بن شاكر	فوات الوفيات	بولاق ١٢٨٣
العقد الفريد	لابن عبد ربه	بولاق ١٢٩٣
ابن ابي دينار	المونس في اخبار افريقية وتونس	تونس ١٢٨٦
شرف الدين الانصاري	قضاة الشام	(خطّ)
الاسحاقي	لطائف الاخبار الأُول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدوَل	مصر ١٣٠٠
الشرقاوي	تحفة الناظرين فيمن وُلّي مصر من السلاطين	مصر ١٣٠٠

ومطالعات في ابن الورديّ واخبار مكة للازرقي واخبار العرب لابن كتيبة وغيرهم

العلوم الأدبية

ابو يعقوب الورّاق	الفهرست	
حجي خانه	كشف الظنون عن العلوم والفنون	لندُن ١٨٦٢
ابو الفرج الاصبهاني	الاغاني	بولاق ١٢٨٥
ابن خلدون	المقدمة	بيروت ١٨٧٩
ابن الاثير	المثَل السائر	بولاق
الماورديّ	أدب الدين والدنيا	قسطنطينية ١٢٩٩
الدميريّ	حيوة الحيوان	بولاق ١٢٧٥
القزويني	عجائب المخلوقات	كوتنكن ١٨٤٩
ابن حجة الحموى	خزانة الادب	بولاق ١٢٩١
الحريري	المقامات	طبع بيروت
الميداني	مجمع الامثال	بولاق ١٢٨٤

الفتح بن خاقان   قلائد العقيان   باريس ١٢٧٧

الابشيهي   المستطرف في كل فن مستظرف   بولاق ١٢٧٩

نهج البلاغة   لعليّ بن ابي طالب رضه   مصر طبع على حَجَر

ابو عُبيدة   طبقات الشعراء   (خط)

القناوي   شرح لامية ابن الوردي   مصر ١٢٧٨

الطرطوشي   سراج الملوك   بولاق ١٢٨٩

الشعراني   الطبقات الكبرى   بولاق ١٢٨٦

قدامة بن جعفر   مختصر كتاب الخراج   باريس ١٨٦٢

الشريشي   شرح مقامات الحريري   بولاق ١٢٨٤

السيوطي   الكنز المدفون والفلك المشحون   بولاق ١٢٨٨

بهاء الدين العاملي   الكشكول   (خط)

الثعالبيّ   يتيمة الدهر في شعراء اهل العصر   دمشق

ابواسحق الحصري   زهر الآداب وثمر الالباب بهامش العقد الفريد

ابو اسحق الوطواط   غرر النصائح الواضحة   بولاق ١٢٨٤

ابن نباتة المصري   سرح العيون لرسالة ابن زيدون   (خط)

داود بن عمر   تزيين الاسواق في احوال العشاق   بولاق ١٢٩١

ابن عرب شاه   فاكهة الخلفاء   الموصل ١٨٦٩

ابن عون   الاجوبة المسكتة   (خط)

الشبلنجي   نور الابصار في مناقب آل بيت النبي المختار   بولاق ١٢٩٠

كتاب الف ليلة وليلة   بولاق ١٢٥١

عبد الله بن المقفع   كليله ودمنه   طبع باريس

شمس الدين النواجي   حلبة الكميت   بولاق

عبد المسيح بن اسحق الكندي   رسالة الى عبد الله بن اسمعيل الهاشمي طبع لندن

ابو القاسم الحسن بن بشر   الموازنة بين ابي تمام والبحتري طبع القسطنطينية ١٢٨٧

ومطالعات في لطائف العرب وربيع الابرار للزمخشري وغير ذلك كثير في كتب الأدب

فهرست الكتاب

الرسالة الخامسة (أُصدرت من بغداد سنة ١٨١)

الرسالة السادسة (كُتبت في بغداد سنة ١٨٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الاولى

القدوم الى العراق

اتيتُ دار السلام لا تخرَّج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن ابرهيم بن خُنَيس الانصاريّ[١] وكان خليلاً لابي علي صفاء بينهما لم يكن بين اثنين . فانفصلتُ عن هرمز في ريحٍ رخاء زجَّت مركبنا الى البحرين فاطراف العراق اهنأ تزجية . فلما حاذينا الساحل ممَّا يلي البصرة هبَّت علينا ريحٌ عاصفة وانحدر بنا الموج الى منعرجٍ في البرّ من البحر كلهُ رمالٌ ومهاوي ماء . فبتنا ليلنا فيهِ على أشدّ ما يكون من الخوف الى ان طلع الفجر . فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حملتنا الى عبَّادان وأرست بنا على مطَلٍّ من خشباتٍ[٢] تنتهي المراكب

(١) هو ابو يوسف القاضي (٢) المسعودي ١ * ٥٠

اليها ولا نتجاوزها خوفًا من الجزر[١] لئلّا تلحق بالارض وتغوص في الطين الذي يأتي دجلة[٢] بهِ في انسيابهِ

وهذا البحر فيما يقرب من سواحل العراق لا يتسيَّر فيهِ السير[٣] ويخاف فيهِ السفر. ولا يحمد منهُ الّا انهُ أهل السواحل لما فيها من مغاصات[٤] الدرّ والياقوت والعقيق والباديج[٥] وغير ذلك وهي بابٌ واسعٌ لطلّاب الارزاق وللغوّاصين عليها اخبارٌ غريبة فيما سمعت حتى قيل انهم يشقون آذانهم للنَفَس ويجعلون في آنافهم القطن ويصطنعون وجوهًا من الذِبَل كالمشاقيص ويدهنون ابدانهم بالسواد خوفًا من بلع دواب البحر اياهم ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم فاذا بلغوا القعر عصروا دهنًا يضيء منهُ البحر ليروا الاصداف التي يتولّد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونةً في ارض البحر رملاً كان او طينًا[٦]. وممَّا يزعمون في هذا اللؤلوء ان تولُّدهُ من مَطَر نيسان اذ تكون الصدفة مفتوحةً على وجه الماء فتقع عليها القطرات فتتربى فيها دررٌ رائقة الصفاء[٧]

ولما اخذت نصيبًا من الاستراحة اكتريت زورقًا الى البصرة ونزلت بها في سكة بني سَمُرَة[٨] بازاء دار الهيثم بن معاوية اميرها[٩].

(١) القناويّ ١٢٦ (٢) تقويم البلدان ٣٠٩ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٧

(٤) ابن خرداذبه ٦١ (٥) المسعودي ١ * ٣٥٠ (٦) القرماني ٥ * ١٥٥

(٧) الدميري وعجائب المخلوقات (٨) ياقوت ١ * ٦٤٤ (٩) ابن الاثير ٦ * ٣

وقد طاب لي فيها المقام بما آنست من استئناس اهلها للغريب الى ان ينسى في جوارهم اهلهُ[1] بما يألف عندهم من مظاهر الانس والصفاء. ووجدت لهم صبرًا على طلب العلم يتخذون المكاتب[2] لاولادهم والحلقات[3] لشيوخهم وتشدّ اليهم رحال الطلبة[4] من كافة الوجوه لان لهم من الادب[5] المكان الذي لا يُرقى. غير اني لم ارَ فيهم الاَّ وَهِنَ البنية سقيمها واصفر اللون كاسفهُ[6] وذلك ناشئٌ فيهم عن عفونة الماء ووقوع اقليمهم في مهابّ الرياح المختلفة لان الهواء قد يتبدَّل في اليوم الوانًا وضروبًا فيجبرون للبس القمصان[7] مرةً والمبطنات أُخرى ولذلك سمّيت مدينتهم بالرعناء وانشد الفرزدق[8]

لولا أَبو مالكَ المرجوُّ نائلُهُ ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

وقد لقيتُ في البصرة جماعةً من الادباء مثل واصل بن عطاء[9] وعبد الكريم بن ابي العوجاء[10] والنضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن احمد[11] والمؤرّج السدوسيّ الراوية[12] والحسن بن هانئ الشاعر[13] وغيرهم. وشهدت حلقة عُتبة النحوي وابي زيد الانصاري[14] وسمعت

---

(١) ابن بطوطة ٢ ✫ ١٠ (٢) الابشيهي ١ ✫ ١٧٧ (٣) اغاني ١٧ ✫ ١٦ و١٧ ✫ ٢٩ وابن خلكان ١ ✫ ٢٩٢ (٤) اغاني ١٧ ✫ ١٠ (٥) ابن بطوطة (٦) اغاني ١٧ ✫ ٧٨ وابن بطوطة ٢ ✫ ١٦ (٧) القزويني ٢٠٦ (٨) ياقوت ١ ✫ ٦٤٧ (٩) المستطرف ١ ✫ ١٢٦ (١٠) اغاني ٣ ✫ ٢٤ (١١) ابن خلكان ٢ ✫ ٢٢٨ و ١ ✫ ٢٤٤ (١٢) ابن خلكان ٢ ✫ ١٩٠ (١٣) اغاني ٦ ✫ ١٧٩ (١٤) ابن خلكان ١ ✫ ٢٩٢

الحديث عن سفيان بن شُعبة الثوري (١) وشعبة بن الحجّاج العتكيّ (٢) غير اني اصطفيت الخليل بن احمد من بينهم لمحادثات الادب لاني وجدتهُ اوسعهم عقلاً (٣) واحضرهم رويّةً وليس فيهم من يساميهِ في علوّ الخاطر الّا صالح بن عبد القدوس الشاعر ولكني تحاميت مجلسهُ بما يتهم بهِ من الانحراف عن السنّة (٤) وان كنت لا ابخس عقلهُ حقهُ من التعظيم. وقد سمعت انهُ يجهد نفسهُ في طلب الدنيا ويلتمس السعة منها فلا يحصل عليها الّا بعد عصب الريق وفي قولهِ (٥)

لو يُرزَقون الناسُ حَسْبَ عقولهم ألفيتَ اكثر من ترى يَتَصدَّقُ

التفاتٌ الى ما هو فيهِ وان النعمة واقعةٌ الى غير اهلها وذلك بخلاف الخليل بن احمد فانهُ متقلّلٌ من الدنيا راضٍ منها باليسير والملوك تبذل لهُ المال (٦) وهو لا يقبل منهم شيئًا على مكانهِ من الحاجة اليهِ (٧) وقد اشتهر فضلهُ بين الناس بعلم العروض (٨) ووضعهِ لهُ على دوائر خمس تتجزّأُ منها الأبحر الخمسة عشر ولكن ليس هذا كل حظ الادب منهُ فان لهُ في اللغة كتاباً سمّاهُ العين واودعهُ من عين العلم (٩) ما هو زينة وفخر لدولة الاسلام

---

(١) ابن خلكان ١ * ٢٩٦ (٢) الخميس ٢ * ٣٢٠ (٣) ابن خلكان ١ * ٢١١ (٤) اغاني ١٢ * ١٥ (٥) انليدي ٤ ٢٥٩ (٦) الشريشي ٢ * ٢٦٨ والمستطرف ١ * ١٦٨ (٧) ابن خلكان ١ * ٢٤٢ (٨) ابن خلكان وابن نباتة والمسعودي ٢ * ٢٦٥ والوطواط ١٩١ والاغاني ١٧ * ١٨ (٩) ابن خلكان ١ * ٢٤٢ والمقدمة ٥٠٢

الكلام عن البصرة

واقد ظننتُ البصرة لأَول وهلة انها ليست بالمفرطة الكِبَر فلما طفتُ في ساحاتها وتجوَّلتُ في أَرباضها ومحلَّاتها بدا لي انها متسعة البقعة كثيرة العمران[1] فقلَّ ان يكون بها موضع غُفْلاً من العمارة خِلْوًا من السكَّان . ومبانيها على الغالب من اللبن الاَّ ما كان من المسجد الجامع فانهُ مبنيٌّ بالصخر والجصّ على أَتم احكام وابدع صناعة واول من بناهُ عُتْبة بن غزوان[2] واقامهُ من القصباء لاجل ان ينزعهُ متى شاء ثم يعيد اقامتهُ. فلما جاء ابو موسى الاشعري بناهُ باللبن[3] وطلى جدارهُ بالاصباغ ثم قام زياد فزاد فيهِ واقام السقيفة التي في مقدّمهِ[4] وحمل اليهِ عمدهُ من الاهواز وبناهُ بالجصّ والحجر[5] ثم لم تزل بهِ عناية الولاة بعدهُ الى ان وسعت اوقافهُ وصار عَلَم البصرة وأُقيم فيهِ قاضٍ يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم وعشرين دينارًا فما دونها[6] تخفيفًا عن الدواوين التي لا تحكم الاَّ في القضايا المهمَّة

ثم سرتُ من هذا الجامع الى مسجد عليّ عليهِ السلام[7] وهو مفروش صحنهُ بالحصباء الحمراء ولهُ اوقاف جزيلة مما وقف لهُ

(١) الماورديّ (٢) ياقوت ١ * ٦٤٠ (٣) ياقوت ١ * ٦٤١
(٤) اغاني ١٧ * ٢٨ (٥) ياقوت ١ * ٦٤٢ (٦) الماورديّ ١٢٣
(٧) ابن بطوطة ٢ * ٨

الفرس ومن يقول بخلافة اهل البيت من العرب وهم يطرقونهُ ويتبرَّكون بزارهِ كأَنَّ وعيد ابي جعفر لم يجد منهم نفوسًا راجعة الى غرضهِ فيما أُوجد من الفرقة (١) بين العلويَّة والعباسيَّة (٢). ووجدتُ في بعض مقاصيرهِ مصحفًا عليهِ اثرٌ دابغ مثل الدم الجاف يقال (٣) انهُ القرآن الذي كان يقرأ فيهِ عثمان لما قُتِل. وبعد ان قضيتُ زيارتهُ المباركة تجوَّلتُ في اسواق المدينة فرأَيتُ التجارة فيها على اروج ما يكون ولا غرو فان البصرة هي فرضة العراق والشام وخراسان وما اليها من الديار العالية مما يكسبها حسن الموقع بحيث لا يصدر شيءٌ من هذه البلدان ولا يرد اليها الاَّ من البصرة (٤). ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع (٥) الى ان صارت واسطة العرَب ومنتهى الشرف وقبة الاسلام (٦)

ومَّما يذكر عن بنائها فيما حدثني الهيثم أَميرها ان المسلمين افتقروا لاول امرهم الى منزل ينزلون بهِ واذا دهمهم عدوٌّ لجأُوا اليهِ واعتصموا بهِ فبعث عمر رضي الله عنهُ عُتبة بن غزوان (٧) واوعز اليهِ ان أَرْتد لنا موضعًا في جهة العراق قريبًا من المرعى والماء والمحتطب فجاءهُ من البصرة اني وجدتُ ارضًا كثيرة القضَّة في طرف البرّ الى الريف ودونها مناقع فيها ماءٌ وفيها قصباءٌ (٨) فكتب اليهِ عمر ان ينزلها بمن

(١) المسعودي ٢ * ٤٠٠ (٢) السيوطي (٣) ابن بطوطة ٢ * ١٠
(٤) الف ليلة وليلة (٥) القزويني والتقاسيم ١٢٨ (٦) المسعودي ٢ * ٦٢
(٧) ابن حوقل ١٥٩ والتقاسيم ١١٧ (٨) ياقوت ١ * ٦٤٠

معهُ فوقع تمصيرها في السنة الخامسة عشرة لهجرة النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم . ولما جلستُ الى الخليل العالم الامثل ودار بيننا الحديث على اخبار الاسلام الأوَّل أخبرني ان البصرة انما اختطها العَرَب نكايةً للفرس لتحويل التجارة من سواحلهم اليها وذلك لما صالت منهم الأجناد واتسعت لهم الاجناد رأَوا ان يستولوا على زمام التجارة فبنوا هذه المدينة فرضةً للعراق والمشرق كلهِ ففشت فيها العمارة وغصَّت بالناس على ما رحبت ارجاؤُها . يقال ان كان فيها من مقاتلة العَرَب لايام زياد ثمانون الفاً[1] واخبرني الهيثم ان اهلها يبلغون اليوم خمسمئة الف من الرجال بدليل المال الذي فرَّقهُ فيهم ابو جعفر وكان الف الف درهم ما اصاب الراس منهم الأَّ درهمين[2] ليس غير

وتبعد البصرة عن عبَّادان حيث الشاطئُ نحو ساعة زمانيَّة وعندها تختلط مياه دجلة والفرات[3] وتصبُّ في البحر الملح بعد ان تفقد عذوبتها[4] لان المدّ يأْتي الى فوق البصرة باميال فاذا امتزج بهِ ماءُ دجلة صار ملحاً[5] ولقد يخال الرائي لأَول وقوع المدّ ان البلاد صارت غديراً كما وقع لحمزة بن عبد الله أَمير البصرة لعهد ابن الزبير وقد ركب يوماً الى الفيض فقال ان هذا الغدير ان رفقوا بهِ ليكفينَّهم صيفتهم هذه فلما كان بعد ذلك ركب اليهِ فوافقهُ جازراً فقال قد

(١) ياقوت ١ * ٦٤٤ (٢) الشريشي ٢ * ٤٢٧ (٣) المقدمة ٥٥

(٤) القناوي ١٢٦ والاصطخري ٨١ (٥) القزويني ٢٠٥

رأيتهُ ذات يوم فظننتُ ان لن يكفيهم فقال لهُ الاحنف بن قيس ايها الامير ان هذا الماء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود فخجل وعاب الشعراء ذلك عليهِ فيما تناشدوا من الابيات [1] -

ولقد تصفحت في البصرة كثيرًا من قصورها المشرقة واستقريت اماكنها المشهورة بما وعيتُ عنها من الانباء واحسن ما استظرفت منها قصر محمد بن سليمان الهاشمي [2] وهو اوفر بني العباس مالاً واعطاهم لشاعرٍ نوالاً [3] وغلّة ضياعهِ في كل يوم مئة الف درهم [4] . وقد بناهُ على بعض الانهار واستفرغ في زينتهِ جهدهُ [5] واتخذ في جنانهِ المهى والغزلان والنعام وانواع السباع والطيور المغرّدة فجمع فيهِ محاسن الحضارة والبداوة وفيهِ يقول الشعراء [6]

زُر واديَ القصر نعم القصر والوادي ... في منزل حاضرٍ ان شئتَ او بادي
ترفى بهِ السفن والظلمان حاضرةٌ ... والضبُّ والنون والملّاح والحادي

الى آخر الابيات. واما القصور التي بقيت بعد اربابها فانها لكثير في البصرة شاهدتُ منها قصرًا لأوس بن ثعلبة [7] الذي ولي العراق وخراسان لأيام الامويين وهو قريبٌ من المربد [8] وعليهِ قبابٌ مرفوعة يغصُّ الجوُّ بها صعودًا ومن حولهِ خمائل رائعة كأنَّ الايام

(١) اغاني ٣ * ١٢٢ (٢) يافوت ٤ * ١١٨ (٣) انليدي ١٤٥
(٤) المسعودي ٢ * ٢٠٨ (٥) القزويني ٢٠٦ (٦) اليتيمة ١ * ٩٦ والقزويني ويافوت ٤ * ١١٨ وابن نباتة والشريشي ٢ * ٤٢٦ (٧) اغاني ٣ * ٢٦ (٨) اغاني ١٢ * ١٠

لا تزيدها الأخضرةً ونضارةً وقد اجاد ابن ابي عُيَيْنة في وصفها حيث يقول[١]

بغرسٍ كابكار الجواري وتربةٍ كأنّ ثراها ماء وردٍ على مسكِ
فياطيب ذاك القصر قصرًا ونزهةً وبافيح سهل غير وعرٍ ولا ضنكِ

وشاهدتُ قصرًا للأحنف بن قيس[٢] المقدم ذكرهُ في رحبة المنجاب[٣] ودارًا لانس بن مالك خادم النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم[٤] وايوانًا للزبير بن العوام[٥] تنزلهُ التجار وارباب الاموال واصحاب الجهات من البحرين[٦] وغيرهم. وآخر لعبيد الله بن زياد ويسمَّى البيضاء[٧] والناس يدخلونهُ لرؤية زينتهِ والى مقربةٍ منهُ مجلس ابيهِ زياد وفيهِ خطب خطبتهُ البتراء[٨] المشهورة التي اخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانهُ على مرّ الايام فلم يبقَ منهُ الَّا أَثرٌ شاخص ورسم ناقص

العَرَب البادية

ولقد اتيتُ مِرْبَد البصرة عن طريق المهالبة[٩] فسكَّة المربد[١٠] فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال وتحطُّ بها الرحال[١١] ويعلَّق

(١) يافوت ٤ * ١٠٩ واغاني ١٨ * ١٤ (٢) اغاني ١٧ * ٥٦ (٣) اغاني ١٢ * ٦٣ (٤) يافوت ٤ * ١٠٩ (٥) المقدمة ١٧٨ (٦) المسعودي ١ * ٣٣٣ (٧) القزويني ٢٠٦ (٨) سُمِّيت بذلك لانهُ لم يفتتحها بالحمد لله والثناء عليهِ (٩) اثايدي ١٠٧ (١٠) اغاني ١٢ * ٦٤ (١١) تقويم البلدان ٣٠٩

فيها الأَشعار التي يتناشدها العربان في ايام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس[١] ويبيعون ويشترون. وهناك موضع يقال لهُ شمس الوازنين وفيهِ مسجد صغير يُعرَف بمسجد الانصار[٢] قد طلي بالاصباغ ولم ترتفع صوامعةُ الاَّ قليلاً . ووجدت صحراء البصرة وعرة مرملة[٣] لا يُغرّد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء فيها[٤] انما خيرات البصرة تردها من الأُبُلَّة وهي عامرة بالناس خصَبة الجناب[٥] كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة[٦] ولا تخرق أشعة الشمس ارضها لالتفاف شجرها بعضهُ على بعض[٧] وفي مرساها مجتمع كثير من مراكب الهند والصين لان الربح فيها واسع لاهل التجارة[٨] .واما النخيل المتصل فيما بينها فالبصرة فاعلى الصحراء[٩] فانهُ كَسْبٌ وافر للناس يقال ان ثمنهُ يَعْدِل[١٠] ما يحمل الى بيت المال من كافة الاقاليم

والى ما وراء المربد في ظاهر البصرة عربان من عامر[١١] وقيس عيلان كنتُ اجلس الى مشيخة حيهم وأَبيت في منازلهم وآكل من ثريدهم وأَشرب من البان نوقهم واجلس على الوَبَر والانطاع وأَعي

---

(١) اغاني ٧ * ٥٠ (٢) اغاني ١٧ * ١٨ (٣) الاصطخري ٨٠
(٤) تقويم البلدان ٣٠٩ (٥) الاصطخري ٨١ (٦) التقاسيم ١١٨
(٧) القزويني ١٩٠ وابن حوقل ١٦٠ (٨) ياقوت ١ * ٩٧ (٩) القرماني ٥ * ١٥٤ (١٠) ياقوت ١ * ٦٥٠ (١١) اغاني ٤ * ١٢٩

احاديثهم بإقبال واستمتاع واشهد حلقات القصَّاص فيما يذكرون من أَخبارهم وايامهم فوجدتهم يتفاخرون بتأْليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف [1] ولا يهنأُون الاَّ بغلام يولد او شاعر ينبغ فيهم او فَرَس تنتج [2]. وعلمتُ من اخبارهم انهم لا يأْتون الفحشاء. بل يعاقبون الزناة بالقتل [3] ولا يباشرون من النساء الاَّ من حلّت لهم من اهلها حتى لقد يكرهون تزويج اثنين قد انتشرت اخبارهما بالمحبة [4]. وذكر هؤلاء القصَّاص ان جميلاً لما سأَلهُ خلاَّنهُ ان ما عملتَ مع بُثَينة طول هذه الاَيَّام قال كنتُ أُمتِّع عيني من وجهها وسمعي من حديثها ولم أَمدّ اليها يدًا غير مرة واحدة وقد اخذت يدها ورفعتها الى صدري حتى تشعر بخفقان قلبي [5]. وهذا مما يدل على نبل الهمة وعفاف النفس

وقد بقي في خاطري ذكر رقيقٌ عذب لاجتماعي بهؤلاء العربان وقد طاب لي الجلوس الى قيس عيلان اكثر منهُ الى بني عامر لاني وجدت فيهم بيانًا وفصاحة [6] غير انهم لم يلبثوا في البصرة الاَّ قليلاً ثم شالت نعامتهم وزفَّ رالهم فرحت اتوجه الى منازل عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيرًا من محامد العرب الموصوفة · وقد اعظمت رواج الادب بينهم والكتابة مفقودة عندهم حتى انهم ليجرون على قواعد اللغة في اشعارهم ومحاوراتهم بما ليس بالامكان اصح منهُ [7] ولهم في

(١) العقد الفريد (٢) الجوهري (٣) تزيين الاسواق (٤) اغاني ١٢☆١٠ وتزيين الاسواق ١☆٦٤ (٥) تزيين الاسواق ٢☆٩ (٦) اغاني ٢☆٥٢ (٧) هذا نجدهُ فيما دوّن الادباء من كلامهم ومحاوراتهم

كلامهم من الامثال الحكمية ما لا نجدهُ في كثير من أُمم العلم والحضارة . وهم اصح الناس ابدانًا (١) اذ ان الرياضة الجسدية موجودة في البادية غير مفقودة وطعامهم اللبن واللحم والتمر (٢) مما لا يجعل الى سقم المعدة سبيلاً والظعن كفيلٌ لهم بطيب الرياح التي لا تخبث الاَّ مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات (٣) . واكثرهم من صلابة الجسم وخفتهِ بحيث يلحق الخيل (٤) والحُمُر الوحشية عدوًا (٥) ولقد سمعتُ من يحدّث عن تابَّطَ شرًّا انهُ كان اذا جاع نظر في السهل الى الظباء فانتقى لنفسهِ اسمنها ثم يجري خلفهُ فلا يفوتهُ حتى يأخذهُ فيذبحهُ بسيفهِ (٦) . ووجدتهم يوفون بالقول (٧) من غير ان يكتبوا العهود (٨) ويأخذون بثارهم اخذًا شديدًا ينشأُ فيهم من بعدهم عن القضاء لانهم لو كانوا يعانون الاحكام لفسد البأس فيهم وذهبت المنعة منهم (٩) . ووجدتهم يضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على نفوسهم ولو كان النزلاء قتلة آبائهم (١٠) وكنتُ اسمع عن كرمهم احاديث لم اتلقَّاها من جانب الثقة فلما نزلتُ بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار ووجدتُ ان كلهم كريم حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدًا في الناس (١١) ومن زعم ان حاتم الطائي اكرم العرب فقد ظلمهم جميعًا . وظني بأخذهم في هذه الضيافة

---

(١) المقدمة ٧٧ (٢) المسعودي ١ * ٢٣٧ (٣) المقدمة ٣١٢
(٤) اغاني ١٢ * ٤٩ (٥) اغاني ١٧ * ٨٤ (٦) اغاني ١٨ * ٢١٠
(٧) اغاني ٤ * ٥٧ (٨) العقد الفريد (٩) المقدمة ١٠٩ (١٠) اتليدي ١٧
وكتاب الاغاني (١١) المحاضرة ٣ * ١٨١

الواجبة انهُ امرٌ طبيعيٌّ عندهم لان الراحل منهم قد يفوز في الفلوات اياماً طوالاً على جهدٍ من الجوع والعطش فاذا انتهى الى خباءٍ مضروب وراهُ اهلهُ بمكانهِ من المشقة واللغوب اقروهُ وعلفوا مطيتهُ واستوقدوا لهُ ناراً يصطلي بها من كَلَب البرد كما يقولون حتى اذا اصابهم في مسيرهم مثل هذا الجهد والعناء تلقَّاهم الناس على السعة من الضيافة . وكان ينتهي بهم الكرم الى ان يقوم لقبائلهم منادٍ في الاسواق ينادي بالناس هل من جائع فنطعمهُ او خائفٍ فنؤمّنهُ او راحل فنحملهُ وهذا احسن ما يكون من محاسن النفس الشريفة . وهذه المحامد كلها قد كانت فيهم منذ ازمان الجاهلية ثم كان لهم في مناقضتها امورٌ لا تطاق فلما نزل القرآن روّض منهم الاخلاق وصرف عنهم المكروه من العادات . . . والآن فان رجال الجاهلية قد كانوا يتزوَّجون بنساء آبائهم (١) ويألفون غير ذلك من الخشونة التي ذهبت بمجيء الاسلام بالهدى ودين الحقّ

انما اضطر العرب الى سكنى البادية لانهم وجدوا في ارض قفرة قد تراكبت عليها الرمال المحرقة وما كانت تنبت لهم حبًّا ولا بقلاً وكانت آبارهم تجفُّ في حمارَّة القيظ وتبخل بالماء على بُعد قعرها فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل ثم ان الله تعالى اوجد لهم الابل والسائمة فكانوا يرتادون المسارح لها ويتطلبون المرعى والكلإِ فكان

(١) اغاني ١ * ١٠

سكناهم في الوَبَر بما قدمنا من الاسباب امرًا طبيعيًّا ولو انهم نزلوا الامصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم [1] فضلاً عن كونهم يحسبون المدن محبسًا لا صبر لهم عليهِ لان الحرية عندهم من افضل ما منحهم الله وهم يبذلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لانفسهم. فانَّا لا نجد في احاديث النقلة انَّ امَّةً استعبدتهم في غابر الدهر قط فهذه الكلدان والسريان واليونان والرومان والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم الاَّ العربان وكان في نفس الاسكندر الرومي ان يدعوهم الى طاعتهِ بعد ان تمَّ لهُ الغلب على المشرق غير ان المنيَّة عاجلتهُ قبل الاقدام على هذا التغرير فرزق بهذا الموت سعادةً تامَّةً لسلامة غزاتهِ عن الاخفاق والاَّ فلو اقدم على العربان لما ثبت لهُ جندٌ عليهم وهم بمكانهم من اطلاق النفس على غير حصرٍ وحمل بيوتهم الى حيث يبيتون في أَمنٍ من العدو ولو كثر

ولقد لقيتُ من هولاء العربان فتىً عليهِ ملامح الذكاء والفطانة فذكرت لهُ ان في لقائهِ الملوك لخيرًا لهُ وسبيلاً الى نوال العلى فأَخبرني انهُ نزل على الزوراء لأَول ما بناها أَبو جعفر مقيمًا فيها ولكن لم يكن الاَّ القليل حتى ملَّ الحَضَر ومال بهِ الشوق الى البادية وانشدني وهو منصرف

لبيتٌ تخفق الارواح فيهِ أَحبُّ اليَّ من قصرٍ منيفِ

(١) المقدمة ١٠٥

ولبس عباءةٍ وتقرُّ عيني أَحبُّ اليَّ من لبس الشفوفِ

والابيات لفتاةٍ من بنات العرب صارت الى الحجَّاج بن يوسف ثم لم تطب نفسًا بالمقام عندهُ فرجعت الى البادية وانشأَت الابيات التي انشدنيها هذا الغلام [1] فسبحان من قسَّم المعايش بين الاجيال وركَّب فيهم طباعًا على اميال لا اله الاَّ هو ذو الاكرام والجلال

الانفصال عن البصرة

كان مقامي في البصرة شهرًا وثمانية ايام ولمَّا طويت بساط الاقامة تهيَّأَ لي ان اصعد على دجلة [2] سفرًا يخفف عني مشقَّة المركب على ظهور المطايا فدفعت حمولي الى الربَّان وانفصلتُ عن البصرة لاول هدْءٍ من الليل حتى اذا طلع النهار كنَّا في متوسط بطاحٍ مفروشة بالنخيل على مدّ البصر وفيها خيام لبطونٍ من شيبان [3] وتيم [4] قد ضربوها على مرتفعات من الارض. فلما كان بعد ايام طلعت علينا سموم يأْخذ حرها بالنَفَس [5] وكدنا ان ننكص على الاعقاب لاختلاف الريح فوقع رأْي الربَّان على ان ينزل الملاَّحون الى البرّ ويربطوا المركب بامراسٍ يجرونها بها الى ان يحصل الفرج. ومضى الليل كلهُ من غير ان تكتحل عينيَّ اغماضًا من شدَّة الحرّ الى ايام عشرةٍ لم نزل

(١) انليدي ٣٦ والوطواط ٣٢ (٢) الف ليلة وليلة (٣) تزيين الاسواق ٣ * ٧ (٤) اغاني ٩ * ٧٨ (٥) اغاني ٩ * ١٧٨

بها في مغالبة الريح ومقاساة عَنَتها الشديد الى ان وصلنا الى مدينة واسط من ارض كسكر[١]

هذه المدينة في فضاءٍ من الارض طيبة الاقليم والنسيم[٢] ولكن الحرّ غالب عليها لإقبال الرياح من جهة الرمال المتراكمة على هضابها[٣]. ومبانيها من الاحكام بمكان سامٍ ولا سيما القصر الذي ابتناهُ الحجاج امير العراق[٤] وهو باقٍ الى هذه الغاية[٥] في الجهة الغربية والناس يسمونهُ الخضراء[٦] ولهُ قبَّة مشهورة في مباني الاسلام وفيهِ احواضٌ كثيرة يرقى اليها ماء دجلة[٧] واعظمها حوضٌ من الرخام المجزَّع في مجلسٍ فسيح عليهِ سرير مذهب[٨] كان مقعداً للحجاج في مجالسهِ العامَّة . وهذا القصر بهجٌ[٩] مزخرفٌ بانواع الزينة لانَّ النفقة عليهِ بلغت نحواً من عشرين الف الف درهم[١٠] ولكنهُ سمج في عينيَّ بما ورد على خاطري عند مرآهُ من قبائح الحجاج فكانهُ بيتٌ قد رفعت جدرانهُ على دعائم الظلم والاعتساف

وبقيتُ في واسط ثلاثة ايام لاختلاف الريح ولكن على كرهٍ من النفس لاني كنت اراها بعين الماقتين[١١] لها ونزلت بها في فندق

---

(١) تقويم البلدان ٣٠٧ (٢) القزويني ٣٢٠ (٣) القزويني ٣٢٠
(٤) الاصطخري ٨٢ (٥) الشربشي ٢ * ٨٣ والمسعودي ٢ * ١٨٢
(٦) اغاني ١٧ * ٧٠ (٧) اغاني ١٧ * ٧٠ (٨) الابشيهيّ ١ * ٦٣
(٩) ياقوت ٤ * ٨٨٥ (١٠) ياقوت ٤ * ٨٨٧ (١١) التقاسيم ١١٨

على شاطئ النهر حيث الجسر[١] المقام من السفن[٢] وامامهُ ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوقٌ في ايام معلومة من السنة فيأتيها العربان بما يريدون بيعهُ من الخيل الاَّ الافراس التي يحتفظون عليها احتفاظ الآباء بالبنين[٣] فانهم لا يتخلَّون عنها بالقليل ولا بالكثير من المال واذا طلبتَ اليهم بيعها منك باغلى الاثمان فانت مردودٌ في سؤلك يقولون لك هذه خلاصنا من دهمات العدو واذا اطلقنا لها العنان طبقت الآفاق باسرع من لمح البصر

ولم تزل هذه السوق جاريةً في واسط منذ بُنِيت الى هذه الغاية لانها كانت في اول هذه المائة من أعمر العراق[٤] بما خصَّها الله من خصب التربة[٥] وكثرة الخيرات[٦]. فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ اربعين سنةً[٧] ونزلت بالناس السنون واخذتهم المجاعات اتى عليها الخراب والانحلال وتجافى الناس عن سكناها بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر الدولة الى ان تمَّ الغلب لبني العبَّاس واستقرَّ فيها السلم وكان عهد الطاعون بها بعيدًا فتسارع ارباب التجارة الى استيطانها لتوسطها في البلاد وما يتسنَّى لهم فيها من قرب المناولة والمواصلة اذ ان منها الى دار السلام خمسون فرسخًا ومنها الى

(١) التقاسيم ١١٨ (٢) تقويم البلدان ٣٠٧ والاصطخري ٨٢
(٣) تزيين الاسواق (٤) الفناوي ١٣٦ (٥) ابن حوقل ١٦٣
(٦) القرماني ٦ * ١٢٦ (٧) ابن الاثير ٥ * ٧١

البصرة خمسون ايضًا ومنها الى الاهواز مثل ذلك[1] وظني انها سُمّيت بواسط لهذا السبب من توسُّطها في العراق[2]

وقد اتَّفق قبل الانفصال عنها اني لقيتُ فيها شيخًا كان ابوهُ خادمًا عند الحجاج حاسبهُ الله فحدَّثني عن ظلمهِ وعسفهِ بما تتفطَّر لهُ الأفئدة رحمةً على اهل البيت واصحابهم[3] لانهُ كان يقتل منهم جزافًا على التهمة الى ان بلغ عدد الذين قتلهم صبرًا مايه الف وعشرين الفًا[4] وكان في السجن عند ما اهلكهُ الله اكثر من خمسين الفًا يرسفون في سلاسل الحديد ولا ذنب لهم الَّا انهم يعادون من عاداهُ الله. وكانت الناس لايامهِ اذا تلاقوا في المجالس والمجامع والمساجد والاسواق تساءلوا مَن قُتِل البارحة ومن صُلِب ومن جُلِد ومن قُطِّع[5] وانتهى بهِ الافحاش في الظلم الى ان يأمر الناس بحلق لحاهم ويعاقب المخالف لهُ بذلك بتسميرهِ في الحائط[6] فيموت جوعًا والمًا وهو لا يستطيع سبيلاً الى الحراك

وقد رسم لي هذا الشيخ صورتهُ بانهُ كان قويّ البنية متجسمًا الى السِمَن ولا يزال العرق متصببًا على جبينهِ وصدغيهِ من تحت قلنسوة قد احاطها بعمامة خضراء[7] وكانت لهُ مهابةٌ تقصم ظهر الوافد عليهِ حتى

---

(١) الشربشي ٢ * ٨٢ (٢) التقاسيم ١١٨ (٣) كتاب الفخري
(٤) اغاني ١٦ * ٨٩ (٥) المستطرف ١ * ١٢٨ (٦) ابن خلدون ٣ * ٤٢ (٧) العقد الفريد ٣ * ١١

انهُ لم يُرَ من الناس من انبسط معهُ في الكلام او تجرَّأ على ان يرفع اليهِ بصرهُ الاَّ الملوك والقواد ومن زهى من الامراء قدرهُ. وكان شديد التهويل في خطبهِ واذا صعد المنبر تلفَّع بمطرفهِ ثم تكلَّم رويدًا فلا يكاد يسمع حتى يتزايد في الكلام فيخرج يدهُ من مطرفهِ ثم يزجر الزجرة فيقرع بها اقصى مَنْ في المسجد[1]

قال وكان ابي يحدثني عنهُ انهُ كان يجد لذةً[2] في سفك الدماء[3] وارتكاب امورٍ لا يقدم عليها غيرهُ[4] ولا سبق اليها سواهُ حتى اذا ارسلهُ عبد الملك احدُ ملوك أُميَّة الى العراق كان اول ما خاطب بهِ اهل الكوفة ان قال اني والله لأَرى ابصارًا طامحةً واعناقًا متطاولةً ورؤُوسًا قد اينعت وحان قطافها واني انا صاحبها كأَني انظر الى الدماء ترقرق بين العمام واللحى[5]. فغلبهم بقوَّة الرجال لا بالسياسة والتحيُّل ولا سيما ان جنودهُ كانوا من الشام[6] وهم على غرض الامويين ومخالفون لاهل البيت فلما اوجدهم بين اعدائهم لم يرَ منهم الاَّ نفوسًا مستقتلةً وراجعةً الى رأْيهِ في كل امر ونهيٍ فحملهم على منازلة مكة وضربها بالنار ورمي الكعبة بالمنجنيق والعياذ بالله حتى تصدَّع جدار البيت الحرام. فاقام ملك أُميَّة على هذا الظلم وقوَّمهُ لهم

---

(١) العقد ٣ * ١٣ (٢) المسعودي ٢ * ١٠٣ (٣) الوطواط ٧٣
(٤) ابن خلكان ١ * ١٧٣ (٥) المسعودي ٢ * ١٠٤ وابو الفرج ٢٠٠ والعقد الفريد ٢ * ١٨٧ (٦) الكنز ٢٢٢

الى انقضاء اجلهم وذهاب الخلافة عنهم باذن الله

هذا نتفٌ يسير من اخبار هذا الظالم الغاشم وقد رأيت تناقل الحديث عنهُ في افواه الواسطيين كتناقل البصريين لهُ عن زياد بن ابيه وكلاهما قد اذاقهم من الهوان وانزل بهم من الجفاء ما لا يقدم عليهِ احدٌ من الجبابرة الظالمين. وإن يكن لهما فضلٌ في تدبير ما خُوِّلا من الولاية فان لزياد فضلاً في حسن السياسة وبلاغة الخطب اعظم من فضل الحجاج بن يوسف لان ولايتهُ ما قامت الاَّ بالجبروت القاهر والسيف الباتر

المرور على المدائن

وكان انفصالنا عن واسط في ليلٍ رطيب قد أنفتق سحابهُ عن القمر فقضينا جزءًا كبيرًا منهُ بالسمر ولما بدت تباشير الصباح كنا في محاذاة قصر يقال لهُ قصر الرمان [1] ومن حولهِ خيام مضروبة للعربان فوقع ذلك من نفسي موقع الاستعبار من الدنيا في نعيمها وشقائها اذ كانت الاضداد منها على هذا الوجه فلما يقع عليها النظر في وقتٍ واحد. وكان يلوح لنا في صَدر السهل الى آخر النهار بناءٌ عظيم أُخبِرتُ انهُ من جملة المناظر التي اقامها الحجَّاج بينهُ وبين قزوين وهي اذ ذاك آخر الثغور حتى اذا ظهر فيها الخوارج دخَّنت بالنهار

(١) ابن خلكان ١ * ٤٧١ وياقوت ٢ * ٨١٤

فدخّنت المناظر كلها او استوقدت بالليل نارًا فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك [١]. ولم نزل نخترق عباب دجلة يومًا بعد آخر حتى جزنا جَبُّل والنعمانية [٢] واقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر فرأينا على اليمنة من موضعنا بناء ذاهبًا في العنان أَخبرني الربان انهُ ايوان كسرى انوشروان [٣] فركبتُ البرّ مع جماعة الرُكبان لأُشاهد آثار ملوكنا [٤] من آل ساسان وما رفعوهُ في غابر الزمان فاذا البنيان في غاية العظم [٥] والاتقان طولهُ نحوٌ من مئة ذراع وعرضهُ نحو من نصف [٦] ذلك وقدّرت في ارتفاعهِ اكثر من ثمانين ذراعًا وسمك جدارهِ عشر اقدام وطول الآجرّ فيهِ ثلاثة اشبار في عرض شبر [٧] واسع. وليس في مباني الآجرّ ما هو أبهى [٨] ولا أَتم حسنًا منهُ [٩] وقلما يوجد فيهِ موضع غفلٌ من رسم او نقش او كتابة وهو يعدُّ من العجائب العظيمة [١٠] ويشهد لما اقتدر عليهِ الفرس [١١] في عهود الاكاسرة الذين جبوا معظم الدنيا حتى صار يضرب بهِ المثل [١٢] فيما جمع من الضخامة والإِحكام. ولا يُرى فيهِ اليوم من الآثار الجليلة الاَّ صور على جدرانهِ تمثّل آلهة جبابرة وسباعًا كاسرة ومشاهد حروب [١٣] يفوز بها كسرى الخير

(١) ياقوت ٤ * ٨٨٦ (٢) تقويم البلدان (٣) ابن جبير ٢١٧
(٤) القزويني ٤ ٣٠٤ (٥) ياقوت ١ * ٤٢٥ (٦) أبشيهيّ ٢ * ١٧٩
(٧) ياقوت ١ * ٤٢٥ (٨) ابن خرداذبة ١٢٢ (٩) الاصطخري ٨٦
(١٠) المحاضرة ١ * ٢ والمقريزي ١ * ٣١ (١١) المقدمة ١٥٤ (١٢) القناوي ١٢٥ (١٣) القزويني ٤ ٣٠٤

انوشروان[1] رب هذا القصر واما ما دون ذلك من التحف المنقولة فقد فقدت بعد الفتح وبلغ المحمول منهُ الى بيت المال الف الف دينار من الذهب[2]. وشأنهُ في الجملة من الفخامة والاتقان مما يحير الاذهان الثاقبة على ان الايام قد أَحالت عليهِ بمعول الفناءِ فلم يقوَ على رفعهِ بالطين. وزاد على ذلك كلهِ ان أبا جعفر لما ابتنى الزوراءَ حمل اليها من آجرهِ جانبًا[3] كبيرًا على بعد الشقَّة ووفر النفقة فعارضهُ خالد بن رمك رعاهُ الله وقال يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركهُ ماثلاً يُستَدلُّ بهِ على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك لأَهل هذا الايوان وفي ذلك فخر للاسلام والمسلمين. فاتهمهُ أبو جعفر في النصيحة وقال اخذتهُ النعرة للفرس وأبى الاَّ التعصب لقومهِ فوالله لأُصرعنَّهُ قريبًا. ثم شرع في هدمهِ واتخذ لهُ الفؤُوس وحماهُ بالنار وصبَّ عليهِ الخل حتى اذا ادركهُ العجز وخاف الفضيحة بعث الى خالد يستشيرهُ في التجافي عن الهدم. فقال يا أمير المؤمنين قد كنتُ أرى ان لا تهدم فاما اذ فعلتَ فاني ارى ان تستمر على ذلك لئلاَّ يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها المنصور واقصر عن هدمهِ[4] ولكن بعد ان قوَّض جانبًا من الأَثر

ولما وقفتُ بالايوان كانت الشمس لأَول طلوعها وكان الندى

(١) ياقوت ١ * ٤٢٧ (٢) المستطرف ٢ * ١٧٩ (٣) الاصطخري

(٤) المقدمة ٣٠٢ والفخري ١٨٥ والمستطرف ٢ * ١٧٩ وياقوت ١ * ٤٢٦

يتلألأ ما بين الجدران على الاعشاب التي تجنح اليها طيور الخراب فقعدت اتاملُ ما كان عليهِ ربُّ هذا القصر من العزَّة والقدر وكيف أخنى عليهِ الدهر فاخذتني لذلك عبرةٌ من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرتُ نظم شاعرٍ يقول هذه الابيات (١)

ايها الشامتُ المعيّر بالدهـــرِ أأنتَ المبرَّأُ الموفورُ
أم لديكَ العهدُ الوثيقُ من — الايَّام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ
من رأيتَ المنون خلّدنَ أم من ذا عليهِ من أن يضامَ خفيرُ
اين كسرى كسرى الملوك انو — شروان أم اين قبلهُ سابورُ
واخو الحضرِ اذ بناهُ واذ دجلةُ تجبى اليهِ والخابورُ
شادهُ مرمرًا وجلَّلهُ كلــسًا فللطيرِ في ذراهُ وكورُ
لم يهبهُ ريبُ المنون فباد الــملكُ عنهُ فبابهُ مهجورُ

وكان لمرائي هذه الآثار تأثير في خاطري لا يبرح منهُ الدهر وكان اقلاعنا عنها قُبيل الظُهر ونحن على ستة فراسخ (٢) من دار السلام. وقد فرغتُ من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من شهر رمضان ارانا الله بركتهُ بمنهِ وكرمهِ ونحن قد جزنا موضعًا يُعرَف بالنهردان (٣) وصرنا على مطلّ من أُم البلدان

---

(١) اغاني ٢*٣٦ (٢) ياقوت ٤*٤٤٧ (٣) ابن خلكان ١*١٩٦

الرسالة الثانية

المقامُ في دار السَّلَام

اتفق وصولي الى دار السَّلَام في عيد الفطر قبيل العتمة وهي تلتمع بالأَنوار ويتصاعد منها للمسبّحين بحمد الله والمقدّسين لهُ نغمات تأوّبها معهم ارجاء البلد . وتعذَّر المسير على مركبنا تجاه باب البصرة [1] أَو كاد لازدحام الزوارق المشتبكة في هذا المكان بين صاعدٍ ومنحدرٍ وهي مطليّة بأَبهى الاصباغ ومرصعة بالسرج والمشاعل حتى كأَنَّ دجلة مجرَّة السماء لكثرة ما عليهِ من الأَنوار الوقَّادة [2] . ثم تقدَّمت بنا المركب حتى وقفت بمقربةٍ من الجسر وعلى مطلّ من قصور الخلافة التي كانت تلتمع بضوء الشان [3] فركبت البرّ متجولاً في شوارع المدينة حيران [4] لما رأَيت من زخارف الزينة التي اتخذها قومٌ قد ركبوا مطايا الترَف وتجاروا في ميدان النعيم [5]

وكانت الساحات غاصةً بالناس واكثر ما في لباسهم السواد الفاحم تشبهًا بولاة الامر من آل هاشم [6] الذين اتخذوا السواد [7]

---

(١) يافوت (٢) كتاب الف ليلة وليلة (٣) اغاني ٤ * ١٨٩
(٤) فاكهة الخلفاء ٢٠٨ (٥) اغاني ١٧ * ٨٢ (٦) ابن جبير ٤٧ وابن عابدين ٥ * ٣٤٤ (٧) الماوردي ١٨٥ وابن جبير ٢٠٤ وابن خلكان ١ * ١١

في شعار الخلافة حزنًا على شهدائهم من اهل البيت ونعيًا على بني أُميَّة في قتلهم[١] . وعليهم بَدَل العمائم قلانس طوال[٢] مصنوعة من القَصَب والورق وملبسةٌ بالسواد ايضًا وبدل الدروع دراعيات[٣] مكتوب عليها بين كتفَي الرجل[٤] فسيكفيهم الله وهو السميع العليم[٥] وكان هذا الزيُّ مخصوصًا بجوزة ابي جعفر منذ ثلاث سنين[٦] ثم توسَّع عن الخواص حتى صار في عامَّة الناس

وقد اخذت في مسيري عن قطيعة عيسى الهاشمي الى محلَّةٍ يقال لها الميدان[٧] ومنها الى شارع ابي جعفر[٨] فوجدتهُ كاحسن ما يكون من الشوارع . ولهُ السيادة عليها بامرين الاوَّل وسعهُ[٩] الى اربعين ذراعًا وان كان يشاركهُ فيهِ غيرهُ والثاني طولهُ من دور الخلافة الى محلَّة باب الشام على استقامةٍ ليس بالامكان أَقوَم منها . فلما صرت فيهِ قابلتُ في دور الخلافة زينةً قد اتُّخِذَت فوق حنايا عظيمة تحمل قبَّةً علوها ثمانون ذراعًا[١٠] يقال لها القبَّة الخضراء[١١] وهي عَلَم الزوراء ومأثرة بني العبَّاس . ثم اني اقبلتُ فيهِ على مسجد حافل عليهِ ازدحام فملتُ اليهِ فاذا برجالٍ متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون

(١) المقدمة ٢٢٥ (٢) ابن الاثير ٥ * ٢٤٥ (٣) السيوطي
(٤) اغاني ٩ * ١٢١ و ٥ * ٩٥ (٥) سورة البقرة (٦) ابن الاثير ٥ * ٢٤٥ (٧) اغاني ٢٠ * ٦٦ والوطواط ١١٢ (٨) ابن خلكان ١ * ٣٠
(٩) ابن الاثير ٥ * ٢٢٢ وابن خلدون ٣ * ١٩٧ (١٠) القزويني ٢٠٩
(١١) المسعودي ٢ * ١٨٣

ممرًّا بين جموعهم ووراءهم رجل طويل اسمر[١] نحيف خفيف العارضين معرَّق الوجه[٢] ناطق العينين عليهِ ثياب سود وقلنسوة[٣] مطوَّقة بوَبَر اسود من الاوبار الغالية الثمن وفي وجههِ مهابة الملوك[٤] وجلالتهم فعرفت انهُ ابو جعفر امير المؤمنين على غير ما دلَّت عليهِ حاشيتهُ اذ الشمسُ لا تخفى وان سُتِرَت. ثم لم أَزل اتبعهُ بالعين[٥] حتى توارى بين الجموع وركب بغلة[٦] عليها حليةٌ خفيفة من الفضة[٧] وكان لجامها في يد امير مقدم في دور الخلافة

ثم اني دخلت المسجد وقد غصَّ باهلهِ وشرق بحفلهِ فاذا على منبرهِ خطيب ذو شقشقةٍ يقال لهُ الحجَّاج بن أَرطاة وقد كان ولي القضاء[٨] لابي جعفر على بعض الاعمال فوجدت قِبلَهُ من العلم ما يتعذَّر وجود مثلهِ في صدور الرجال ذلك[٩] ان كان بقربةٍ منهُ قرَّاءٌ سبعةٌ يتلون الآيات من القرآن الكريم الى مئة آيةٍ من مواضع متفرّقة وسور مختلفات فلما فرغوا من تلاوتهم تطيَّرت اليهِ رقع في مسائل الفقه فاجاب عنها بكلام اقطع من المرهف وحدَّث عن البحر في بُعد الغور وقرب المغترَف. وعهدي بن لقيتهُ من الخطباء انهم ما سمعتهم الَّا وتمنَّيت ان يسكتوا مخافة ان يخطئوا ما عدا هذا

(١) العقد الفريد ٥ * ٥٢ (٢) الخميس ٢ * ٣٢٤ (٣) ابن عون (٤) الفخريّ ١٨٦ والدميري ١ * ٩٤ (٥) الخميس ٢ * ٣٢٤ (٦) ابن خلدون ٣ * ١٨٥ (٧) المقدمة ١٤ (٨) العقد الفريد ٣ * ٥٢ (٩) ابن جبير ٢٢٤

الشيخ في جوابهِ على هذه الرقع . ولمّا فرغ منها اندفع يخطب في تفسير كتاب الله وإيراد الاحاديث [١] عن النبي صلّى الله عليهِ وسلّم الى ان أخذ في سرد الآي المقروءات وهو يأتي بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى الى آخر آية وهي قولهُ تعالى في بيوت أَذن الله ان ترفع الآية [٢] فانتظم خطبةً يذكر بها المسلمين وقافية كلامها الألف اللينة واللام ترداداً لموقف الآصال من الآية حتى ارسلت العيون لخشية الله عبراتها

ولمّا كان الغد بكرت الى لسان الشريعة ابي يوسف ومنزلهُ على نهر عيسى [٣] في قنطرة الزياتين [٤] بمقربة من دور الخلافة فتلقّاني بالقبول والاكرام وأبى الّا ضيافتي عندهُ على الرحب والسعة وقد طيّب لي سكنى الزوراء وأمّلني بالحصول على ما ارتجيهِ من خدمة الدولة لان الفرس لايعدمون محلاً في مناصبها [٥] والوزارة في يد خالد بن برمك من ملوكنا وانا اليوم مقيم عندهُ اتخرّج في الفقه عليهِ وقد وجدتُ عندهُ من العقل ما خُيّل لي ان الحكمة حَشوُ ثيابهِ رفع الله قدرهُ وسموّهُ وحقّق من الخير أَملهُ ومرجوّهُ

---

(١) الانس الجليل ١ ٭ ٢٩٥ (٢) سورة النور (٣) ابن حوقل ١٦٥ وابن خلكان ١ ٭ ٢٨٢ (٤) ابن خلكان ١ ٭ ١٠١ واغاني ٣ ٭ ١٨٢

(٥) السيوطي

الكلام عن الزوراء

ولقد اكبرتُ من الزوراء رواج سوقها بالتجارة [١] واشتباك ارضها بالعمارة في مدَّة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران [٢] ما لا يكون في مدينةٍ بُنِيَت من قديم الزمان ووجدتها من لطف الهواء [٣] وطيب الاقليم [٤] على ما ليس اجود منهُ في مدن العراق. وفيها ما تشتهي الانفس وتلذّ الاعين واسواقها في نهاية من الاحتفال قد جمعت [٥] بالكرخ اخلاطاً من التجار [٦] الاَّ سوق الصاغة منها فانهُ منفردٌ بالفرس وقد بلغوا من الاجادة في صناعتهم بحيث يرصعون الزجاج بالجوهر [٧] ويصنعون للملوك اقداحاً [٨] تقيّد الابصار حسناً واشراقاً ويتخذون على الجامات صوراً يحكمون صناعتها الى مقاربة الحقائق رأَيتُ من ذلك جاماً قد صُوّرت عليهِ طيور تطير ومن فوقها عقاب ينقضُّ عليها وهي تهوي في الفضاء وتعالج بنفسها للخلاص منهُ [٩] ولكن بحقيقةٍ تملك النفس وتستوقف الطرف. والى طرف هذا السوق ممَّا يلي سويقة غالب [١٠] جماعةٌ من العمَلَة والبنَّائين يرفعون الدكاكين ليتحوَّل اليها أَرباب التجارة كما وقع في

(١) كتاب الف ليلة وليلة (٢) التفاسيم ١٢٠ (٣) الفرماني ٥ * ١٥٤ (٤) التفاسيم ١١٩ والقزويني ٢٠٨ (٥) الاصطخريُّ ٨٤ (٦) اغاني ٩ * ٣٢ و ١٨ * ٦ (٧) الف ليلة وليلة ١ * ١١٦ (٨) اغاني ٤ * ١٨٩ (٩) اغاني ٣ * ٢٧ (١٠) ابن خلكان ١ * ٢٤

نفس ابي جعفر وقد امر بتحويل الاسواق كلها الى الكرخ[١] ليبعد اخلاط الناس عن جواره

اما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعها[٢] ومثال ما بنت الروم في الشام. وهي مجلّلة كلسًا ومرفوعة على طابقين[٣] ومبنيٌّ بالاجرّ ما ارتفع منها عن الارض وبالحجر ما يماسها او يقرب منها دفعًا للماء في اوان السيل[٤] ان يبلغ الطين ويتمكن منهُ. ومنهم من يقوّي الآجُور بالقصباء والحلفاء[٥] ويغمسهُ بالجص حتى يصير يابسًا وتكون لهُ رنّة كرنّة الحجر الصلد اذا صُلصِل. وليس لدور العوام اسوار تحيط بها وانما طاقاتها مطلّة على الشوارع[٦] واذا ما ارتفع المارُّ على حجر او على دابةٍ تيسّر لهُ ان ينظر الى مقاصيرها[٧]. واما دور المتمولين واهل النعمة فانها ثلاثة اقسام يجمعها سور واحد وهي مقاصير الحرم[٨] وحجرات الخدم ومجلس السلام[٩] وهي بمكان من الزينة وفي وسط دورها جنان يزرع فيها البقل والرياحين والرمان وغير ذلك. وعلى جدرانها وسقوفها نقوشٌ[١٠] في رسمٍ ملوَّن او فسيفساء ذهب[١١] وعلى دائر الابواب

(١) ابن الاثير ٦ * ٥ (٢) المقدمة ٣١٢ (٣) اغاني ٣ * ٣١ و ٣ * ٧٣ (٤) اغاني ٩ * ١٤٤ (٥) ابن خلدون ٣ * ١٩٧ (٦) اغاني ١٧ * ٤٩ (٧) اغاني ٥ * ٣٨ (٨) اغاني ١ * ٥٩ (٩) الابديهيّ ٢٣٦ (١٠) المقدمة ٣٥٦ (١١) المقدمة ١٥١

كتابة يتخذونها من الزجاج[1] المقطَّع ويحوطونها بخشبٍ اسود من الابنوس وغيره ويعلقون عليها رسوماً من النحاس تمثّل غصوناً واثماراً وازهاراً فتمتلئ العين ارتياحاً من النظر الى اشراقها. ويعجبني من جمال مبانيهم ما يتخذون لها من حسن الخارج ايضاً فان القباب التي يرفعونها في اعلى السطوح على عمُدٍ دقيقة ليُخيَّل للرائي اليها انها لا تستند على شيء وكانما هي معلقة في الهواء

ولما كان الحرّ يشتدُّ وهجهُ في الزوراء وكان افتقار اهلها الى رطوبة الماء افتقار النفس الى الهواء قلّ ان يخلو سوق من اسواقهم او بنايةٌ من مبانيهم من سقايةٍ[2] يساق[3] اليها ماء دجلة. ولذلك لا يسير الرجل فيها الاَّ محفوفاً بالشجر المزهر والرياحين[4] التي يتناشد الشعراء ابياتهم في وصفها. وهذا دليلٌ على ان الزوراء كلها ماء ونماء ولاهلها في اقامة الاحواض عنايةٌ خاصةٌ. فيرفعون عليها عمداً من الرخام ويعقدون من فوقها قباباً مغشاة بالآيات الموسومة بماء الذهب[5]. فتوسعوا من اتخاذها للضرورة الى المغالاة بزينتها على سبيل الترَف والترفه. واذا اشتدَّ عليهم الحرُّ عن ان يطاق اتخذوا اسراباً تحت الارض واقاموا فيها بالنهار ليكسروا فيها الحر كما يقولون[6] وقد رايتها في كثير من بيوت العامَّة ايضاً

(١) القزويني ١٢٧ (٢) كتاب الف ليلة وليلة والاتليدي ١٤٧ و ١٤٩ واغاني ٥ * ٢٠ (٣) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ (٤) ياقوت ١ * ٦٨٧ (٥) اتليدي ٢٢٦ (٦) ابن خلكان

ولقد عظمت عناية ابي جعفر بهذه المدينة حتى انهُ أنفق عليها نحواً من اربعة آلاف الف دينار[١] في بناء السورين اللذين يحيطان بها[٢] والمسجد ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق ابواب السور الخارجي من طاقاتها المعقودة وهي اربعة[٣] اولها[٤] باب خراسان[٥] ويسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان والثاني باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة والثالث باب الشام والرابع باب البصرة[٦]. وحمل اليها ابوابها من واسط والكوفة والشام[٧] على بُعدِ الشُّقَّة والمشقّة. واتخذ الابواب الداخلة مزورَّةً عن الابواب الخارجة[٨] فسمّيت المدينة بالزوراء لذلك لا من حيث وجود اسمها مسطوراً في كتاب الراهب الذي فاوضهُ ابو جعفر في بنائها[٩] كما يزعم كثيرٌ من اهل الجهالة.

ثم ان تناهي جمالها بما كان من احتفال الامراء اليها وعنايتهم في تزيينها بالمباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والاشراق ولا سيَّما ما كان من المساجد فانها الكثيرُ في الزوراء اتيت منها على زيارة مسجد عبد الله بن حرب في الحربية[١٠] ومسجد آل قحطبة في شارع المحرم[١١]

(١) التقاسيم ١٢١ والقناوي ١٢٥ و ياقوت ١ ☆ ٦٨٣ (٢) ابو الفرج ٢١٩ (٣) التقاسيم ١٢١ (٤) المسعودي ٢ ☆ ٢٨٧ (٥) ياقوت ٤ ☆ ١٤١ (٦) المسعودي ٢ ☆ ١٨٣ (٧) ابن الاثير ٥ ☆ ٢٢١ (٨) تقويم ٣٠٣ (٩) ياقوت ١ ☆ ٦٨١ (١٠) ابن خلكان ١ ☆ ٢٣ وياقوت ٨ ☆ ٤ ٥٨٦ والمسعودي ٢ ☆ ٢٨٨ (١١) اغاني ٥ ☆ ١٢٦

ومسجد الخيزران زوج وليّ العهد في الخيزرانية[1] وهو فائق الحسن وصحنهُ من حجارةٍ سودٍ شديدة البصيص تصف الاشخاص كالمرآة. وعلى جدرانهِ صور تفافيح وثمار وغصون تخيّل الموافد على المسجد انهُ بين شجر زاهٍ زاهر في روض باهٍ باهر ورأيت العملَة قد تقلدوا فيها رسوم الاعاجم على انسجتهم حتى جاءَت الحجارة توهم الرائي انها بسط[2] حمِلَت من طبرستان ولا فرق بينها الاَّ فرق ما بين الصوف والحجر. وليس في مساجد الزوراء مثلهُ في البهاء الاَّ مسجد بناهُ ابو جعفر في شارع دُجيل[3] ممَّا يلي باب الانبار[4] والمسجد الجامع[5] الذي بجوار دور الخلافة

النصرانيَّة في الاسلام

وقد جمعت الزوراء اخلاطاً من الامم على اختلاف الاجيال وتباعد المشارب والانحال ولكن اهل الشام منهم اعرقهم في الحضارة[6] لانهم ادركوا آخر الاموية وقد انبسط النعيم في مدينتهم وبلغت من الرخاء والسعة ما لم تبلغهُ مدينة في ذلك العهد قط. وقد صار اليهم من ابي العبَّاس مالٌ كثيرٌ على وجه السياسة حين

---

(١) ابن الاثير (٢) ابن جُبير ٢٧٩ (٣) ابن خلكان ١ * ٤٩٨
(٤) المستطرف ١ * ٢٨٩ (٥) الأصطخريّ ٨٤ (٦) انليدي ١٢١
والمستطرف ١ * ٨٤

قارع مروان بن محمد على الخلافة حتى اذا تمَّ لهُ الغلب عليهِ بالغ في عطاء من انضوى منهم اليهِ وفرَّق فيهم الاموال[1] التي كان يتقلَّب فيها صبية الامويين

اما أُمم النصرانية فان عليهم بعض التضييق في الزوراء وسائر العراق لان المسلمين اتخذوها مقرًّا لدولتهم فعمدوا فيها الى اذلال الخارجين عنها كما انهم اتخذوا الحجاز ومكة والمدينة مقرًّا لدينهم فنعوا الملحدين فيهِ والمارقين منهُ من المقام[2] فيها . واما الشام ومصر وغيرها من البلدان التي لم تكن مهدًا للاسلام وانما هي لهُ اطراف مملكةٍ فاكتفوا بمصالحتها على الجزية[3] وتركوا الناس على دينهم

ومع ان النصرانية قديمة عهدٍ بالحضارة فاني رأَيت من مكارم اهل الاسلام ما لم أَرهُ في امها قط ولا نرو فان العهود التي كتبوها على انفسهم والطرق التي سلكها المسلمون في معاملتهم تقضي بانهم لا يستعملون على الولايات[4] والامارات ولا يتخذ منهم اولياء[5] ولا يتشبهون بالمسلمين في زيٍّ ولا لباس ولا يلبسون العمائم والطيلسانات وانهم يتخذون الزنانير في اوساطهم ويجعلون الحمرة على قلانسهم[6] ولا يتصدرون في المجالس[7] ولا يبدأُون بالسلام والكلام ولا يُسلَّم عليهم بسلام المؤمنين[8] ولا يعزُّون مسلمًا في مأْتمٍ[9] ولا يشاركونهُ في فرحٍ ولا

(١) الفخري (٢) المستطرف ١ * ١٢٨ (٣) الواقدي
(٤) الماوردي (٥) الشرع (٦) المستطرف ١ * ١٢٦ (٧) الانس الجليل ١ * ٢٢٥ (٨) اغاني ٢ * ١٧٢ (٩) العقد الفريد ٢ * ٤٢

ينزلون عندهم جاسوساً ولا يدلُّون على عورة المسلمين ولا يدعون احداً الى شرعهم [1] ولا ولا الى آخر العهود التي اخذها عليهم عمر بن الخطاب رضه

وانهم مع ذلك كلهِ لعلى اوسع مما كانوا عليهِ في صدر الاسلام لانهم كانوا يمنعون من حمل السلاح والمطاولة على المسلمين في بنائهم [2] وركوب المطايا في الازقّة اللهمَّ الاَّ من عجز منهم عن المسير واذا ركبوا كانوا يركبون في شقٍّ اي ان تكون رجلاهم من ناحيةٍ واحدةٍ [3] وكانوا يُلجأُون الى اضيق الطرق في مسيرهم بما يراد منهُ التحقير والإذلال. لم يزل امرهم على ذلك حتى وقعت الخلافة في بني أُميَّة فازالوا عنهم من المعاملة لهم ما بهِ ذلَّة عليهم الاَّ اقصاءهم عن الإمارات والتزام زيّهم [4] حيثما كانوا لتمييزهم عن المسلمين فانهم استبدلوا ذلك بتقريبهم اليهم واتخاذ ندمائهم [5] منهم على غصص من قلوب الذين يملون في تحقيرهم الى رفض سلامهم وكلامهم [6] في معرض الاحكام وغيرهِ

ولمَّا نشأَت دولة العبَّاسيين قرَّبهم ابو جعفر في طلب الهاربين من بني أُميَّة فاخلصوا لهُ خدمتهم في ذلك واخذوا منهُ كثيراً من مال المسلمين على سبيل الجعل حتى ارتفعت حالهم في الدولة ورُفع

(١) المستطرف ١ * ١٢٦ (٢) المستطرف ١ * ١٢٨ (٣) ابن عابدين ٣ * ٤٢٣ (٤) المحاضرة ١ * ٦٨ (٥) اغاني ٦ * ١٥١ (٦) المستطرف ١ * ٢٠٢

عنهم الجفاء الذي كانوا بهِ في صدر الاسلام. وهذه كانت من بعض سياسة أبي جعفر لتمام الغلب على الامويين بان سرَّح النصارى في طلبهم دون احد من المسلمين الاَّ من تبيَّن فيهِ الامانة خوفًا من تعرُّضهِ معهم او ميلهِ مع اهل البيت. على ان الاسلام لم يمس بضررٍ من هذه السياسة بل ربما عاد عليهِ منها بعض العوائد لانها كانت مدعاةً لائتلاف الصدور ومصرفةً للفتن عن الصدور وذريعةً الى تأييد الاسلام بمشاركة اهل الادب من النصارى في بعض اعمالهِ وسياساتهِ فقد طالما كانوا من حملة العلم وطالما ظهر لهم من الاطباء النطاسيين والشعراء المجيدين والخطباء المقدمين والمنجمين والراصدين. وهذا[1] قسّ بن ساعدة وامرؤ القيس وحاتم الطائي والبرَّاق بن روحان وابو زُبيد[2] وعدي بن زيد[3] وأُميَّة بن ابي الصلت قد انتهت اليهم بلاغة الشعر والخطابة. لم يزل شأنهم كذلك والعلم يتفجَّر من جوانبهم الى ان تمَّ الاسلام فخمل ذكرهم في المشرق على خمول دولتهم اذ انقطع عهدهم بمحاضرة اهل العلم من المسلمين وكانت منزلتهم من الذل ما رأيت في العهود التي كتبوها لعمر بن الخطاب ليبذل لهم الامان فلما قرَّبهم الامويون واوسعوا لهم في مجالسهم ظهر فضلهم في العلم ونبغ القطاميّ والاخطل وغيرهما[4] في الشعر

(١) كتاب الاغاني (٢) اغاني ١١ ✩ ٢٣ (٣) ابن خلكان ١ ✩ ٩٣
(٤) كتاب الاغاني

وفضلوا المسلمين فيهِ حتى قال حمّاد الراوية حين سُئل عن الاخطل ما تسأَلونني عن رجلٍ حبّب اليَّ شعرهُ النصرانية[1] . ونبغ غيرهم كثير في فنون الرسم والنقش والتصوير والهندسة حتى اذا ابتنى الوليد جامعهُ في دمشق وجّه رسلهُ في طلبهم من الروم وغيرهم وكذلك لما بنى ابو جعفر مدينتهُ استقدم منهم ما ينيف عن خمسين الفًا من الصنّاع[2] وفي هذا القدر كفاية لما نروم اثباتهُ من انهم يزينون الدولة بما عندهم من الادب والصناعة

وربما وقع في نفس الجاهل ان الاسلام قد ذهبت محاسنهُ وتداعت احوالهُ الى الانحلال اذ لم يبقَ على أُمم النصرانية تضييق شديد كما وقع عليها في صدر الدولة. فهذا قصورٌ واعياءٌ لان الخلفاء الراشدين[3] رضي الله عنهم لم يأْخذوا النصرانية بالشدّة الاّ لتتمكّن قوّة الاسلام من البلاد والعباد. فلما استفحل منهُ المُلك لم يبقَ ثمَّت حاجة من هذا التضييق الذي ريمَ بهِ ذل النصرانية لتعظيم موضعهِ من السلطان. وعندي ان الامم المقهورة كلما عظم شأْنها وزهى قدرها زاد ذلك في عظمة الدولة القاهرة لها فأَجلُّ اقدر المسلمين ان يقال انهم تغلّبوا على أُمةٍ رسخت منها العلوم والصنائع من ان يقال انهم تغلّبوا على أُمم طمس عليها الجهل والخشونة

(١) اغاني (٢) المسعودي ٢ * ١٩٤ (٣) الانس الجليل ١ * ٢٢٦

تقرّبي من رجال الدولة

وقد لقيتُ في الزوراء جماعةً من الامراء المقدمين في الدولة وخصصت نفسي الى خدمة خالد بن برمك منهم وملازمة بابهِ اذ كان صاحب فضلٍ وجميل ومروَّةٍ وعفاف. وتقرَّبتُ بكفالتهِ الى معن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم المهلّبي وهما من اعظم رجال الدولة بعدهُ. وكنتُ الى آل المهلَّب اشدَّ تقرُّبًا مني الى آل زائدة وان كانوا جميعًا على خلاف غرضنا من الميل الى اهل البيت والقول بخلافتهم. الاَّ ان معنًا كان على مخالفة البرامكة والبغض لهم من حيث تقدمهم في مراتب الدولة وهم اغراب عن العرب. وذلك لم يكن في آل المهلَّب انما كانوا مع البرامكة على خلطةٍ ومودةٍ واتصال

واقرب الامراء مكانًا الى ابي جعفر هو خالد البرمكي[1] وهو الذي قام بنقل الدعوة في خراسان من قبل ابي مسلم الخراساني. وهو من اولاد لم يبلغ احدٌ مبلغهُ في رأيهِ وعلمهِ وبأسهِ وجودهِ[2] وجميع خلالهِ. والمنصور لا يبرم امرًا الاَّ بمشورتهِ ولا يركن في اتماله الى غيرهِ من المقرَّبين اليهِ اللهمَّ الاَّ في سياستهِ مع العلويين فانها مجراة على البغض لهم والجور عليهم[3] وخالد ميَّال اليهم منذ اخذ في الدعوة الامامية في خراسان وهي اذ ذاك لهم وللعبَّاسيين معًا. فلما

(١) الفخريّ (٢) ابن خلكان ١ ص ٢٦١ (٣) الفخري

افردها ابو جعفر بالعباسيَّة واوجد الفرقة بينها وبين العلويَّة بقي على غرضهم من السياسة وما تولَّى عليهِ طمع الذين يتبعون الزمان ويتقربون الى الملوك في ثوب المدالسة والبهتان

اما المهلَّبيون فانهم من عظماء العرب واهل الحلّ والعقد في مبايعة الخلفاء وقد كانوا وآل قحطبة من القواد الذين قاموا بنقل الدعوة في خراسان ثم انفردوا بعد الفرقة الى غرض العبَّاسيين فقدَّمهم ابو جعفر من هذا الوجه وصارت اليهم مراتب الدولة[١] وتزاحم الملوك على ابوابهم وقصدهم الشعراء بالقصائد[٢] التي تعظم عن ان تقال في الخلفاء انفسهم كقول المغيرة بن حبناء بعد ان وصفهم بالجود[٣]

امسى العبادُ لعمري لا غياث لهم   الاَّ المهلَّب بعد الله والمطرُ
هذا يذود ويحمي عن ذمارهم   وذا يعيشُ بهِ الانعام والشجرُ[٤]

ورأيتهم على رأي واحدٍ في السياسة ووفاقٍ يجرون بهِ على وصيَّة ابيهم اليهم وقد ضرب لهم مثل السهام التي تكسر متفرقةً فاذا اجتمعت لم يبقَ الى كسرها من سبيل[٥]. وان اجتماع الرأي ليحسن ان يكون في بيوت الامراء على ان لا يتغرضوا مع الظالمين ولا ينكروا على اهل البيت ما اوجب النبي لهم من الخلافة على أُمَّتهِ

(١) اغاني ٦ * ٥٥ (٢) ابو الفداء ١ * ٢١٢ والوطواط ٢٤٨ وابن الاثير ٥ * ٩ (٣) الوطواط ٢٤٨ وابن الاثير ٥ * ٩ (٤) ابن نباتة واغاني ١١ * ١٦٣ (٥) ابو الفداء ١ * ٢٠٨

واما معن فانهُ امير شيبان كلهم. وشيبان من بيوتات العرب في قريش وهم اربعة بيوت بعد بيت هاشم بن عبد مناف وهي بيت قيس وبيت تميم وبيت شيبان وبيت اليمن [1]. وكان على مخالفة العبَّاسيين لأَول ظهور دعاتهم وأَبلى مع يزيد بن عمر بن هبيرة بلاءً حسنًا [2]. فلما تمَّ عليهِ الغلب طلبهُ ابو جعفر طلبًا شديدًا وجعل لمن يأْتيهِ بهِ مالاً جزيلاً فلم يظفر بهِ لانهُ كان مختفيًا في العراق او مقيمًا في البادية كما يقال [3]

(١) اغاني ١٧ * ١٠٥ (٢) اغاني ٩ * ٤٤

(٣) قد وقع لمعن ايام كان يطلبهُ ابو جعفر ظريفةٌ احببت ان اذكرها ههنا لنكتةٍ ذات فكاهة تدلُّ على كرم العرب وأَنفة نفوسهم. والكلام فيها لمعنٍ وهو يحدّث ندمانهُ ويقول: كنت قد اضطررتُ لشدَّة الطلب الى ان أُقيم في الشمس حتى لوَّحت وجهي وخفَّفت عارضيَّ ولحيتي. فلبستُ جبَّة صوف عربضةً وركبت جملاً من الجمال النقَّالة لامضي الى البادية فأُقيم بها. فلما خرجت من باب حرب تبعني اسود متقلّد سيفًا حتى اذا غبت عن الحَرَس قبض على خطام بعيري فاناخهُ وقبض عليَّ فقلت لهُ. مالك قال انت طلبة امير المؤْمنين. فقلتُ ومن انا حتى يطلبني السلطان. قال انت معن بن زائدة. قلت ياهذا اتَّقِ الله اين انا من معن قال دَعْ عنك هذا فانا واللهِ لأَعرف بهِ منك. قلت فان كانت القصة كما تقول فهذا جوهرٌ حملتهُ معي يفي باضعاف ما بذلهُ امير المؤْمنين لمن جاءهُ بي فخذهُ ولا تسفك دمي. قال هاتهِ فاخرجتهُ اليهِ فنظر اليهِ ساعةً وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنهِ ولست قابلهُ حتى أَسأَلك عن شيءٍ فان صدقتني اطلقتك فقلتُ قُلْ. قال ان الناس قد وصفوك بالجود فاخبرني هل وهبت قط مالكَ كلهُ قلت لا قال فنصفهُ قلت لا قال فثلثهُ فربعهُ فخمسهُ حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت اظن اني قد فعلتُ هذا. فقال ما اراك قد فعلتهُ. انا واللهِ راجلٌ ورزقي من امير المؤْمنين

ثم انهُ رجع الى الهاشمية ووافق يوم وصولهِ قيام الراوندية[1] على ابي جعفر في الاسواق وقد قاتلوهُ الى ان ضاق بهِ الخناق. فاستفزتهُ المروءة الى نجدتهِ فقاتل عدوَّهُ ومزَّق لفيفهم[2] فطاب ابو جعفر نفسًا بذلك وأمَّنهُ واكرمهُ وولَّاهُ اليمن والعراق

وقد اجتمعت في معن جميع خلال العرب الموصوفة الَّا انهُ غلب عليهِ الجود[3] مقرونًا بحلمٍ[4] يتحيَّر اللسان في نعتهِ فقد علمنا عن أُناس تقدموا اليهِ بالسوء[5] فوصلهم بصلات اوقعت الحديث في الافواه عن كرمهِ[6] حتى صار الشعراء يضربون اليهِ اكباد الابل من كل فجٍّ عميق ويعلقون بالاسواق ابياتهم بما هو خليقٌ بهِ من

عشرون درهمًا في الشهر وهذا الجوهر قيمتهُ عشرة آلاف دينار وقد وهبتهُ لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس لتعلم ان في الدنيا من هو اجود منك فلا تعجبك نفسك واحتقر بعد هذا كل شيء تفعلهُ ولا تتوقف عن مكرمةٍ قط. ثم رمى العقد في حجري وترك خطام البعير وانصرف. فقلتُ ياهذا واللهِ قد فضحتني ولسفك دمي اهون عليَّ مما فعلت فخذ ما دفعت اليك فاني عنهُ لغنيٌّ. فضحك ثم قال اردت ان تكذبني في مقالي واللهِ لا آخذهُ ولا آخذ بمعروفٍ ثمنًا ومضى فواللهِ لقد طلبتهُ بعد ان أُمّنتُ وبذلت لمن يجيء بهِ ما شاء فما عرفت لهُ خبرًا وكأن الارض ابتلعتهُ (ابن خلكان ٢ * ١٦٠ واغاني ٩ * ٤٢ وعجائب المخلوقات ٩ ٣٠٩)

(١) ابن خلدون ٣ * ١٩٧ (٢) الطبريّ وبن الاثير ٥ * ٣٠٢ والفخري ٨٩ وغيرهم (٣) اغاني ٩ * ٤٤ وخلكان ٢ * ١٦٠ والمستطرف ١ * ٧٣ والمسعودي ٢ * ١٨٣ (٤) الوطواط ٢٤٨ (٥) الابليدي ١٩٤

(٦) المستطرف ١ * ١٩٤

الثناء وقد وقع لبعض العربان ممَّن لم يأْذن لهُ الحجاب بالدخول عليهِ رفعًا لمقام حضرتهِ من ان يجلس اليها السوقة ان يرمي برقعتهِ الى البستان حين نزولهِ اليهِ وقد كتب فيها [١]

أيا جودَ معنٍ ناجِ معنًا بحاجتي فليس الى معنٍ سواكَ سبيلُ

فلما قرأَها معنٌ اخذتهُ نخوة العرب فبادر اليهِ بالجميل وامر لهُ ببدر المال وتخوت الثياب والمراكب المزينة ولم يزل في مواصلة صلاتهِ حتى خاف الاعرابي ان يلحقهُ الندم على ما اعطاهُ فيسترجعهُ منهُ فركب الى البادية في احمال المال. فلما علم معنٌ بذلك قال هممتُ واللهِ ان أُفرغ عليهِ نعمتي حتى لا يبقى في بيت مالي دينار ولا درهم الاَّ اعطيتهُ لهُ [٢]

وقد دخلتُ على معنٍ مرةً واحدةً فأَصبتهُ في مجلسهِ العام بين حرسٍ على رأسهِ [٣] وحفدة بين يديهِ [٤] وفي حضرتهِ جماعة من الادباء الندمان قد اجروا الحديث عن الشيعة في خراسان. فوجدتهم يتناقلون الرواية عنها من غير تمحيص ولا نقد وقد ضلَّ عنهم سرُّ السياسة فيها الاَّ علي بن الخليل [٥] وهو مولًى لمعن حسن المجالسة والرأْي ومحمد بن الحسن الشيباني وهو متوقد الذكاء فصيح اللسان اذا تكلَّم خُيّل لسامعهِ ان القرآن ينزل بلغتهِ [٦] . وكلاهما قد

(١) انليدي ١٩٠ والوطواط ٢٦٠ وعجائب المخلوقات ٣٠٨ (٢) انليدي ١٩٠ (٣) المستطرف ٢ * ٢٠٩ (٤) انليدي ١٩٠ (٥) اغاني ١٣ * ١٤ (٦) ابو الفداء ٢ * ١٩ والخميس ٢ * ٣٢٣ وابن خلكان ١ * ٦٤٧

رأى ان السبب في نكبة ابي مسلم هو ميلهُ الى اهل البيت دون غيرها من الادباء الذين لا ينتقدون الكلام. فاني لم يتحقق لديَّ فيما يذكرون [1] ان ابا جعفر نكب بهِ لما كان من سبقهِ اياهُ الى الحج ولا لادعائهِ انهُ من ولد العباس ولا لتصدير اسمهِ قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها اليهِ [2] ولا لافراطهِ في القتل كما يزعم ضعفاء العقول لان المنصور غنيٌّ بما عندهُ من العقل والسياسة عن ان يُذَكَّر بان الدول لا تقوم ولا تستقيم الاَّ بالقتل الكثير. انما نكب ابا مسلم ما كان من ميلهِ مع اهل البيت وامدادهِ لهم بالرأي فيما يقوي دعوتهم ويعيد اليهم الحقوق التي انفرد بها العباسيون دونهم حتى اذا علم ابو جعفر ذلك منهُ وخاف من فتنةٍ صمَّاء تعصف ريحها في دولتهِ استقدمهُ الى المدائن وفي نفسهِ ان ينكب بهِ على غرَّة [3]. وكان ابومسلم على حذرٍ من ذلك [4] كما ظهر من كتاب لهُ الى ابي جعفر وممَّا كان من استصحابهِ للجنود في سيرهِ اليهِ. ولكن طلع عليهِ جماعة من حيث لا يدري فاعتوروهُ بالسيوف ومعن يعلم هذا كلهُ [5] ولكنهُ لا يقولهُ إجلالاً لأَمير المؤمنين

---

(١) راجع كتب التاريخ (٢) ابن خلكان ١ * ٤٠٠ (٣) اغاني ١٩ * ١٢٦ (٤) المقدمة ٢٢٤ (٥) المسعودي ٢ * ١٨٥ والفخري ٢٠٢ وابو الفرج ٢١٦ وابن الاثير ٥ * ١٩٢ والسيوطي وابو الفداء ١ * ٢٢٦ وابن خلدون والطبري

واما ما يقولون من ان ابا مسلم خامل السلالة فليس بصحيحٍ لان نسبهُ معروف في خراسان وملكها وهو ابن تسع عشرة سنة وابدى من سعة التصرُّف بالسياسة وهو في ذلك العمر ما عجز عن تدبير مثلهِ الحكماء. وكانت بهِ خصال لا ترى في عامَّة الناس واذا جاءتهُ الفتوحات العظام لم يظهر عليهِ السرور واذا نزلت بهِ الحوادث الفادحة لم يظهر مكتئبًا[1]. وكان اقل الملوك طمعًا واكثرهم طعامًا[2] حتى قيل انهُ اتخذ للآئذين بهِ والطامعين اليهِ الف طبَّاخ. وكان اذا حجَّ نادى في الناس برئت الذمَّة ممن اوقد نارًا فكان يكفي العسكر ومن معهُ امر طعامهم وشرابهم في ذهابهم ومنصرفهم. وكان العربان يهربون من وجههِ ولا يبقى في المناهل منهم احدٌ لما كانوا يسمعونهُ من شدَّة بأسهِ ودهائِهِ. وهو اكبر ملوك الاسلام ورجال الدول عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول الاسكندر الروميّ واردشير الفارسي وابو مسلم الخراساني[3]

في اخبار ابي جعفر

هولاء هم رجال الدولة واهل النيابة فيها وقد لقيتهم جميعًا الاَّ الربيع بن يونس حاجب ابي جعفر ومولاهُ. وليس هو في مقام هولاء الملوك

---

(١) ابن خلكان ١ * ٢٩٨ (٢) ابو الفرج ٢١٦ (٣) ابن خلكان ١ * ٢٩٨

ولكنهُ مكين عند السلطان ومكين لديهِ من حيث انهُ مقدَّم على الموالي والاتراك وهم مقدَّمون في هذه الدولة اذ كانوا دعاتها وانصارها الذين استعان بهم يزيد بن المهلَّب على بني أُميَّة في جرجان (١) وما يليها من البلدان. وقد قدَّمهم ابو جعفر على العرب في مراتب الدولة ومناصبها لانهُ لم يأْمن منهم على نفسهِ بما رأَى من ميلهم مع العلويين الذين وجد عليهم اشد ممَّا وجد على بني أُميَّة حتى لو استطاع ان يستأْصل شأْفتهم والعياذ بالله لفعل بهم امرَّ ممَّا فعل بالامويين الذين كان يضربهم بالعصي الى القتل (٢) ثم يمدُّ عليهم بساطًا يأْكل عليهِ (٣) ويقول وانين عظامهم يسمع من تحت البساط (٤) اني لم آكل اكلةً اهنأَ من هذه الاكلة (٥)

وما ابنى ابا جعفر مدينتهُ الَّا لخوف من اهل الكوفة ان يفسدوا جندهُ (٦) ويحملوهم على مناصرة اهل البيت فجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها الَّا بعد ان أعلمهُ نوبخت ان اهلها يسلمون عن الاعداء (٧). وحتى اذا ما فشت فيها العمارة وخاف قيام العدو عليهِ (٨) قفل الدروب بالليل (٩) واقام عليها الحرَّاس وحوَّل الاسواق الى

(١) اغاني ٩ * ٢١ (٢) الفخريُّ (٣) ابن عون (٤) القناوي ٢٠٣ (٥) اغاني ٤ * ٩٤ (٦) ابن الاثير ٥ * ٢٢٥ والقرماني ٥ * ١٥٤ وابن خلدون ٣ * ١٩٧ والمسعودي ٢ * ١٩٤ والشريشي ١ * ٢٤٠ (٧) القزويني ٢٠٩ وابو الفرج ٢٣٤ (٨) السيوطي (٩) اغاني ٧ * ٢٤

الكرخ [1] في اعلى الزوراء حتى لا يبقى بجوارهِ من لا يأمن منهُ وراح قومهُ يقولون ان رسول الروم اشار بذلك اليهِ وقد سألهُ لمَّا وفد عليهِ كيف وجدتَ بلدنا ايها الرسول [2] قال اني رأيتهُ اعزّ على الطالب من بيض الانوق بيد اني رأيت الغريب يطرقهُ ويبيت فيهِ وربما كان فيهم العين والجاسوس [3] وهذا كلام لا صحّة لهُ عندي لان من احاط مدينتهُ بسورٍ منيع يردُّ الطرف عن كللٍ وادارهُ بخندقٍ بعيد المهوى غنيٌّ بما في نفسهِ من الحذر ان يخوفهُ احدٌ كيد العيون ومحالهم

وكذلك نجد دليلاً على خوف ابي جعفر من البخل [4] الذي ليس هو فيهِ عن لُؤمٍ [5] لانهُ وصل اعمامهُ بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحدٍ ألف ألف درهم [6] وهو أول خليفة وصل بامثال هذه الهبات انما أمسك يدهُ عن العطاء [7] مخافة ان يقع مالهُ في يد المخالفين لهُ كما انهُ أقلَّ من أعطية الجند ليأمن عصيانهم [8] واستغناءهم عنهُ كانهُ يستحكم قول المثل السائر جوّع كلبك يتبعك [9] والاَّ فانَّا لا نرى هباتهِ واقعةً الاَّ على مَنْ هو خلوٌ من اغراض السياسة من أهل العلم والأدب وان هو لم يتعدَّ هذا العطاء الى الكَرَم بما

(١) ابن الاثير ٦ ☆ ٥ (٢) ابن الاثير ٥ ☆ ٢٢١ (٣) ابو الفرج ٢١٩
(٤) الوطواط ١٩٢ (٥) الفخري ١٨٨ (٦) المستطرف ١ ☆ ٢٠٠ والمسعودي ٢ ☆ ١٩٤ (٧) ابن خلدون (٨) الفخريّ ٩٦ (٩) الفخريّ ٩٦

نعلم من خروج جماعة من الشعراء عن الزوراء لايَّامهِ في طلب المعاش [١]. اما امراء الاقاليم فانهُ يتدارك عزلهم من قبل ان يثبتوا قدماً في ولايتهم ويستولي على ما يصل اليهِ من أَموالهم ويجعلهُ في البيت الذي سمَّاهُ بيت مال المظالم [٢] قصداً في تحقيرهم واعجازهم عن القيام عليهِ في ثورةٍ أَو مخالفةٍ لا حباً في جمع المال وادّخارهِ كما يزعم بعض الناس لانهُ لو كان يبخل على غير سياسةٍ لما حنق على معن حين جاد بمالهِ على اهل اليمن ليسهّل من أَمرهم ما حزن [٣]. ونحن نعلم انهُ أَوصى ابنهُ بان يردَّ هذه الاموال على اربابها في كلامٍ طويل يقول فيهِ [٤] يا بنيَّ اني لأَحضننَّك يوم تدركني الوفاة ان تدعو من اخذتُ مالهُ وتردَّهُ عليهِ فانك تستحمد بذلك اليهم ولكن اياك ان تعود الى توليتهم المناصب لاني ما رأَيت الوفاء طبيعةً الاَّ في الموالي والأَغراب [٥]

ثم طمع في هذه السياسة الى ان يأْخذ التجارة بالشدَّة فوضع على التجار خراجاً على حوانيتهم [٦] وذلك ممَّا لم يسبق لهُ عهدٌ في الاسلام وزاحمهم في اعطاء الدين بالربا [٧] حتى يقطع عنهم باب الارتزاق والتعيش على علمٍ منهُ بان التجارة من السلطان مفسدة للعمران

(١) اغاني ٢ أ * ٩١ (٢) ابن الاثير ٦ * ١١ (٣) ابن الاثير ٦ * ٩
(٤) الفخري ١٨٧ (٥) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٦) المقريزي ١ * ١٠٢
(٧) المستطرف ١ * ١٢٥

ومدعاة الرعيَّة الى الخسران (١) . غير انهُ رأَى ان يستميل الشعب الأَدنى اليهِ وهو السواد المهم فرفع عنهم الخراج وَرَفًا على الحنطة والشعير وصيَّرهُ عليهم مقاسمةً (٢) تسهيلاً لهم في تأدية الخراج لانهم قد لا يجدون الدرهم الواحد في بعض الاحيان فيجبرون الى بيع غلَّاتهم بأَبخس الاثمان سدًّا لطلب العمَّال فعاد على الدولة من هذه المقاسمة كبير فائدة لها من تناول ارزاق الجند وعلف الخيل وغير ذلك

هذا نزرٌ يسيرٌ من دلائل الخوف في أَبي جعفر من العلويين والناس يقولون انهُ صالح النظر في أُمور الملك (٣) . غير ان صلاح النظر عندي ما لا يكون فيهِ خروج عن العدل والاَّ فان حبس النفس الزكية (٤) محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسين بن عليٍّ عليهِ السلام وقتل أَخيهِ ابرهيم بن عبدالله وكلاهما براءٌ من الذنوب لمن أَقبح الظلم . ولستُ أَرى لأَبي جعفر وجهًا للافتخار بما وقع لهُ من الظفر بهما على سبيل الاتفاق لان فشل العلويين ناشئٌ عن تفرُّق دعاتهم على آراءٍ لم تجمع لهم غايةً واحدةً وهم منقطعون عن بعضهم منفردون الى نفوسهم فيما يطلبون بهِ من ثأْر شهدائهم . فغلبهم أَبو جعفر من هذا الوجه وظفر على الواحد منهم بعد الآخر كما كان شأْن الأَمويين في قتالهم والاَّ فلو جمعوا دعاتهم وشدُّوا اليهم أَطرافهم وأَثاروا

(١) المقدّمة ٢٤٤ (٢) الماوردي ١٢٦ (٣) الخميس ٢ * ٣٢٤
(٤) الفخري ٣٦ و١٩٥ والمقدّمة ٢١

العراق وخراسان والبمن والحجاز في غرضٍ واحدٍ كما كانت سياسة أَبي مسلم حين أَظهر الدعوة لأَعاد الله اليهم الخلافة التي ذهبت من ايديهم على ظلم الأَمويين وفجورهم وصارت الى من يحبُّ النبيُّ ان تصير اليهِ

قوَّة الاسلام لايَّام الفتح

ولما حدَّثني لسان الشريعة بهذه الأَخبار وافق قولهُ ما في نفسي من التصريح بظلم أَبي جعفر . وقد كنتُ اتلقَّى عنهُ كثيرًا من أَخبار العرب وأَيامها . فحدثني عن قوَّة الاسلام في زمن الفتح حديثًا أَحببت ان اسردهُ في هذا الكتاب واسلك فيهِ سبيل الاطناب ليكون فخرًا للاعراب باقيًا الى منتهى الاحقاب . فان النبيَّ جاء بالهدى ليجير أُمَّتهُ من الملمات التي حاقت بهم في تخالف أَغراضهم على السياسة وتباعد عقائدهم في الدين اذ لم يكن منهم الموحد المقرّ بالخالق المصدّق بالبعث والموقن بالثواب في الآخرة الاَّ نفرٌ قليل[1] . فجمع بالرسالة كلمتهم[2] وانقذ الكعبة من ظلمات الجاهلية الذين وضعوا في جوفها تماثيل آلهة[3] غير الاله الواجب الوجود بعد ان بناها ابرهيم[4] حضين الملائكة وسليل الوحي وانقطع فيها الى الله

(١) المسعودي ١ * ٢٣٩ (٢) الانس الجليل ١ * ٢٢٢ (٣) المقدّمة ٢١١ (٤) سورة البقرة

تعالى بالعبادة والخشوع . ومن يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهُ وليًّا مرشدًا[1]

ولقد كان النبيُّ صلّى الله عليهِ وسلَّم مأمورًا في بدء رسالتهِ بان يدعو العرب الى الاسلام (فلم يعسر عليهِ تقريرهُ في افئدتهم لما جاءهم بهِ من الآيات وما اشتمل عليهِ القرآن من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والبلاغة المعجزة) . ثم جاءهُ الوحي بدعوة الناس كافةً الى الاسلام فقُبض مشكورًا سعيهُ مرفوعًا منزلتهُ وقام الخلفاء الراشدون بعدهُ بالأَمر والسلطان وكان تحت ايديهم الجنود البواسل والفرسان فغلبوا الأَعاجم على أَمرهم وابتزُّوهم سلطانهم وحازوا معظم الدنيا من شرق وغرب

انما صال المسلمون كالسباع وشدُّوا على الحصون والقلاع وترامَوا على ممالك الحضَر واقتحموا مشاق الخطر بما حضَّهم عليهِ الكتاب من الجهاد لنشر دينهم على العباد وما طمعوا الى نَيلهِ من غنائم البلاد ولأَنَّ المائت منهم في ساحات الحملات شهيدٌ[2] لهُ في دار الخلد جنَّات وعدهم الله لقولهِ ومن يخرج من بيتهِ مهاجرًا الى الله ورسولهِ ثم يدركهُ الموت فقد وقع اجرهُ على الله[3] . فوفَّروا عدَّتهم وبذلوا همتهم ولم يدَّخروا من الوسع جهدًا لم يأْتوا بهِ في وثبتهم ولما انتدبهم ابو بكر رضي الله عنهُ الى فتوح الشام اقبلوا بنسائهم[4]

(١) سورة الكهف (٢) الشرع (٣) سورة النساء (٤) ياقوت ٤ * ٣٢٤

وولدهم وبيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون [١] وكانت على وجوههم سمات الابتهاج [٢] كأنَّ مسيرهم الى جنَّاتٍ تجري من تحتها الانهار. وكان رجاؤُهم بالظفر غالبًا على عامتهم وخاصتهم حتى ان الشيوخ الفانية قدموا مع اولادهم ليطأوا الارض التي وعدهم النبي فبادرهم ابو بكر بالسؤَال لمَ اقبلتم ومعناهُ يزيد على كلامهِ بان ليس لكم عزم ولا فيكم بقيَّة فقالوا قدمنا ياخليفة الرسول رغبةً في ثواب الله وايضًا انَّا نحبُّ ان ناكل من فاكهة الشام ونشرب من مائها الزلال [٣] فتفاءل منهم بالخير وقال ان شاء الله. فاذا كان هذا عزم المسان واقدامهم فما الظنُّ في الفتيان الذين هم ضرَّاب السيوف [٤] وشرَّاب الحتوف فاذا نظرت الى ما يُروَى لهم من الاشعار ويُعرَف عنهم من الاخبار وجدت انهم لا يبتغون الفخر الاَّ بالكفاح واستدللت على ان قوتهم في المهاجمة تعدل قوة العدو الذي تمنعهُ القلاع والاسوار

وعندي ان غزاة العربان لاول الاسلام كان يؤْخذ فيها بمعاضدة اهل النصرانية من تغلب وتنوخ ووائل وغيرهم من غير ان يكون لهم ما للمسلمين من القيادة والامارة وانما طلبوا تسريحهم الى القتال لانهم والمسلمين اهل وطنٍ واحدٍ وعادات بينهم مألوفة وقد طمعوا في

(١) المقدّمة ٢٢٢ (٢) الواقديّ (٣) الواقديّ (٤) الطرطوشي ١٧٢ و ١٧٣

كسب الغنائم التي ينالونها بالاشتراك معهم وقد وُصِف لهم غنى الروم ودرر الهند وخزائن الفرس وخيرات مصر وطيّبات الشام. حتى اذا ما امتزجوا بالمسلمين دهراً دانت منهم جماعة بالاسلام حبّاً بهِ او طمعاً في القسمة التي لا يكون لهم الاَّ نصفها ان كانوا غير مسلمين وقد كانت قسمة الفارس المسلم في بعض الغزوات ثلاثين الفاً من الذهب[1]

ومَّما اعان على امتداد هذه الفتوح ان البلدان التي دخلت في حوزة الاسلام لم تبدِ اشارة ثورة ولا امارة فتنةٍ اذ انها كانت من قبل ذلك في سلطان الفرس والروم فكان لديها سواء أَحكمها كسرى ام ابو بكر. وربما احتفلت الى عمَّال المسلمين اكثر من احتفالها الى عمَّال الاعاجم لِما وَجدَت قِبَلهم من وفور العدل وصدق القيام بالمواثيق والعهود مما امر بهِ عمر رضي الله عنهُ وحرَّض على التشبُّث بهِ[2] حتى لقد عزل خالد بن الوليد عن الامارة من اجل[3] انهُ اراد ان ينقض الامان الذي اعطاهُ ابو عبيدة امين الامَّة لاهل دمشق اذ دخل مدينتهم صلحاً بينما كان خالد يدخلها بالسيف[4]

هذا هو السرُّ في امتداد الفتوح حين دجا الاسلام وقد سمعتُ ان الروم يقولون ان السر في ذلك ان الاسلام غلب أُمماً لا مدنيَّة عندها ولا نظام لملكها فقوي عليها فهذا مردودٌ من وجوهٍ كثيرة ولا

(١) المقدمة ١٧٨ (٢) السيوطيّ (٣) الكنز ٩٤ (٤) الواقديّ

سيَّما ان فارس كانت من اضخم الدول وابعدها في العلم والحكمة فلم يعسر عليهِ منالها ولم يعسر عليهِ غلب الروم في الشام وهم بمكان من المدنيَّة لا يرام. ولست اقول الاَّ انهُ لمَّا نشأ الاسلام كانت القياصرة في تلاشٍ وانحلال وكان الفرس يمزقهم ظلم العمَّال فكان ذلك داعيًا الى التغلب عليهم من غير ان ينالهُ إخفاقٌ قد تحاماهُ الخلفاء الراشدون بجهدهم وهم بمكانهم من الصلاح وسداد الرأي فلم تُهزَم للاسلام رايةٌ في ايامهم الى ان خلا الامر من عليّ عليهِ السلام وذهبت الخلافة من بيتهِ فذهبت سذاجة الاسلام وانقلبت الخلافة الى الملك العضوض كما قال النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم الخلافة بعدي ثلاثون سنةً ثم تصير ملكًا عضوضًا ولله قضاءُ في خلقهِ والله يقلّب الليل والنهار

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم
من رجب من السنة السابعة والخمسين
بعد المائة من هجرة النبي
صلَّى الله عليهِ
وسلَّم

الرسالة الثالثة

في لقائي وليّ العهد

هذا كتابٌ اليك ابدأ فيهِ بذكر لقائي وليّ العهد . فاني بينا كنتُ جالسًا الى فقيه الاسلام اذ دخل عليهِ خادمٌ من خدم الخليفة فتخوّف من شيء لم أدرِ ما هو وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة[1] . فقال لهُ ابو يوسف سبق وهمي الى انك تدعوني لأَمر جَلَل قال أَجَل ان الامير يدعوك الساعة اليهِ لأَمر اقلقهُ الليل طولهُ ولم يكن لأَحد من المقرَّبين اليهِ ان يسرّي عنهُ روعهُ حتى اذا دعا خالد بن برمك اليهِ قال لهُ عليك بتلاميذ ابي حنيفة وما فيهم أَحفظ لعلمهِ من ابي يوسف[2] .

فلما سمع ذلك طاب منهُ الخاطر وذهب ما كان يجدهُ في نفسهِ من الخوف وقال ما الخبر قال حنق الامير على الخيزران ام اولادهِ وقال لها في سورة الغضب أَنتِ طالقٌ ثلاثًا ان بتّ الليلة في مملكة ابي فلما سكن غضبهُ ووجدها براءً من التهمة راعهُ امر الطلاق فاستدعى

(١) المسعودي ٢ * ٢١٢ وفلائد العقيان ١٠ والاغاني ١٤ * ١١٦ وكتاب العقد الفريد واعلام الناس وحلبة الكميت والف ليلة وليلة (٢) الشريشي ٢ * ٢٦٧

الأَعيان والفقهاء فلم يجدوا لهُ الإِفتاء المرجوَّ فأَمرني باستقدامك اليهِ . ففكر ابو يوسف برهةً ولم يفتح الله عليهِ بشيءٍ

وكنتُ في خلال ذلك اجيل الفكرة في حال الخيزران وقد ذكرتُ ما لها في الدولة من المآثر وما بَنَت من المساجد في سبيل الله فوقع في نفسي من تخيُّل هذه المساجد امرٌ فقلت لأَبي يوسف ما الرأْي لو ان الامير يبيت الليلة في المسجد فلما وعى ذلك عني كاد ينخلع من ثيابهِ لشدَّة الفرح وقال عليَّ عهد الله لاذكرنَّك عند الامير وهو يقرّبك اليهِ بما انت اهلٌ لهُ . ثم خرج فما هو الاَّ ان عاد نصير[1] (هذا الخادم) يدعوني الى مجلس الامير وقد اخبرني انهُ لما مثل ابو يوسف بين يديهِ كاد أَلاَّ يقبل عليهِ بالاستفتاء ظنًّا بان لا يكون من فتواه جدوى (والخلفاء واولادهم يبدأُون الناس بالكلام وليس للناس ان يفتحوهُ معهم[2]) ثم لما استطلعهُ رأْيهُ فيما اهمَّهُ وذكر لهُ ما رزقني الحظُّ استنباطهُ لبطلان الطلاق[3] غلب عليهِ السرور حتى كاد لا يستقرُّ بهِ المجلس من القيام والقعود فقال لهُ أَهذا من معقولك ام من منقولك فقال لا وابقى الله الامير وأَيَّدهُ وأَعلى في الكون يدهُ انما قائل هذا صديق لي من اولاد الفرس . فوجهني الامير في طلبك وجئتك مخبرًا بحسن ظنهِ بك

(١) أغاني ٣ * ٥٧ (٢) ابن خلكان ١ * ٤١ (٣) القزويني ٢١١ وفي هذه الرواية تصرفٌ

فلما اقبلنا على دور الخلافة اجتزنا باب السور الكبير [1] وسلكنا ممرًّا مفروشًا بالحصباء تحيط بهِ حدائق القصر وجنانٌ قد أُقيمت فيهِ احواضٌ يتصوَّب منها الماء وعليها عُمُدٌ من الرخام تقلُّ قبابًا مغشاةً بالرسوم والآيات الموسومة بماء الذهب [2] والى ما وراء الجنان صنَّاع وبنَّاؤُون يرفعون قصرًا [3] سمَّاهُ ابو جعفر قصر الخلد [4] ووصلهُ بقصر السلام [5] الذي يسكنهُ في هذه الايام . فانتهينا من هذا الممرّ الى باب القصر وهو معقود تحت القبَّة التي كانت مزيَّنة في عيد الفطر وعليهِ مسامير كثيرة من الفضة والذهب [6] . فجاوزناهُ فاذا نحن في دار مسوّرة بالعمدان [7] وعلى دائرها مقاصير مُنجدة ارضها وحيطانها بالارمني [8] وفي أطرافها دهليز [9] ينبعث اليهِ الضوء من شمسيات منقوبة في القباب [10] . فجزناهُ فاذا نحن في دار أَفسح من الدار الاولى وفيها كثير من العُمُد المخرَّمة التي يوجه الخلفاء عنايتهم الى الاكثار [11] منها في جميع بناياتهم حتى اني عددتُ في صحن من صحون دور الخلافة سبعًا واربعين سارية ولو ان ثمانين غلامًا وقفوا وراءها ما رآهم مَن في صدر الصحن

(١) ابن خلدون ٣ * ١٩٧ (٢) الاناليدي (٣) ابن الاثير ٦ * ٥
(٤) القزويني ٢١٠ (٥) اغاني ٩ * ٤٥ والسيوطي (٦) انليدي ٦ ١٤
(٧) اغاني ٦ * ٧٨ و٣ * ٣١٨٢ و٥ * ٣٢ (٨) انليدي ٦ ٢٢ واغاني ٥ * ١٧٣
(٩) الف ليلة وليلة ١ * ٢٠ (١٠) قلايد العقيان ١١ (١١) اغاني ٥ * ٣٢ والف ليلة وليلة

ثم انتهينا من هذا الدهليز الى سلّم[1] من الرخام تنتهي بالراقي عليها الى مجلس الامير وكان مجللاً بالرخام المجزَّع وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشدُّ بعضها الى بعض[2] وهو مفروش ببسط طبرية[3] من الديباج[4] عليها ابيات[5] في مدح الامير. وفيهِ كراسي مرصعة[6] باصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الاعيان خافتون كأنَّ على رأسهم الطير[7]. وفي صدرهم الامير جالس في قبَّةٍ صنع لها فراشًا مبطنًا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والابريسم[8]. وهو أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جعد الشعر بعينهِ اليمنى نكتة بياض[9] وعلى رأسهِ خصيٌّ واقف بالمظلَّة وهو من الخدم المقربين الى الخليفة وأهل بيتهِ والذين يطمعهم الناس بالمال ليذكروهم[10] عندهُ او يخاطبوهُ في حاجاتهم

فلما اقبلتُ على المجلس غلبني البهر عن جلالة الامير فسلمت عليهِ بالامارة فردَّ عليَّ السلام بخفض الجناح واظهر ما حسب لي عليهِ من المنَّة وانهُ يأنس بي ويسكن اليَّ وان قد بلغهُ عني من العقل ما يحملهُ على ان يصيِّر اليَّ تأديب موسى وهرون ولديهِ. فدنوت من

(١) اغاني ٦ * ٧٨ (٢) اغاني ٥ * ١٦٦ (٣) اغاني ٥ * ٥٩ و ١٢٨ (٤) المسعودي ٢ * ٨٢ (٥) اغاني ٥ * ١٢٨ و ١٠٠ و ٨٦ (٦) النيدي ٩ (٧) الفخري ٥ (٨) المسعودي ١ * ٣٢٤ (٩) العقد الفريد ٣ * ٥٢ وابن الاثير ٦ * ٢٩ والخميس وابن خلدون (١٠) اغاني ٤ * ٧٨

كرسيّهِ وقبّلتُ الارض بين يديهِ وقلتُ لهُ في موقف الشكر على جزيل ما أَولاني من النعمة انهُ يجعل لي بها شرفًا لم ينلهُ أَحدٌ قبلي من العلماءِ فقال أَحسن الله عنا جزاءك فما الكثير من فعلنا بك بجزاءِ لليسير من حقك[1] . ثم دعا ابَّان بن صدقة كاتبهُ فوقف بين يديهِ[2] فقال اكتب لهُ بدارنا على دجلة واقطعهُ من ضياعنا الخاصة ما نقيمهُ غلّتهُ على السعة . ثم أَمر لابي يوسف بخمسين الف درهم معجَّلةً[3] . وكان هذا اول اتصالي بوليّ العهد اصلحهُ الله وتولَّى مكافأَتهُ عني بما هو واسعٌ لهُ

فيما توالى عليَّ من نعمة بني العبَّاس

ولما اتصل الخبر بالخيزران عادت الى دور الخلافة وقد كانت في دار لها تسمَّى باساس[4] . وأَقام الامير مأْدبة جلس فيها لعطاءِ قريش[5] وفرَّق في الناس أَموالاً جزيلة حتى امتلأَت الزوراءُ مسرَّةً في ذلك اليوم . ثم جاءني من خدم الخليفة مَنْ ينطلق بي الى الدار التي وهبني الامير فاذا هي مشيَّدة على أَساطين رفيعة وحنايا مقوّسة وقباب مخرَّمة ولها روشنٌ[6] يشرف على دجلة وما

(١) اغاني ٩ * ٣٠ (٢) المسعودي ٢ * ١٨٢ (٣) اغاني ٣ * ٩٥ و١٨ * ٨٦ (٤) المسعودي ٢ * ١٩٦ (٥) اغاني ٧ * ٩ (٦) اغاني ٥ * ١٠

وراءهُ من الرصافة . وفيها من السدلات والاستار الحرير والبسط الديباج والقماقم النحاس والآنية المنزَّلة والخزائن[1] المجزَّعة ما ليس مثلهُ في أمتعة جلساء الملوك[2] مما يتكرمون بهِ عليهم في سبيل الهبات. حتى لقد كانت الاوتاد التي تدقُّ بجانب الباب ليعلّق[3] فيها الداخل ما ثقل عليهِ من ثيابهِ[4] متخذَّةً من العاج الاصفر وعليها رسومٌ منزَّلة بالذهب تمثّل أثمارًا تجتنى بالابصار لحسن ما أبدع فيها الممثل من الصناعة

ثم جاءَني من لدن الخيزران خادمان للمهديّ لم تكن نوبتهما[5] في ذلك اليوم بخدمتهِ ووضعا بين يديَّ اناءين من الذهب على أحدهما منشور[6] بضيعة في السواد وعلى الآخر مخنقة في وسطها جندارة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات وما بينها من شذور الذهب[7] ثم جاءَني وصيف آخر للمهديّ يحمل اليَّ رقعة بالضيعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها العمرية[8] . ثم بعدهُ وصيفٌ لامّ المهدي وهي بنت منصور الحميرية ومعهُ اناءٌ من ذهب قد انتثرت عليهِ اللآلئ[9] . ثم وفد

---

(١) اغاني ٥ * ١٠٩ (٢) اغاني ٥ * ٤٠ و٦ * ٨١ (٣) اغاني ٤ * ٥٢ (٤) اغاني ٥ * ١١٨ (٥) اغاني ٣ * ١٨٤ (٦) الابشيهي ١ * ٢٤٢ (٧) اغاني ٧ * ٢٦ (٨) اغاني ٩ * ١٠٢ (٩) اغاني ٦ * ١٢٢

للغالية اختهِ ومعهم جام فيهِ دنانير[1] وخاتم من العقيق مرسوم فيهِ ام القرآن ولكن باحرف لا تبصرها العيون المجرَّدة . وذلك احسبهُ من محاسن الاشياء التي لا تكون الاَّ عند الملوك . فهطلت عليَّ النعمة غيثًا من الذهب وليس الاَّ لاني وجدت منصرفًا في القول[2] ومذهبًا يبطل بهِ الطلاق

ولما صارت اليَّ نعمة بني العباس تحدَّث الناس بها كثيرًا في الحضرة وأَشفق العَرَب على دولتهم من المهديّ أَن يجري على سنَّة ابيهِ في تقديم الأَغراب عليهم في المراتب اذ انهم يرون في ذلك[3] اعتلال دولتهم واختلال أَمرهم واضمحلال محاسنهم واستيلاء الاعاجم[4] على السلطان الذي بذلوا عليهِ نفوسهم حتى لا تنفعهم نهضةٌ يقومون بها عليهم لاستخلاصهِ من ايديهم فيما بعد كما يرون فوات الخبرة في مصالح المُلك بحرمان ابي جعفر لهم من المواظبة عليها والمِران لها وحبسهِ اياهم دون تطويق مراتبها اليهم فتخلو منهم مناصب الدولة[5] . ولكن لم يكن لابي جعفر بما تقدَّم من خوفهِ من العلويين الاَّان يتجافى عنهم ويقصيهم عن المراتب الى ان ترسخ دولتهُ في كبرائهم على غير حاجة الى قتل المسلمين بالمسلمين في فتنٍ صعابٍ لا يرجو بها بلوغ أَمنيَّتهِ . وانما رزق من السياسة الحيلةً في تقديم الاغراب والترفق بهم والاحسان

(١) ابن خلكان ٢ ☆ ٥٥٥ (٢) ابن خلكان ٢ ☆ ٤٥٢ (٣) المسعودي ٢ ☆ ٤٠١ (٤) المقدمة ٢٢ (٥) السيوطي

اليهم [1] طمعًا في استمالتهم اليهِ واستظهارهِ بهم على إقامة ملكهِ وتقويم دولتهِ بما يظهر على نفسهِ من الجبروت [2] الذي لا يلتمس الى تمكين مهابتهِ من المخالفين لهُ من العَرَب سواهُ . كدأبهِ في الانقطاع عن اللهو والمآدب والولائم [3] والبعد عن بهرجة المُلْك [4] والتوجُّس من اهل بيتهِ انفسهم والتجافي عن الجلَّاس والندماء الّا على ستارة يضربها فيما بينهُ وبينهم على اربعين ذراعًا [5] . الى امور كثيرة تدلُّ على ان مَثَلهُ في البُعْد عن الطمأنينة مَثَلُ الذين يختلسون المُلْك ثم تمرُّ بهم الايام على اسوإ ما يكون من التوجُّس والخوف

تاديب موسى وهرون

ولما كان بعد ذلك جاءني من الوزير المقدَّم والامير الميمَّ [6] انهُ خاطب المهديَّ فيَّ وخطب لي منهُ مودَّتهُ فولّاني تأديب موسى وهرون وهما ثمرة قلبهِ ومهجة فؤادهِ . واحبَّ الوزير ان أُصيّر يدي عليهما مبسوطةً وطاعتي منهما واجبةً واكون بحيث وضعني الامير واقرئهما القرآن واعرّفهما الآثار واروّيهما [7] الاشعار واعلمهما السنَن [8]

(١) ابن خلدون وابن الاثير ٦ * ٨ (٢) الخميس ٢ * ٣٢٤ (٣) ابن الاثير ٦ * ٨ والفخري ١٨٧ والخميس ٢ * ٣٢٤ (٤) ابن خالدون (٥) السيوطي (٦) يريد بهِ خالد بن برمك (٧) العقد الفريد ٢ * ١٣٢ (٨) اغاني ١٨ * ٧٨

وأُبين لهما فضل الحكماء في مواعظهم وابصّرهما مواقع الكلام وامنعهما الضحك الاَّ في اوقاتهِ وآخذهما بتعظيم آل هاشم في دخولهم عليهما ورفع مجالس القوَّاداذا حضروا مجلسهما وان لا تمرَّ بي ساعة الاَّ وانا مغتنم فيها فائدةً افيدهما من غير ان اقسو عليهما فأُميت ذهنهما ولا أُوسع في مسامحتهما فيستحليا الفراغ ويأْلفاهُ وان اقومهما ما استطعتُ بالقرب والملاينة فان أَبياها فعليَّ بالشدَّة والغلظة[1] الى آخر ما اوصاني بهِ الوزير من تهذيب اخلاقهما باقصى ما اقدر عليهِ

وكان الموكَّل بالأَميرين سلامان الابرش حاجب أَبيهما الخاص[2] وهو الذي كان يجاوزني مقاصير القصر الى ان ينتهي بي الى موضعهما . وكنتُ لاول دخولي عليهما قد وجدتهما في مجلس لطيف وعليهما جمال السلطان واشراقهُ[3] . فتحفَّز هرون للسلام وعلا وجههُ الابتسام وبقي موسى موضعهُ غير مبالٍ بي . وهو أَبيض اللون في شفتهِ العليا تقلُّص[4] وعيناهُ لا تنبئان عن ذكاء في نفسهِ يرفعهُ الى مساواة اخيهِ في العقل والنجابة فلم أَمل اليهِ على صبوة الفؤاد وانما صرفتُ عنايتي الى تثقيف هرون لما رأَيتُ فيهِ من توقُّد الذكاء . وقد ظهر صحَّة ما تفرَّستُ فيهِ بما رأَيت منهُ من الامعان في أَقوال الحكماء

(١) المسعودي ٢ * ٢١٤ (٢) العقد الفريد ٣ * ٥٣ (٣) المسعودي

(٤) ابن الاثير ٦ * ٣٦ وابو الفداء ٢ * ١٣ والخميس ٢ * ٣٣١ والعقد الفريد ٣ * ٥٣ وابن خلدون

والانعكاف على المطالعة والدراسة[١] بخلاف موسى اخيهِ فانهُ كان على جهلٍ بالعلوم ولولا قليل من الفهم الغريزيّ فيهِ ما حصَّل ادبًا بجدّهِ واجتهادهِ . فلقد كنتُ اذا بيَّنتُ لهما مُغلقًا عمّي عليهما فهمهُ وجدتُ هرون منصبًّا الى تفهُّم معناهُ وأَلفيت موسى فاتحًا فاهُ وساهيًا عن موضعنا وموضوعنا فكنتُ اعذلهُ لذلك[٢] وأَعيب عليهِ فتح فمهِ فذهب قولي مثلاً في دور الخلافة ينعت بهِ وصاروا يسمُّونهُ يا موسى اطبق[٣]

ولقد كان يؤدّب الاميرين من قبلُ ابو عبيدة معمر بن المثنَّى التميميّ وأَوسعهما في الحديث وعلم اللغة فائدةً ولكن العلوم العقلية لم اجدهما منهما في شيءٍ لجهل المؤدّب بها الَّا قليلاً وكانا لا يقيمان البيتَ اذا انشداهُ حتى يكسراهُ فعرفت من ذلك[٤] بُعْدَ ابي عبيدة عن محاسن الشعر . على اني وجدتُ الخطأَ في قراءات هرون اقلَّ منهُ في قراءات اخيهِ وذلك ان اباهما لمَّا فوَّض تأْديبهما الى ابي عبيدة وافق عمر هرون وغضاضة ذهنهِ ان يستفيد منهُ ما غاب عن موسى ان يتدبَّر معناهُ لقلَّة انصبابهِ اليهِ ولهوهِ في مجالس الطرَب وانشغال نفسهِ بما يتردَّد في خاطرهِ من امر الملك وغيرهِ . ولا يعجبنَّ الواقف على كتابي هذا من انتقادي على غلامين بهذا الكلام . لان أولاد

(١) الفخري ٢٢٠ (٢) الوطواط ١٦ (٣) الخميس ٢ * ٣٢١ والسيوطي وابن الاثير ٦ * ٢٧ (٤) ابو الفداء ٢ * ٢٠ وابن خلكان ٢ * ١٥٥

الملوك ترى فيهم العقول بالغة(١) من قبل بلوغها في غيرهم من ابناء جيلهم اذ انهم ينشأون بين العلماء ويربون في مهاد الدعة ويشهدون مجالس الفقهاء والامراء وأرباب القلم من اهل المراتب. فتعلو نفوسهم على نضارة العمر ولا تعود الدراسة في امكانهم على كبر اللهم ان يستفيدوا منها ما يستفيدون في غضاضة الشباب

وكلما كثر ترداديُ على هرون ألفيت فيهِ شيئاً تعظم في عينيَّ قدرهُ ولا سيما ما وجدتُ فيهِ من رقَّة الطباع وخفض الجانب ولين العريكة فكنتُ اودُّ لو انهُ سبق موسى في الولادة وكان لهُ حقوق الملك قبلهُ ليكون اجدر منهُ بتعمير البلاد وتقويم العباد لان الكبير صعب المرام شكس الاخلاق عرفت ذلك في ذات يومٍ من مسألةٍ لم يفطن لمعناها فلما استطلعتُ رأيهُ فيها طار طائرهُ وظهر الغضب على وجههِ فحفظتُ لهُ ذلك في نفسي واخذتُ اشغلهُ من العلم السهل بما لا يحتاج الى كبير مطالعةٍ ولا الى تكلُّف عنايةٍ بهِ فسرَّ لذلك واوسعني اعتذاراً عمَّا بدر منهُ في وقت الحدَّة فعرفتُ من هذا انهُ صعب المرام(٢) وان مَنْ توقَّاهُ وعرف اخلاقهُ دخل في رضاهُ ومَن فتح فاهُ فاتفق لهُ ان يفتحهُ بغير ما يهواهُ اطَّرحهُ واقصاهُ(٣).

ولكن ذلك خلقٌ غير محمودٍ من الملوك اذ يتجافون عن الحكماء والوعَّاظ الى تقريب مَنْ يداهنهم بالمديح لهم والثناء عليهم بما ليس

(١) العقد الفريد (٢) المسعودي ٢ * ٢٠٢ (٣) الاغاني ٥ * ١٦

فيهم من الخلال فان ذلك لدليلٌ واضحٌ على بُعْد الحزم منهم وضعف البصيرة فيهم

ولم ارَ في اولاد الملوك أجمل خَلقًا وخُلقًا من هرون. وبهِ مماثلة في الخلقة للفضل بن يحيى بن خالد وهو ابيض اللون[١] كبير العينين عالي الجبين منطوٍ على خير وصلاح وسلامة قلبٍ واذا تأّمَّ من امر لم يستفزَّهُ الغضب ولا زاد على هاه هاه[٢] كلمة غيظ واحدة. وتأديبي لهُ مستمر الى هذه السنة وهي سنة ثمانٍ وخمسين بعد المائة وقد اتى عليهِ اربع عشرة من العمر اصلحهُ الله ووفَّقهُ الى ما بهِ صلاح المسلمين وتأييد الاسلام

بقيَّة من اخبار ابي جعفر

وقد عرفتُ بترداذي الى دور الخلافة كثيرًا من اخبار ابي جعفر فوجدتهُ[٣] ينظر في احكام الدولة وامور العمَّال دون ان يدع لنفسهِ فرصةً يستريح فيها من الاعمال فاذا طلع النهار جلس في ايوانهِ ورأى في حال الامة وعزل الولاة الذين يريبهُ منهم مخالفة ونصب مكانهم[٤] من تلوح عليهِ نجابة وتظهر فيهِ امانة لهُ لا يزال آخذًا في ذلك بما يروم من اذلال المخالفين لهُ الى قُبَيل الظهر فاذا

(١) العقد الفريد ٣ * ٥٤ والخميس ٢ * ٣٣١ (٢) اغاني ٥ * ٦٦ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٠ (٤) الماوردي ١٢٧

تناول الغذاء عاد الى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند فاذا صلَّى العصر جلس لأهل بيتهِ وفاوض اعمامهُ وغيرهم فاذا صلَّى العشاء نظر في كتب العمَّال مما يكون تجمَّع في النهار وشاور سمَّارهُ من آل هاشم وغيرهم[1] كذلك عادتهُ[2] من يوم ولي الخلافة

ولقد رأيتهُ لا يركن في أُمورهِ الاَّ الى خالد الوزير المقدَّم فهو ركن دولتهِ ولولاهُ ما استمرَّ لهُ المُلك بين تغلُّب الاكراد[3] في فارس وظهور الخوارج في جميع النواحي والامصار . على ان سياستهُ مع العلويين كانت خارجةً عن رأْي خالد وهو اذ ذاك بعيدٌ عن الحضرة على حيلة أَبي ايوب المورياني[4] اذ ذكر لابي جعفر انهُ لا يكفيهِ امر الاكراد الاَّ هو فندبهُ اليها[5] فلما بعد عن الحضرة استبدَّ أَبو ايوب بالأَمر[6] وجاء ابو جعفر بالنفس الزكيَّة وأَخيهِ ابرهيم وقتلهما[7] وكان ذلك أَول وقوع الفرقة بين العلوية والعباسية على غيظ كثير من اهل بيتهِ عليهِ ومنهم[8] عمُّهُ عبد الله الذي غلب الأَمويين على الشام[9] في مطرف الايام فلما أَحسَّ منهُ بالانحراف اسكنهُ في قصر بنى اساسهُ على الملح حتى اذا دجى الليل أَرسل الماء حولهُ فذاب الملح

(١) المسعودي ٢ * ١٨٤ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٠ (٣) ابن خلكان ١ * ١٤٩ (٤) المسعودي ٢ * ١٨٣ (٥) ابن الاثير ٥ * ٢٢٦ (٦) ابن خلكان ١ * ٢٠٥ وأَغاني ٩ * ١٢٤ والوطواط ٧٩ والفخري ٢٠٨ والعقد الفريد ٣ * ٥٣ (٧) المقدمة ١٧٤ والفخري ٣٦ والمسعودي ٢ * ٤٠٠ (٨) ابن الاثير (٩) ابن خلكان ١ * ٢٩٩

وسقط البيت (١) . وهذا من الامور التي يتناقلها الناس عنهُ بسوء الأحدوثة كما يتناقلون ذكر قتلهِ لأبي مسلم وكلاهما من القوَّاد الذين رفعوا دولتهُ في فارس فخراسان فالعراق فما بين المسجد الأقصى الى المسجد الحرام . ولقد فاوضتُ أبا يوسف في هذا الشأن فوافق قولهُ ما في نفسي من المؤاخذة على أبي جعفر في ظلمهِ وقال انهُ قد قتل خلقًا كثيرًا حتى استقام ملكه (٢) وحدثني ان سلامة أمهُ (٣) لما حملت بهِ رأت في منامها كانَّ سبعًا خرج من قبلها فأقعى وزأر فأقبلت عليهِ السباع من كل ناحيةٍ وكلما انتهى اليهِ سبعٌ سجد لهُ (٤) فصحَّ منامها بما يراد من معنى المُلك والظفر . وان كان السبع بمكان من القوَّة فان الغدر منتسبٌ ايضًا اليهِ

ولقد دخلتُ على ابي جعفر مرةً واحدةً بعد رجوعهِ من الحيرة وهي المدينة التي يقصدها حين يشتدُّ عليهِ الحرُّ في الزوراء اذ ليس في جوارها ما يصلح لسكن الملوك غيرها (٥) فلما اذن للناس بالدخول عليهِ صحبتُ لسان الشريعة ابا يوسف فأصبناهُ في مجلس من الامراء قعودٌ بين يديهِ وفيهم ابو دلامة الشاعر وهو يدنيهِ اليهِ ويضحك منهُ على بيتين انشدهُ اياهما في الاستهزاء على زيّ المقرَّبين اليهِ وكأنَّهم

(١) الفخري ١٩٨ والمستطرف ١ * ٩٦ وابن الاثير ٥ * ٣٢٥ (٢) الخميس ٢ * ٣٢٤ (٣) العقد الفريد ٣ * ٥٢ (٤) المسعودي (وهو يجعل هذا السبع اسدًا) (٥) اغاني ٣ * ١٢٥

في كتابة الآية بين اكتافهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم فكان يضحك منهُ ويقول قاتلك الله لقد ابيتَ الاَّ هزلاً والبيتان هما قولهُ[1]

وكنا نرجّي من امامٍ زيادةً فجادَ بطولٍ زادهُ في القلانسِ
تراها على هامِ الرجال كانَّها دنانُ يهودٍ جُلّلت بالبرانسِ

ثم انهُ اذن لجماعةٍ بالانصراف وامرنا بالجلوس وقال بعد ان قمنا بالواجب من اجلالهِ اني رأيتكم (يريد الفرس والأَعراب) اهل وفاء[2] فوليتكم المناصب في دولتنا ولم ارَ بني أُميّة قد انتبهوا لذلك ولا تكلَّفوا العناية في تجميل الدولة وانما كان عبد الملك جبّاراً لا يبالي بما يصنع وكان سليمان همّهُ بطنهُ[3] وكان عمر اعور بين عميان ثم افضى امرهم الى اولادهم المترفين فكان همّهم قصد الشهوات وركوب الملذّات والاسترسال في القصف والتهتّك[4]. فلما ذكر ذلك عنهم وقع عليهم قذفٌ شديدٌ من الحاضرين بما يرومون من موافقة السلطان وقالوا ان الامويين كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلّون اخذ اموالهم بغير استحقاق[5] ويكلفون اهل

(١) ابن الاثير ٥ * ٢٤٥ واغاني ٥ * ٥٩ و٩ * ١٢١ والسيوطي وابن عون والوطواط ٢٠٢ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) ابن خلكان ١ * ٤١٠ وتزيين الاسواق ١ * ١٤٢ والمسعودي ٢ * ١٢٨ (٤) المقدمة ١٨٠ والقزويني ١٦ والمسعودي ٢ * ١٨٢ والايدي ٨١ (٥) المقدمة ١٨٠

القرى اذا خرجوا الى الصيد ما لا طاقة لهم بهِ بالضرب والاهانة ولا يقنعهم ذلك حتى يحطموا زرعهم في طلب الصيد . ثم تمادوا من الحديث الى حث ابي جعفر على تتبُّع الهاربين منهم وانشدوهُ قول سديف [1] لابي العبَّاس رحمهُ الله

لا يغرَّنكَ ما ترى من رجالٍ ان تحت الضلوع داءً دويّا
فضعِ السيفَ وارفعِ السوطَ حتى لا ترى فوق ظهرها امويّا

فامتلأَ وجه ابي جعفر غضباً وقال لعمري ان الامويين اهل مظالم قد غمطوا النعمة واستحلُّوا ما حرَّم الله عليهم وظلموا فيما خوّلوا من المُلك فخوى نجمهم وثلَّ عرشهم والبسهم الله الذلَّ بذنوبهم [2] ولهُ فيهم نقمة سانزلها بهم ان شاء الله . فعجبتُ من مظاهرتهِ بهذا الكلام الذي لا يصلح ذكرهُ في مجلس قد يجمع كثيراً ممَّنْ يتقرَّب اليهِ بالتدليس والمحال وانا لا اقول ان الامويين منزَّهون عن هذا الطعن ولكني ارى انهم لو لم يكونوا حقيقين بهِ لطعن بهم هؤُلاء السُقُق تقرباً من السلطان . وكان ذلك اول ما لقيت ابا جعفر ثم لم ارهُ من بعدُ لانهُ ركب [3] الى مواطن الحجّ شرَّفها الله بمنهِ وكرمهِ

(١) ابن خلدون والطبري وابن الاثير ٥ * ١٧٤ وابن عون والفخري ١٧٧ والسيوطي واغاني ٤ * ٩٤ والعقد الفريد ٢ * ٢٥٧ وابو الفداء ١ * ٢٢٤ والقناوي ٢٠٢ (٢) القزويني ١٦ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢

في ركوب ابي جعفر الى الحج

وكان لخروج الخليفة الى الموسم موكبٌ ليس احفل منهُ في مواكب الملوك واقبل اهل المدينة الى باب الكوفة[١] حيث اجتمع من النافرين الى الحج الشريف من العراقيين والفرس والخراسانيين ما لا يحصيهِ الاَّ الله وكلهم مجهَّزٌ إبلهُ وكسوتهُ وقرَبهُ وخرثيَّهُ وطعامهُ من الاخبصة اليابسة والخشنكاج والاقراص المعجونة باللبن والسكَّر والكعك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج[٢] ومعهم قطعةٌ من الجند[٣] تحوطهم في نزولهم وارتحالهم وفي طليعتهم هوادج تظللّها قباب من الديباج المخوص بالذهب[٤] وفيها يقيم الامير المولَّى على الحجاج وليس هو من رجال الدولة وإنما نظرهُ في امارتهِ مقصورٌ على عشرة أُمور[٥] في ان يجمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني وان يرتبهم في المسير ليعرف كلٌّ منزلهُ ويأْلف مكانهُ اذا اناخوا في بلدٍ وان يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنهُ ضعيفهم ولا يضلَّ عنهُ منقطعهم وان يسلكَ بهم اوضح الطرق وأَخصبها ويتحامى اوعرها واجدبها وان يرتاد لهم المياه اذا قلَّت والمراعي اذا انقطعت وان يحرسهم اذا نزلوا

(١) ابن الاثير ٦ * ٧ (٢) المسعودي ٢ * ٦ ٥ (٣) اغاني ٩ * ٦٤
(٤) ابو الفداء ١ * ١٥٧ (٥) الماوردي ١٨٧

ويحوطهم اذا رحلوا وان يمنع عنهم مَنْ يصدهم عن المسير بجهادٍ لا بمال لان المال على التمكين من الحج لا يجب وان يصلح بين المتشاجرين لانهم يكونون تحت ولايتهِ كأَهل مدينة تحت ولاية عاملهم وان يؤَدب خائنهم و يلزم الناس آدابهم وان يراعي فوات الوقت فلا يخشى عليهم ضيقةُ لانهم اذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين زوال الشمس الى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج . اه

ولما كان الظهر وقد غصّت بالناس المواقف وضاقت بهم الساحات ضرب البوق ايذانًا بركوب ابي جعفر فلم يلبث ان اقبل مرتفعًا على فيل ابيض قد استرسلت عليهِ الفضّة[1] وهو جالسٌ في هودجٍ منزَّلٍ بالاصداف اللامعة وعلى القبّة استار من الديباج يتخلَّلها القصب البرَّاق[2] وكان في يدهِ قضيب الخلافة وفي الأُخرى الخاتم وعلى كتفهِ بردةٌ خضراءُ للنبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم وهي غير البردة التي كانت لبني أُميَّة يلقونها على اكتافهم في جلوسهم وركوبهم لانها فُقِدت بفقدان الخلافة منهم وكان معاوية قد اشتراها من آل زهير بن ابي سلمى باربعين الف درهم[3]. وانما هذه البردة قد اعطاها النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم لاهل الأُبلَّة لتبقى عندهم بركةً منهُ فاشتراها ابو جعفر بثلاثمئة دينار[4] واتخذها من شعار الخلافة

(١) المقدمة ١٤ (٢) ابن جُبير (٣) ابو الفداء ١ * ١٥٦ (٤) السيوطي

موضع البردة التي كانت عند الأَمويين . واما الفيلة فانهُ لم يسبقهُ احدٌ من ملوك العرب الى اتخاذها في المواكب وقد اخبرني نصير انهُ اتخذها مركبًا لهُ لتعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها اذ انهـا اوطأُ مراكب الملوك وأَمهدها[1] . وكان يصحب ابا جعفر جماعةٌ من الامراءِ ووراءهم الابل التي يَظَّعِنها حريمهُ وأَهل بيتهِ وفيهم موسى بن المهديّ حاجًّا[2] ومعهم حَرَسٌ خاصٌ بهم يحملون الرايات السود

فلما وصل موكب ابي جعفر الى موقف الحجاج ارتفعت اصواتهم بالدعاءِ لهُ وعلت ضجتهم بالتكبير والتهليل فكان يستشعر الواقف من عزَّة الاسلام ما لا يخالج النفس اعظم منهُ ولا سيما ان ليس من فروض العبادة منهُ ما تظهر فيهِ أُبهة الدولة الاَّ الحج الشريف . فلما وقف القواد والامراءُ الى وداعهِ اوصاهم بالسهر على مصالح الرعية[3] وان يسأَلوا الله ان يسبل عليهِ انعامهُ حتى يلهمهُ الرأْفة بهم والاحسان اليهم ويفتحهُ لاعطائهم وقسم ارزاقهم بالعدل[4] . ثم عزم على وليّ العهد ان يصحبهُ الى قصر عبدويه على مسيرة يومين[5] من الزوراءِ لتتمَّ لهُ الخلوة بهِ على انفراد اذ كان يحسب من هذا الموسم دنوًّا ما لا مزد لهُ عليهِ[6] وكان يرى في منامهِ كانَّ نجومًا تهوي في السماءِ فكان يتفاءل

(١) المسعودي ١ * ١٨٥ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) السيوطي
(٤) العقد الفريد ٢ * ١٧٧ (٥) ابو الفرج . ٢٢ (٦) ابن الاثير ٦ * ٦

بالشؤم من ذلك فلما نفخ البوق ايذانًا بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الاباب وكأَنَّ سفنهُ الركاب وشرعها الظلائل المرفوعة والقباب [1] وكان في مقدمتهم هودج الخليفة لامعًا قصبهُ وذهبهُ كانهُ شمسٌ تسيرُ على الأَرض تعظيمًا للمسلمين واجلالاً للدين

ولما عاد وليُّ العهد من قصر عبدويه [2] احتجب عن الناس ايامًا لتعب نالهُ من السفر وقد كان قافلاً من الرقة [3] قبل ذلك بايام. فلما أَخذ نصيبهُ من الاستراحة شرع في مباشرة الاحكام بنفسهِ كعادة [4] ولاة العهود في تغيُّب الخلفاء عن الحضرة وقرَّب العلماء والادباء اليهِ وفرَّق في الناس أَموالاً طائلةً واخذ تجارتهم بعين الرعاية بعد ان كان ابو جعفر يساهمهم فيها [5] وكاد يمسُّهم بالخراب ويحملهم على الجلوّ عن اوطانهم سعيًا الى طلب الارزاق في غير العراق

ونحن اليوم تحت ولاية المهدي اشبه بنا تحت ولاية ابيهِ الاَّ فيما يصيرُ الينا من العطاء الذي لم نتعودهُ من ابي جعفر واما ما دون ذلك من امور السياسة فلم يكن لهُ الاَّ ان يقتفي بها اثرهُ ويمضي على ما رسم لهُ في وصيتهِ اليهِ [6] بقصر عبدويه وفيها يبدأُ بتحريضهِ على سكنى الزوراء وان لا يستبدل بها غيرها وان يظهر كرامة اهل بيتهِ [7]

(١) ابن جُبير (٢) ابن الاثير ٦ * ٦ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢
(٤) ابن الاثير ٦ * ٢٢ (٥) المستطرف ١ * ١٢٥ (٦) ابن الاثير ٦ * ٧
(٧) ابو الفرج ٠ ٢٢

ويحسن الى مواليهِ ويستكثر منهم ولا سيما اهل خراسان اذ كانوا شيعتهم وانصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم وان لا يدخل النساء في امرهِ [1] ولا يستعين باحدٍ من بني سليم خوفًا من ميلهم مع اهل البيت وهذا ما اوصاهُ بهِ طمعًا في بقاء المُلك لهُ ولولدهِ من بعدهِ وبعد ان فرغ من ذكر النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم [2] وحفظهِ في أُمَّتهِ ولزوم حدود الله وحدود الآدميين والعفَّة عن البغي الذي لا حاجة بهِ اليهِ مع ما خلَّفهُ لهُ من المال اوصاهُ بشحن الثغور وضبط الأَطراف واعداد الكراع والرجال وسوء الظنّ بالعمَّال وان لا ينام الَّا وهو مستيقظ الى آخر [3] ما اتى بهِ من دلائل الخوف في نفسهِ وان كان من احسن ما اوصى بهِ الملوك الى ابنائهم في السياسة

في ذكر مَنْ لقيتهُ من الشعراء

ولقد زهت دولة ابي جعفر بما اجتمع على بابهِ من الشعراء فأَحببتُ ان اذكر عنهم ما ورد على الخاطر الفاتر ولكن بايجازٍ يستدلُّ منهُ على موضعهم من الاجادة في مذاهبهم دون اطنابٍ ينتهي الى ما لا تسعهُ الصحف من ذكر ابياتهم. فأَبدأُ منهم بذكر بشار بن برد البصري الضرير وقد لقيتهُ في مجالس البرامكة [4] لاول قدومي

(١) الفخري ٤٨ (٢) ابو الفداء ٢ * ٧ (٣) ابن الاثير ٦ * ٧

(٤) الاغاني ٣ * ٢٦

الى الزوراء وكان خالد اعزَّهُ الله قد احبَّ ان يُطْلق عليَّ اسم الزائر ويبطل عني اسم السائل الذي كان ينعت بهِ الغرباء في ذلك الوقت[1] فقال في مجلسٍ حافلٍ بالامراء اني والله لا استقبل اسم السائل الاَّ لطلاَّب الخير وارفع قدر الكريم عن ان يسمّى بهِ امثال هؤلاء المؤمّلين لان فيهم الاحرار والاشراف ومن لعلهُ خيرٌ ممن يقصد وافضل ادبًا ولكنَّا نسميهم الزوار . فوجد بشار لنفسهِ نصيبًا من كلام الوزير فاطلقَ لسانهُ في الانشاد[2] بما دلَّ على سرعة خاطرهِ الى النظم وسعة تصرفهِ في الكلام[3]

ولقد رويتُ بشار هذا الشاعر نحوًا من مئة قصيدة ورأَيتُ لهُ ابتداءً حسنًا فيها كقولهِ[4]

أَبَى طَلَلٌ بالجزعِ ان يتكلّما   وماذا عليهِ لو اجاب متيّما
وبالفرعِ آثارٌ بقينَ وباللوى   ملاهي لا يعرفنَ الاَّ توهُّما

وهو يقرب ان يكون مثل ابتداءات امرئ القيس والقطاميّ وغيرهما من فحول الشعراء[5] ووجدتُ لهُ من جمال التشبيه ما يعجز البصراء عن الاتيان بافضل منهُ وفي قولهِ[6]

كأَنَّ مثار النقع فوق رؤُوسنا   واسيافنا ليلٌ تهادى كواكبه

---

(١) الوطواط ٢٤٩ والفخري ١٨٥ (٢) الاغاني ٣ * ٣٦ (٣) ابن خلكان ١ * ١٢٤ (٤) الاغاني ٣ * ٢٥ (٥) اغاني ٣ * ٢٥
(٦) اغاني ٣ * ٢٢

سموٌّ لم يعلُ عليهِ احدٌ من المتقدمين ولا المتأَخرين . وهذا من الغريب الذي لم يُسمَع بمثلهِ عن احد من العميان لان قولهم موقوف للزهد والمديح والهجاء ومقصور على ما يتصرفون بهِ من ابوابها . بخلاف هذا الشاعر الاعمى فانهُ يتوسَّع منها الى سائر المذاهب من غير ان يقع في الانحطاط الذي لا يُؤْمَن على من يدخل نفسهُ فيما هو غريبٌ عنهُ من الوقوع بهِ . وان كان المتبادر الى الظنّ ان يكون بعيدًا عن تصوُّر الحسن والاشراق فإنْ هو الاَّ اغزل الشعراء حيثُ يقول [1]

انا والله اشتهي سحر عينيكِ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ واخشى مصارع العشَّاقِ

وهذا احسبهُ فيهِ من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ولذلك اقدّمهُ على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يجلُّهُ عن القصور ولا اجد فيهِ من العيوب الاَّ افراغ غزلهِ في قالب الفسق [2] واسترسالهُ في هجاء الناس [3] واختلاقهُ بعضًا من الالفاظ التي يحتاج اليها لقيام ابياتهِ على القافية [4] من غير ان ترد في لغات العَرَب

وقد لقيتُ من الشعراء المقدَّمين مروان بن ابي حفصة وهو منقطع الى مديح معن بن زائدة امير شيبان [5] لانهُ قد كفاهُ مؤْنة الاستعطاء من غيرهِ ولما اتى في بعض قصائدهِ لهُ على ذكر بلائهِ في

(١) ابن خلكان ١ * ١٢٥ واغاني ٦ * ٤٩ (٢) اغاني ٣ * ٤١ و٥٣ و٦٩ وابن الاثير ٦ * ٢٧ (٣) اغاني ٣ * ٧٢ وابن خلكان ٢ * ٣٥٢ (٤) اغاني ٣ * ٥٤ (٥) الاغاني ٩ * ٤٤

حرب الراوندية(١) بقولهِ

ما زلت يوم الهاشميَّةِ معلنًا بالسيف دون خليفة الرحمانِ
فمنعت حوزتهُ وكنت وقاءهُ من وقع كل مهنَّدٍ وسنانِ

اعطاهُ مئة الف درهم وذلك اعظم ما نال الشعراءُ من الجوائز حتى ان ابا جعفر لما بلغهُ الخبر قال في سبيل التعجب من سماحة معن لله درُّهُ من اعرابي ما اهون عليهِ ما يعزُّ على الرجال واهل الحزم(٢)

وقد انتهت بلاغة مروان الى القصيده اللاميَّة(٣) التي يقول فيها يمدح هذا الامير

تجنَّبَ لا في القول حتى كأنَّهُ حرامٌ عليهِ قول لا حينَ يسأَلُ
تشابه يوماهُ علينا فاشكلا فلا نحنُ ندري ايُّ يوميهِ افضلُ
ايوم نداهُ الغمر ام يوم بأسهِ وما منهما الاَّ اغرُّ محجَّلُ

ولكني سمعتُ من يقول انهُ رفعها في حَوْلٍ كامل فقالها في اربعة اشهر وانتحلها في اربعة اشهر وعرضها في اربعة اشهر(٤) فجاءَت كالسحر(٥) يعجز عن مثلهِ الشعراءُ . ولكن هذا يدلُّ على ان علمهُ اكثر من عقلهِ وان الشعر عندهُ صناعة ينال نفسهُ منها عناءٌ شديدٌ وانما يُحَبُّ من الشعراء سرعة خاطرهم الى النظم كما نعلم عن العربان قول

(١) ابن الاثير ٥ * ٣٠٢ (٢) المسعودي ٢ * ١٨٣ والمستطرف ١ * ٧٣ واغاني ٩ * ٤٤ وابن خلكان ٢ * ١٦٠ (٣) الوطواط ٢٦ وابن خلكان ٢ * ١٢١ (٤) اغاني ٩ * ٤١ (٥) ابن خلكان ٢ * ١٢١

الشعر ارتجالاً في المجالس والاسواق . ومن كلام مروان[1]

طرقتكَ زائرةٌ فحيِّ خيالها　　بيضاء تخلط بالجمال دلالها
فادت فؤَادكَ فاستقادَ ومثلها　　قادَ القلوبَ الى الصبا فأَمالها

وممَّن لقيتهُ من الشعراءِ ابو اسحق اسمعيل (من قبيلة عنزة[2]) ويعرف بابي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المئة والمئة وخمسين بيتاً في اليوم الواحد حتى ليس الى الاحاطة بجميعها من سبيل . ولهُ كلامٌ لم يشركهُ فيهِ احدٌ كقولهِ[3]

الناسُ في غفلاتهم　　ورحى المنية تطحنُ

وكقولهِ في تعزية جار لهُ[4]

لا تأمنِ الدهر والبس　　لكلّ حال لباسا
ليدفننَّا اناسٌ　　كما دفنَّا اناسا

وهو يأْخذ في ذلك على اسلوب سهْلٍ يروم ان تفهمهُ العامَّة وترضى بهِ الخاصَّة وان كان منحطّاً عن لغة الجاهليين في فصاحة الأَلفاظ. غيران تصرفهُ في الشعر مقصورٌ على ذكر عامَّة الآخرة[5] ولم احفظ لهُ في المديح الاَّ بيتين قالهما في عمر بن العلاء[6]

ان المطايا تشتكيكَ لانها　　قطعت اليك بسابساً ورمالا
فاذا وردنَ بنا وردنَ خفائفاً　　واذا صدرنَ بنا صدرنَ ثقالا ·

(١) اغاني ٩ * ٤٤　(٢) اغاني ٣ * ١٢٧　(٣) اغاني ٣ * ١٥١
(٤) اغاني ٣ * ١٧٥　(٥) اغاني ٣ * ١٢٦　(٦) المستطرف ١ * ٢٧٨ والوطواط ٣٦٢ والاغاني ٣ * ٤٦ وابن خلكان ١ * ١٠٠

وهذا احسن ما يقال فيمن يتوسع في الكرم اذ ان وراءهُ من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقةً بما لهُ من الجميل

ولقيتُ منهم أبا دلامة زند بن الجون وهو من الشعراء المجيدين ولكنهُ قد اضاع شعرهُ في استعطاء ابي جعفر وهو بمكانة من البخل كما علمتُ فقال في الثناء عليهِ [1]

لو كان يقعد فوق الشمس من كرمٍ قوم لقيل اقعدوا يا آل عباسِ
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكمُ الى السماء فانتم اكرم الناسِ

وهذا كلامٌ يسمو بهِ الى جمال الشعر ويملك العقول بما اودعهُ من وصف السعادة التي صوَّرها محفوفةً بالنور ولكن قد ضاع تأثيرهُ في النفوس ببُعد الممدوح عن هذه المحاسن التي يروم ان تكون فيهِ بما يجبيهُ لنفسهِ من الصلة. وقد وجدت شعر أبي دلامة محلًّى بالخلاعة كما اني وجدتهُ يتوسع منها الى المجون [2] وكثيرًا ما كنت القاهُ في مجالس المهالبة يلتمس نصيبهُ من عطائهم بما يتصرَّف بهِ من الهزل. وكان روح بن حاتم منهم قد خرج الى قتال العدو فبرز من صفوفهم فارسٌ فتقدَّم الى ابي دلامة بمبارزتهِ فقال على سبيل الاستعفاء

اني اعوذ بروحٍ ان يقدمني الى القتال فيخزى بي بنو أسدِ
ان المهلَّب حبَّ الموت اورثكم ولم أَرِث أَنا حبَّ الموت عن أَحدِ
ان الدنوَّ الى الاعداء اعلمهُ مما يفرّق بين الروح والجسدِ

(١) الاغاني ٩ * ١٢٢ والسيوطي (٢) ابن خلكان ١ * ٢٧١ والمستطرف ٢ * ٤ والاغاني ٩ * ١٢٣ والشربشي ٢ * ٣٦

فقال لهُ الامير ابيت في موقف الجدّ الاّ هزلاً وخلاعةً ثم ضحك منهُ واعفاه(١)

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الاعرابي. لقيتهُ في مجالس المهالبة مرةً واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنّانة فأَجزلوا عطاءهُ. وقد حفظت لهُ شعرًا من جملة ابيات يقولها في مدح روحٍ وهو قولهُ في الاستعطاء(٢)

اني لأَرجو ان لقيتك سالمًا ان لا أُعالج بعدك الأَسفارا

وكان روح عند ما انشدهُ اياهُ قد غلبت عليهِ الأَريحية فامر بافراغ المال عليهِ فقلت لهُ ما انت الاّ ما يقول فيك زهير(٣)

تراهُ اذا ما جئتهُ متهللاً كأَنك تعطيهِ الذي انت سائله

فقال والله ان اعطي لأَحبُّ اليَّ من ان أُمدح. ولابن المولى كلام يقرب ان يكون مثل اقوال المتقدمين ولهُ ابيات كثيرة في الغزل يزعم انهُ يقولها في قوسهِ تجميلاً للقريض ومن ذلك قولهُ(٤)

أَحنُّ الى ليلى وقد شطّت النوى بليلى كما حنَّ اليراع المثقبُ
تقرَّبت ليلى كي تثيب فزادني بعادًا على بعدٍ اليها التقرُّبُ

وقولهُ

وابكي فلا ليلى بكت من صبابةٍ اليَّ ولا ليلى لذي الودِّ تبذلُ

(١) ابن خلكان ١ * ٢٦٨ والاغاني ٩ * ١٢٥ (٢) اغاني ٣ * ٩٠
(٣) ابو الفداء ١ * ١١٢ وديوان الحماسة (٤) اغاني ٣ * ٩٢

وكان الحسن بن زيد من آل علي عم (وهو عامل[1] ابي جعفر على المدينة) قد دعاهُ واغلظ لهُ وقال أتشبب بحرم المسلمين وتنشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهرًا فقال امرأتي طالق ثلاثًا ان كانت ليلى الاقوسي هذه ذكرتها على سبيل التشبيب لان الشعر لا يحسن الاَّ بهِ[2]. على اني رأيت شعرهُ الى فصاحة البداوة أقرب منهُ الى حلاوة الحضارة وفي قولهِ[3]

سلا دار ليلى هل تبين فتنطقُ وأنَّى تردُّ القول بيداء سملقُ
عفتها الرياح الدامسات مع البلى باذيالها والرائح المتعبّقُ
بكل شآبيب من الماء خلفها شآبيب ماء مزنها متألّقُ

ما يبعد فهمهُ على سكان الامصار الذين ينقطع عهدهم بمحاسن العربية وانما يدخلون في لسانهم كلام السوقة[4] والفاظ الأعجام[5] الذين يخالطونهم في تجاراتهم حتى تصبح لغتهم في اشد المباينة مع لسان العربان

ومن لقيتهُ من الشعراء المجيدين[6] السيد الحميريُّ وهو من الواقفية القائلين بالامام المنتظر[7] يأتي في شعرهِ على غرضهِ في السياسة ويفرط في سبّ اصحاب النبي[8] صلَّى الله عليهِ وسلَّم وربما وقع عليهِ من الناس تجافٍ عن شعرهِ من هذا الجنس. الاَّ انهُ ليس

(١) ابن الاثير ٥ * ٣٤٣ (٢) اغاني ٣ * ٩١ (٣) اغاني ٣
(٤) اغاني ٣ * ١٣٣ و١٧٣ (٥) الصحاح والقاموس (٦) المسعودي
٢ * ٨٠ (٧) المقدمة ١٧٣ (٨) ابو الفداء ٢ * ١٥

لاحدٍ من شعراء هذه الايام ما لهُ من عذوبة الالفاظ وجودة السبك ورونق الشعر . وقد جلستُ اليهِ اكثر من مرَّةٍ ووجدتهُ حسن الكلام جميل الخطاب اذا تحدَّث بين القوم اعطى كل رجلٍ في مجلسهِ نصيبهُ من حديثهِ (١) . ولهُ في النسيب كلامٌ رقيقٌ ومن ذلك قولهُ (٢)

ولمَّا رأَتني خشيةَ البينِ موجعًا اكفكفُ مني أَدمعًا بيضها دُرَرْ
أَشارت باطرافٍ اليَّ ودمعها كنظم جمانٍ خانهُ السلكُ فانتثَرْ

ومن الشعراء المقدَّمين اشجع بن عمرو السلمي (٣) وقد نزل الشعر موهبةً في صدرهِ فانتهضت بهِ قيس لذلك اذ لم يكن بها في الاسلام شعر قبلهُ وانما كان الشعر في ربيعة واليمن فلما نجم اشجع وقال الشعر افتخرت بهِ قيسٌ على العَرَب (٤) ومما أُستحسنهُ من نظمهِ سهولة القول التي لا يعاني الى البراعة فيها تكلفًا وقد حفظتُ لهُ في مديح ولي العهد بيتين من جيّد الشعر وهما قولهُ (٥)

وعلا عدوَّك يا ابن عم محمَّدٍ رصدانِ ضوء الصبح والاظلامُ
فاذا تنبه رعتهُ واذا غفا سلَّت عليهِ سيوفكَ الاحلامُ

هذا ما اذكرهُ عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار وقد رأَيتهم يتسابقون الى ابتكار المعاني الحسان من غير ان يسترقوا اقوال مَنْ

(١) اغاني ٧ * ٣ (٢) اغاني ٧ * ٦ (٣) اغاني ١٥ * ١٠٨
(٤) اغاني ١٧ * ٣٠ (٥) اغاني ١٧ * ٤١ و٣٢

تقدَّمهم من الشعراء الاَّ فيما كان اقلَّ من النادر [١] وحتى لو انا رأَينا لهم ما سُبقوا اليهِ لما صحَّ تهمتهم بالسرقة اذ ان العقول قد تتوافق وتتوارد وهؤُلاء هم اشعر العرَب قد اجتمعوا في الزوراء الاَّ ابن هرمة [٢] وسلم الخاسر [٣] وكلاهما شاعرٌ مجيدٌ ايضاً الاَّ ان ابياتهما لم تصل اليَّ فلم اعاني اخبارهما في هذا الكتاب

الرسالة الرابعة

في ذكر خلافة المهديّ

أَفتتح هذه الرسالة اليك بذكر جلوس المهدي على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة ابي جعفر [٤] . وقد كان لذلك يومٌ عظيم في الحضرة والاسلام كلّهِ. لان العقلاء من اهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العبَّاس او تعذُّر مصيرها الى ولي العهد والمشايخ من آل هاشم حاضرون . فجرى الامر على خلاف المظنون بحيلةٍ علمتها من البرامكة اعزَّهم الله سرًّا لم ينكشف على الناس

(١) ابن خلكان ١ * ٢٠١ واغاني ٣ * ٤٩ و١٤٨ و٥ * ١٧٨ والحصري ٢ * ١٦٧
(٢) اغاني ٤ * ١٠٠ (٣) ابن خلكان ١ * ٢٨٠ (٤) ابن الاثير ٦ * ١٢

الى هذا اليوم . وذلك لما اودى ابو جعفر كتم الربيع موتهُ[1] الى الصباح على من كان معهُ في الحجّ واستدعى عيسى بن عليّ عمهُ وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد ابنهِ وجماعة من القوَّاد والامراء وتقدَّم عن امرهِ اليهم ان يجدّدوا البيعة لابنهِ من غير ان يعلمهم بوفاتهِ . فلم يتجرأ احدٌ على مخالفة امرهِ ظنًّا بصدورهِ من السلطان ولو انهم علموا بوفاتهِ ما تسارعوا الى تجديد هذه البيعة للمهديّ . فلما اخذها الربيع منهم دخل الى موضع الخليفة ثم عاد اليهم مشقوق الجيب باكيًا ينعي وفاتهُ . فأَخذ رجال المهدي في تدبير الامر لهُ وتوثيق البيعة وركبوا الى مكَّة وبايعوا الناس فيها[2] واهل الحلّ والعقد فصارت الخلافة الى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب[3] على الربيع من وجه الظلم وان كان فيها حقنٌ لدماء المسلمين

وكانت وفاة ابي جعفر في بئر ميمون مع السحر لستٍّ خلون من ذي الحجَّة وهو قد احرم[4] بظاهر مكَّة ولذلك دُفن مكشوف الرأس[5] دون احد من الخلفاء قبلهُ لان النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم منع المحرِم من لبس القمص والعمائم والبرانس وغير ذالك[6] من انواع المخيط وحفر لهُ اهلهُ مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون[7]

(١) ابن الاثير وابن خلدون والطبري والحصري ٢ * ١٥٢ (٢) ابن الاثير ٦ * ٨ (٣) الفخري ٦٠٢ وابن الاثير ٦ * ١٢ (٤) الخميس ٢ * ٣٢٩ (٥) ابو الفداء ٢ * ٧ وابن الاثير ٦ * ٨ (٦) الزرقاني ٢ * ١٤٨ (٧) الخميس ٢ * ٣٢٩ والعقد الفريد ٣ * ٥٣

ليعموا على الناس ثم دفنوهُ في غيرها . ووجّه الربيع منارة[١] الخادم الى الحضرة بالبيعة[٢] وأمرهُ بالسرعة خوفًا من فتنةٍ تحدث في الاسلام فجاءها في احد عشر يومًا من مكّة[٣] وقد كنتُ في مجلس هرون حين سمعتُ الصيحة من مقاصير الحرم فاستعلمتُ عن الخبر فنُبِئتُ ان ابا جعفر قد مات فاسرعت الى منازل البرامكة فأخبرني حاجبهم ان المهدي قد ندبهم اليهِ فنزلت الى السوق فلقيتُ ابا يوسف سهمًا حاميًا فابنتُ لهُ ما في شوق النفس من شهود بيعة الخلفاء فاشار عليَّ بالبقاء معهُ الى قُبَيل الظهر وهو الوقت الذي تؤخذ فيهِ على محضرٍ من القُوَّاد والامراء والفقهاء واهل الحلِّ والعقد من العرَب

فلما سرنا الى دور الخلافة رأَينا الساحات غاصّةً بجماهير الناس فولجنا باب السور بين ازدحامٍ يضيّق الانفاس حتى أُفضينا الى باب القصر فجاوزنا الحجَّاب الى المجلس الذي تقام فيهِ البيعة فاذا بهِ قد جمع[٤] الامراء من بني العبَّاس وجِلَّة القوَّاد والأَعيان واهل البيوتات الأَميرية مثل البرامكة وآل المهلَّب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نوبخت وغيرهم من المقدمين في هذه الدولة . وكان المهديُّ مستويًا على عرش مكلَّل بالذهب وعلى رأسهِ قبَّةٌ تتدلَّى منها استارٌ

(١) المسعودي ٢ * ١٩٤ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٣) ابو الفداء ٢ * ٩ (٤) السيوطي

من الديباج (١) وعلى يمينهِ ويسارهِ غلامان قد التحفا بالذهب ووقفا بمظلّتين من الريش الاسود مرفوعتين على رمحين مكسوين بسلاسل من الذهب قد رصعت بالياقوت والزبرجد ودونهما بنو هاشم على وسائد قد ثُنيت لهم (٢) ولباسهم خزٌّ اسود وكذلك كان لباس المهديّ وكانت عليهِ الطرحة (٣) وعلى كتفهِ بردة النبي التي كان استصحبها ابو جعفر معهُ الى الحج وفي يدهِ اليمنى القضيب وفي اليسرى خاتم الخلافة.

وكان على يمين العرش منبرٌ مزخرفٌ بانواع الزينة والجوهر والديباج عليهِ كاتب المهدي في خلافة ابيهِ (٤) ابو عبد الله معاوية بن عبد الله الاشعري وهو مشهور بالبلاغة قرَّبهُ اليهِ ليكون عونهُ في تدبير الملك ووزيره (٥) في سياسة الدولة وكان سلامان الابرش واقفًا على بعض مرقاة هذا المنبر (٦) بالبيعة التي جاءت من مكّة وفوقهُ يحيى بن خالد يأخذ من البيعة على امراء الحضرة واعيانها واكابر المسلمين الذين لم يروا الاَّ متابعة الناس بعد ان بايعت مكة والمدينة وبايع القوّاد والامراء

وعادة الناس في مثل هذا الموقف انهم يبدأون الخليفة بتعزيتهِ في ابيهِ او من سلفهُ على المُلك ثم يهنئونهُ بجلوسهِ على تخت الخلافة.

---

(١) المسعودي ١ * ٢٣٤ (٢) اغاني ٤ * ٩٣ (٣) السيوطي
(٤) الفخري ٢١٥ (٥) المسعودي ٢ * ١٩٦ واغاني ٣ * ٤٦ والعقد الفريد ٣ * ٥٣ (٦) السيوطي

فلما اخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلانسهم ونبذوها وراء ظهورهم لان الخلفاء لا يُعزَّون بالعمائم[1] ثم وقف ابو عبد الله لمبايعتهِ فقال انَّا نبايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام ابا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور على كتاب الله وسنَّة نبيّهِ واجتهاد امير المؤمنين وان لا خليفة سواهُ[2]. ثم بايعهُ بنو هاشم وانثال عليهِ القوَّاد والامراء يبايعونهُ فلم يكن يُسمَع الاَّ دعاء لهُ وتنويه باسم بني العبَّاس

ثم ان يحيى بن خالد تناول منشورًا كان الربيع قد كتبهُ عن لسان ابي جعفر وتلاهُ في مكَّة[3] استنهاضًا للناس الى مبايعة المهديّ. فتلاهُ يحيى على مسمع من الحاضرين وفيهِ يقول بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور امير المؤمنين الى من خلف من بني هاشم وشيعتهِ في خراسان وعامة المسلمين. اما بعد فاني كتبت كتابي هذا وانا حيٌّ في آخر يومٍ من ايام الدنيا وأَول يوم من ايام الآخرة اقرأُ عليكم السلام وأَسأَل الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيعًا ولا يذيق بعضكم بأْسَ بعضٍ وأُوصيكم بمحمدٍ وليّ عهدكم واذكركم البيعة لهُ واستنهضكم للوفاء بعهدهِ واجتماع كلمتكم عليهِ فانما قوتكم تكون بالاجتماع الى رأْيهِ وقد اوصيتهُ بكم والرأْفة عليكم والاحسان الى

(١) اغاني ٩ * ٩٧ (٢) السيوطي (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢

المسلمين والسلام [١]. فترقرق الدمع في عيني المهدي [٢] ولم يتمكن من اطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء عند ما يتولَّون الخلافة لما هو بهِ من الحزن الشامل فصرَّف الامراء وهم يدعون لهُ بالسلامة

سياسة المهديّ بالرأفة والحلم

ولما كان المساء وقع في المدينة زينةٌ حافلةٌ فصرفتُ العناية الى تزيين مشرع الزوايا [٣] بالانوار لقربهِ من موضعي ليكون في ذلك خروجٌ عن الملامة ورفعٌ لألسنة الوشاة عن السعاية بي الى السلطان. وامتلأت الزوراء بعد ذلك من ارباب الملاهي ومما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها للعب الصبيان في المواسم والاعياد [٤] فرأَيت اقبال العامَّة [٥] من العرب عليهم كاقبال عامتنا على المشعوذين [٦]. ورأَيت جماعةً من اعيانهم وقوفًا الى رجلٍ بين يديهِ شاةٌ يوهم انهُ ينحرها ثم يلصق اليها رأْسها فتعود فورًا الى الحياة [٧] ولهُ بذلك حركات خفية لا ينتبه لها الناظر فيحسبها من السحر وليست كذلك فلقد جلستُ في هرمز الى مشعوذين يزعمون انهم اخذوا السحر عن الكلدان وقوم هاروت وماروت من كتبٍ لا توجد عند غيرهم من الناس فلما وقفت على اعمالهم وسبرت غور صناعتهم وجدتُ

(١) ابن الاثير ٦ * ١٢ (٢) الاسحاقي ٨٨ (٣) ابن خلكان ١ * ٤٦٤
(٤) ابن خلكان والغزالي في كتابهِ احياء علوم الدين (٥) المسعودي ٢ * ٥٨ (٦) المسعودي (٧) المسعودي

ذلك علماً بمهارةٍ لا ملكةً نفسانيةً يقتدرون بها على اعمال غريبة مثل هذه[١] والاَّ فان السحر لا يكون الاَّ بالتوجه الى الشياطين بانواع التعظيم والعبادة[٢] وان الوجهة لغير الله تعالى كفرٌ ولذلك كان السحر من هذا الوجه كفراً يستغوي الخلق بالأَضاليل وكان صاحب الكفر مقتولاً كما ينص عليهِ الشرع الشريف

ولما تحوَّل المهدي الى دور الخلافة كما جرت العادة[٣] عند جلوس الخلفاء[٤] صنع طعاماً لبني هاشم وسائر قريش وفضل الملوك قاطبةً بسعة النفقات[٥] حتى انهُ كان يطعم الناس الطير وخبز السميذ وكان يحمل معهُ بدر الدراهم والدنانير في ركوبهِ فلا يتعرَّض لهُ احد في مسيرهِ الاَّ اعطاهُ[٦]. ومجمل القول ان هباتهِ كانت غير محصورة[٧] حتى ان خازنهُ خاف نفاق المال[٨] اذا استمرَّ على هذا العطاء ولا سيما بعد ان نقص دخل الدولة برفع المون والكسور وهو الامر الذي كان يفاوضني بهِ كثيراً في خلافة ابيهِ فان الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدُّون ما في ايديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر لا يفرقون في الاوزان فلما ساد فيهم العمران وأَفسدهم التجار والصيارفة صاروا يؤدُّون الدينار الطبري الذي

(١) ابن عابدين ١ * ٤٦ (٢) المقدمة ٤٢٥ (٣) ابو الفداء ٢ * ٢٠
(٤) السيوطي (٥) اغاني ٣ * ٩٤ (٦) المسعودي ٢ * ٤٠١
(٧) الخميس ٢ * ٣٣٠ (٨) المسعودي ٢ * ١٩٦

هو اربعة دوانيق ويسكون الوافي الذي هو مثقال فلما أُمِّر زيادٌ على العراق صار يطلب الوافي ثم أُمّر الحجاج فكان يطلبهُ كذلك. فلما ولي ابو جعفر ازال الخراج عن الحنطة والحبوب وصيّرهُ على اهل الفلاحة مقاسمةً كما ذكرتُ لك قبل اليوم من غير ان يسقط عنهم الكسور. فلما ولي المهدي قال معاذَ الله ان الزم الناس ظلماً في ذلك . فقيل لهُ ولكن ان اسقط امير المؤمنين هذا ذهب من امواله في السنة اثنا عشر الف الف درهم[1] فقال عليَّ ان اقرر حقاً وأُزيل ظلماً فما العدل الاَّ موفرٌ للجباية وما الجور الاَّ آذنٌ بخراب الامصار

هذا احسن ما وجدتهُ في المهدي اصلحهُ الله باخذهِ الامَّة بالحلم والتُؤَدة[2] وهو اثر محمود تعود فائدتهُ على الدولة بالثروة والعمران لان الدُوَل التي تُحمّل اهل الفلاحة فوق طاقتهم ثقلاً وتلزمهم في ضياعهم خراجاً لا يفي بهِ دخلها ثم يشكون اليها عجزهم عن تأدية ضرائبها وهي لا تنظر الى شكاياتهم بعين الرعاية فهذه دول يأول امرها الى الانحلال[3] لانها تكون على سوءِ ظنٍ من رعاياها كما انهم يكونون على سوءِ ظنَّةٍ فيها ايضاً وهذا موقفٌ لا بدَّ ان يفضي الى سوءِ العاقبة والانقراض ويكون منهُ ويلٌ وثبورٌ لارباب هذه الدول

(١) الماوردي ١٢٧   (٢) العقد الفريد ١ * ١٢   (٣) نهج البلاغة (في وصيّة عليّ عم)

لانهم وان اصابوا في بدء الامر كثيرًا من المال الذي لا يستحقّ لهم الاَّ على وجه الطمع الاَّ انهم لا يتمكنون من دوام نوالهِ لانجلاء الناس عن مواطنهم بعد ان يطمسها الظلم فتقل جبايتهم وينفرط نظام ملكهم ثم لا يجدون في امتهم الاَّ عدوًّا يلتمس الخروج عن طاعتهم ولو على بذل النفوس

وكانت وفود البلدان ترد على المهدي من الاقاليم الاسلاميَّة الاقرب فالاقرب لتهنئتهِ بالخلافة [1] . فاجتمع ببابهِ كثيرٌ من اشراف العَرَب وملوك الاقاليم وامراء الجند وكانوا يتبركون بهِ ويتوسَّمون فيهِ الخير [2] لانهُ رأَوا فيهِ عدولاً عن سيرة ابيهِ من الظلم والجبروت وانما كان لهم محسنًا اليهم [3] متفقدًّا لامورهم يسوق اليهم الجميل ويستميل اكابرهم اليهِ لادخال محبتهِ في قلوبهم فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسًا لرد المظالم [4] ينظر في تعدّي الولاة على الرعيَّة [5] والبحث عن جورهم فيما يجبونهُ من الاموال وينظر في امور كتَّاب الدواوين وما يتخلَّل اعمالهم من التزوير [6] وفي تظلُّم المسترزقة من الجند من نقص ارزاقهم او تاخرها عنهم . وفي مشارفة الوقوف. ورد المغصوب الى اصحاب الحقوق . وتنفيذ ما وقف من احكام

(١) ابن الاثير والاغاني ٦ * ١٤٦ و١٩٥ والمستطرف ١ * ٥٩ والعقد الفريد ٢ * ٤٢ والمسعودي ٢ * ٧٢ (٢) اغاني ٢ * ٩٤ (٣) الخميس ٢ * ١ ٣٣ (٤) السيوطي (٥) ابن الاثير ٦ * ١٥ (٦) الماوردي ١٢٧

القضاة لضعفهم عن انفاذهِ وعجزهم عن المحكوم عليهِ لقوَّة يدهِ وعلوّ خطرهِ . وينظر في امر كل ما عجز الناظرون عن امرهِ . ويأخذ في مراعاة العبادات الظاهرة كالاعياد والحجّ والجهاد من تقصيرٍ يقع فيها او اخلال يطرأ عليها[1] . الى امور غيرها تتسع في كثرتها فيضيق عنها نظر القضاة[2]

وقد حصل في نفوس الناس سرورٌ عظيم من قيام هذا الديوان وانطلق لسانهم بالدعاء للمهدي بعد ما اصابهم من الضيم في خلافة ابيهِ فوجد فيهم ما كان يلتمسهُ من محبتهم لهُ ورأى ان يجلس بنفسهِ للمظالم[3] لتتم بذلك الفائدة المقصودة من زجر المتعدي من الخصمين وقمع الظالمين من الولاة وامضاء ما يعجز القضاة عن امضائهِ في البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل المتنازعين على الصلح الى غير ذلك[4] مما يحتاج الى علوّ يدٍ وشدَّة مهابةٍ من خاصَّةٍ وعامَّة

خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد

ولقد وجدت للمهديّ في استمالة الصدور اليهِ غايتين تصبو اليهما نفسهُ ولا يهدأ لهُ بالٌ الاَّ بقضائهما على الوجه الذي يرومهُ من

---

(١) الماوردي ١٤٠ (٢) المقدمة ١٩٢ (٣) ابو الفداء ٢ * ١١ وابن الاثير ٦ * ٢٩ وابو الفرج والسيوطي والفخري ٢١٢ (٤) المقدمة ١٩٢

من اذلال العلويين الى أَمنهِ من تغلُّبهم عليهِ وجعل الخلافة في ولْدهِ من بعدهِ ممنوعةً على غيرهم من آل العبَّاس. فاما امر العلويين فما كان يشتدُّ عليهِ وقعهُ بعد ما رماهم ابو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها الى زمنٍ يلمُّون بهِ شعثهم ويجمعون اليهم اطرافهم فكانما هو يقارعهم بسيف ابيهِ الى هذا اليوم. واما خلع عيسى عن ولاية العهد فانهُ كان يتعب منهُ البال وقد دخل عليهِ يحيى بن خالد اعزَّهُ الله فاصابهُ في قلقٍ شديدٍ وهو يقعد مرَّةً ويضطجع أُخرى قال يحيى فعلمتُ من ذلك انهُ يريد امرًا عظيمًا فقال لي اجلس قريبًا مني لاني اريدك لمشورةٍ [1]: ان النبيّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم مات في غير وصيَّةٍ وترك الامر شورى بين المسلمين فما لبث العرَب ان اجمعوا على ابي بكر ولكن بعد فتنةٍ كادت تقع بين الانصار والمهاجرين لقولهم منَّا اميرٌ ومنكم امير ثم مات ابو بكر وصيَّر الامر الى عمر على محضرٍ من الصحابة فلم ينازعهُ فيهِ احدٌ ثم عهدها عمر الى الستة نفرٍ الذين قبض النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم وهو عنهم راضٍ فاجمع رأْي الامَّة على عليّ وعثمان وكان عبد الرحمن بن عوف يميل الى عثمان وفي وصيَّة عمر الى المسلمين ان يتَّبعوا رأْيهُ فبايعوا مَنْ احبَّهُ. فمكث عثمان في خلافتهِ الى ان ثارت عليهِ الفتنة لاقصائهِ ولد ابي بكر واقبالهِ على اقاربهِ من الامويين بالصلات وعهد المسلمين قريبٌ

(١) المسعودي ٢ * ٢١٥

بضبط[١] ابي بكر وعمر فقتلوهُ وكانت تلك اول فتنة في الاسلام[٢] .
ثم اجمع العَرَب على عليّ (عليهِ السلام) وكان الفرس يميلون معهُ فاستوثق لهُ الامر من العراق واليمن والحجاز وخراسان وفارس ومصر وافريقية الاَّ الشام لاستقواءِ[٣] معاوية فيها . فلما قتلهُ الخوارج وبويع ابنهُ الحسن صالح امير الامويين حقناً لدماء المسلمين ونزل لهُ عن الامر فصارت الخلافة الى غير اهلها بما قد بلغك من الفتن[٤] واخاف اليوم انها اذا صارت الى ابن عمي ذهبت من ولدي بلا رجوع ووقع من الفتن ما لا تؤمن غائلتهُ على المسلمين فأشِرْ عليَّ في هذا الامر الذي لا يتعاظمهُ امرٌ فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر[٥] .

قال يحيى رعاهُ الله يا امير المؤمنين اني ارى الزلَّة في هذا الامر لا تستدرك والخطأَ فيهِ غير مأمون وان تكتب بالولاية لاولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكد في البيعة . فقال كنت على هذا لولا التوجُّس من عيسى نكث العهود وتصيير الخلافة في ولدهِ من بعدهِ ولكني أرى ان اخلعهُ عن ولاية العهد وآخذ بيعة المسلمين لموسى . فقال يحيى على امير المؤمنين ان يُعلِم شيعتهُ ومسانَّ اهلهِ بذلك ولم يتعمَّق في هذا البحث الى أَبعد ممَّا ذكرهُ لان موقفهُ بين العلويَّة

(١) الفخري ١٦ أ (٢) السيوطي (٣) الطبقات ١ * ٣٨ (٤) راجع كتب التاريخ (٥) المسعودي ٢ * ٢١٥

والعبَّاسيَّة لمن اشدّ ما يكون من الصعوبة. وانهُ وان كان يأْخذ في تعظيم العبَّاسيين لرسوخ دولتهم في المشرق الآن لهُ في حبهِ للعلويين ما يرى عدوهم عن العراق الذي تزهق النفس دون الوصول اليهِ وانما يلتمس لهم من المغرب أُمَمًا ترسخ فيهم دولتهم الى ان يأْتيهم الله بالفتح ويعيد لهم الخلافة التي صارت عنهم الى غير اهلها

ولما جمع المهديُّ شيعتهُ واكابر دولتهِ وافاض معهم بالحديث في خلع ابن عمهِ عن البيعة وافقوهُ على ما تهواهُ نفسهُ[1] وانتهى الى ان يقول بعضُ من يستخدم الفقه في رضى الملوك ان ابا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية الَّا لتبقى الخلافة في اهل بيتهِ بعد المهدي فلما رزقهُ الله اولادًا كانوا احقَّ بها من اعمامهم وسائر اقاربهم. فكتب المهديُّ الى الرحبة في اشخاص ابن عمهِ فلم يصل منهُ خبرٌ فساءَهُ ذلك وكنت يومًا بحضرتهِ فقال يحزنني تردّد عيسى ولو طرفة عين ووالله لئن لم يجبني الى ان ينخلع عن الولاية لاوقعنَّ بهِ واستحلّنَّ منهُ بمعصيتهِ ما يستحلُّ من اهل المعاصي وان اجابني عوّضتهُ منها بما يستمتع بهِ من النعمة. ثم وجه اليهِ روح بن حاتم من تحت الليل حتى لا ينتشر الخبر في الحضرة فجاءَهُ منهُ ان عيسى متحصنٌ بالرحبة لا ينال بالحيلة ولا بالملاينة. فعمد المهديُّ الى المكيدة في ذلك وارسل الجند على هذا الوجه مأْمورًا بان لا يأْخذهُ بالقتال فلما سمع عيسى ضرب الدفوف

(١) ابن الاثير ٦ ✱ ١٦

سحراً ثم رأى سواد الجيش ارتاع لذلك ولم يبقَ سبيلٌ الى الاعتلال بالشكوى فسلَّم نفسهُ الى ابي هريرة محمد بن فروخ قائد هذا الجيش فقدم بهِ على المهدي فاكرم وفادتهُ وانزلهُ في قصر محمد بن سليمان (١) من الجانب الشرقي ولم يزل بهِ في انواع الحيلة والملاطفة والوعد بالمال الكثير (٢) الى ان اجابهُ الى الانخلاع بعد ما لحقهُ من الضيم الذي ينطق بظلم العباسيين وتطاولهم في امر الخلافة (٣) التي هي اعظم امر في الاسلام

ولما تصرَّف المهديُّ في خلع عيسى عن الولاية قام عليهِ المخالفون لهُ في ذلك (٤) ونغَّصوا عليهِ مؤَاثرة الولد على من هو احقّ بخلافة المسلمين فحصل في نفسهِ منهم خوفٌ شديد ولم يرَ مقاومتهم بالقتل وفيهم كثيرٌ من اهل السيف لئلَّا تثير الفتن في الامَّة فتعود عليهِ بغير المراد وانما رجع الى من يلوذ بهِ من العلماء وأَمرهم بتصنيف الكتب في الردّ عليهم (٥) وقد يفعل القلم ما لا تفعلهُ السيوف القاطعة . ثم انهُ اخذ في إِصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من اهلها بابعادهم عن الفسق واكراه عزَّابهم الى الزواج (٦) والاحسان الى المتعففين من الشبَّان مما جرى لهُ قبلٌ وقال بين الناس على

(١) ابن الاثير ٦ ✻ ١٦   (٢) الخميس ٢ ✻ ٣٢٠   (٣) العقد الفريد ٣ ✻ ٣٧   (٤) ابن الاثير ٦ ✻ ١٦ والسيوطي والفخري   (٥) السيوطي
(٦) ابن الاثير ٦ ✻ ١٤

نسبتهم ذلك منهُ الى غيرةٍ بهِ على النسوان [1] وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح مدينتهِ لموازنتها مع مكة حتى يعظم فيها امر الدين وتصبو اليها افئدة المسلمين

ولما حقق بغيتهُ بما اراد من البيعة لاولادهِ [2] بقي عليهِ ان ينظر في امر العلوية وقد كان منهم رفع الله قدرهم جماعةٌ في السجون لم يطلقهم منها فيمن اطلقهُ عند ما ولي الخلافة [3] وانما ابقاهم مع الذين عندهم تبعةٌ من دمٍ او مالٍ وهذا من شر ما يلاقيهِ اهل البيت من الذين ورثوا جدَّهم واباهم صلَّى الله عليهِ وسلَّم . ثم لم يكفهِ ذلك ظلمًا لهم وعبثًا بحقوقهم حتى انهُ تعمَّد الاضرار بهم على وجهٍ خاص بانهُ استمال اليهِ جماعةً من شيعتهم ليطلعوهُ على ما يسرُّون وفيهم رجل من بني سليم يقال لهُ يعقوب بن داود طوَّق اليهِ الوزارة ومكَّنهُ من مفاتيح بيوت المال [4] ليطلعهُ على امر العلويين ويعلمهُ بمكان الحسن بن ابرهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن رضي الله عنهُ بعد خروجهِ من السرداب الذي حفرهُ اصحابهُ الى محبسهِ [5] . ولكن يعقوب ذو عقلٍ ورأيٍ وفتوَّةٍ لا يستبدل المال بغرضهِ غرضًا آخر فبقي ميلهُ مع اهل البيت والمهدي وابو عبد الله يظنان انهُ على خلاف ذلك [6]

---

(١) اغاني ٣ * ٤١ (٢) اغاني ٧ * ١٤ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٥ واغاني ٣ * ٣٩ (٤) ابن الاثير ٦ * ١٤ (٥) والفخري والطبري (٦) ابن الاثير ٦ * ١٤

ظهور المهديّ بمناصرة العلم

واني وان كنتُ على غير غرضِ العبَّاسيين في السياسة فاني اوفّي المهديّ حقّهُ من الثناء على عنايتهِ باهل العلم والادب[1] واخذهِ بيدهم الى ما هو مدعاة لنجاحهم . فقد كان يتخذ لهم ولارباب الصناعة والغايات اياماً[2] معلومة من السنة يعرضون فيها بضاعتهم من علمٍ او فنٍّ او ادبٍ او صناعةٍ ثم يجزيهم على ذلك بما هو واسع لهُ من الكرم . وكان اقرب الادباء اليهِ مكاناً عبد الله بن مرزوق نديمهُ[3] يدعوهُ الى مجالستهِ في اوقات الفراغ ولا يحتجب عنهُ احتجاب الخلفاء عن ندمانهم لانهُ[4] وجد لذَّة المنادمة ما لم يكن فيها سترٌ ولا حجاب . وكان يصل الشعراء بالمال الكثير و يأذن لهم بالدخول عليهِ في كل سنة[5] فقصدهُ ابن الخيَّاط من مكَّة وابن المولى من البادية[6] واشجع السلمي من الحجاز[7] وسلم الخاسر وبشار بن برد من البصرة وغيرهم كثير من الشعراء وقد حضرتُ مجلسهم عندهُ لاول خلافتهِ وقد نال جائزتهُ ابو العتاهية على قولهِ من قصيدة طويلة[8]

أَتتهُ الخلافةُ منقادةً اليهِ تجرّرُ اذيالها

(١) الاستحاقي ٨٨ (٢) المستطرف ١ * ٢٧ (٣) المستطرف ١ * ٨٧
(٤) السيوطي (٥) اغاني ٩ * ٤٤ (٦) اغاني ٣ * ٨٨ (٧) ابن خلكان ١ * ١٠١ (٨) الاغاني ٣ * ١٤٢ وابن خلكان ١ * ١٠١ والمونس ٢٤٢

فلم تكُ تصلح الاَّ لهُ ولم يكُ يصلح الاّ لها
ولو رامها احدٌ غيرهُ لزلزلت الارضُ زلزالها
وان الخليفة مِنْ بغض لا اليهِ لَيبغُضُ مَنْ قالها

وهذا من الشعر الذي لم يمدح بمثلهِ احدٌ من الملوك وكفى شاهدًا على جلالة موضعهِ من الحسن ان بشار (وقد كان جالسًا في صفوف الشعراء) لم يتمالك ان يقول لمن حولهُ من المنشدين انظروا ويحكم هل طار الخليفة عن فرشهِ[1]

وكان المهديّ يقدم عليهم سلم هذا الشاعر ومروان بن ابي حفصة ويعطيهما عطيَّةً واحدةً . فاما مروان فانهُ يلتمس الفصاحة في كلامهِ تشبهًّا بفحول المتقدمين[2] . واما سلم فانهُ يودع ابياتهِ المجون والخلاعة[3] تقرُّبًا بذلك الى المهديّ فوقع في كلامهما بونٌ بعيدٌ من مذاهب العروض يأخذان بها على ما هما عليهِ من تباين المشرب فاما مروان فانهُ بخيلٌ يضنُّ بمالهِ[4] ويتجافى عن مجالس اللهو حرصًا على الزمان من انفاقهِ في غير سبيل العلم واما سلم فانهُ ظريف المعشر سمح ببذل المال فيأتي الى دار المهديّ على برذون قيمتهُ عشرة آلاف درهم ولباسهُ الوشي[5] والخزّ ويأتي مروان باثواب رثَّة تكاد ان تكون اطمارًا ويكتري الحمار بدرهم[6] لا يخرج منهُ الاَّ على

(١) ابن خلكان ١ * ١٠١ (٢) اغاني ٩ * ٤١ (٣) اغاني (٤) اغاني ٩ * ٣٩ والوطواط ٢٩٥ (٥) اغاني ٩ * ٣٩ (٦) اغاني ٦ * ٦٨ و١٧ * ٨٦

غصب الربق بعد كثرة ما اصابهُ من المال [١] في صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار في عطيَّة واحدة [٢]

وقد وجدتُ محاسن الشعر في مروان أَجلَّ منها في سلم ولكنّي أعيبُ عليهِ المداهنة التي يلتمس بها الحظوة لدى السلطان من قدحهِ باهل البيت على غير حكمةٍ وعقل وكانهُ يجزم بما يراهُ عن يقينٍ لا ندحة فيهِ ولا مرجع الاَّ اليهِ كقولهِ في خلافة العبَّاسيين للنبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم وبُعد العلويين عن وراثتهِ [٣]

أَنَّى يكونُ وليسَ ذاكَ بكائنٍ لبني البنات وراثة الاعمامِ

وهذا مردودٌ من وجوهٍ كثيرة لان الخلافة انما هي مصلحة دينية لا وراثة دنيوية فحيث وجدت المصلحة الدينية فهنا لك تكون الخلافة. ثم ان النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم صرَّح بان الحسن والحسين هما ذريتهُ فاذا وجدت الذرية لم يبقَ مدخل للاعمام في الوراثة اللهمَّ الاَّ اذا رجعنا الى شريعة الجاهلية التي انتسخت بمجيء الاسلام. وحتى لو اضربنا عن ذلك كلهِ لما وجدنا اصلح للاسلام [٤] من ان تجتمع كلمة على من لا ينصرف عن طاعتهِ احد من المسلمين الى ردودٍ كثيرة ما انا من ذكرها الآن في شيءٍ وانما اعود الى الحديث الذي اكتبهُ اليك فاني شهدتُ بدار المهدي ايام الشعراء وايام القصَّاص وايام

(١) ابن خلكان ٢ * ١٢١ (٢) اغاني ٩ * ٤٤ (٣) اغاني ١٢ * ١٧
(٤) العقد الفريد ٣ * ٢٧

الندماء وايام المغنين وايام الرماة [١] وايام جري الخيل. وهي مسبوقة اليها من الخلفاء الآ يوم السباق فانهُ لا يعلم عن احد منهم انهُ اجرى الخيل بين يديهِ. وكان عند المهدي فرس كريم يقال لهُ الغضبان [٢] وهو سبَّاق الاضاميم فكان اول خيل الحلبة فلمَّا قلَّدهُ الشعراء لم ينصرف بجائزتهم الاَّ العماني وقد ارتجز

قد غضبَ الغضبانُ اذ جدَّ الغَضَبْ   وجاء يحمي حسبًا فوق الحَسَبْ
من ارثِ عبَّاس بن عبد المطَّلبْ   وجاءت الخيل بهِ تشكو التَعَبْ
لهُ عليها ما لكم على العَرَبْ [٣]

ولكن هذا من الامور التي تكفي مشاهدتها مرَّةً واحدة. واما الذي ترتاح اليهِ النفس على التماس الكثير منهُ في دور الخلفاء فهو مجلس الغناء. وقد كان المهدي يضرب لهُ ستارةً يجلس المغنون وراءها في صفوفهم لا يرون لهُ وجهًا [٤] الاَّ فليح بن ابي العوراء سمعتهُ يغني على لحن النواقيس [٥] الذي وضعهُ معبد وهو احب الالحان الى المهدي فكان احسن المغنين غناءً واعرفهم بنغمات الاصوات [٦] وان لم يكن اشجاهم صوتًا لان احسان المغنّي هو ان يشبع الالحان ويملئ الانفاس ويُعدّل الاوزان ويفخم الالفاظ ويعرف الصواب ويقيم الاعراب ويستوفي النغم الطوال ويحسن مقاطيع النغم القصار ويصيب

(١) الابشيهي ١ * ٢٧   (٢) اغاني ١٧ * ٨٢   (٣) اغاني ١٧ * ٨٢
(٤) اغاني ٤ * ٩٩   (٥) اغاني ٣ * ٩٧   (٦) اغاني ٤ * ٨٨

اجناس الايقاع (١) فهو يحسنها كلها لمحالهِ الجليل من هذه الصناعة. وليس لهُ فيها شريك الاَّ مولًى للانصار يقال لهُ عطرد (٢) وقد ادرك دولة الامويين واما ماسواهما من المغنين فان بضاعتهم مزجاةٌ من هذه الصناعة بالموازنة مع الفرس المتفننين (٣) غير ان تقصير العرب فيها لا يعيبهُ عليهم المنتقد البصير اذا ان الزمن الذي مضى بهم في صَدْرِ هذه الدولة كانت الحرب فيهِ سجالاً فصرفت الخلفاء عن النظر في اجازتهم على الغناء والتماس الاسباب التي تدعوهم الى الاجادة فيهِ. وحتى لو لم يكن هذا كافيًا لإعذارهم لوجدنا ان نقل الغناء الى العربية (٤) لم يحدث الاَّ في خلافة معاوية وهو الزمن الذي اخذت فيهِ القبائل بسكني الامصار وانقلب امر المسلمين من الخلافة الى المُلْك (٥) لان الخلفاء الراشدين لم يقيموا ابهة المُلْك (٦) ولم يتسع لهم على المسلمين سلطان دنيوي (٧) ينصرفون عنهُ الى طمع النفس والتماس النعيم من الدنيا (٨). وانما كانوا يلبسون الثياب المرقَّعة (٩) ويتخذون في ارجلهم انعالاً من ليف (١٠) ويمشون في الاسواق كبعض الرعيَّة

(١) الاغاني ١ * ١٢٦ (٢) اغاني ٤ * ٩٩ (٣) كتاب الاغاني
(٤) اغاني ٣ * ٨٦ والمسعودي ٢ * ٣٥٧ (٥) السيوطي والفخري والمقدمة ١٧٨ (٦) المقدمة والوطواط ٣٦ (٧) العقد الفريد ٢ * ١٥٨ والطبقات ١ * ١٩ (٨) المقدمة (٩) المقدمة ١٨٥ والطبقات ١ * ١٩ والعقد ٢ * ١٥٨ (١٠) الفخري ٣٢

راجلةً[١] وكان لباس ابي بكر الشملة والعباءة[٢] ولباس عمر جبة الصوف مرقّعةً بالاديم وركابهُ الإبل[٣] . وكان علي* عليهِ السلام يتجافى عن جمع المال[٤] ويقول يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري[٥] . وكان مطعمهم ايضاً على هذا الوجه يلتمسون بهِ الغذاء على غير تأنق فيهِ حتى ان المناخل كانت مفقودة عندهم فلا يأكلون الحنطة الاَّ بنخالها ولا يعرفون من الالوان الاَّ اللحم يطبخونهُ بالماء والملح[٧] وكان ابو موسى الاشعري يتجافى عن اكل الطير والدجاج[٨] . كذلك كان شأن المسلمين[٩] من البُعد عن مطالب التَرَف في جميع احوالهم ولم يكن عندهم من الغناء الاَّ الحداء[١٠] او ضربٌ من النَصَب ارقُّ منهُ[١١] . فلما ساد فيهم العمران والقيت عليهم اصوات الفرس نبغ فيهم كثير من المغنين في دولة بني اميَّة ثم فتقت الفتن في دولة العبَّاسيين فلم يكن لهم مجلسٌ في دور الخلفاء الى هذا الزمان

ولوع المهديّ بمزاولة الصيد

وكان المهدي اصلحهُ الله جامعاً الى خلافة الاسلام ابهة الملوك

---

(١) الفخري ٨٩ (٢) المسعودي ١ * ٣١٧ (٣) المسعودي ١ * ٣٢٠
(٤) المقدمة ١٧٨ (٥) الطرطوشي ١٢٤ (٦) المقدمة ١٧٨
(٧) المستطرف ١ * ١١٤ (٨) المقدمة ١٧٨ (٩) المقدمة ١٧٧ وغيرهُ
(١٠) الوطواط ٢٩٥ والمسعودي ٢ * ٣٥٧ (١١) الفيروزبادي

وهما امران لم يجتمعا في خليفةٍ غيره الاَّ انهُ كان الى نعيم الدنيا اقرب منهُ الى الزهد فيها والرغبة عنها . ورأَيتُ ولوعَهُ بمباهاة الملوك ومتنزهاتهم مقصوراً على طلب الصيد [١] . وليس ذلك من المتنزهات التي تعاب على ولاة الامر الاَّ متى فرَّطوا فيهـا وكانوا بهِ اقرب الى البَطَر منهم الى النزهة والرياضة كما نعلم عن صبية الامويين الذين اجلوا اهل الزراعة من حولهم [٢] لتحطيمهم زرعهم في طلب الصيد [٣] . وهذا بعيدٌ عن ان يكون في المهدي وانما هو على ولوع بهِ [٤] دون تفريطٍ ينتهي بهِ الى الأَشر ويشغلهُ عن امر الرعيَّة فلقد رأَيتُ من الامراءِ مَنْ يتأَنق اكثر منهُ في اتخاذ العدَّة المكلَّفة لهُ الى ان يصيغ نصال سهامهِ من الذهب كما ورد عنهُ في كلام الشعراءِ [٥]

ومن جودهِ يرمي العداةَ باسهمٍ ... من الذهبِ الابريز صيغت نصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعهِ ... ويشتري الاكفانَ منها قتيلها

وهذه مباهاة لا ينظر اليها المهدي في مزاولة القنص وانما همُّهُ فيها مقصورٌ على اتخاذ الصقور وتربية الكلاب التي تسبق الظليم في عدوها يلبسها اطواقاً من ذهب [٦] ويهب لكلِّ كلبٍ عبداً يخدمهُ كما يفعل كثير من اهل النعيم [٧] في تربيتها للتحريض على الصيد [٨] . اذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذ الكلاب الاَّ ما كان لغير الصيد

(١) ابن الاثير ٦ * ٢٠ (٢) القزويني ١٦ وانلبدي ٨١ والمسعودي ٢ * ١٨١ والمقدمة ١٨٠ (٣) الاسحاقي ٨٦ (٤) اغاني ٢ * ١٥٠ (٥) انلبدي (٦) الفخري ٦٧ (٧) اغاني ٦ * ٧١ (٨) كلبات ابي البقاء ١٠٩

والحراسة[١] . واما البيزان والصقور[٢] فانهُ لم يسبق الى اتخاذها بل كانت معروفةً عند العَرَب منذ ملوك كندة وقد وقف احدهم يقانص بالحبالة فانقضَّ بازيٌّ وحمل عصفورًا وعلق واياهُ في الحبالة فاخذهُ الملك واتى بهِ وهو يأكل العصفور ورماهُ في كسر البيت فرآهُ قد دجن ولم يبرح مكانهُ واذا رمى اليهِ طعامًا اكلهُ واذا رأى طيرًا طار اليهِ[٣] فاتخذهُ في عدَّة الصيد وطاب بهِ الطير وصار العَرَب يؤدبونهُ لذلك[٤] ثم يؤدبون العقبان ايضًا لقولهم انها تعمل عملاً لا يدركهُ اكثر الصقور[٥]

وقد ركب المهديُّ يومًا الى الصيد وكنتُ بخدمتهِ مع الامير عليّ بن سليمان ابن عم ابيهِ وابي دلامة الشاعر[٦] . وكان خروجهُ من دور الخلافة لآخر الليل وعلى الافق شَفَقٌ مستطيل وكان يحوطهُ فرسان من حَرَس الخليفة متنكبون قسيَّهم متقلدون سيوفهم يتبعهم قطعة من الجنود وطائفةٌ من الغلمان قد حملوا المؤنة على الخزائن الخفيفة[٧] وبينهم عددٌ من الوصفاء في اخف كسوة وابهى لباس . وكان مسيرهُ محاذيًا للنهر في العدوة الشرقية ارتيادًا للخضرة التي تجنح اليها الطيور وتسرح فيها المهى والغزلان . فلما طلع النهار تخللنا ارضًا

(١) الزرقاني ٢ * ١٢٠ (٢) المسعودي ١ * ٩١ (٣) المسعودي ١ * ٩٢ (٤) اغاني ٧ * ١٤٥ (٥) الدميري ٢ * ١٥٢ (٦) ابن خلكان ١ * ٢٧٠ (٧) ابن الاثير ٦ * ٣٠

يانعة الزرع ناضرة الخمائل. فوقف الى غدير ورمى يامًا على شجرة ودراريج طارت من سواد الخضرة وذلك من احب الطير اليهِ. فلم اجد فيهِ من محاسن الصيد الاَّ الخفَّة والنشاط[١] وكذلك الظن في الملوك والعظماء يزاولون القنص لنزهتهم ورياضتهم على غير خبرة بالرماية الاَّ قليلاً[٢]

ثم انهُ تقدَّم الى الجند ان يضربوا حلقةً في ارض مطمئنَّة مُمرِعةٍ ثم يضيقونها رويدًا رويدًا الى ان يؤْخذ الصيد بين جموعهم من كل جهةٍ[٣]. فلما فعلوا ذلك وقع في حلقتهم غزالٌ وتواقعت عليهِ الكلاب فمال المهديّ وابن عمهِ عليهِ ورشقاهُ بالسهام فاصابهُ سهم في صدرهِ واصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعهُ. فلما جلسا للاستراحة حُمِل اليهما هذا الغزال وأُخرج من عنقهِ سهم الخليفة فقال ابو دلامة على سبيل المزاح[٤]

قد رمى المهديُّ ظبيًا   شكَّ بالسهم فؤَاده
وعليُّ بن سليما   ن رمى كلبًا فصاده
فهنيئًا لهما كلُّ امرء   يأْكل زاده

وقد اتفق للمهدي[٥] في ذلك اليوم نادرة ليس اظرف منها فيما

(١) المسعودي ٢ * ١٩٥ (٢) ابن عون (٣) الفخري ٦٥ (٤) الاغاني ٦ * ٤٧ والشريشي ٢ * ٢٦١ والعقد الفريد ٣ * ٤٤٥ (٥) المسعودي ٢ * ١٩٥ والفخري ٢١٢ وابن الاثير ٦ * ٣٠ والشريشي ٢ * ٢٥٧

يتفق للملوك من النوادر. وذلك انهُ اخذتهُ السماء وهو منقطع عن العسكر فاركض فرسهُ ملْء فروجهِ حتى لا يلبّدهُ ضرب الطلّ فانتهى الى بيت اعرابي ملّاح[1] فبادر الى نزع ثيابهِ المبتلّة وجلس بجانب النار الموقودة ثم قال يا اخا العرب هل من قرًى قال عندي فضلة نبيذٍ في ركوة فقال لهُ هات اسقني ايها الشيخ فشرب قَعْباً وسقاهُ فلما شرب قال لهُ يا اخا العرب أتدري من انا قال لا والله قال انا من خدم امير المؤمنين الخاصّة قال لهُ بارك الله في موضعك وخوّلك من الشرف الرفيع ما انت اهلهُ ثم شرب قدحاً وسقاهُ. فلما شرب قال يا اعرابي أتدري من انا قال زعمت انك من خدم امير المؤمنين. قال لا بل انا من قواد امير المؤمنين قال رحبت بلادك وطاب مرادك ثم شرب قعباً وسقاهُ. فلما شرب قال لهُ يا اعرابي أتدري من انا قال نعم ذكرت انك من قواد امير المؤمنين قال فلست كذلك قال فمن انت قال انا امير المؤمنين. فأخذ الاعرابي الركوة واوكأها فقال لهُ ما لك ياشيخ فقال والله لا تشرب منها قال فلمَ قال ما آمن ان اسقيك القعب الرابع فتزعم انك رسول الله. فضحك المهدي حتى استلقى واقبل الجند عليهِ ونزل الاشراف اليهِ[2] فطار قلب الاعرابي من الخوف فقال لهُ لا بأس عليك

(١) اغاني ٣ * ١٥٠ (٢) الاتليدي ٨٦ والابشيهي ٢ * ٢٠٦ والمسعودي ٢ * ١٩٥

ولا خوف ثم امر لهُ بمال وكسوة وما صبر الاَّ ان رجع الى الحضرة بعد انزعاجٍ نالهُ من العَدْوِ السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة

في تتمّة اخبار المهديّ

ولما استوثق للمهدي امر العراق رأَى ان يستميل اهل الحرمين اليهِ فركب الى الحج في كثير من عظماء دولتهِ. واستخلف[1] في الحضرة موسى ابنهُ ويزيد بن منصور الحميري خالهُ[2] واستصحب معهُ هرون من اولادهِ ويعقوب بن داود وزيرهُ وجماعةً من اقاربهِ المقرَّبين . وحمل معهُ ثلاثين الف الف درهم ومئة وخمسين الف ثوب[3] ليفرقها في اهل الحرمين وكان يعزم بعد الوصول الى مكَّة ان ينكب بالحسن بن ابرهيم بن عبد الله الذي قدمت لك ذكرهُ . فتقرَّب يعقوب بالشفاعة اليهِ والحيلة المباركة عليهِ حتى نال رضاهُ عنهُ واطلق لهُ الامان[4] الذي كان مقبوضاً عنهُ وعن اهل بيتهِ في خلافة ابي جعفر

ولما قضى المهدي حجَّهُ نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر وكساها كسوة جديدة[5] من الحرير لانهُ كان

(١) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٢) اغاني ٣ * ٣٠ (٣) الخميس ٢ * ٣٢٠

(٤) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٥) الخميس ٢ * ٣٢٠ والانس الجليل ١ * ٢٤٥ وابن الاثير ٦ * ١٨

يخاف عليها ان تتهدَّم لكثرة ما عليها من الديباج الثخين الذي كساها هشام بن عبد الملك ثم امر بانشاء رواقات المسجد الحرام وحمل لها الاعمدة الرخام من البحر[١] واتمَّ بناءها على عناية يلتمس بها استمالة الائمَّة واهل الحرمين اليهِ بما اولاهم من الاحسان وولاهُ من المآدب التي كان يندبهم اليها ويفرغ وسعهُ في زينتها وزخرفتها للدلالة على عظم ملكهِ واقتدارهِ على ما لم يسبق اليهِ احد من الخلفاء حتى انهُ سقاهم الماء مبرَّدًا[٢] بالثلج المحمول من الشام وكان الذي حملهُ الى مكَّة محمد بن سليمان الهاشمي[٣] الذي قدَّمت ذكرهُ في الكلام على البصرة وهذا من الامور التي توسع اهل البادية تعجُّبًا من اقتدار الملوك على الغريب . ثم انهُ ردَّ عليهم الوظائف التي قُبِضت عنهم في خلافة ابيهِ وفرَّق فيهم غير ما حملهُ من المال ثلاثمئة الف دينار حُمِلت اليهِ من مصر ومائتي الف دينار من اليمن[٤] وغير ذلك ممَّا جاءهُ من الجهات فبلغ المنفوق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكَّة واتخاذ المصانع في كل منهلٍ منها وتجديد الاميال والبرك وحفر الركايا وغير ذلك[٥] نحوًا من ستة آلاف الف دينار . واصطفى لنفسهِ من الانصار خمسمئة نفر اجرى

(١) الخميس ٢ * ٣٢٠ (٢) السيوطي والخميس ٢ * ٣٢٠ وابو الفداء ٢ * ٩ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٤) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٥) ابن الاثير ٦ * ٢٠ وابو الفداء ٢ * ٩

عليهم الارزاق واتخذهم لمراتب السيف في العراق[1] كأنهُ يعارض اباهُ في تقديم الموالي على الاعراب واتفق ان كانت هذه السنة سنة رخص وخصب بعد جهدٍ اصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء الجارف[2] فاحبُّوا المهدي وتبركوا بهِ وقالوا هذا هو المهدي ابن عم رسول الله وسميُّهُ[3]

وكان المهدي قد وجد بتجوّلهِ في البلاد اختلالاً لا يؤْمن معهُ من الفساد فلمَّا عاد الى الحضرة صرف همهُ الى النظر في امور العمَّال ورتَّب أُناسًا يؤَدُّون اليهم رسائلهُ ليسدَّ عليهم باب الادعاء بفقدانها وسمَّاهم الامناء[4] ووجَّهم في كافة الاقطار وطوَّق امرهم الى وزيرهِ يعقوب[5] فكان لا يُنفِذ كتابًا الى عاملٍ فيجوز حتى يكتب يعقوب الى بعض الامناء بانفاذ ذلك . ثم نظر في امر الرعيَّة فوضع لهم ديوان الازمَّة[6] واقام على الشرطة مَنْ تبيَّن فيهِ حسن النظر بامور المسلمين فاستوثق لهُ الملك من الوجه الذي يرومهُ من استمالتهم اليهِ بحيث يرضون بهِ ولا يعدلون عنهُ الى استخلاف اهل البيت

الَّا انهُ تواترت عليهِ في هذه الايام والدهر لهُ صافٍ رسائلُ من ابي عون عبد الملك عامل خراسان يشكو فيها ضعف جندهِ واعتلال

(١) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٢) ابن الاثير ٦ * ١٣ (٣) الاغاني ٣ * ٩٤
(٤) ابن الاثير ٦ * ٢٠ (٥) الطبري (٦) ابن الاثير ٦ * ٢١

دولتهِ وتغلّب رجلٍ اعور من مرو قد ادَّعى الربوبيَّة [١] واستغوى الخلق [٢] وقام لهُ في الصغد وبخارى انصار يتخذون البياض في شعارهم لمخالفة السواد. فأوجس المهديُّ من فتنتهم ما لا يأمن عاقبتهُ عليهِ ثم سيَّر اليهم جيشاً يقودهُ معاذ بن مسلم واوعز اليهِ بان يلتئم الى الحرشي وهو امير الجيش في خراسان فلما كان على انتظار البشائر منهُ وصلهُ من ابي عون أنَّ قد وقع الخلاف بين الجيشين [٣] فعزم على انفاذ رسول من لدنهُ ينظر في الامر ويصلح بين الاميرين . فوقع الخلاف بين وزيريهِ يعقوب وابي عبد الله فيمَنْ يطوقانهِ امر هذه الرسالة فرام يعقوب ان يقلّدنيها واحب ابو عبد الله ان يصيّرها الى امير من آل قحطبة وكان الربيع وزير ابي جعفر راغباً في توجيهي بها ايضاً لا حبّاً لي ولكنهُ وقعت نفرة [٤] بينهُ وبين ابي عبد الله فاشتغل في معاكستهِ وبلوغ المكروه منهُ

ثم ان المهديَّ وقع رأيهُ على توجيهي الى مرو للنظر في امر هذا المقنع الاعور ولم يقيّدني بالاجراء على ما صدرت بهِ اوامرهُ وانما جعل لي التصرُّف فيما ارى حلهُ وعقدهُ من امر الجيش لجمعهم الى رأيٍ واحد اذ يكون خيرهم وصلاحهم المرجوّ ما لم تتقلَّب بهم الاغراض ولا سيَّما انهُ كان عليهم في خراسان عدوَّان يتفقان على هلاكهم وهما

(١) ابو الفداء ٢ * ١٠ (٢) ابن الاثير والخميس ٣ * ٣٢٠ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٩ (٤) الفخري ٢١٦ وابن الاثير ٦ * ١٩

جماعة خارجيٍّ يقال لهُ يوسف البرم [١] وشيعة المقنع هذا الاعور الذين يدعون بالوهيّتهِ [٢] ويؤثرون دعوتهُ ولو بسفك دمائهم ولذلك كانوا اشدّ من جماعة البرم خطراً على الدولة لان دعوتهم قائمة بامر الدين فيقولون ان الله خلق آدم فتحوَّل في صورتهِ ثم في صورة نوح ثم في صورة غيرهِ من الانبياء حتى تحوَّل في صورة هذا المقنع بعد ابي مسلم [٣] وهم يسجدون لهُ من جميع النواحي ويزعمون انهُ أراهم في السماء قمراً آخر يراهُ المسافرون عن بعد شهرين ويستضيئون بنورهِ [٤] والعياذ بالله من سخافة العقل وعماوة البصر

انما زعم هذا المقنع ان الله تحوَّل قبلهُ في صورة أبي مسلم رحمهُ الله ليستميل الناس اليهِ [٥] ويجد منهم نفوساً راجعةً الى غرضهِ وان كان بعيداً عن اظهار دعوة اهل البيت . فكان استخدامهُ الدين لنوال مناهُ من وجوه السياسة التي يرجوبها ان تذاع عنهُ العجائب والمعجزات بين العوام وهم بمكانهم من الغفلة فيتسارعون الى الالتئام اليهِ. وقد رأى ان عصر موسى كان مقدَّماً بالسحر فغلب السحرة وان عصر عيسى كان مقدَّماً بالطب فغلب الاطباء وان عصر النبي كان مقدَّماً بالبلاغة ففضل العرب فيها فرأى ان عصرهُ مقدم بالكيمياء فاراد ان يغلب الناس فيما يستنبطهُ من المركبات

(١) ابن الاثير ٦ * ١٦ (٢) الطبري (٣) ابن الاثير ٦ * ١٤
(٤) الخميس ٢ * ٣٢٠ وابو الفداء ٢ * ١٠ (٥) ابن الاثير ٦ * ١٤

الرسالة الخامسة

طرفٌ من اخبار المهديّ والهادي

ولمّا وصلتُ الى بغداد قصدتُ باب فقيه الاسلام في دارٍ لهُ بدرب ابي خلف[1] من ناحية الكرخ لاهنئَهُ بالولاية على قضاء القضاة[2]. فألفيتُ ابنهُ يوسف متصدّراً في مجلسٍ حافلٍ بالادباء وكان الرشيد قد عرف موضعهُ من العلم ايضاً فولّاهُ القضاء في محلّة الكرخ[3] فلم يطل جلوسي اليهِ حتى اقبل الفقيه وعليهِ مبطنة وطيلسان وقلنسوة[4] طويلة قد احاطها بعمامة سوداء دعتهُ الحاجة من خدمة العبّاسيين الى اتخاذها على لون شعارهم[5] وهذا هو الزي الذي يروم ان يكون مخصوصاً بالفقهاء[6] لتمييزهم عن سائر الناس فكان للقانا موقفٌ يستبكي الحمام لفرط ما كان بنا من الاشواق وصرفتُ اليوم كلهُ في حضرتهِ أُجاذبهُ اطراف الحديث وقد نبّأني عن ما جريات القوم في المدّة التي كنتُ منفصلاً بها عن دار السلام لان القضاة قد يرد عليهم من طرائف الاخبار[7] ما لا يرد على غيرهم من

---

(١) ابن خلكان ١ * ٣٠ (٢) العقد الفريد ٢ * ٥٤ (٣) ابن الاثير ٦ * ٤٣ (٤) المسعودي ٢ * ٣٢٧ (٥) اغاني ٦ * ٦٩ (٦) اغاني ٥ * ١٠٩ وابن خلكان ٢ * ٤٥٠ (٧) اتليدي ٧٩

الناس مثلهُ ولاسيما مَنْ كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى انهُ ليقوم لهُ ويجلسهُ على سريرهِ بجانبهِ[1] ولا يقلّد ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان الاَّ مَن اشار بهِ اليهِ[2]

وقد ذكرتُ لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من اخبار المهديّ والهادي فيما هو خاصٌّ بامور المسلمين. واما اخبارهما الخاصَّة فقد حدَّثني بها لسان الشريعة على اسهاب لا موضع لهُ في هذا الكتاب على ان المهدي رحمهُ الله ما بَرِح مستمرًّا الى انقضاء خلافتهِ على ما ذكرتُ لك من استمالة الناس اليهِ بالمال وقد اقرَّ رجالهُ على مراتبهم الاَّ وزيرهُ يعقوب من بني سليم وقد وضح لهُ ميلهُ مع اهل البيت[3] وتتابع المفسدون على السعاية بهِ اليهِ ورفعوا اليهِ بيتين من الشعر اغروا على قولهما بشار واطاروا الذكر بهما كل مطار[4]

بني أُميَّةَ هبُّوا طالَ نومكمُ ان الخليفةَ يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم يا قومُ فالتمسوا خليفةَ الله بين الزقّ والعودِ

فنكبهُ لذلك والقاهُ في بئرٍ عمي فيها[5] وهو يتوسَّد التراب الى ان مات في خلافة الرشيد قُبَيل عودتي من خراسان

(١) اتليدي ١٤١ (٢) الاسحاقي ٩٠ (٣) ابن الاثير ٦ * ٢٦ والمسعودي ٢ * ١٩٦ والفخري ٢٢١ (٤) اغاني وابن خلدون وابن الاثير والفخري وابن خلكان والابشيهي وابن نباتة والطبري وابو الفداء (٥) الفخري ٢٢١

وكانت مأثرة المهدي لآخر ايامهِ وضعهُ البريد[1] إبلاً وبغالاً في كثير من البلاد وذلك مما انفق عليهِ اموالاً طائلةً ولا سيما فيما بين مكة والمدينة الى العراق[2] وهو اول مَنْ اقام البريد من الحجاز الى الحضرة[3] بما يروم من تناول الاخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة اذ كان على تيقظٍ من العربان في مناصرتهم لاهل البيت بالمواطن الشريفة كما كان على حذرٍ من اهل الشام في قيامهم دوامًا على عمالهِ والاستظهار عليهم بمن يجاورهم من العربان الذين ما كانوا بحكم العباسيَّة راضين الاَّ نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الاعظم من قبائلهم ولذلك كان يرى المهديُّ امداد عمالهِ بالرجال والعربان بالمال حينًا بعد حين حتى دعتهُ الحال الى الشخوص بنفسهِ اليهم فزار دمشق[4] وبيت المقدس[5] واخذ في ازالة الخلاف الذي كان واقعًا بينهم في بادية الشام بما فرَّق فيهم من الاموال الجسام وهذه هي السياسة التي كان جاريًا عليها لتمكين دولتهِ فيمَنْ لا يرون لهُ وجهًا تحقُّ لهُ بهِ الخلافة قبل اربابها من اهل البيت

اما الهادي فانهُ نسج على منوال ابيهِ وذهب بسيرتهِ مذهبهُ. وقد كان رسم لهُ بتتبُّع الزنادقة[6] فأمضى على ذلك وافتتح خلافتهُ في

---

(١) ابو الفداء ٢ * ١٠ والكنز ٦ ١٠ (٢) ابن الاثير ٦ * ٣٦

(٣) السيوطي ٩٨ (٤) قضاة الشام (٥) اغاني ٦ * ٦٧ والانس الجليل ١ * ٢٥١ (٦) السيوطي

قتلهم[١] ووكل بهم رجلاً يقال لهُ عبد الجبَّار[٢] وهو المعروف بصاحب الزنادقة فمكَّن السيف منهم وقتل الذين كانوا يكذبون بالانبياء ويأتون صراحًا بالكفر ويعلّمون الناس الكرم بالخلفاء ويُسون الدين والشرع بما لا يحلّلهُ كتاب الله . فما كان الزنادقة الاَّ اِزاز شرٍّ في عقيدتهم وان بدا الناس منهم ظاهر حسن[٣] في سيرتهم كما يشير ابن مناذر بقولهِ في يحيي بن زياد وقد تُهِم بالزندقة[٤]

لستَ بزنديقٍ ولكنَّما اردتَ ان توسَمَ بالظرفِ

واما باطنهم فنكران وطغيان فقُل ان للمفترين على الله خزيًا في هذه الحيوة الدنيا وجهنَّم في الآخرة يصلونها وبئس المهاد

وقد كان اجتمع بباب الهادي كثير من الاشراف وصارت المراتب الى المنتشئين من البرامكة والطاهريين والمهلبين ممن كنتُ إعرفهُ صبيًا قبل انزاحي الى هذه الرحلة التي امتدَّت بي سيرًا وكان على وزارتهِ الربيع بن يونس حاجب ابي جعفر غفر الله لهُ وعلى بيت مالِهِ المعلّى بن طريف[٥] وعلى حجابتهِ الفضل بن الربيع وعلى إمارة الجند آل ابي العلاء وكانوا افضل مَنْ اتصل بهِ من القُوَّاد وهم بمكانهم من البأس المقرون بجودة الرأي . يقول بعض الشعراء في مديح عمر من امرائهم المقدمين[٦]

---

(١) ابن الاثير ٦ * ٣٢ (٢) اغاني ٣ * ٧٢ (٣) ابن الاثير ٦ * ٣٢
(٤) اغاني ١٧ * ٧٢ والوطواط ٢٦٢ (٥) اغاني ٢ * ١٥٢ (٦) اغاني ٣ * ٤٦

اذا ايقظتك حروبُ العدى ... فنبِّه لها عمرًا ثم نَمْ
فتىً لا ينامُ على دمنةٍ ... ولا يشربُ الماء الاَّ بدَمْ

وكان الهادي سامحهُ الله يحبُّ اللهو ويكثر من مجالسة النساء حتى قُصِف عمرهُ من فرط التمتُّع بهنَّ ووُلد لهُ في فتاء سنّهِ اولاد كثيرون وبينهم ولد اعمى فيما سمعتُ[1] ولذلك كان الطامعون اليهِ من غير هؤُلاء الامراء اكثرهم اهل لهو وطرب وكان اقرب الناس اليهِ مكانًا ابرهيم الموصلي مغنّيهِ واحمد بن عقال[2] وابرهيم الحرَّاني[3] جليساهُ . وكان ابرهيم هذا النديم قد تخرَّج في الغناء على جوانويه بالأُبلّة[4] ثم على سياط بعدهُ في الزوراء فبلغ من الإِجادة فيهِ المكان الذي لم يبلغهُ المغنُّون من اهل الحجاز ولذلك كان الهادي اليهِ أَميلَ منهُ الى مَن سواهُ من الندماء يقال انهُ كان اذا استعطاهُ خمسين الف درهم اعطاهُ مئة الفٍ[5] وقد قال لي اسحق واللهِ لو عاش لنا الهادي لبنينا حيطان دورنا بالذهب[6]

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولمَّا تجوَّلتُ في المدينة وجدتها على اعظم مَّا كنتُ اعهدها من

---

(١) العقد الفريد ٣ * ٥٤ (٢) اغاني ٣ * ١٥٢ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢٧ والفخري ٢٢٩ (٤) اغاني ٥ * ٤ (٥) الحصري ٣ * ٢٠١ (٦) اغاني ٥ * ٦

اتساع العمارة. فما كفى اهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى انهم توسعوا الى سكنى الجانب الشرقي المعروف بالرصافة[١] فبنوا فيهِ القصور الرفيعة والمنازل الرحبة المزخرفة وغرسوا في جنانهم الاشجار والرياحين التي يجري من تحتها الماء واتخذوا لهم الاسواق والمرافق والحمَّامات والجوامع وتوجَّهت عناية البرامكة الى اقامة المكاتب فيها والحلقات ومنازل الجند ومأوى المرضى ومجالس القضاة وغُرَف الشرطة وغير ذلك حتى اصبحت الزوراء بجانبيها كأنها البلد العتيق تجتمع محاسنهُ في جزء من محاسن المدينة التي أُحدثت في جوارهِ

ولقد أكبرتُ من الزوراء بلوغ العمران فيها بما رأيتُ من ازدحام الناس فيها وتموُّجهم كالبحر في ارجائها. يقال ان عددهم يزيد عن الفي الف وخمسمئة الف[٢] وهذا جمعٌ لم يكن مثلهُ ولا قدر نصفهِ في مدينة من العالم قط فانما يدلُّ اجتماع الناس الى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أيمن ولا أيسر[٣] من الموضع الذي يتكوَّفون فيهِ تكوُّف الرمال. ثم أكبرتُ بلوغ النعيم من اهلها بما رأيتُ من توفُّر ارباب الغايات عندهم من الفنون[٤] التي لا تقتصر الحاجة منها على ضرورة العمران وانما تتوسَّع المنفعة من

(١) ابن الاثير ٦ * ١٥ وخلكان ٢ * ٢٤٦ وتقويم ٢ ٣٠٢ (٢) انايدي
(٣) ابن الاثير ٦ * ٩٦ وابو الفداء ٢ * ١٩ (٤) ياقوت ١ * ٦٨٥

صناعتهـا ومصنوعاتها الى مطالب الترَف الذي يقع في الامم عند استفحال ملكهم فصارت بغداد بيضة المُلك[١] ومعدن الظرائف[٢] وزينة العالم بما نجد في اهلها من اتساع الحضارة عندهم وما نرى على مبانيها من الإشراق[٣] الذي تنزَّه عن المثل فكأنّي بها قد محَت ذكر بابل في الحسن المشرق والجمال المونق

ولقد يتعذَّر عليَّ بهذا القلم الذي لا مادَّة فيهِ ان اصف مفاخر المدينة التي أقل ما تصيبهُ من الشرف انها تزهو ببهاء السلطان وتضمّ اليها عيون الاعيان الذين اذا لقي السائر منهم جماعةً في الطريق لم يفطن لهم من حيث الكثرة مع ان اقلّهم في الثروة والجاه يتعذَّر على اكبر المدن ان تلفى سكناهُ وتسع جندهُ وغاشيتهُ[٤] والطامعين اليهِ من كافة الوجوه. وهذا دليلٌ على عظمة هذه المدينة وبلوغ العمران منها فلقد يمشي اهل النعمة فيها بالغلمان[٥] والحاشية الى عدَد يتوهمهُ السامع بعيدًا عن الصدق[٦] فشاهدت في محلَّة العتابيَّة[٧] اميرًا قد ركب في مئة فارسٍ وأحدق بهِ الغلمان حتى ملأُوا الطريق وسدوا السبيل على الناس وكلهم في ابهى زيٍّ واجمل لباس وشاهدت في مشرع التصب على دجلة[٨] فتًى من اولاد النعمة قد

(١) ابن خلكان ١ * ٧٢٨ (٢) القزويني (٣) الفتح بن خاقان ٣٦
(٤) العقد ٣ * ٤٢٣ (٥) اغاني ٥ * ٨٤ و ٤ * ١٠٤ والعقد (٦) ابن الاثير ٥ * ١٤١ و ٢٣١ (٧) ابن خلكان ١ * ٧٤١ (٨) ابن خلكان ١ * ٧٩

سار بموكبٍ عظيم (١) من الخيل والرَّجْل كأني بهِ قيصر على مركبهِ او كسرى في جلال موكبهِ وكنت أُشاهد كثيرًا من الامراء الذين اذا ركبوا بمواليهم واهل بيوتهم ظننت ان الجند يزحف في اسواق المدينة لشدة سوادهم

وانما كان مصدر هذا الترَف من دور الرشيد حين صارت اليهِ الخلافة وهو الذي أَلبس الدنيا جمالاً بملكهِ لم يسمع عن الملوك قط من كان أَسمح منهُ ببذل المال (٢) لانهُ بلغ من الاسراف (٣) الى ما لم يبلغهُ الاكاسرة ولا القياصرة قبلهُ في تبذيرهم المفرط (٤) فهو ينفق على طعامهِ في كل يوم عشرة آلاف درهم (٥) وربما اتخذ الطباخون لهُ اكثر من ثلاثين لونًا من الطعام (٦) اخبرني أَبو يوسف انهُ لما بنى بزبيدة بنت جعفر اتَّخذ وليمةً لم يُتَّخذ مثلها في الاسلام (٧) وجعل الهبات فيها على الناس غير محصورةٍ حتى انهُ كان يهب اواني الذهب مملوَّةً بالفضة وأَواني الفضة مملوَّةً بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر (٨) وبلغ جملة المنفوق من بيت المال خمسة وخمسين

(١) المستطرف ١ * ٦٥ (٢) الفخري ٣٢٠ (٣) الخميس ٢ * ٣٢١

(٤) وجدتُ في بعض الكتب ان المأمون اتخذ في قصورهِ ثلاثة آلاف وثمانية بساط منها الف ومائتان مزركشة بالذهب واتخذ سبعمئة خصيّ منهم ثلاثمئة سود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الفرس والروم موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين (٥) المسعودي ٢ * ٢٤٢ (٦) المستطرف ٢ * ٢٤١

(٧) العقد الفريد والسيوطي (٨) تزيين الاسواق ١١٧

الف الف درهم وامر بزبيدة ان تُجلَى في درعٍ من الدرّ لم يقدر احدٌ على تقويمهِ بثمنٍ وغالى في تزيينها بالحلى حتى انها ما قدرت على المشي لكثرة ما كان عليها من الجوهر [1] وامر بان يتخذ الطباخون من الوان الطعام والحلاوى ما لم يقدر احدٌ على احصائهِ فقيل ان الحطب الذي احرقوهُ حُمِل اليهم على خمسمئة بغلٍ [2]. وهذا شيءٌ من الاسراف لم يسبق اليهِ اكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ولا صبية الامويّين مع ما تقلّبوا فيهِ من الاموال الجسام

ومن جمال دورهِ ان زبيدة زوجهُ تصنع اعمالاً يتباهى بها الملوك. فمن ذلك انها صنعت بساطًا من الديباج على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها من يواقيت وجواهر [3] وانفقت عليهِ نحوًا من الف الف دينار واتخذت الآلة من الذهب المرصع بالجوهر وامرت بان يصنع لها الرفيع من الوشي حتى بلغ الثوب الذي اتُّخذ لها من الوشي خمسين الف دينار. واتخذت القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب الملبَّس بالوشي والديباج والسمور وانواع الحرير. واتخذت شمع العنبر وصنعت لها خفًّا مرصعًا بالجوهر واتخذت الشاكرية من الخدم [4] يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها

(١) الف ليلة وليلة ١ * ٨٤ (٢) المقدّمة ١٥١ (٣) المستطرف ١ * ٩٨ (٤) المسعودي ٢ * ٤٠٢

ورسائلها وهذا من الاعمال التي تدوَّن في سير الملوك تعظيماً لما يصير اليهم من النعمة ويتقلبون فيهِ من الطيّبات

ولا يُرى مثل هذا الترف في غير دور الخلافة الاَّ في قصور البرامكة الأَمجاد واليهم ينتهي جمال الملوك واشرافهم فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم اكثر مما يجلسون للخلفاء ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب محول[١] من الجانب الغربي[٢] في موكب عظيم وقد طرز في ملبسهِ وبين يديهِ الجند والفرسان والحفد والاعوان والرقيق والغلمان وهو واضعٌ طرفهُ على معرفة فرسهِ المجلَّل بالوشي والذهب والناس ينظرون اليهِ ويعجبون منهُ وهو لا يلتفت كبراً وجلالةً . وكان الرشيد نفسهُ اذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة والموائد من الجزع اليماني والمطارح من الديباج المطرَّز[٣] والجواري يرفلنَ بالوشي والحرير ويحرقنَ الندّ والصندل والعود ويغنّينَ لهُ على ضرب العود ويستقبلنَهُ بالروائح التي لا يدري ما هي لطيبها خُيّل لهُ أَنهُ في الجنَّة بين الجَمال والجوهر والطيب

وقد انتهى ترف شبابهم الى الغاية التي لا وراءَ بعدها من الاسراف. رأيتهم يتخذون الابر لجواريهم من الذهب ويصوغون المسامير التي يدقونها في مجالسهم لتعليق المناديل[٤] من الذهب

(١) اغاني ٦ * ٧٨ (٢) المسعودي ٢ * ٣٢٧ (٣) الانليدي
(٤) ابن خلكان ١ * ٢١٤

ايضاً ويتخذون موائدهم من العرعر والذهب منزّلٌ فيها برسومٍ تحيّر الابصار والبصائر. ورأيت عند جعفر اعزّ الله ملكهُ دواةً من ذهب غطاؤُها لؤلؤة سنيّة لا تقوَّم بثمن. ووجدت مجالس الطرب عندهم أجلَّ منها في دور الرشيد وأجمع لمعدّات اللهو لان لهم الغواني اللواتي ليس مثلهنَّ في البلاد ولا سيَّما فوز[1] وفريدة[2] ومنَّة[3] وهنَّ اشهر النساء غناء واحسنهنَّ ضربًا بعودٍ. وقد كان الغناء قبل البرامكة لا يُعلَّم في دور الامراء الاَّ للصفر والسود[4] فأحبوا ان يعلموهُ للقياني الحسان[5] ليزيد جمال صورتهنَّ في حسن الغناء وتأثيرهِ في النفوس فجمعوا[6] في منازلهم اكثر من مئة جارية يغنّينَ احسن الغناء. واذا زارهم الرشيد في بعض ايام لهوهِ اخرجوهنَّ لهُ الى البستان فاصطففنَ امامهُ مثل العساكر على صفّين وغنّينَ وضربنَ على العيدان ونقرنَ على الدفوف الى ان طلع الى مقاصير القصر فأحسبهُ في نفسي يحسدهم على اتساع نعمتهم ولكن ليس لهُ الاَّ ان يصبر على ذلك لانهم يؤيدون دولتهُ ويرفعون منار الاسلام باستفحال ملكهم الى هذه الغاية

ولقد رأيتُ قريبًا من ترف البرامكة في جماعةٍ من امراء العباسيَّة من اقارب الخليفة يتخذون في حاشيتهم من الجواري والغلمان ما

---

(١) اغاني ١٥ * ١٤١ (٢) اغاني ٢ * ١٨٢ (٣) اغاني ٤ * ٨٧
(٤) اغاني ٥ * ٩ (٥) اغاني ٥ * ١٤ و ١٧ (٦) اغاني ١٥ * ١٤١

يقرب ان يكون مثل ذلك فقد بلغني عن بعض نساء بني هاشم انها عشقت المأمون من اولاد الرشيد فاستدعتهُ اليها وقد اعلمتهُ انهُ يصطاد عندها صيداً لم يصطد الملوك مثلهُ فادخلتهُ في قصرها بستاناً زيّنتهُ بافخر الزينة واتّخذت فيهِ الوان الطيور من القمري والفاخت والهزار والشحرور والطاووس وغيرها. وقد كانت زيّنت مئة جارية من الابكار وكلهنَّ من آيات الجمال والاشراق واتخذت في وسطهنَّ مناطق من الذهب وأمرتهنَّ انهنَّ اذا رأينهُ تعادينَ بين الاشجار فلما دخل المأمون البستان ووقع عليهنَّ نظرهُ تخبأنَ وراء الاشجار وتوارينَ في ظلال الكروم المعرّشة فأعجبهُ ذلك منهنَّ وعدا خلفهنَّ نشيطاً فرحاً وكل ما اخذ جارية كانت حلالاً لهُ[1]. فهذا غاية ما يكون من الانغماس في ملذات العيش ولا نعلم عن احدٍ من الملوك السالفة انهُ نال من طيباتها ما ينالهُ ملوكنا لهذه الايام فكأنَّ بغداد قد القت جوانبها على مهاد الدَّعَة وأوجدت لاهلها اسباب النعيم بما توفر عندهم من المال

انغماس البغاددة في طيبات العيش

هذا هو شأن الترف عند عظماء الحضرة ثم يأخذُ بالنقصان عند من هو اقل منهم في الجاه الى ان يبقى منهُ نصيبٌ لعامّة البغداديين. وهم

(١) انلبدي ٢٢٥

وان لم يكونوا بموضع الملوك من جلالة القدر واتساع النعمة غير انهم اخذوا في استنباط الوجوه الى الملذّات بعد تقلُّبهم في الاسفار التي اكسبتهم التجارب وأَرتهم العجائب (١) وجلبت عليهم الاموال الجزيلة. فصار الناس يقصدونهم بافخر ما لديهم من جميع الاجناس فعَمرت عندهم الاسواق وراجت لديهم البضاعات وتوسّعوا من التماس الحاجات لضرورة العمران الى اقتناء الاشياء للزينة والمباهاة كابتياع الخيل والسلاح (٢) والاواني والتنافس في الجواهر الثِمان وشراء الغلمان والخصيان واقتناء القيان (٣) الحسان ليمتّعوا انفسهم من طيّبات الزمان . وقد كانوا من قبل ان تقام هذه الاسواق عندهم يوجهون رسلهم (٤) الى الآفاق في الطيبات فلما وُجدت عندهم دلّك ذلك على ان محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد

ولقد شهدتُ سوق الجواري بُعَيد عودتي من خراسان وقد أُقيمت في سوق النخاسين (٥) وهم الرجال الذين (٦) يجلبونهنَّ من اطراف الدنيا الى بغداد (٧) . فرأَيتُ فيهنَّ الحبشيّات (٨) والروميّات والجرجيّات والشركسيّات والعربيّات (٩) من مولّدات المدينة

(١) فاكهة الخلفاء ٩٤ (٢) ابن خلكان ١ * ٣١٢ (٣) اغاني والف ليلة وليلة (٤) اغاني ٧ * ٩٢ (٥) تزيين الاسواق ١ * ٣٠ (٦) اغاني ٩ * ١٢٨ (٧) الف ليلة وليلة واتليدي ٣٢ (٨) الاسحاقي ١٣٢ (٩) اتليدي ١٨٩

والطائف واليمامة ومصر ذوات الالسنة العذبة والجواب الحاضر[1] وكان بينهنَّ كثيرٌ من الغانيات يُعرفنَ بما عليهنَّ من اللباس الفاخر الذي لا غاية بعدهُ[2] وبما يَتَّخذنَ من الجوهر[3] على العصائب التي يكتبنَ عليها بحروف الذهب كلامًا يحلو لاهل الطَرَب فرأيتُ على بعض العصائب "من كان لنا كنَّا لهُ[4]" ورأيتُ على بعضها

"قتلتني في الحبِّ يا ظالمُ   والله فيما بيننا حاكمُ[5]"

ورأيتُ على عصابة جاريةٍ قد غلى عليها السوق في ذلك اليوم

ليسَ حسنُ الخضاب زينًا لكفّي   حسن كفّي زينٌ لكلِّ خضابِ[6]

ولقد يخال العاقل لاول وهلة ان بيعهنَّ انما هو جارٍ عليهنَّ من باب الظلم والاسترقاق غير انهُ لا يثبت في هذا الوهم بعد اذ يرى تطارحهنَّ على اهل النعيم ودفع النخاسين الى بيعهنَّ منهم وتخليتهنَّ اليهم وكثيرًا ما كنتُ اسمع عن بعض الجواري المترفات انهنَّ يتخلَّصنَ من حيث لا يحببنَ المقام فيأتينَ السوق ويتوارينَ عن عيون الرقباء الى ان يقع سوقهنَّ على غير مواليهنَّ وهم بهنَّ غير عالمين فيتصرَّف النخَّاسون ببيعهنَّ مثل تصرُّف التجار ببضاعتهم واذا وقع سوق إحداهنَّ على رجل قبض بيدهِ على يد النخاس كما هي

(١) الابدي ٩٨   (٢) اغاني ٥ * ١٣٦   (٣) اغاني ٢ * ١٧٥

(٤) الكنز ٤٧   (٥) العقد ٣ * ٤٢٩   (٦) العقد ٣ * ٤٤٠.

العادة المألوفة في البيع والشراء [١] . ولقد وقفتُ بذلك اليوم والدلّال ينادي بمن حولهُ من الشبان ويصف الجواري بما لهنَّ من الاوصاف الحسان وهم يتسابقون الى مشتراهنَّ باغلى الاثمان [٢] وكانت الضوضاء مرتفعةً والسوق قائمةً والرجال يتناشدون الاشعار [٣] والعيون تتبادل الحديث وتنبئُ بما في الصدور

وممّا أخذ فيهِ البغاددة اطيب معيشتهم انهم يزينون مجالسهم بالذَّهَب ويلبّسون حيطانها بالوشي ويعنون بغرس الزهور في جنانهم ويجلبون الرياحين [٤] اليها من بلاد الهند [٥] حتى يصير من هذه الجنان ما يقوّم ثمن البستان الواحد بعشرة آلاف دينار [٦] . ويتخذون خوَلهم ومواليهم من اظرف الغلمان واخفّهم نشاطاً . ويميلون الى اللهو والطَرَب بما قد ذكرتُ من اقبالهم على اقتناء القيان . ويتفنّنون في الطعام الى ان يشتروا الصيد في غير اوانهِ والثمار في غير أبّاناتها بما يزن مثلهُ فضةً او ذهباً . ويتمتّعون بالذوق في غير طعامهم بما يمضغون من الطيب وورق التنبول الهنديّ الذي يمزجونهُ بالنورة المبلولة مع الفوفَل لتطييب النكهة وتشهية الاكل وإحداث الطَرَب والاريحيَّة في النفس [٧] . ويتخذون مقاعدهم في اوان الحرّ بين الماء

(١) المقدمة ١٨٢ (٢) الف ليلة وليلة وحلبة الكميت واغاني (٣) اغاني ١٣ * ٣٥ (٤) ياقوت ١ * ٦٨٧ (٥) المسعودي ١ * ١٨١

(٦) اغاني ٥ * ١١ (٧) المسعودي ١ * ١٠١

المتدفق من صور السباع وغيرها مما ينقشون في الرخام فاذا ما اصابت الاجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا في السقوف مراوح [1] يعملون لها الحبال التي تجرّ بها [2] فيجذبونها فيهبّ عليهم النسيم البارد . ويستجيدون في اللباس والزينة [3] والآنية الفاخرة وركوب الخيل بالديباج والفضة [4] الى الغاية التي لم تبلغها الامم التي سبق لها عهود من قبلهم بالمدنيّة والعمران

ولما توسَّعوا في الترف الى هذا الافراط دبَّ في شبابهم مرض من الانهماك في الملذات [5] والاسترسال في القصف والتهتُّك . وهذا المرض تابع للعمران ملازم له كالذي عهدنا وقوعه في الفرس والروم واليونان عند ما استفحل فيهم العمران وبلغوا اسمى درجات القدرة والسلطان . وهؤلاء الشبّان يعرفون بالمخنّثين [6] وهم زينة بغداد المترفة في حسن ازيائهم [7] ورقة كلامهم وظرف المعشر بينهم [8] ولين العريكة فيهم وسرعة الخاطر عندهم . ولا يعاب منهم الّا استمساكهم بالدنيا والتماس النعيم منها بما يبعدهم عن الشرع والملّة فما لباسهم الديباج الّا محرَّم [9] في مذاهب الائمّة كما نقل ابو يوسف عن حديث الرسول صلّى الله عليهِ وسلّم من لبس الحرير في الدنيا فلن يلبسهُ في

(١) الكشكول ٣٩ (٢) اغاني ١١ * ٩٩ (٣) الف ليلة وليلة
(٤) المقدّمة (٥) الاغاني (٦) اغاني (٧) اغاني ٤ * ٥٩
(٨) اغاني ١٧ * ٥ أ و٢ * ١٢٨ (٩) ابن عابدين ٥ * ٢٤٤

الآخرة[١] وكذلك انعكافهم على معاقرة الخمرة محرَّم في القرآن واحاديث النبيّ صلّى الله عليهِ وسلَّم . . .

ولقد رأيتُ هؤلاء المخنثين ينفردون في معايشهم على خصائص واحوال لا نجدها في غيرهم من الناس فهم يتمسَّكون ويبخّرون ثيابهم[٢] ويلبسون الحلل مصقولةً[٣] ويتعطَّفون في تثنيهم ويلوون كلامهم ظرفًا ويتخنَّثون في غنائهم الهَزَج[٤] ويحدّثون بالظرائف والطرائف التي يتعلَّمها[٥] الناس منهم ليوسموا مثلهم بالظرف ويقصدون جنان[٦] النزهة سَفَرًا على انقطاعٍ عن الرجال[٧] ويقيمون فيها الغناء[٨] والطَرَب وهي جنانٌ قد أُنشئت لهم في محلّة الكرخ[٩] واتُّخذ فيها حوانيت من الخشب المخرَّم تُخزَن فيها النقولات لهم ويهيأُ فيها الطعام[١٠] لمن يريدهُ منهم فصارت مجتمع اللهو[١١] ومظهر الانس ومجلى الافراح عندهم . يقول بعض شباب اللهو في ذكرها على سبيل الصبابة اليها[١٢]

سقى اللهُ بابَ الكرخِ من متنزّهٍ الى قصرِ وضّاحٍ فبركةِ زُلْزُلِ

ونجد في بغداد غير هؤُلاء المخنثين مَن هم اشدُّ إِعراقًا في ارتكاب

(١) البخاري (٢) الف ليلة واغاني ٧ * ١٥٤ (٣) اغاني ٤ * ٣٩

(٤) اغاني ٦ * ٦٦ (٥) اغاني ٣ * ١٢٨ (٦) اغاني ٣ * ٥٨ و١٢٣ و٥ * ٣٥ و ٩ * ٣٤ (٧) العقد الفريد ٢٤٥ (٨) اغاني ٥ * ٣٥

(٩) الاغاني (١٠) اغاني ٣ * ١٢٣ (١١) اغاني ١٢ * ١٠٢

(١٢) الاغاني ٩ * ١١٣

المعصية يطوفون الاسواق بالليل [1] ويطرقون منازل البغْي اللآئي كثرنَ في الحضرة لهذا الزمان وينفقون ما لهم على الفحشاء حتى اذا صفر اناؤهم ولم يبقَ لهم من المال الاَّ نصابٌ لا يمكّنهم على الاسراف واقتناء الحلل الغالية التي تبلغ مئة دينارٍ [2] ثمنًا اكتروا ثيابًا بالاجرة ليتهيأَ لهم مصاحبة الموسرين الى بيوت الفواجر [3] منهم مَنْ يكتري الخلعة عن كل يومٍ بدرهم ومنهم بدرهمين [4] فيلبسونها اياماً ثم يتنقَّلون الى غيرها وربما طمحت نفوسهم ايضًا الى ما وراء ذلك من تسريح العجائز [5] في طلب المتعفِّفات من ربَّات الخدور كانَّ امتاعهنَّ عنهم يزيدهم بهنَّ كلفًا وهيامًا فتأْخذ منهم الشرطة مَن طالت اليهم يدها ثم تضربهم الحدود بالسياط فيتصبَّرُون تحتها [6] ليقال فلان صبورٌ [7] من الفساق فكأَنهم يعجزون الدولة دون ردعهم عن المعصية والاثم وكذلك الرخاء يتسلَّط عليهِ مَرَضٌ من انهماك اهلهِ بالملذَّات وما العفَّة الاَّ عند الله يهبها مَن اتَّقاهُ من عبادهِ لا ربَّ سواهُ

دخولي على هرون الرشيد

ولما استقرَّ بي النوى مضيت الى دار الرشيد في طَفَل الغداة

---

(١) الف ليلة وليلة (٢) اغاني ٢ * ١١٥ والمستطرف ٢ * ٣٥

(٣) الكنز ٤٨ (٤) اغاني ١٧ * ٣٤ (٥) اغاني ٥ * ١١٩ والف ليلة وليلة

(٦) المستطرف ١ * ١٠ (٧) اغاني ٤ * ٦٤

فأَصبت ابن البوّاب جالسًا في حجرات الحجّاب وهو الذي يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة[١] ويقال انهُ صالح الشعر راوية لاخبار الخلفاء عالمٌ بامورهم فلما رآني أَوسعني سلامًا وتحيةً ثم جاوزني الى مجلس الرشيد في قصرٍ بناه[٢] لاهل بيتهِ تجاه دار الضيافة[٣] من دور الخلافة. وقد استجاد فرشهُ وافرغ العناية في تجميلهِ بأَفخر انواع الزينة وغرس فيهِ الاساطين التي يصطفّ بجانبها الغلمان[٤]. وقد بناهُ على دجلة[٥] بحيث يسمع صوت الذين يعبرون بالزوارق[٦] فكثيرًا ما كنت اذا زرتهُ بعد ذلك اصبتهُ جالسًا الى الشبّاك يستمع غناء الملّاحين في الزلّالات[٧] ... فلما دنوتُ منهُ بادرت الى يدهِ فقبلتها فضمّني اليهِ بالتحية والسلام وأَقبل عليّ بأَلطف الكلام

وكان الرشيد طويلاً[٨] عبل الجسم[٩] اشقر اللحية عليهِ مهابة الملوك وجلالتهم[١٠] وعيناهُ وقّادتان كأَنهما لسانان ناطقان فاذا صغى لمحدّثٍ بين يديهِ أَحاط بهِ بصرهُ حتى لا يدع لهُ سبيلاً الى ان ينطق في حضرتهِ بغير الصدق. فلما وقفت بين يديهِ أَمر الفرّاش[١١] ان يأتي بما أَتّكئُ عليهِ[١٢] وهذا تعطفٌ لا يكون منهُ الّا للبرامكة وأَبي يوسف

(١) اغاني ٣٠ * ٤٢ (٢) اغاني ٥ * ٣٣ (٣) اغاني ٦ * ١٣٢
(٤) اغاني ٦ * ٧٦ (٥) اغاني ٤ * ١٨٩ (٦) اغاني ٩ * ٦٧
(٧) اغاني ٣ * ١٧٧ (٨) العقد الفريد ٣ * ٥٤ (٩) الخميس ٢ * ٢٤١
(١٠) السيوطي (١١) اغاني ٩ * ٦١ والف ليلة وليلة ١ * ١٢ (١٢) ابن الاثير ٦ * ٣٨ واغاني ٥ * ٣٢ و٩ * ٦١

وجلّة المشايخ من آل العبّاس. ثم انهُ استدناني اليهِ [١] واجرى حديثهُ اليَّ عن خراسان فأَخبرتهُ بما رأَيتُ فيها من اختلال الاحوال وان الفضل رتق الفتق الذي دبَّرهُ اهلها بالمحال واطلق يدهُ فيهم بالضرب والنكال وكنتُ عند ما ذكرتُ ذلك قد بادرتُ الى سيفي كما جرت العادة بان لا يكلّم الخليفة احدٌ بما فيهِ الوهن الاَّ بادر الى سيفهِ تعظيماً للامر وقياماً بواجب الاجلال [٢]. فقال سبحان الله لقد اوصينا الفضل بهم خيرًا لانهم محبّون لنا [٣] وهم شيعتنا الذين اظهروا دعوتنا وقام بهم ملكنا. فقلت يا امير المؤمنين ان الفضل اخاك لم يمكّن السيف في رقابهم الاَّ بمشورة القوَّاد وعظماء البلاد الذين اذا ما فاوضهم في ذلك وقع بالموافقة من نفوسهم وما انكروا عليهِ استلحام قوم رعاعٍ لا يحسبون من وراء فتنتهم غائلةً يسوء مآلها على الدولة. فلما ذكرتُ لهُ ذلك أَعرض عن الافاضة في هذا الحديث واخذ ينكت الارض بشيء في يدهِ ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذي يكتب الفضل الينا عن لزوم تحريسها بالجند فقلت لهُ ان في خراسان تجارة تباع بأَبخس الاثمان وان السابلة اذا أَمنوا على بضاعتهم من العربان بقيام الجند في الطرقان والبلدان جلبوا خيراتها الى العراق وتجروا بها مع أُمم البحر فقال ولكن لنا اعداء ينبغي ان نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الاسلام ونحن

(١) اغاني ٥ * ١٠٦ (٢) اغاني ٥ * ٥٩ (٣) ابن الاثير ٦ * ٧

ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند اذ لا بدَّ للراعي من حراسة الرعيَّة (١) ولقد يكفي التجار ما أمنَّاهم من السُبُل في غير الديار العِمران وما احتفرنا لركبهم من الركايا واوسعنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب ان تكون سوق التجارة فيها دارَّة واما تجار خراسان وما اليها من البلدان النائية فانَّا لا نحسب زكاة اموالهم كافيةً لمصلحة الجند ووافيةً بارزاقهم الواسعة فيها

وكان الرشيد على مهمَّة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثهُ مرَّةً بعد مرَّة ثم يقبل على نفسهِ بالتأمل والفكرة فأوهمتُ انهُ يرى فيها مسألةً تنقبض نفسهُ دون بسطها اليَّ . فاذا الامر على خلاف ذلك وانما كان مشغول الخاطر بما أقلق اباهُ قبلهُ من امر الولد ومؤاثرة بعضًا على بعضٍ بالخلافة من بعدهِ (٢) فاتفق وانا بالخلوة معهُ أن دخل عليهِ خادمهُ العبد فتفرَّسهُ الرشيد وقال لهُ ما وراءك يامسرور فقال ما تحب يا امير المؤمنين ثم قام مقامهُ الذي كان اذا قامهُ علم الرشيد انهُ يريد ان يسارَّهُ بشيءٍ (٣) فأوما اليهِ بالدنوّ فالقى في أُذنهِ كلامًا ثم تنحَّى . فقال لي الرشيد هذا خادمنا الامين نرتاح في الاسرار اليهِ . لم يحدّثنا جهرًا وانت ماثلٌ بين يدينا ولكنهُ سارَّنا في امرٍ ممَّا اخذنا في تقديم المأمون على الأمين بالولاية لانَّا نرضى سيرتهُ ونأمن ضعفهُ ووهنهُ مع ان بني هاشم مائلون الى الأمين (٤) وانشد

(١) الوطواط ١٠١ (٢) ابن الاثير (٣) اغاني ٥ * ٣٣

(٤) المسعودي ٢ * ٢١٥ والمستطرف ١ * ٩٣

أَخافُ التواءَ الامرُ بعد استوائهِ
وان ينقضَ الحبلُ الذي كان أُبرِما[1]

فلما رأَيت بلوغ القلق في نفسهِ من هذا الامر تقدَّمت اليهِ با الرأي الذي تقدَّم بهِ يحيى الى ابيهِ من مبايعة الولد بعد الآخر[2] مع علمي بان ذلك امرٌ لا يجري فيهِ الوفاق ولا يتمُّ على الوجه الذي يرومهُ الرشيد بعد ما رأَينا من العبَّاسيين تطاولهم في خلافة الاسلام وانتقاض العهود التي كانوا يكتبونها على نفوسهم في حدود الله والآدميين فهذا ابو جعفر لما رسخت في المسلمين دولتهُ ومضت فيهم كلمتهُ لم يجد من نفسهِ رادعاً لهُ عن البغي[3] فخلع ابن اخيهِ عن الولاية وقدَّم عليهِ ابنهُ فيها[4]. فلما ولي المهدي بحيلة[5] الربيع التي اجحفت بحقوق الخلافة واخذ في استمالة الناس بما فرَّق فيهم من المال لم يجد منهم عند اظهار اغراضهِ فيهم الاَّ المتابع لهُ والموافق على خلع ابن عمهِ عن الولاية. ثم لمَّا صارت الخلافة الى الهادي وفي اعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعدهُ فرام ان يخلعهُ عنها بموافقة اهل الحلّ والعقد لهُ ويصيّرها بعدهُ الى جعفر ابنهِ[6] لولا ما اجراهُ يحيى بن خالد رعاهُ الله من الدراية والحيلة المباركة

وانما كان المأمون احقَّ با الولاية من الأَمين لانهُ اكبر منهُ بايام

(١) الحصري ٣ * ١٤٩ (٢) المسعودي (٣) الفخري (٤) ابو الفداء ٢ * ١١ (٥) ابن الاثير (٦) ابن الاثير

وان لم تكن امهُ هاشمية مثلهُ فلو صارت الخلافة الى مَن هو اصغر من اخوتهِ وهو حاضرٌ لم يصبر على ذلك فكان يحسب الرشيد من تقديم الأَمين عليهِ بالولاية ووقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعًا الى الواقفين لها من اهل البيت او الى من كان اقرب الهاشميين الى استخلاف ابي العبَّاس . فان عمَّ عمّ عمّ الرشيد الى ثلاثة اعمام حاضرون فعبد الصمد بن عليّ عمّ العباس بن محمد والعباس عمّ سليمان بن المنصور وسليمان عمّ هرون[1] فهؤُلاء هم مرتقبون للخلافة وواقفون لها بالمرصاد فلا يسع الرشيد مخالفتهم في تقديم الأَمين على المأْمون وانما يرجع الى الرأْي الذي تقدمت بهِ اليهِ فتطمئن نفسهُ من بقاء الخلافة في بيتهِ ومصيرها الى مَن يحبُّ ان تصير اليهِ من اولادهِ[2]

حكمة الرشيد في السياسة

هذا فصلٌ أُفردهُ لذكر خلافة الرشيد وبيان الموازنة بينهُ وبين ابي جعفر في السياسة[3] ان صحَّت المقابلة بينهما . فاني ما وجدتُ في الملوك مَن جمع فنون السياسة الى عقل الملوك وفضلهم[4] وحكمتهم ودهائهم مثلهُ. تجتمع محامدهُ المأْثورة في قربهِ من الخير[5] وبعدهِ عن البغي الذي كان طبيعةً في ابي جعفر وسائر العبَّاسيين حتى اذا

---

(١) العقد ٢ * ٥٤ (٢) هو المأْمون عبد الله (٣) الخميس ٢ * ٣٣١ والسيوطي (٤) الفخري ٢٣٢ (٥) المقدمة ١٨٣

صار اليهِ امر الامَّة كان اوَّل ما صدر بهِ امرهُ ان تعاد الى الناس الضياع التي اغتصبهم آباؤُهُ وترَدَّ الاموال المحفوظة الى اهلها في جميع النواحي والامصار . فلو لم يكن لهُ من المآثر غير هذا لكفى الناس فَرَجًا ورحمةً واسعةً بعد ما اصابهم من الجهد والضيق في خلافة ابي جعفر وما استمرَّ المهديُّ عليهِ من حفظ الضياع المقبوضة عنهم إما طمعًا بريعها واما استصوابًا لرأي ابيه في قبضها[1] حتى لا يدع سبيلاً الى القول بانهُ ظلم العباد فيما خوَّلهُ الله عليهم من المُلك العظيم

ثم يصحُّ تفضيل الرشيد على ابي جعفر بما هو آخذٌ في سياستهِ من انجاز الوعد وحفظ المودَّة ومكافأَة المحسنين على احسانهم[2] حتى انهُ ليزيد عمَّالهُ نعمةً وتجلَّةً كلما سما قدرهم واستفحل في الاسلام ملكهم فهذا روح من امراء المهلَّب لمَّا عمَّت الدولة مآثرهُ ودانت الرقاب المتطاولة لهُ افرغ النعمة الواسعة عليهِ واوقف لهُ الولاية إرثًا في اهل بيتهُ من بعدهِ[3] . وهذا ابرهيم من أُمراء الاغالبة لمَّا اجتمعت كلمة اهل المغرب عليهِ وتمكَّن فيهم سلطانهُ[4] ولَّاهُ افريقية الى ما وراء البحر وجعل الولاية موروثةً ايضًا في اعقابهِ من بعدُ وهو بعيدٌ عن ان يتخوَّف منهم ما كان يتخوَّف ابو جعفر من عمَّالهِ في

(١) الماوردي ١٥٦ (٢) الفخري (٣) المونس ٤٦ وابن الاثير ٦ * ٥٠
(٤) ابن خلدون وابن الاثير

استقوائهم عليهِ بل هو راغبٌ في استفحال ملكهم لتوطيد الاسلام في تلك الديار المتراخية الشقّة ليكون ممتنعًا على العدوّ وقائمًا بارهاب الفرنجة وغزوهم في البحر وانتزاع صقلية منهم وهذا نظرٌ يدلُّ على سداد الرأي في السياسة واتساع الخبرة في تدبير المُلك

ولقد سمعتُ في مجالس المراواة مَن يقول ان الرشيد يقتفي سيرة جدّهِ في السياسة [1] . فذلك مردودٌ عندي من حيث امتناع المماثلة بين العدل والظلم. والّا فان كان الرشيد يستميل الناس بالاحسان اليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعتهِ كما كان ابو جعفر يأخذهم بالعسف [2] حتى لا يستطيعوا مغالبتهُ فما الغاية المقصودة من سياستهما الّا واحدة غير ان سياسة الحلم خيرٌ من سياسة القتل والظلم وانما تكون لصاحبها بما لهُ من الدّالة على أُمّتهِ أَحفظَ لملكهِ رباطًا من سياسة البغاة الذين يتخذون الجور قوامًا لسلطانهم فانهم يحجبهم عن رعيتهم ستر الخوف ولا يجسرون على الظهور الّا بين الحرس والجنود ولا يهنأُون بشيءٍ من الغبطة والسرور كما ذكرتُ في الكلام عن ابي جعفر

اما سياسة الرشيد مع اهل البيت ففيها خروج عن العدل وان لم تكن مجراةً على ما رسم ابو جعفر من تتبّعهم في كافّة الوجوه فانما كانت تختلف عنها بما تختلف فيهِ السياستان بين الحلم والظلم .

(١) الخميس ٢ * ٢٢١ (٢) ابن الاثير

ولقد كنت اساير الرشيد في بعض الايام فقال بلغني ان العامَّة يظنون بي بغض عليّ بن ابي طالب فوالله وتربة امير المؤمنين اني ما احبُّ احدًا حبّي لهُ[1] ولكن هؤلاء (وهو يريد آلهُ) اشدُّ الناس بغضًا لنا وسعيًا في فساد دولتنا بعد اخذنا بثارهم من الامويين ومساهمتنا اياهم ما حَوَينا حتى انهم لأَميل الى بني أُميَّة اليوم منهم الينا . فكنت في ذلك الوقت بعيدًا عن ان اثق بصحَّة هذا الايهام ولكنهُ ظهر لي فيما بعدُ انهُ لا يروم اقصاءهم الاَّ على غير مكروه يوقعهُ بهم وانهُ لو قدر ان يرفع عنهم الضيم الذي يلحقهم من جور العبَّاسيين وهو موقنٌ ببقاء الخلافة لهُ من غير مقارع عليها ولا منازع لهُ فيها لفعل[2] وطاب بذلك نفسًا . فلقد علمتُ ان المكروه الذي الَمَّ بيحيى بن عبد الله بن الحسن انما كان صدورهُ بسعاية اقاربهِ الذين لم يسعهُ مخالفتهم وهو في موقفٍ يخاف عليهِ الفتنة التي هي اشدُّ من القتل . وكذلك مقتل موسى بن جعفر الامام لم يقع من نفسهِ برضاهُ لانهُ لم يكن متهمًا عندهُ في بدعةٍ ولا ظنينًا على دخلةٍ مكروهةٍ حتى اذا قتل في محبسهِ وهو يظنُّ انهُ مات حتف انفهِ[3] اسف كل الاسف عليهِ ومشى في جنازتهِ من دار الخلافة الى باب التبن حيث مقابر قريش[4] الى ماوراء نهر عيسى الهاشمي[5]

(١) السيوطي (٢) اغاني ١٢ * ١٨ (٣) الفخري ٢٣٢
(٤) ابن خلكان ١ * ٧٩ (٥) ابن خلكان ١ * ٢٨٢

فكنتُ احيط بهِ مع امراء البرامكة فاسمعهُ يترحَّم عليهِ ويظهر براءتهُ من دمهِ. غيران خروجهُ عن مشاركة اقاربهِ في مؤَامرتهم لا يبعدهُ عن ركوب الخطر واعتساف الغَرَر فانما يجب على خلفاء النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم ان يتبعوا سنَّةُ العدل ولا يتسامحوا في قتل الابرار الذين هم ذريةُ الصالحة وسُلالتهُ الشريفة عليهم صلوات الله ورضوانهُ

هذا ما وقعت فيهِ المقاربة بين سياسة الرشيد وابي جعفر الى الغاية التي يرجوانها جميعًا من تأْييد الدولة بها وان لم تتوافق اليها السُبلُ . وقد وجدتُ للرشيد فضلاً[1] في تدبير مملكتهِ احق بالثناء الجزيل وابقى للذكر الجميل من فضل ابي جعفر غفر الله لهُ بما ينالهُ من المشقة في ركوبهِ الى اطراف المملكة لتفقد ثغورها والنظر في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج او ضيمٍ يلحقهم من جور العمَّال. فاذا صار الى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربيّ[2] اخذ التراجمة معهُ[3] حتى لا يفوتهُ شيء من أَمر الرعيَّة فهو يحجّ سنة ويغزو سنةً[4] كذلك عادتهُ من يوم ولي الخلافة وقال شاعرهُ في مديحهِ على بُعْد هذه الهمَّة منهُ[5]

فمن يطلب لقاءك او يُردْهُ ‌ ‌ ‌ ‌ فغي الحرمَين او اقصى الثغور

(١) ابن الاثير والفخري ‌ ‌ (٢) ابن الاثير كتاب ٥ ‌ ‌ (٣) المقريزي ١ ＊ ٨١
(٤) ابن خلدون وابن الاثير والفخري والاسحاقي والسيوطي والطبري والخميس
(٥) ابو الفرج والخميس ٢ ＊ ٢٣١

وقال آخر (١)

أَلف الحجَّ والجهادَ فما — ينفكُّ عن غزوتين في كل عامِ

وربما رام في اسفارهِ او بالزوراء ان يعرف ما يدور بين الناس من الحديث فيتخفَّى في زيّ التجار (٢) ويطوف الاسواق مع جعفر وزيرهِ ومسرور خادمهِ (٣) ويجلس في حلقات القوم ليطّلع على ما لا يصل اليهِ خبرهُ من امر السوقة والعوام فنجم عن عنايتهِ بهذا الامر (٤) كثيرٌ من الفوائد التي صلحت بها رعيتهُ ودولتهُ جميعاً فقد قال لي جعفر اعزَّهُ الله انَّا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عنينا بتقدير الاوزان وتمييز المغشوش من السكَّة الاَّ بما وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس

البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد انما هي باشارة البرامكة الذين رفعوا منار الاسلام (٥) بصلاح مشورتهم اليهِ في امور الخلافة ولذلك صيّر اليهم النيابة في الدولة (٦) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون اسرار الدولة وحفظ اللسان في بلاغتهم (٧) بعد ان

---

(١) فوات الوفيات ٢ * ١٩٢ (٢) اغاني ٦ * ١٢٧ والاتايدي ١٢٦ (٣) الف ليلة وليلة وحلبة الكميت (٤) الاسحاقي ٩١ (٥) العقد الفريد ٢ * ٣٧ (٦) المقدمة ٢٠٧ (٧) العقد ٢ * ٣٧

فسد عند الجمهور من اهل الامصار بعض الفساد[1] فصار جعفر يسمى بالسلطان اشارةً الى عموم نظرهِ في سياسة الدولة وتدبير الملك لان الخطط كلها بيدهِ الاَّ الحجابة لم تكن لهُ لاستنكافهِ عنها بما ان صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والآداب التي تلزم في الكون بين يدي امير المؤمنين[2] وذلك مما ينزّهُ نفسهُ عنهُ وهو بالموضع الذي علمتَ من جلالة القدر والقيام بامور الخلافة

ولقد كان يحيى اعزَّهُ الله قائمًا بأَوَد الوزارة من قبلهِ وهو الذي قلد الرشيد الخلافة بحكمتهِ ودرايتهِ[3] حتى اذا استوثق لهُ الامر قال لهُ انت اجلستني في هذا المجلس بيمنك وبركتك[4] وقد قلدتني الامر يا أبت ثم دفع اليهِ خاتمهُ وقلدهُ امر الرعيَّة[5] ان يحكم بما يرى ويعزل من يرى ويستعمل على الولايات من يرى وفي ذلك يقول ابرهيم الموصليّ النديم[6]

الم ترَ ان الشمس كانت مريضةً فلما أَتى هرون اشرق نورها
تلبَّست الدنيا جمالاً بملكهِ فهرون واليها ويحيى وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفةً الى تقويم الدولة حبًّا

(١) المقدمة ويتضح مثل ذلك ممن دوّن اللغة في ايام الرشيد
(٢) المقدمة ٢٠٧ (٣) ابن الاثير والطبري (٤) المسعودي ٢ * ٢٠٧
(٥) ابن خلدون وابن الاثير ٦ * ٣٩ والسيوطي (٦) الاغاني ٥ * ٤١
وابن الاثير وابن خلدون والمسعودي والسيوطي والمحاضرة ٢ * ١١٤ والاتليدي ٩١

بالرشيد ان تعظم في الاسلام صولتهُ على حين لا يُحرم اهل البيت من قيام ملكهم فيما وراء البحر مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة وسلوك السنن الشريفة فانتج لهُ حسن نظرهِ ان يطوّق فيها أمر الجند الى غير العرب الذين لا يقدرون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من اخوانهم بما يكون بينهم من الدالّة والقرابة . فلقي دون بلوغ غرضهِ من هذا الامر صعوبة كادت تفضي الى الفتنة بما وقع من الضغائن بينهُ وبين يزيد بن مزْيد[1] وغيرهِ من امراء الجيش . الّا ان الرشيد كان على موافقتهِ[2] فيما يرى بهِ مصلحتهُ فاذا فتح الناس عليهِ باب الفرقة وتدرعوا بجلباب الفتنة ارسل اليهم الفضل او هرثمة بن أعين[3] فازالا الشرّ باسرع من طرفة عين

ثم استقال يحيى عن الوزارة بعد ان حلّ فيهِ المشيب ففوّضها الرشيد الى الفضل ثم الى جعفر بعدهُ وعهد بالمراتب الى اخوتهِ وأولادهم[4] وهم بمكانٍ من الفطانة[5] التي توارثوها مع المجد طرافًا وتلادًا فقاموا بأود الوزارة وجمعوا اليهم مراتب السيف والقلم. يقول سلم الخاسر[6] في شرف المسلمين بهم وازدهاء الدولة بمحاسنهم

اذا ما البرمكيّ غدا ابن عشرٍ فهمّتهُ أميرٌ أو وزيرُ

---

(١) ابن الاثير ٦ * ٥١ (٢) المقدمة ١٥٩ (٣) الاغاني ٤ * ١٠١ وابن الاثير ٦ * ٥٠ وابو الفداء ٢ * ١٦ (٤) المقدمة والعقد الفريد (٥) ابن خلكان ٣ * ٢٦١ (٦) المحاضرة ٢ * ١١٤

الاَّ انهُ كان منتهى نظرهم في السياسة [١] الى جعفر هذا السلطان وهو محضور الرويّة مؤيد البديهة وثيق العقدة جامع لخصال الخير مؤتمن على الاسرار بارع في مهمات الامور وليس في أَهل الأَدب من هو اذكى [٢] ولا افطن ولا اعلم بكل شيء ولا افصح لسانًا ولا أَبلغ في مكاتبةٍ منهُ [٣] . وكان الرشيد يقدّمهُ على الفضل بما يسرع الى استنباط الحيلة في تدبير ما يطرأُ على المُلك من المهمات الصعاب [٤] كما يقول فيهِ شاعر معنٍ رحمهُ الله

وزيرٌ اذا ناب الخلافة حادثٌ   اشار بما عنهُ الخلافة تصدرُ

ووجدتُ في نفسهِ من الميل اليهِ بحيث انهُ لم يكن لهُ صبرٌ على مفارقتهِ في ساعةٍ من نهارٍ ولا ليل [٥] . واذا دخل عليهِ اجلسهُ على سرير الخلافة بجانبهِ واجلس بني هاشم على الكراسي والوسائد [٦] دونهُ . وربما قدّمهُ في المشورة على احبّ اهل بيتهِ اليهِ . حتى انهُ لا يعهد اليهم بولاية ولا يصلهم بمال الاَّ برأْيهِ ورضاهُ . وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم وشيوخهم من اهل التجلَّة ان الرشيد غضب عليهِ فقصد باب البرامكة فقال لهُ جعفر أَنت تقصدني فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فاقضيها لك قال عبد الملك بلَى ان في قلب امير المومنين عليَّ موجدةً فتخرجها من قلبهِ وتعيد اليهِ جميل رأْيهِ فيَّ فقال لهُ جعفر

(١) العقد ٣ * ٣٧   (٢) الوطواط ٢٤٩   (٣) الاغاني ٤ * ٨٥
(٤) كُتب التاريخ   (٥) الاتليدي   (٦) اغاني ٤ * ٩٣

قد رضي عنك امير المومنين وزال ما عندهُ منك قال عبد الملك وعليَّ اربعون الف دينار ديناً قال هي لك حاضرةٌ ومن مال أمير المومنين لاني اجل قدرك عن ان يصلك بالمال غيرهُ قال وابني ابراهيم تخاطبهُ فيهِ حتى ينوّهَ باسمهِ ويرفع الالوية على رأسهِ قال لتطب نفسك ان الرشيد قد ولاّهُ مصر أَو قال لهُ ما شئت من البلدان فانصرف عبد الملك وهو يتردّد بين العَجَب والسرور حتى اذا كان الغد دعاهُ الرشيد واقبل عليهِ بجميل العاطفة ثم أَمر لهُ باربعين الف دينار وكتب سجلّ ابنهِ على مصر [1] .

فهذا أَمرٌ يدلك على مكانة جعفر عند الرشيد بحيث انهُ يضمن عنهُ الضمانات التي لا يجد بدًّا من وفائها بغير ردٍّ [2] كما يدلك على ان مشاركتهُ لهُ بالمُلك لا تقف على حدٍّ السياسة فيما يبديهِ من رأيٍ جميل أَو تدبير حسن وانما يتناولها في اكثر الاحيان بما لهُ عليهِ من الدالّة [3] التي صارت بينهما الى ما لا غاية بعدهُ بين الاخوان. فما اذكر اني رأَيت الرشيد في مجلس يطيب لهُ نفساً بغير محضرهِ [4] . وكثيرًا ما كنتُ أَراهما يتنقلان في لبس الحلّة الواحدة [5] ويجلسان معًا بين القيان والغانيات على شربٍ ولهوٍ ومصافاة خلاّن

(١) الاغاني ٥ * ١١٩ والفخري والعقد الفريد ٣ * ٢٤ والاتليدي ١٦١ والابشيهي ٢ * ١٩٣ (٢) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٣) الاتليدي والف ليلة وليلة (٤) الاتليدي ١٦٩ وابن خلدون وابن خلكان (٧) الاغاني والف ليلة وليلة

وان كان ليحيي فضلٌ في تقويم هذه الدولة فان لجعفر فضلاً في تدبير مملكتها أتمّ واجمل في اعين الرشيد وقد اغناهُ بنفاذ سلطانهِ في المشرق عن ان تتسع مملكتهُ الى طرف المغرب ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن بحدوثها من بقاء الخلافة في يدهِ . فلم يكن بدٌّ لاصلاح امرهِ من سلوك السبيل الذي مهدهُ لهُ جعفر لتتمّ لهُ الفائدة التي رامها ابوهُ في تقويم الدولة و بلوغ غرضهِ منها في المشرق فتوقّفت مصلحة الدولة والاسلام كلهِ على ان يتّبع الرشيد هذه الخطّة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدّم ولجعفر من بعدهِ الفضل اللاحق والمتمّم . . .

ولقد شملت عناية جعفر رفع الله قدرهُ خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم الاّ انهُ كان الى تدبير المملكة وترتيب الدواوين اشدّ منهُ عنايةً واقرب من نفسهِ ميلاً الى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم يرَ لهم مع ما هو مطبوعٌ فيهم من نخوة الجهاد التي لا يطيق الأعاجم مناجزتها فيهم الاّ ان يصرف اليهم ارزاقهم في أبّاناتها ويرضيهم بسعَة الاعطيات من غير مال الخليفة[1] بما اقتصد فيهِ من النفقات التي توسّعت اليوم بين يديهِ وكانت ضائعة من قبل على الدولة وان يفوّض امرهم الى الامناء الذين طال وقوفهم في ساحات القتال واتسعت منهم الخبرة في تدبير

(١) المسعودي ١ * ٨٢

الحروب واستخدام الحيلة من وراء المقدرة اذا قصَّرت عن ان تأتي بغرضها المقصود من خدمة الدولة ومصلحة الملَّة

واما مآثره في تدبير المملكة فانها تتناول ضبط الاموال وترتيب ديوان الاعمال والجبايات (١) على غير ما رسم ابو عبد الله في كتابهِ (٢) على الخراج وانما اقتصد من النفقة على قدرٍ ابقاهُ للزيادة في ارزاق الجند واقام على السجلَّات قوماً مهرةً في الحساب (٣) ليجد الموازنة فيما يدخل بيت المال ثم يصرف منهُ وجعل لهذا الديوان شعباً ترجع مصالحها اليهِ كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات (٤) وغير ذلك واحبَّ ان توقف دفاتر الخلفاء وسيرهم تحت المراجعة لينظر (٥) فيما يتصرَّف بهِ الخليفة بموازنة الدخل الذي ترتب في سجلَّات الديوان

ثم توسَّعت عنايتهُ من تدبير المملكة الى سياسة الرعيَّه بالرفق وادخال الراحة عليهم من باب الأمن . فانتج لهُ رأيهُ العدل ان يقيم الاحكام على المذهب الذي لا يفرق بين المسلم وغير المسلم (٦) الاَّ فيما هو مأخوذٌ على اهل الذمَّة من العهود المحفوظة وأَقام رجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع (٧) وحفظ حقوق الامَّة واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من

(١) المقدمة ٢١٢ (٢) الفخري ٢١٦ (٣) المقدمة وابن الاثير ٥ * ١٢١

(٤) اغاني ٩ * ٢١ و٢٦ (٥) الاغاني ١٤ * ١١٤ (٦) الماوردي ٢٩٢

(٧) العقد ٢ * ٢١١

الكفالة[1] وغيرها بشهادتهم وامرهم ان يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليتسهَّل وصول الناس اليهم فتجري معاملاتهم بالعدل الذي يروم ان يشملوا بهِ نفوسهم كما تشملهم بهِ الدولة فكان يقول[2] اعزَّهُ الله الخراج عمود الملك ما استغزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم

ثم انهُ نظر في صلاح الزوراءِ ورغب الى الرشيد ان يطوّق شرطتها الى عبد الله بن مالك من جلة القوَّاد[3] .... واقام العسس[4] بالليل لمحافظة الدروب[5] . ودسَّ فيها العيون لملافاة الخَلَل الذي يطرأُ عليها من وفود الاغراب واختلاطهم[6] الى ان رتع الامن في آراضها وخيَّم السلام على أَرباضها . وذلك يندر ان يكون في مدن الاعاجم ومحاشد مللهم فلقد ينمى الينا عن قاعدة الروم ان المكروه واقع فيها كل يوم لامحالة مع انها محتشد النصرانية ومباءة الملوك الذين حازوا العالم بين شرقٍ وغرب . ونحن لا نريد بذلك ان الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم فربما كانوا بعكس ذلك وكانوا اكثرهم من جملة العلم[7] غير ان التَّرَف قد غلب على عامتهم حتى لا سبيل لملوكهم الى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الاهواءِ[8]

(١) المقدمة ١٩٦ (٢) العقد ١ * ١٣ (٣) الاغاني ١٧ * ٤٦ والمسعودي ٢ * ٢١٢ (٤) اغاني ٢ * ١٥٧ (٥) الاغاني ٧ * ٩ والمستطرف ٢ * ١٨٦ (٦) ابن خردادبة ١١٦ (٧) المقدمة ٤١٩ (٨) وكان هذا من اسباب التواني في دولتهم

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح بهِ الملة والدولة جميعًا[١] بلغت منهُ الامانة فيهِ الى ان يطوّقهُ السلطة التي تقارن سلطتهُ وتشترك فيها معهُ ففوّض اليهِ القضاء بديوان المظالم وهو القضاء الذي كان يباشرهُ الخلفاء من الامويين بنفوسهم[٢] ثم المهديّ من بعدهم في صدر هذه الدولة لمَّا قصد استمالة الناس اليهِ بعد ان نفرت قلوبهم عن محبَّة ابيهِ . فصار جعفر يجلس فيهِ[٣] بجانب الرشيد على سريرهِ ويشاركهُ في توقيعهِ على القصص التي يرفعها الناس اليهِ ولكن بالعبارة التي يتنافس[٤] في بلاغتها العلماء[٥] فمن بعض ما حفظت لهُ من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الامثال توقيعهُ في قصة رجل شكا بعض عمَّالهِ اليهِ "قد كثر شاكوك وقلَّ شاكروك فاما عدلت واما اعتزلت"[٦] وتوقيعهُ في قصة قوم قطعوا الطريق "انما جزاء الذين يحاربون الله ورسولهُ الآية"[٧] ووقّع في قصة محبوس "العدل اوقعهُ والتوبة تطلقهُ"[٨] ووقّع في قصة متظلم "طب نفسًا فكفى بالله للمظلوم ناصرًا" ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم "يرحل عنكم" ووقَّع الى بعض عمَّالهِ "انصف من وليّت أَمرهُ والاَّ انصفهُ منك من ولي أَمرك"[٩]

(١) الانليدي (٢) الماوردي (٣) الاغاني ٤ * ١٦٢ (٤) الكنز ٩٤ (٥) ابن خلكان ١ * ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧ (٦) ابن خلكان ١ * ١٤٧ (٧) ابن عبد ربهِ ٢ * ٣٣٢ (٨) العقد الفريد ٢ * ٣٣٢ (٩) الوطواط ٣٥

الى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها[1] الادباء الى ان تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهمًا ثمنًا[2] في ايدي الناس . وهذا ما اكتفي بذكره من مآثر هذا السلطان الذي ليس له ند في العالمين وقد فضل الملوك كافة بالعلم والعقل والسياسة[3] وآتى الرشيد عزةً ورفعة مقام كالذي لم نرَ مثلهُ قدمًا في دول الخلفاء . فتولى الله مكافاتهُ عن المسلمين والاسلام بما هو واسع لهُ من الجميل وجعل المجد لائذًا بجنابهِ والسعادة حافة ببابهِ ان شاء الله

صلاح التجارة والمعاملة

هذا فصلٌ نفردهُ لذكر المعاملة الرائجة بين الناس بقدر ما يسمح لنا المقام . فانهُ لما استتبت الراحة في بغداد توسع فيها نطاق التجارة وتوفرت الاموال في ايدي العوام بما تقدم من توجيه الرشيد همهُ الى تأمين السبل للقوافل وتمهيدها للتجار السفرة حتى حملوا تجارة الدنيا كلها الى العراق . فحملوا من الهند آنيتها ومن اصبهان وشيراز ويزد شرابها[4] ومن خراسان حديدها ومن الكرمان رصاصهُ ومعدنهُ ومن قشميرا لنسيج الملوّن ومن الصين الغريْبَ والكمكان والمسك والعود والستور والسروج والغضار

---

(١) ابن خلكان والسيوطي (٢) المقدمة ٢١٥ (٣) الاتليدي وابن خلكان ٢ * ٣٦١ (٤) العقد الفريد ٣ * ٣٤٤

والطيلسج والدارصيني والخولنجان ومن اليمن العطر [1] ومن فارس السلاح والمصوغات ومن عيذاب اللآلئ [2] ومن الوقواق الذهب والابنوس ومن الهند والسند القسط والقنا والخيزران والكافور والعود والجوزبوا والقرنفل والفاغرة والكبابة والنارجيل [3] والثياب القطنية والمخملة والفيلَة ومن سرنديب الوان الياقوت كلها واشباههُ والماس والدرّ والسنباذج الذي يعالج بهِ الجوهر [4] ومن ملى وسندان الفلفل والبلور ومن كله الرصاص القلعيّ ومن ناحية الجنوب البقم الداريّ ومن البحر الغربي المرجان ويكون بارض الفرنجة وهو السبد ومن الروم المصطكى والجلود والغلمان والرقيق [5] ومن الشام والموصل نسيجهُ وحديدهُ في جبل لبنان ومن الروسيَّة جلود الخزّ وجلود الثعالب يأتي بها الروس الى بغداد عن طريق سوريَّة او عن طريق جرجان [6] ثم تحمل الى اصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين [7] ويتجر بها

هذه هي تجارة الشرق قد حُمِلت الى العراق واما تجارة الغرب فقد تعذَّر نقلها لبعد المسافة اليهِ ولذلك كان يرى الرشيد ان يفتح البحر عند السويس [8] ليقرب المجال من المغرب الى عمَّان فسيراف

(١) القزويني ٢٠٩ (٢) المسعودي ١ * ٢٩ (٣) ابن خرداذبة ٦٨
(٤) الاغاني ٥ * ٢٤ وابن الاثير ٥ * ٢٢٥ والقزويني ٢٠٩ (٥) ابن خرداذبة ٨١ (٦) ابن خرداذبة ١١٦ (٧) ابن الاثير ٥ * ١٠١ (٨) المسعودي ١ * ٢٩٩ والمقريزي والسيوطي والمقدمة ٤١

ففارس فأطراف العراق ولاسيما ان على البحر الروميّ سواحل افريقية وتونس وطرابلس ومصر والاندلس الى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة الى الشمال وسواحل الروم والشام الى الشرق وانها لبلدان كثيرة الخيرات وافرة الغلات [1] فكان يروم الرشيد ان يحمل تجارتها الى العراق على مراكب البحر من طريق السويس ولكن جعفر قد ثناهُ هذا الامر وخوَّفهُ ان تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة الى جدّة فيخربون المواطن على حين لا يتوقَّع لقدومهم اثرٌ [2] فقال جعفر يا أمير المؤمنين ان خَرْق السويس خِرْق في الاسلام وحتى لو انك وجدتهُ مخروقاً من ايدي الملوك الذين سلفوا الخلفاء لَوَجب عليك ان تسدَّهُ اليوم والاَّ فان مصالح التجارة لا تقضي على الاسلام بتضييع البلدان التي دانت لهُ على بذل الدماء. وهذا رأيٌ لا يبدو الاَّ لِمَن ركّب فيهِ أَسجاح الخليقة ومعدلة النظر فان العلماء كلهم قد ضلوا عن ادراك ذلك وانما خوَّفوا الرشيد ان البحر الروميّ أَعلى من بحر القلزم في وضعهِ وانهُ اذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على ارض مصر وغرَّق عيذاب وساحل الصعيد وسواكن وزيلع والنوبة وسواحل اليمن والحجاز وجدَّة ومدين وايلة وفاران وغير ذلك. ولكن قولهم بعيدٌ عن الصواب فهذا بحر الظلمات الى ما وراء الاندلس لم يطمُ ماؤُهُ على سواحل البحر الرومي مع انهُ يعلوهُ

(١) التقويم ومعجم البلدان (٢) المسعودي والسيوطي

بالوضع لمناسبة إحاطتهِ بارض الفرنجة العالية . فما ظاهر البحور الاَّ انها متساوية في نسبة الارض ولم يسمع عن بحرٍ أخفض من غيرهِ من البحور الاَّ بحر لوط في ارض الاردن ولكنهُ ليس ببحرٍ عجاجٍ ولا باوقيانوس محيط وانما هو مياهٌ قد اجتمعت في منحدرٍ من الارض

ولمَّا اجتمعت اموال الدنيا في بغداد أصبحت موردًا لاهل الاعواز من كافة البلاد يتناولون فيها حاجتهم من المال فوقع غشٌّ فاحشٌ في التجارة وصارت اليهود[1] والصيارف يدينون مالهم بالربا[2] على ان يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين[3] واكثر منهُ . فاقام الرشيد محتسبًا[4] يطوف بالاسواق ويتفحص الاوزان والمكايل من الغش وينظر في معاملات التجارِ[5] ان تكون جاريةً على سنن العدل والرحمة حتى لا يقوى الامير على الصعلوك ولا الغنيّ على الفقير فان الارتزاق واجبٌ على العقلاء من الملوك ان يهدوا سبلهُ لاهل الحاجة اكثر منهُ للمتمولين المنسلخين للتجارة . وان هؤلاء لكثيرٌ في بغداد يتعرَّضون لشراء الغلات والسلع بما يفرضون لها من الثمن البخس ثمَّ يبيعونها بما يشاؤون من الغلاء وهذا تعاونٌ منهم يفضي الى فساد التجارة[6] بين العوام ويضرُّ بها مثلما أضرَّت تجارة أبي جعفر

(١) اغاني ٣ ✻ ٨٥ (٢) اغاني ٣ ✻ ٨٢ و٥ ✻ ١٦١ (٣) اغاني ٣ ✻ ١٥٤ وكليات ٩٩ (٤) الف ليلة وليلة (٥) اغاني ١٧ ✻ ١٠٨ (٦) المقدمة

في عمران بغداد كما تقدَّم في موضعهِ من الكتاب

وقد اخبرني الرشيد في بعض مجالسي اليهِ انهُ يروم ان يصلح معاملة التجَّار ويعيّر تقدير الدنانير والدراهم على وزنٍ واحد صحيح[1] ولكنهُ لم يباشر ذلك الى هذا اليوم مع انهُ أصلح ما يكون للتجارة . وان كان ضرب السكَّة في الاسلام قد صدر عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك وقيصر الروم كما هو معروف[2] فقد اصبح اليوم من الضرورة ان تقدَّر اوزان الدراهم والدنانير بعد ما ساءت المعاملة بها في تأدية الخراج وسوق التجارة . وقد كان العَرَب قدِمًا يتعاملون بالذهب والفضة وزنًا[3] وبين ايديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسراويَّة والقيصريَّة فلما ذهبت سجاذة الاسلام وصارت الخلافة الى غير اهلها من الامويين وقد اغفلوا عن امر المعاملة بما تشاغلوا بهِ من امر نفوسهم تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب الى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما يبتدعون من الدنانير القيصريَّة والكسراويَّة فعني عبد الملك من بني أُميَّة (وكان من فضلاء ملوكهم ان صحَّ ان يكون فيهم فاضل) بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم فضرب السكة في دمشق وصرفها في سائر النواحي والامصار[4] ولكن من غير ان

(۱) المحاضرة ۲ * ۱۷٤ (۲) الاتليدي ۲۷٤ (۳) المقدمة ۲۳۷
(٤) الاتليدي ۲۷٤

يقدّر اوزانها فبقي منها الخفيف[1] والثقيل والبين بينَ ولذلك لم يسهل انطلاقها في معاملة التجّار حتى اذا تنبه لما فاتهُ من تقديرها على وزنٍ واحد واحبَّ ان يميز القديم منها عمد الى تعيين السنة على السكة المقدّرة الصحيحة بعد ان كان يضربها وهي خلوٌ من التوقيت الاَّ بركة الله في احدى الوجهين واسمهُ في الوجه الآخر. وهذا كان منشأ اختلاف اهل التاريخ لهذا الزمان في أَول مَن ضرب السكة التي ليس فيها توقيت فيقول بعضهم انها من ضرب عمر[2] رضي الله عنهُ ويقول آخرون انها من ضرب مصعب بن الزبير[3] ويقول غيرهم انها من ضرب معاوية بن ابي سفيان حتى انهم يزعمون انهُ صوَّر عليها نفسهُ متقلّدًا سيفًا[4] كأَنهُ فاتهم علم موضعهِ من خلافة النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم وحرصهِ على متابعة الشرع واتباع الدين. الاَّ ان هذه الاقاويل عارية عن وجوه الاثبات ولم يقع الينا من الدنانير الموقوتة الاَّ ما ضربهُ عبد الملك المقدَّم ذكرهُ في السنة السابعة والسبعين من الهجرة الشريفة وعليهِ جرى الخلفاء بعدهُ في ضرب السكة بان يرسموا عليها بركة الله من الوجه الواحد[5] وعلى دائرهِ "محمد رسول الله أَرسلهُ بالهدى ودين الحق ليظهرهُ على الدين

(١) الاغاني ٤ * ١٠٤ (٢) المقريزي (٣) ابن خلدون ٣ * ٤٥ والماوردي ٢٦٩ (٤) الدميري والاتليدي (٥) الانس الجليل ١ * ٢٤٠ والمحاضرة ٢ * ١٧٠ والاتليدي ٢٧٤

كلّهِ[١]" وأسمهم من الوجه الآخر يحوّطونهُ بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيهِ السكة

اما الاوزان المقدّرة فان المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبريّ وهو اربعة دوانق والدرهم المغربي وهو ثمانية والدرهم اليمنيّ وهو ستة والدرهم البغليّ (وهو الذي يقال انهُ ضُرب في خلافة عمر رضي الله عنهُ على وزن الدراهم الكسراويّة) وهو ثمانية دوانق فأمر الحجاج ان يُنظَر الاغلب في المعاملة فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دانقًا فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدّر الدرهم ستة دوانق . واما وزن المثقال الذهب فهو وزن درهم وثلاثة اسباع الدرهم حتى اذا جمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل[٢] . والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج الّا ان ما في ايديهم منها مختلف الاوزان (فلا تتناول الدولة منهم في الخراج الّا الدنانير العبّاسيّة والدنانير المسمّاة[٣] بالخالديّة واليوسفيّة والهبيريّة وهي اجود النقود التي ضربها بنو أُميّة[٤] على يد عمّالهم في العراق مثل ابن هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما) ولذلك رأى الرشيد ان يقدّرها على وزنٍ واحدٍ صحيح حتى لا يبقى للغش في التجارة سبيل ولا يحصل من الخراج عنف بالتحصيل

(١) سورة التوبة (٢) المقدمة ٢٢٧ (٣) الماوردي ٢٦٩

(٤) ابن خلدون ٣ * ٤٥

زينة الدولة بالعلم والأَدب

هذا إلماعٌ بذكر محاسن دولة الرشيد وانها لدولة نصرٍ وخيرٍ وصلاحٍ كما علمتَ فما حدَّث أَهل الاخبار عن الاسلام انهُ كان في دول الخلفاء أَعزّ جانبًا ولا اوسع رقعة مملكة[1] منهُ في خلافة الرشيد . ولعمري ان الملوك الذين يتعهدهم النصرُ مثلهُ في جميع ما يباشرون من الاعمال قليلٌ في العالم . فما رأَيتهُ والبرامكة أَعوان لهُ قد نكب في حروبهِ قط ولا توجهت عليهِ هزيمةٌ وانما اعزَّ الاسلام باجتماعهِ في المشرق كلهِ اليهِ[2] ورمى ملوك الاعاجم بسهام بأْسهِ وعصفت ريحهُ بهم من الروم وسائر الفرنجة . وهذا شرفٌ للسيف لم ينلهُ المسلمون فيما تقدَّم لهم من الدول المتغلّبة مقرونًا بشرف العلم وجمال الحضارة. فكفى بشرف دولتهِ عليهما انهُ اجتمع ببابهِ[3] من الوزراء والقوَّاد والامراء والعلماء والفقهاء والادباء والمحدّثين والشعراء والرواة والقرَّاء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفةٍ غيرهِ قط[4] . فان البرامكة وزراؤُهُ وابا يوسف قاضيهِ وهرثمة بن أَعين أَميرُ جندهِ[5] والعبَّاس بن محمد عم ابيهِ جليسهُ[6] ومروان بن ابي حفصة شاعرهُ والاصمعي محدّثهُ وابا نواس نديمهُ والفضل

(١) الفخري ٢٣٢ (٢) ابن الاثير كتاب ٦ (٣) الماوردي ٣٢

(٤) الخميس ٢ * ٣٣٢ والفخري ٢٣٢ (٥) ابن الاثير كتاب ٦ (٦) الخميس ٢ * ٣٣٢

من آل الربيع حاجبهُ وابرهيم واسحق مغنياهُ وابن بختيشوع جبريل[١] وبني ماسويه اطباؤُه[٢] والعلماء والادباء والشعراء كلهم قيامٌ على بابهِ لا يفارقونهُ في سَفَر ولا في حَضَرٍ حتى انهُ ليطلب شاعرهُ في اطراف الليل[٣] فيجدهُ متردّدًا في مقاصير القصر

وانما قرَّب العلماءَ الى الرشيد ما في نفسهِ من الميل الى الادب[٤] والحرص على إِحراز العلوم[٥] حتى كانوا اذا اجتمعوا في مجالسهم بدارهِ سمى الى مناظرتهم[٦] من حيث العلم والتواضع لهُ لا من حيث السيادة عليهم وهو بموضعهِ الجليل من الخلافة . وانا لا أُريد بذلك ان التواضع طبيعةٌ في نفسهِ لانهُ لو لم يأْتهِ الكبر من ناحية العلم لأَتاهُ من ناحية السلطان وكلاهما داعٍ إِلى الاعجاب بالنفس. فكثيرًا ما كنتُ اراهُ اذا انتصب في عرشهِ احتمل ان يُمدَح بما يمدح بهِ الانبياء وهو لا ينكر ذلك ولا يردهُ[٧]. الاَّ ان تواضعهِ للعلم كان فيهِ سياسةً يرجو بها صلاح دنياهُ في استمالة العلماء اليهِ وقيام ملكهِ باجلال العلم والدين

اما أَدبهُ وفضلهُ[٨] ومحبتهُ للحكمة وسعة اطلاعهِ ووفرة مادتهِ في جميع انواع العلوم فهو الامر المشهور الذي لا خلاف فيهِ رأَيتهُ يتوسَّع

---

(١) الفخري والمسعودي ٢ * ٣١١ (٢) ابو الفرج (٣) الاغاني والف ليلة والاتليدي (٤) الاسحاقي ٩٠ والفخري ٣٢٠ (٥) الشرقاوي ١٣٢ (٦) القزويني ١٥٢ (٧) اغاني ١٢ * ١٨ (٨) الفخري ٣٢٢

في فنون الادب الى ان يقول الشعر فيما يعرض لهُ من تصوُّرات اهل الغرام فاذا دخلتُ عليهِ عرضهُ عليَّ في سبيل الفكاهة . فمن ذلك قولهُ[1] في جاريةٍ تركيةٍ لهُ

يا ربَّةَ المنزلِ بالفركِ وربَّةَ السلطان والمُلكِ
ترفَّقي بالله في قتلنا لسنا من الديلمِ والتركِ

وقولهُ في رثاء جاريةٍ روميَّة لهُ يقال لها هيلانة[2] وقد غادرهُ عليها من الأَسَف ما لم يتَّسع في صدرهِ لهُ مجال

تأَسيتُ أَوجاعًا واحزانا لمَّا استخصَّ الموتُ هيلانا
فارقتُ عيشي حين فارقتها فما أُبالي كيفما كانا
قد كثر الناسُ ولكنني لستُ أَرى بعدكِ انسانا
واللهِ ما انساكِ ما حرَّكت ريحٌ باعلى النجدِ أَغصانا

الى غير ذالك. وكان من الفضل بحيث ان مادبهُ لم تخلُ قط من عالم أَو أَديب أَو شاعر وكان يستدعي اليهِ العمريَّ والفضيل بن عياض[3] وابن السَّماك[4] الكوفيّ وغيرهم من الاولياء فيحاورهم في مسائل الدين[5] ويبكي من مواعظهم[6] في غرور الدنيا ويقيم بواجب الاحترام لعلمهم حتى اذا جلس معاوية المحدّث الضرير الى طعامهِ

(١) السيوطي والاغاني ٩ * ٨٦ (٢) السيوطي (٣) الخميس ٢ * ٣٣١ والاتحاقي . ٩ والمقدمة ١٥ والمستطرف ١ * ١٠١ (٤) المقدمة والسيوطي
(٥) سراج الملوك ٣٠ (٦) سراج ٣٨

قام من موضعهِ وصبَّ الماءَ على يدهِ اجلالاً للعلم [١] فقال لهُ معاوية والله ان تواضعك في شرفك لاشرف من شرفك [٢]

اما زينة الدولة من الادباء فهم ثلاثةٌ اسحق بن ابرهيم النديم وعبد الله الاصمعيّ والحسن بن هانىء المعروف بابي نواس وكلُّهم امامٌ في العلم الاَّ انهُ غلب على اسحق الغناء وعلى ابي نواس الشعر وعلى الاصمعيّ الاخبار والنوادر والملح . فاما اسحق فانهُ بمكانٍ جليلٍ من الادب وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدوَّنات العلم ما ليس عند الذين يعنون بجمع صنفٍ واحدٍ من صنوفهِ مثلهُ فيقال انهُ جمع من كتب اللغة ما ليس مثلهُ الاَّ عند ابن الاعرابي [٣] . ولهُ مقام سامٍ بين العلماء يهدون اليهِ كثيرًا من تآليفهم ودواوينهم كأَبي نواس وابن ابي عيينة [٤] وابن الاعرابي [٥] وغيرهم تنشيطًا لعلمهِ وأَدبهِ لان انصبابهُ الى الغناء لم يكن على طريقة التعيُّش وانما هو ميلٌ بنفسهِ الى محاسن الادب والصناعة فكان يترفَّع عن ان يغنّي الاَّ في دور الرشيد والبرامكة [٦] وكانوا اذا حضر مجالسهم يؤَاثرون محاورتهُ في العلم [٧] على جلوسهِ اليهم في صفوف المغنين [٨] كنتُ اسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر عليهِ لقب المغنّي لولَّيتهُ القضاء على المسلمين [٩]

---

(١) الفخري ٢٢١ (٢) السيوطي (٣) ابن خلكان ١ * ٩٢
(٤) اغاني ١٨ * ١٢ (٥) اغاني ٥ * ٥٥ (٦) اغاني (٧) اغاني ٥ * ٥٤ (٨) اغاني ٥ * ٦٠ (٩) ابن خلكان ١ * ٩١

ووجدتُ في نفسهِ من الميل اليهِ بحيث انهُ كان يقصدهُ الى دارهِ [1] اذ طالت عليهِ الغيبة منهُ فكنتُ يومًا بدارهِ وهي بباب الشماسية [2] من الجانب الشرقي تلقاء قطربل [3] فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار الذي يركبهُ في القصر للنزهة [4] ومعهُ خمسمئة نفر من خدمهِ وغلمانهِ [5] فقام اسحق بحق الواجب من اكرام وفادتهِ وأخرج الحلوى الى خدمهِ بما كفى الجمع كلَّهُ ثم أشار الى جواريهِ ان يجلسنَ للغناء ويحرجنَ سفرة المدام فقال الرشيد ليس هذا وانما شوقٌ في النفس دعاني الى الانس بقربك

اما الاصمعيّ فانهُ قدم بغداد [6] في خلافة الرشيد وفي جملة مَن وفد عليهِ من العلماء. وهو إمامٌ في النوادر [7] والاخبار وامام الناس ومشهور لهُ بصدق الرواية حتى اذا حدّث يومًا عن ملوك أُميَّة وقال ان سليمان كان نهمًا واذا قُدّم اليهِ السماط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمّهِ وان يزيد كان اذا جلس للشراب يسقط الخمر في ثيابهِ صاح بهِ الرشيد قاتلك الله ما اصدقك في نقل الاخبار والله ان ثيابهما عندي وان الدهن لفي اكمام سليمان والخمر لفي ثياب يزيد [8].

(١) انليدي ٢٨٦ واغاني (٢) اغاني ٥ * ٧ (٣) المسعودي ٢ * ٢٨٥ و ٢٩٧ (٤) اغاني ٥ * ٣٠ و ٤٦ (٥) ياقوت ٤ * ١١٨ (٦) ابن خلكان ١ * ٤٠٨ (٧) الشربشي ٢ * ٢٧٩ (٨) المسعودي ٢ * ١٢٨ وخلكان ١ * ٤١٠ وتزيين الاسواق ١ * ١٤٢

على انهُ لم يكن بيني وبينهُ مع طول المدَّة التي أَقمتها في بغداد قربٌ ولا ائتلافٌ لانقطاعهِ عن مجالس البرامكة فكنتُ القاهُ بدار الرشيد واسمع ما يحكيهِ على ظرائف بغداد ويحدّثهُ بهِ من طرائف الاخبار فأَراهُ لا يغفل عن نادرةٍ مليحةٍ الاَّ ويذكرها لهُ ولكن بالكلام الذي يكاد يذوب من الرقَّة والحلاوة وكنتُ يومًا بين يديهِ وقد بَدَر من رجل ظريفةٌ فالتفت اليهِ وقال لهُ حرّرها يا أَصمعيّ[1] .. وقد اخبرني بعض اصحابهِ انهُ كان في صباهُ قد أَقام بالبادية وجلس الى العربان ووقف على اخبارهم وشاهد ما لهم من المجالس والاسواق وما ركَّب الله فيهم من السجايا والاخلاق وما وقع لبناتهم مع الشعراء والعشَّاق[2] فحدَّث بها في بغداد وانطلق اسمهُ بين الناس فيما هو آخذٌ بكلامهِ بين الرشاقة والبلاغة حتى صار عَلَمًا في المدينة وصار يتَّفق لهُ نوادر[3] فيها لم يسمع احدٌ بأَعجب من حديثها فيما يتناقلونهُ من الظرائف

واما ابو نواس فان الشعر هو الذي يقدّمهُ اليوم عند الرشيد وقد كان يحدّثهُ من قبلُ بنوادر الناس ولكن من غير ان يفكه باعراضهم ثم أَعرض عن ذلك فقال لهُ في ذات الايام حدّثنا يا ابا نواس فقال لا والذي اكرمك بالخلافة فقال بحياتي[4] الاَّ ما قلتَ شيئًا قال كان الكذب عليَّ واليوم هجرتهُ يا امير المؤمنين[5] فضحك

---

(١) المسعودي ٢ * ٢١١ (٢) الف ليلة وليلة (٣) انليدي ٩٦ وحلبة الكميت (٤) اغاني ٦ * ٥٧ (٥) المستطرف ٢ * ١٠

وقال هذا احبُّ اليَّ من الحديث . ولهُ كلام ظريف في المجون والخلاعة[1] وماجريات تدل على خفة روحهِ. وكان اسحق يتعصب لهُ[2] ويشيد بذكرهِ ويجهر بتفضيلهِ ويجتلب لهُ الرفد من الرشيد (ويحطُّ في قدر الاصمعي لعداوة[3] وتنافس بينهما) حتى أخذ المقام الاول بين الندمان وبنى لنفسهِ في نهر طابق[4] الدور[5] التي لم يبن مثلها عظماء الناس وذلك بينما الإصمعي كان يتديَّن من أصحابهِ[6] و يستقرض منهم المال. ومن خلال أبي نواس المأثورة انهُ يميل مع اهل البيت سرًّا لا يجسر على المجاهرة بهِ حتى قيل لهُ لقد ذكرتَ كلَّ معنًى في شعرك وهذا علي بن موسى الرضا في عصرك لم تقل فيهِ شيئًا فقال والله ما تركتُ ذلك الاَّ اعظامًا لهُ وليس قدر مثلي أن يقول في مثلهِ[7] وانشد

انى لا استطيع مدح امامٍ كان جزيل خادمًا لابيهِ

اه . وانما حصل على مكانتهِ عند الرشيد بانهُ كان اذا أصبح اليهِ سأَل خوَّاص أَهل بيتهِ عما يكون في نفسهِ أَو يكون جرى لهُ في ذلك الوقت ثم ينشدهُ اشعارًا لطيفة في مطابقة ذلك[8] فيطيب لها نفسًا. ولقد كنتُ يومًا بدارهِ وكان قد دخل مقصورة جاريةٍ على غفلة

---

(١) الكنز ٩٤ (٢) اغاني ٥ * ١٠٧ (٣) الشربشي ٢ * ٣٨٤

(٤) ابن خلكان ١ * ٢٩٥ (٥) اغاني ٣ * ١٦١ (٦) المستطرف ١ * ١٣٢

(٧) ابن خلكان ١ * ٤٥٧ (٨) الف ليلة وليلة والاتليدي

منها[1] فوجدها تغتسل وقت الظهر فلما رأتهُ تجلَّلت بشعرها حتى لم يرَ جسدها فاعجبهُ ذلك منها[2] فلما دخل عليهِ ابو نواس انشده[3]

نضَتْ عنها القميصَ لصبِّ ماءٍ فورَّد وجهها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرَّت بمعتدلٍ ارقَّ من الهواء
ومدَّت راحةً كالماء منها الى ماءٍ معدٍّ في اناء
فلما ان قضَتْ وطرًا وهمَّت على عَجَلٍ الى اخذ الرداء
رأت شخص الرقيبِ على التداني فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليلٍ وظلَّ الماء يقطر فوق ماء
فسبحان الالهِ وقد براها كاحسن ما يكون من النساء

وهذه الابيات هي من جيد الشعر وكأنها أرقُّ من الهواء كما في كلام صاحبها فقال لهُ الرشيد على سبيل الاستغراب سيفًا ونطعًا يا غلام فقال ابو نواس ولم يا امير المؤمنين قالَ أمعنا كنتَ قال لا وأيَّد الله امير المؤمنين وانما شيءٌ خطر لي بالبال فقال والله أبيتَ الاَّ ظرفًا[4] ثم أمر لهُ بعشرة آلاف درهم[5]

(١) السيوطي (٢) اتليدي ٩٥ و٩٦ (٣) المستطرف ٢ * ٢٤
(٤) اغاني ٩ * ٧١ (٥) اتليدي ٩٦

الرسالة السادسة

دار الخلافة وداخليَّة بيت الرشيد

لقد مضى بي في بغداد بعد العودة من خراسان نحو من ست سنين ما زلت منقطعاً فيها الى البرامكة وحافظاً لمقامي في الدولة تحت ظلّهم وعنايتهم . وكنت اتردّد في خدمتهم الى دور الخلافة فاقف على أحوال الرشيد في داخليَّتهِ واهل بيتهِ فرأيتهُ اعزَّهُ الله صالح السيرة شديد الاعراق في الدين محافظاً على اوقات الصلوة[1] وشهود الصبح لأَوَّل وقتها يصلّي في كل يوم وليلة مئة ركعةٍ لا يتركها الاَّ لعلَّةٍ تطرأُ عليهِ[2] واذكر انهُ لما حصل في العام لزَنَةٌ وغلاءُ سعرٍ للناس واشتد الكرب عليهم اشتداداً عظيماً أَمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة[3] فذلك دليلٌ فيهِ على حسن العبادة او مظهرٌ يروم منهُ تأييد الدولة بايهام الأَيمة والعلماء ان الاسلام مغتبط بمناحيهِ . . .

ولئن كنت رأَيت لهُ في تدبير المملكة ذلك التصرُّف الجميل فاني ما وجدتهُ لهُ في تدبير أَهل بيتهِ ومواليهِ وانما يرجع الرأْي في ذلك الى زوجهِ أُمّ جعفر وهي انفذ نساء العباسيين كلمةً في الدولة

(١) الفخريّ ٢٢٠ (٢) المقدّمة ١٥ (٣) المستطرف ١ * ٨٢

اذ كانت خير بنات بني هاشم وقد ربيت على مهاد الدعة والدلال كما يشير اسمها اليه فانها سمّيت بزبيدة لغضاضة بدنها[1] وكان جدّها أَبو جعفر يرقصها تهلّلاً بها[2] وينظر الى غضاضتها وملاحتها فسماها بزبيدة لذلك. فلما بنى بها الرشيد ووجدها طِرْفةَ حديثٍ ومصدر رأْيٍ جميل لم يرَ بدًّا من الانقياد اليها في قضاء جميع ما ترومهُ من الحوائج[3] حتى اذا مكّنها من بيوت المال انفقت من سعةٍ ما ينيف عن ثلاثين الف الف دينار. فبنت مسجدًا مباركًا على ضفة دجلة بقربةٍ من دور الخلافة يسمّى بمسجد زبيدة[4] ومسجدًا سامي الحسن في قطيعتها المعروفة بقطيعة أُم جعفر[5] بين باب خراسان وشارع دار الرقيق[6] وحفرت العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ومهّدت الطرق لمائها في كل خفضٍ ورفعٍ وسهلٍ ووعرٍ[7] حتى اخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً الى مكّة[8] فبلغ جملة ما انفقت عليها الف الف دينار وسبعماية الف دينار[9]. وهذا من الاعمال التي لم تباشرها امرأَة في الاسلام الاّ الخيزران أُم الرشيد فانها عمّرت كثيرًا من المساجد[10] ايضًا وبنت دار ابن يوسف بمكّة التي ولد فيها النبي

---

(١) اغاني ٩ * ١٠٢ (٢) الشريشيّ ٢ * ٢٤٥ (٣) اتليديّ (٤) الف ليلة وليلة ١ * ٨٣ (٥) ياقوت ٤ * ١٤١ (٦) ابن خلكان ١ * ١٨٩ والمستطرف ١ * ٢٨٩ (٧) المسعوديّ ٢ * ٤٠٣ (٨) ابن جُبير ١٧٣ (٩) الشريشي ٢ * ٢٤٥ (١٠) ابن جُبير ٢٧٦

صلّى الله عليهِ وسلم مستجدًا جزيل البركة[١] . وتوفَّرت عندها الاموال حتى بلغ الذي خلَّفتهُ معما توسَّعت فيهِ من النَفَقَة مئَة الف الف درهم[٢] . فان لم يكن لزبيدة من الاموال الخاصَّة مايبلغ هذا القدر الجسيم فان لها بالسياسة رأْيًا يسمو بها الى التداخل في امور الدولة كأَفطن ما يكون من الرجال

وقد صيَّر الرشيد الامر في داخلية بيتهِ بعد زُبيدة الى مسرور خادمهِ العبد[٣] وهو حاجبهُ وسيد مواليهِ[٤] ولهُ في قصور الخلافة دواوين يقيم فيها حوزتهُ من خدمٍ وحَرَس وغلمان والكاتب لهُ هو زياد بن ابي الخطَّاب[٥] يقيم بقربةٍ من مجلس يوسف بن القاسم صاحب ديوان الانشاء والذي قام[٦] بين يدي الرشيد حين أُخذت لهُ البيعة على المسلمين. وفي ذلك دليلٌ على مكان كتابهِ من الشرف وعلو المرتبة ولا غروَ فان لهُ من نفاذ الكلمة في الدولة ما ليس للامراء والحكام مثله اذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيءٌ ولا يخرج منها شيءٌ الاَّ بعلمهِ واذنهِ. وكثيرًا ما كنت أَرى الملوك يتزلفون بالهدايا اليهِ ليخاطب الرشيد في حاجاتهم اذ ليس في اهل بيتهِ من يتجرَّأُ عليهِ سواه[٧] حتى كان اذا ركب لا يجسر احدٌ على سؤَالهِ الى اين يذهب غيره[٨]

(١) المسعودي ١ * ٣٠٦ (٢) المسعودي ٢ * ٢٠٧ (٣) الف ليلة وليلة (٤) ابن خلدون ٣ * ٢٢٣ (٥) اغاني ٤ * ٩٩ (٦) المحاضرة ٢ * ١٣٢ (٧) الاتابدي (٨) اغاني ٩ * ٩١

والى مسرور هذا الخصي الامرُ فيما هو خاصٌ بالسراري والقيان وانهنَّ لكثيرة في دار الرشيد يبلغنَ زهاء الفي[1] جاريةٍ يرفلنَ في احسن زيٍّ من كل نوعٍ من انواع الثياب والجوهر... غير ان المقدم عليهنَّ ثلاث اهداهنَّ اليهِ الفضل بن الربيع سحر وضياء وخنث ذات الخال لهنَّ صورة تستنطق الافواه بالتسبيح وعيونٌ لا ترتدُّ الاَّ باقتناص النفس وهنَّ اللواتي يهواهنَّ ويقول فيهنَّ الشعر[2] ومن ذلك قولهُ

ان سحرًا وضياء وخنث هنَّ سحرٌ وضياءٌ وخنثْ
أَخذت سحرٌ ولا ذنبٌ لها ثلثي قلبي وترباها الثلث

وقولهُ[3]

ملك الثلاث الآنسات عناني وحَلَلْنَ من قلبي بكل مكانِ
مالي تطاوعني البريَّة كلها واطيعهنَّ وهنَّ في عصياني
ما ذاك الاَّ ان سلطان الهوى وبهِ قوينَ اعزُّ من سلطاني

وكنتُ اذا حضرت مجلسهُ وهنَّ يغنينَ لهُ من وراء الستارة[4] ومعهنَّ غانيةٌ منقطعة الى حمدونة بنتهِ[5] يقال لها دفاق[6] لم يطق الستر ان يحجبهنَّ عن نظرهِ فيخرجهنَّ اليهِ ويقول والله لا صبر لي على الحجاب وانما هو ضعفٌ يميل بي مع هوَى النفس...

---

(١) اغاني ٩ * ٨٨ (٢) اغاني ٥ * ٦٧ و ١٥ * ٨١ (٣) اغاني ١٥ * ٨١ وتزيين الاسواق والفوات ٢ * ٢٩١ (٤) اغاني ٥ * ١٢ (٥) اغاني ٧ * ٩١ (٦) اغاني ١١ * ٩٨

اما حريم الخلافة فانهُ دوائر كبيرة [١] لا اتصال لها في بعض، ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر واعظمها دائرة ام جعفر ودائرة اولاد المهدي ودائرة اولاد الهادي ودائرة اولاد الرشيد من غير زبيدة زوجهِ . ولهنَّ جميعًا من الخَدَم والغلمان والخصيان [٢] ما ينتهي اليهِ اسراف الملوك في السعة ويتجلّى بهِ جمال السلطان بالزينة والاشراق . وحسبي من انغماسهنَّ في النعيم وتقلُّبهنَّ على مهاد الدَعَة والرخاء انهنَّ يجلسنَ على فرش الحرير ويتخذنَ المخدَّات حشوها من الورد النثير [٣] ... وكنت أرى الجواري من خدم الحاشية يلبسنَ الوشي المنسوج بالذهب ويتخذنَ العصائب مكللةً بالجوهر وهذه هي الزينة التي عمَّت نساء القصر اقتداء بعلية اخت الرشيد اذ كانت اول من اتخذ العصائب لعيبٍ في جبينها فسترتهُ بها فكان ذلك احسن ما ابتدعتهُ النساء [٤] ثم اتخذها بعدها سحاء جارية اسحق النديم [٥] وفريدة ومنّة من مغنيات البرامكة حتى انطلق استعمالها في جميع النساء وصرنَ يكتبن عليها الكلام الذي يروق لاهل الهوى كما مرَّ في موضعهِ من الكتاب

اما لباس الرشيد فهو لباس غيرهِ من العبَّاسيين السواد [٦] لا يتأنق فيهِ الَّا بما تقتضيهِ الرسوم المحفوظة وانما ينصرف همُّهُ الى لذّة

---

(١) الاغاني (٢) اعلام الناس (٣) الابشيهي (في باب الزهد)
(٤) اغاني ٩ * ٨٣ (٥) الكنز ٤٦ (٦) ابن خلكان ١ * ١١

المطعم بالتأنق في صنوف الالوان. وقد جلستُ[1] الى طعامهِ اكثر من مرَّةٍ في مجلسٍ كامل الزينة مفروش بالرخام الاخضر وملبَّس بالوشي المنسوج بالذهب[2]. فرأيتهُ يتفنَّن في طعامهِ على غير شرهٍ بالاكل. يبدأ بالمرَق من السكباج وغيرهِ تنشيطًا لجسمهِ ثم يأكل الفاتر من الطعام من البقول واشباهها ثم الدجاج وانواع الطير ثم الشواء ثم انواع السمك ثم ما يُطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدتهُ ألَّا تخلو من السنبوسج وهي[3] رقاق تحشى باللحم والدهن عليهِ التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطرف بالخردل[4]. وهو يتخلَّل طعامهُ كلهُ بتناول اليسير من التوابل او الحوامض التي تشهيهِ اليهِ فاذا اكتفى منهُ تناول الحلوى من الالوقة والربيكة واللوزينج والفالوذج وغيرها ثم الفاكهة بعدها ثم النقل[5] وهو الذي يتناولهُ بعد طعامهِ للتعلُّل ولكن بالصحاف التي ليس اظرف منها في تحف الصين ولا أغلى ثمنًا وقيمةً. فكنتُ احسب لشدَّة تأنقهِ بفنون المطعم انهُ لو لم ينهِ النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلم عن الأكل في صحاف الذهب والفضَّة[6] لاتخذها كذلك ونزَّل فيها اليواقيت والجواهر. فاذا اكتفى من التعلُّل جاءهُ الغلمان

(١) اغاني ٥ * ٢٤ (٢) اغاني ٣ * ١٨٤ (٣) المسعودي ٢ * ٤٢٦
(٤) اغاني ١ * ٢٩ (٥) ما ذُكر من تعاقب الوان الطعام مأخوذ عن الف ليلة وليلة ٢ . ١ والمسعودي ٢ * ٢٣٠ والابشيهي ١ * ٨٤ (٦) الانليدي ٩

بماء الورد الممسَّك[١] في القماقم الذهب وبشيء من الريحان فيغسل يديهِ ويتبخَّر. فاذا كان بعد الغذاء دخل مخدعهُ للقيلولة[٢] واذا كان بعد العشاء جلس للمغنين والندمان. كذلك عادتهُ من يوم وُلّي الخلافة

وكذلك اولاد هذا الخليفة كلهم مترفٌ وواسعٌ في البذخ الاَّ احمد فانهُ يحاول العزلة ويقعد مقعد ضَناةٍ ويتكسب بيدهِ شيئاً ينفقهُ على نفسهِ مع مقدرة ابيهِ كلها[٣]. اما القاسم فانهُ ذو كبرٍ شديدٍ ونعمةٍ طائلةٍ وبذخٍ زائد واليهِ ينتهي جمال ولد الخلافة[٤] وكان ابوهُ قد طوَّقهُ امر الفداء الذي وقع بين المسلمين والروم بُعَيد عودتي من خراسان فجرى ذلك على يدهِ[٥] وعمرهُ يومئذٍ احدى عشر سنةً فتزاحم ركب الملوك على بابهِ ومكَّنهُ ابوهُ من بيوت المال فهو لهذا اليوم يتَّخذ القصور المزخرفة ويشتري الجواري والقيان[٦] ويقيم مجالس للشعراء والادباء والمغنيين والندمان عندهُ ويصلهم بالهبات الوافرة ويُقطعهم الضياع[٧] العامرة الى ان يصيب بعضهم ناحية ما لا يصيبهُ في جوائز ابيهِ[٨] من المال

أَما الأَمين والمأمون وليَّا العهد فانهما دونهُ في البذخ والإِسراف

(١) اتليدي ١١٢ (٢) اغاني ٥ * ١١ والمستطرف ١ * ١٣٢ (٣) ابن خلكان ١ * ٧٥ (٤) اغاني ٩ * ٩٦ و ٣ * ١٥٩ (٥) ابن الاثير ٦ * ٥٧ (٦) اغاني ٣ * ٥٧ (٧) اغاني ٤ * ١١٦ (٨) اغاني ٣ * ١٦٨

ولا سيما الأَمين يوهم انهُ غزير العقل وان كان ضعيفهُ[١] ويتخذ الوقار برقعًا على وجههِ لما يحدّث بهِ نفسهُ من مصير الخلافة اليهِ ولانهُ ابن هاشميّ وهاشميةَّ كالذي لم يتّفق لغيرهِ من الخلفاء لانَّ ابا العبَّاس وابا جعفر والمهدي والهادي والرشيد كلهم ابناء سراري[٢] امَّا المأْمون عبد الله فهو زينة اولاد الخلفاء وسِمتهُ سمة خيرٍ وفضلٍ وعفافٍ لم ارَ في ابيهِ خلةً من الخلال المحمودة ولا خلقًا من الخلائق الرضيَّة الاَّ وجدتها في نفسهِ طبيعةً تسمو بهِ الى أَرفع مقام في ادب الدنيا والدين. ولم أَرَ في اولاد الملوك مَنْ يتعشَّق العلوم[٣] الحكميَّة على حداثة سنّهِ ويقيم في مجالس العلماء والشيوخ لمناظرتهم[٤] في جميع انواع العلوم مثلهُ. فما اذكر اني دخلت عليهِ مرةً الاَّ واصبتهُ في مجلسٍ حافلٍ بالأُدباء والعلماء وهو متوسطٌ فيهم كالشمس من حولها الضياء. وقد قصدتُ مجلسهُ من مدَّةٍ قريبةٍ مع جعفر اعزَّ الله ملكهُ فأَلفيتُ[٥] بحضرتهِ جماعةً من الادباء منهم الخزيمي والعباس بن زفر ومنصور النمري وهو السليم شعرهُ من العيب لولا ان فيهِ طعنًا بالشيعة يرجو بهِ نوال رضى العباسيين عنهُ ومحمد الراوية المسمَّى بالبيدق لقصرهِ وهو المنشد للرشيد اشعار المحدثين[٦] وفتًى من امراء

---

(١) المسعوديّ ٢ * ٢٢٥ (٢) السيوطي (٣) المقدمة ١٨

(٤) الدميري ١ * ٩٨ والمسعودي ٢ * ٤٠٢ (٥) اغاني ١٢ * ٢٢

(٦) اغاني ١٢ * ٣٠

آل نوبخت يقال لهُ الفضل بن سهل وهو خليل المأمون [1] وصديقهُ لا يصبر على فراقهِ في نهارٍ ولا ليلٍ حتى كان اذا ركب في موكبهِ اركبهُ معهُ على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج [2] وكان بقربهِ من المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا بهِ إحداق الهالة بالقمر ومنهم الكسائي [3] وابو محمد [4] مؤدباهُ يتباحثان معهُ في مسائل النحو فكنت اسمعهُ يقول لهم زيدٌ على الرفع والكسائي يعارضهُ ويقول زيداً منصوبة بأن فتطارح العلماء الجملة الاعرابيَّة التي دار عليها كلامهم ومناظرتهم وهي ان من خير القوم او ضيرهم نيةً زيدٌ فأجمع رأيهم على موافقة المأمون والمصادقة لهُ [5] فتحقَّقت فضلهُ في ذلك اليوم بنفسي وعرفت انهُ يدخل العلوم من ابوابها لا تطفلاً منهُ عليها شأن غيرهِ من اولاد الملوك

وكان هذا الامير اذا اثقلت عليهِ المطالعة ثنى انصبابهُ الى ما يجد فيهِ من التسلية ادبًا وفائدةً . فلم يكن من الألعاب أحبّ اليهِ من لعب الشطرنج يمارسهُ كأبيهِ [6] لاستنباط الحيَل فيهِ حتى لم يكن في الناس من يستطيع مقاومتهُ عليها وهو يقول في وصفهِ هذه الابيات

أَرض مربعة حمراء من أدمٍ ما بين إلفين موصوفين بالكرمِ [7]

---

(١) الوطواط ١٤٢ (٢) اغاني ١ * ٨٨ (٣) المستطرف ٢ * ١٣ والمسعودي ٢ * ٣١٢ (٤) اغاني ١٨ * ٧٢ (٥) اغاني ١٨ * ٧٧ (٦) المسعودي ٢ * ٢٢١ والسيوطي (٧) المسعودي ٢ * ٤٠٦ والمستطرف ٢ * ٣٠٦

تذاكرا الحرب فاحتنا لا لها شَبهًا من غيران يسعيا فيها بسفكِ دمٍ
هذا يغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحرب لم تنمِ
فانظرالى الخيل قدجاشت بمعركةٍ في عسكرين بلا طبلٍ ولا عَلَمِ

واما لعبهُ بالاكرة والطبطاب[1] ورميهُ في البرجاش النشاب وكرّهُ بالصوالجة في الميدان واقتناؤُهُ طرائف الطير والخيل والحيوان[2] واتخاذهُ الديوك للمقاتلة فيما بينها والاكباش يناطح بها بين يديهِ فانها من ملذّات الملوك[3] الذين يبلغون من الترف والترفّه الى ان يعدّوا امثال هذه الملاهي من باب المفاخرة والمباهاة فان كان يتخذها بما يدعوهُ اليهِ موضعهُ من المُلْك المُترف فانهُ لا يفوتهُ اتخاذ الاشياء التي تعود عليهِ من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من العلم والادب. فقد عني بجمع التُحف وغالى بطلبها من كل وجهٍ حتى وَعَا عندهُ طرائف الدنيا باسرها. وقد رأيت في بعض مجاميعهِ صندوقًا وعاهُ خواتم الخلفاء كلهم من العباسيين والامويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صَدْر الدولتين[4] فكان جامعًا لجميع الخواتم الاّ خاتم النبي صلّى الله عليهِ وسلّم ولو لم يكن عثمان اضاعهُ في بئر أَريس كما تواتر في الانباء[5] لما كفَّ عن

(١) المسعودي ٢ * ٤٠١ (٢) المسعودي ٢ * ٣٩٦ (٣) المسعودي ٢ * ٣٤١ و ٣ * ٣٨٦ (٤) في العقد الفريد والخميس والمسعودي والمقريزي وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء (٥) ابن جبير ١٩٩ وابو الفداء ١ * ١٧٧

طلبهِ حتى يجدهُ وفي هذا المجموع وامثالهِ من المجاميع ادبٌ حاصلٌ مع الفكاهة والزينة وهذا ما اذكرهُ عن فضل هذا الامير وليس هو الاَّ النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضلهِ وادبهِ

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

اما دور البرامكة فانها من الجانب الشرقي بازاء دور الخلافة[1] ليس بينهما الاَّ عرض دجلة . وهي من البهاء والجمال والاشراق بمكانٍ[2] تساهي بهِ قصور الرشيد لانهم بنوها على السعة التي لم يبلغها احدٌ من الملوك . فهي مظهر الانس ومجلى البهاء تغشاها الرسوم والزخرفة من الداخل والخارج وابوابها متخذة من الجصّ المجسم[3] ومجالسها[4] مفروشة بالوشي والابريسم ومزينَّة بالقماقم الذهب[5] والجامات المنقوشة[6] والقوارير الفرعونية[7] وغيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل التزلُّف والاستمالة[8] وطيقانها ملبَّسة بأستار من الديباج عليها ابيات مرسومة[9] مما قالت الشعراء في مديحهم وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس لان العرب لا يعملون

(١) القزويني ٢١٠ (٢) الدميري ٢ * ١٥٤ (٣) المقدّمة ٣٥٧
(٤) ابن خلكان ١ * ١٥١ (٥) الكنز ٣٦ (٦) اغاني ٣ * ٢٧
(٧) اغاني ٦ * ١٢٠ و ١٣٢ (٨) المقدمة ١٤ والفخريّ ١٨٦ (٩) اغاني ٥ * ٨٦ و ١٠٠

الطراز منذ نهاهم عبد الملك بن مروان عن ذلك [(١)] ولا يكتبون على البسط والأستار الاّ لا اله الاّ الله [(٢)] وذلك بخلاف الفرس لانهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون عليها ما يطيب لهم من الشعر او يتبركون بهِ من الآيات

وقد اشتبكت عمارة البرامكة في حيّ لا يخالطهم بهِ أحدٌ وهي من السعة بحيث تنتهي من الشمال الى شارع المدينة [(٣)] ومن الشرق الى درب دينار الصغير [(٤)] ومن الجنوب الى باب الشماسية [(٥)] وهو الموضع الذي فيهِ قصر يحيى المعروف بقصر الطين [(٦)] والمسمَّى بذلك معارضةً لما أُنفق عليهِ من الذهب واتخذ فيهِ من الزينة والزخرفة. وفي جوارهم موضعٌ يقال لهُ البَرَدان [(٧)] يشترون فيهِ الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامعٌ اليهم من اهل العلم والأدب [(٨)] لانهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكَرَم والسماحة وكانت اعطياتهم كاعظم [(٩)] ما يكون من أُعطيات الملوك فان يحيى اذا ركب يعدُّ صرراً في كل صرّة مائتا درهم ويدفعها الى المتعرّضين لهُ في الاسواق والشوارع [(١٠)] وقد قالت الشعراء في ذلك

(١) الاتليدي ٢٧٢ (٢) الدميري واعلام الناس (٣) اغاني ٦ * ٧٨
(٤) ابن خلكان ٢ * ٢١١ (٥) المسعودي ٢ * ٢٨٥ والاغاني ٥ * ٨
(٦) اغاني ٥ * ٨ وياقوت ٤ * ١١٤ (٧) اغاني ٥ * ٨ والمسعودي ٢ * ٢٦٧ (٨) اغاني د * ٧٢ (٩) المستطرف ١ * ٢٨٦ (١٠) الفخري ٢٤٠ وابن خلكان ٢ * ٢٦٢

يا سميَّ الحصور يحيى أُتيحت　　لك من فضل ربنا جنّتانِ
كلُّ مَنْ مرَّ في الطريق عليكمُ　　فلهُ من نوالكم مئتانِ

اما وقوف الامراء على بابهم[1] فما لا تحضرني عبارة أَرضاها للافصاح عنهُ وانما للعين ان ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفةً بالحَفَد والخدَم والغلمان ممَّا ليس على باب الرشيد مثلهُ[2] وكذلك إقبال المؤمّلين عليهم من كافة الوجوه لأَشهر من ان أُحاول في هذا الكتاب نعتهُ بالوصف الذي لا يعبّر عنهُ القلَم فقد رأَيتُ الناس يقصدونهم من أَبعد الآفاق[3] ورأَيتُ من العربان مَن قصد الفضل من اقصى قضاعة[4]. فلما سأَلهُ عن حاجتهِ فاستجداهُ عشرة آلاف درهم قال لهُ قد ازدريتَ بنا وبنفسك يا اخا العرب وانما تُعطى عشرة آلاف درهم في عشرة فلما اخذ المال انصرف وهو يبكي فقال لهُ الفضل ما بكاؤُك أَإستقلالاً بالمال الذي اعطيناك قال لا ولكنني ابكي على مثلك تواريك الارض ويأكلك التراب وانشد

لعمركَ ما الرزية فقْدُ مالٍ　　ولا فَرَسٌ يموت ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزية فقد حرٍّ　　يموت لموتهِ خلق كثيرُ

فنظر اليَّ الفضل بعد انصرافهِ وقال لي ان مثل هذا يقصدنا مرّةً

(١) الفخري ١٨٥ والمقدمة　　(٢) ابن الاثير والاتليدي　　(٣) الفخري
(٤) الاتليدي ١٨١

واحدةً في زمانهِ. ومن الامراء مَن نغمرهُ باحساننا كل يوم [1] ثم يغمص النعمة ويدبُّ فيهِ مَرَض من الحسد فيكون من اشدّ الناس بغضًا لنا وسعيًا في زوال ملكنا . . .

وقد انفجر البرامكة با لكرم [2] حتى صار يُضرب بهم المثل في سعة العطاء فيقال فلانٌ من الملوك يتبرمك [3]. وقد اخبرني الخازن القائم على بيت مالهم انهم يغلُّون في كل سنةٍ عشرين الف الف دينار [4] فاذا انقضى الحَوْل لم يبقَ منها في الخزائن دينارٌ واحد. فهم يتخذون الكرم قاعدةً في الحالين من نعيم الدنيا ام بؤسها ويقول يحيى [5] أيَّد الله ملكهُ اذا اقبلت الدنيا فانفق فانها لا تفنى واذا ادبرت فانفق فانها لا تبقى وقال ابو نواس في مديحهم [6]

ان البرامكة الكرام تعلَّموا فعل الجميل وعلَّموهُ الناسا
واذا هم صنعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طول البقاء اساسا

وقال فيهم نصيب [7]

عند الملوك مضرَّةٌ ومنافعُ وأَرى البرامك لا تضرُّ وتنفعُ
ان العروق اذا استسرَّ بها الثرى أَشر النباتُ بها. وطاب المزرعُ

---

(١) الفخري ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد ٣ * ٢٤ والمستطرف ٢ * ١٩٢ واغاني ٥ * ١١٩ (٢) اغاني ١٢ * ٣٥ والاتليدي والفخري وابن خلدون وابن الاثير والمستطرف ١ * ٢٨٦ والمسعودي ٢ * ٢٦٢ والاسحاقي ٩٩ (٣) السيوطي والاتليدي (٤) العقد ٣ * ٢٨ (٥) ابن خلكان ٢ * ٢٦٤ (٦) اعلام الناس (٧) اغاني ٢٠ * ٣٤.

فاذا نكرت من امرئ اعراقهُ   وقديمهُ فانظر الى ما يصنعُ

وقيل فيهم وهو منتهى المديح[1]

اتانا بنو الآمال من آل برمك   فيا طيب اخبار ويا حسن منظرِ
لهم رحلةٌ في كلّ عامٍ الى العدى   وأُخرى الى البيتِ العتيق المستّرِ
اذا نزلوا ببطحاء مكّة اشرقت   بيحيي وبالفضل بن يحيي وجعفرِ
فتظلم بغداد وتجلو لنا الدجى   بمكّة ماتحو ثلاثة اقمرِ
فما خُلقت الاّ لجودٍ اكفّهم   واقدامهم الاّ لاعواد منبرِ
اذا راض يحيي الامر ذُلّت صعابهُ   وناهيك من راعٍ لهُ ومدبّرِ

وقال سلم الخاسر في يحيي اعزّهُ الله[2]

يا ايها الملك الذي   أَضحى وهمّتهُ المعالي
انتَ المنوّهُ باسمِهِ   عند الملمّاتِ الثقالِ
لله درُّكَ من فتىً   ما فيكَ من كرم الخصالِ

وقال فيهِ آخر[3]

سأَلتُ الندى هل انتَ حرٌّ فقال لا
ولكنني عبدٌ ليحيي بن خالدِ
فقلتُ شراءً قال لا بل وراثةً
توارَثني من والدٍ بعد والدِ

(١) الاغاني كتاب ٥ والفخري واعلام الناس ٣٨٢   (٢) الوطواط ٣٤٩
(٣) اعلام الناس

وقال آخر (١)

لا تراني مصافحاً كفّ يحيى   انني ان فعلتُ ضيعتُ مالي

لو يمسّ البخيلُ راحة يحيى   لسخت نفسهُ ببذلِ النوالِ

وقال غيرهُ في كرم الفضل (٢)

أَلم ترَ ان الجود من عهد آدم   تحدَّر حتى صار يملكهُ الفضلُ

ولو ان أُمًّا مسها جوع طفلها   غذتهُ باسم الفضل لاغتذى الطفلُ

وقالَ غيره (٣)

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالدٍ

فقامت بهِ التقوى وقام بهِ العدلُ

اليهِ تسير الناس شرقًا ومغربًا

فرادى وازواجًا كانهم نحلُ

وقال آخر

قد كان آدم حين حان وفاتهُ   اوصاك وهو يجود بالحوباءِ

ببنيهِ ان ترعاهمو فرعيتهم   وكفيت آدم عولة الابناءِ

وقال غيرهُ

ولائمة لامتكَ يا فضل في الندى

فقلتُ لها لن يقدح اللوم في البحرِ

(١) الفخري ٢٣٦   (٢) اعلام الناس   (٣) اعلام الناس

ارادت لتثني الفضل عن سنن الندى
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطرِ
مواقع جود الفضل في كل بلدةٍ
مواقع ماء المزن في البَلَد القفرِ
كأَن وفود الناس لما تحمَّلوا
الى الفضل لاقوا عندهُ ليلة القدرِ

وقال غيرهُ (١)
اذا نزل الفضل بن يحيى ببلدةٍ رأَيت بها غيث السحابة ينبتُ
وقال ابن الخيّاط المكّي (٢)
لمستُ بكفّي كفَّهُ ابتغي الغنى ولم أَدرِ ان الجود من كفّهِ يعدي
فلا انا منهُ ما افاد ذوو الغنى أُفدت واعداني فاتلفتُ ما عندي

وذلك ان الفضل امر لهُ بخمسة آلاف درهم فاستأْذنهُ في تقبيل يدهِ فاذن لهُ فما انتهى الى الباب حتى فرّق المال باسرهِ فعُوتب على ذلك فقال الابيات المذكورة فبلغ ذلك الفضل فاعطاهُ عشرين الف درهم . وقال غيرهُ (٣) وهو امدح بيت في الكرم
ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراءَ

(١) المستطرف ا * ١٦٩ (٢) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والاغاني ١٨ * ٩٤ وهو يرجع بالانشادة الى المهدي وليس الى الفضل (٣) ابن خلكان ا * ٥٨٦

وقال مروان بن ابي حفصة في جعفر وهو صبيّ [1]

بنى لك خالدٌ وابوك يحيي بناءً في المكارم لن ينالا
كأَن البرمكي لكل مالٍ تجود بهِ يداهُ يفاد مالا

وقال فيهِ ايضاً [2]

أَفي كل يوم أَنت صبٌّ وليلةٍ الى امّ بكرٍ لا تفيقُ فتقصرُ
احبُّ على الهجران اكناف بيتها فيا لكَ من بيتٍ يُحبُّ ويهجرُ
الى جعفر سارت بنا كلُّ حرّةٍ طواها سراها نحوهُ والتهجرُ
الى واسعٍ للمجتدين فناؤُهُ تروحُ عطاياهُ عليهم وتبكرُ

وقال فيهِ [3]

بدولةِ جعفر حمد الزمانُ لبابك كل يومٍ مهرجانُ
جعلتُ هديتي لك فيهِ وشياً وخير الوشي ما نسجَ اللسانُ

وقال العتابيّ وكان في نفس الرشيد عليهِ موجدةٌ فاستعطفهُ جعفر عليهِ فقال فيهِ [4]

ما زلتُ في غمرات الموت مطرحاً
قد ضاق عني فسيح الارض من حيلي
ولم تزل دائمًا تسعى بلطفك لي
حتى اختلستُ حياتي من يدَي اجلي

---

(1) وهو زيادة في القصيدة التي رثي بها معناً (2) اغاني ٥ * ١٥ (3) العقد الفريد ٣ * ٢٧٧ (4) اغاني ١٢ * ٧

وقال فيهِ أشجع السلمي [1]

ذهبت مكارم [2] جعفرٍ وفعالهُ في الناس مثل مذاهب الشمس
ملكٌ تسوس لهُ المعالي نفسهُ والعقل خير سياسة النفس
فاذا تراءتهُ الملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامكَ جعفرٌ وهم الأُولى بعد الخلائفِ سادة الانس
ما ضرَّ مَنْ قصد ابن يحيى راغبًا بالسعد حلَّ بهِ أَم النحس

الى غير ذلك من الاشعار التي لو حاولت تقييدها في هذا الكتاب لبلغت اكثر من عشرة آلاف بيتٍ من الابيات الجيّدة ما عدا البادر المبذول . فقد وجدتُ للرقاشي [3] وحدهُ ديوانًا يحوي اكثر من الف بيت في مديحهم وهي من البلاغة بحيث ان البرامكة يروُّونها لأَولادهم تفضيلاً على غيرها من شعر المحدثين المجيدين

الدولة في خلافة الرشيد

نعودُ الى ما نحن آخذون بهِ من ذكر مملكة الرشيد وسياستهِ فقد سبق القول بان دولتهُ لمن أَوسع دول الاسلام بل دول العالم رقعة مملكةٍ فهي تنبسط من الهند وفرغانة في الصين الى طرف المغرب الأَقصى من ناحية الزقاق كذلك كان امتدادها في ايام ابيهِ لا تنقص عنهُ الاَّ بما ضمَّ اليها من البلدان التي غلب عليها

(١) اغاني ١٧ * ٣٢ (٢) الاسحاقي ٩٩ (٣) اغاني ١٥ * ٣٥

الروم في غزوات متواترةٍ اذ كان شأنهُ وقتالهم في حالٍ مستمرَّةٍ على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء في مناواتهم منذ صدر الاسلام[١] فان الدولة الأُموية قد حملت عليهم مرَّةً بعد مرَّة وحمَّلتهم خسائر عظيمة من المال والرجال وكذلك العباسة بعدهم قد ساقوا اليهم الجيوش ولم يزل أَبو جعفر في مغالبتهم حتى اذاقهم مرَّ البلاء. وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة ويأبون الاَّ نكث العهود ونقض العقود المُبرمة. فلمَّا وُلّي المهدي اخرج اليهم الرشيد وهو فتىً[٢] فركب في عدَّة وأَهبة لم يكن مثلها في الاسلام وتحرَّكت في نفسهِ نخوة الجهاد حتى انهُ اتَّسم بسمة المحاربين في الجيش وحمل الرمح في يدهِ[٣]. وكان على القسطنطينيَّة ملكةٌ يقال لها ريني لم تطق مقاومتهُ فهزم جندها وتفرَّق المسلمون في البسائط يجاهدون ولا يبقون على احد من الروم حتى اذا نزل بجوار القسطنطينيَّة وشرع في ضربها بالنار خافت عليها من الحريق فصالحتهُ على كيليكية وحملت اليهِ الجزية التي كان يحملها اسلافها الى الخلفاء وتلك احسبها للروم من حيل السياسة في ايجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ففي نفسي انهُ لو لم يتهاون الخلفاء في امرهم لمَا بقي لهم ملكٌ تجاه دول الاسلام العظيمة

ثم انهُ بعد ان وُلّي الرشيد وقع في نفس الروم ان يخلعوا نير

---

(١) راجع ابن الاثير (٢) الخميس ٢ * ٣٢١ (٣) اغاني ١٧ * ٤٨

الطاعة ويتقاعدوا عن حمل الجزية اليهِ فعبى الرشيد العساكر وشحنها في اسطولٍ يسوقهُ حميد بن معيوب أمير الاساطيل[1] بسواحل الشام[2] وسيَّر الفرسان من ناحية البر يحرّقون المدن ويبثّون الخراب ففتحوا وغنموا وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا الى جوار القسطنطينيَّة ونصبوا المنجنيقات على الاسوار. فلمَّا أدرك الملكة العجز عن دفاعهم ورأت الجند بين يديها وهو شتيتٌ صالحتهم على الجزية وراحت تحملها الى بغداد وهي صاغرة الى انقضاء ملكها بعد ان نال المسلمون من غنائمها أعظم النَيل واستشعروا من عزَّة الاسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا من التحدُّث بهِ الى هذا اليوم

فلمَّا هلكت رينى ملَّك الروم عليهم نقفور وكان ملكاً شديد البأس الاَّ انهُ قليل الخبرة بامور السياسة وغير عالم بمكان الاسلام من العظم والقوة. فكتب الى الرشيد في منتصف هذه السنة كتاباً بنقض الهدنة التي كانت بينهُ وبين رينى وفيهِ يقول من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب. اما بعد فان الملكة التي كانت قبل كانت اقامتك مقام الرخّ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت اليكَ من اموالها احمالاً وذلك لضعف النساء وحمقهنَّ فاذا قرأتَ كتابي فاردد ما حصل قبلَكَ من اموالها والاَّ فالسيف بيني وبينك. فلمَّا قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضباً حتى لم يتمكن أحدٌ ان ينظر اليهِ

(١) المسعودي ١ * ٦١ (٢) ابو الفرج

فدعى بدواةٍ وكتب على ظهر كتابهِ بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراهُ لا ما تسمعهُ[١] ثم احتشد الجند وركب ليومهِ في صفوف المترجّلين والفرسان وحمل الاقوات والقوّات استظهارًا على نفوذ العزيمة ولم يزل حتى وافى مدينة هرقلة ونصب عليها القتال وهي مدينة للروم لم يطمع أحدٌ من ملوك الاسلام في الوصول اليها لخشونة مكانها فدكّ أسوارها بالمنجنيق ومنحهُ الله اكتاف الروم فنفّلهم اموالهم ورقابهم ولم تقف هزيمتهم على هرقلة فقط بل كانوا يسلّمون معقلاً وبلدًا بلدًا. فكان ذلك الفتح فتحًا عظيمًا لا كفأ لهُ وهنأت الشعراء الرشيد وقال فيهِ ابو العتاهية[٢]

قضى الله ان صفّى لهرون ملكهُ ... وكان قضاء الله في الخلق مقضيّا
تحبّبتِ الدنيا لهرون بالرضى ... وأصبح يعفورٌ لهرون ذميّا

فلمّا ضاقت الحيَل بالروم رغبوا في المسالمة والموادعة وأوجبوا على نفوسهم حمل الجزية وهم صاغرون. ولست اقول ان هذا الفوز كان سهلاً على الرشيد بل انهُ طوّح من الرجال وأنفق من الاموال ما هو حقيق بان ينظر فيهِ فان الروم أهل بأس ومراسٍ وهو يقاسي[٣] معهم الحروب الصعاب وليس في شأنهِ معهم سياسة ولا حيلة وانما هي

(١) اغاني ١٧ * ٤٥ والطبريّ والمسعودي ١ * ١٥٨ وابن خلدون والسيوطي
(٢) المسعودي ١ * ١٥٨ (٣) اغاني ١ * ٣٨

حروبٌ قد تلاحقت وأَخذ بعضها برقاب بعضٍ بما يروم من الاستظهار على نفاذ السلطان حتى يُركب عليهم سيف الاسلام والاَّ فان الجزية التي يطمع فيها لاتفي بالقليل من الاموال التي تنفقها الدولة وهي بمكانها من المهاجمة ومكان الروم من المدافعة في ظلال الاسوار وفي ذلك تفاوتٌ بعيدٌ بخسائر القتال فيدلُّك على قوَّة الاسلام انهُ غزاهم غزوات كثيرة (١) ما أَخفق في واحدةٍ منها كما رأيت

هذا كان شأن الرشيد مع صهب السبال واما السياسة التي أَتعبت خاطرهُ فكانت منصرفة الى إِذلال العلويين في المغرب لانهُ تعذَّر عليهِ محاربتهم مثل الروم بتعذُّر اقتتال المسلمين بالمسلمين ولذلك جعل المُلك في افريقية لآل ابن الأَغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إِقامة مملكة لهم تنهال من المغرب فتطمو على المشرق كلهِ فكأَنهُ وقع بين أَمرين مَخُوفَين عليهِ فاختار ما هو اقرب منهما الى النجاة بان يملّك الأَغالبة المغرب (٢) حتى اذا قامت دولتهم رسخت في مكانها وما تجاوزت الرمال التي بين افريقية ومصر

على ان العلويين مع ذلك كلهِ قد ملكوا البلاد الى طرف المغرب ولم يأْلُ ابن الأَغلب جهدًا في مناوأتهم وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من إِذلال ملكهم وتضييع نفاذهم في المسلمين والاسلام لان جندهم طائع لهم فيما استقرّوا بهِ من تلك الاقاليم وكلهم صادق

(١) ابن الاثير كتاب ٥ و ٦ (٢) ابن خلدون

الحملة مدرَّبٌ على القتال ولان اهل المغرب كافةً يميليون معهم ويتغرضون لهم في السياسة ولاسيما قبائل صنهاجة من بطون حمير[1] وهو الامر الذي طيَّب مني النفس لا بغضاً في آل العبَّاس لاني لا اريد بهم مكروهاً وانما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الانجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحلُّ والحَرَمُ كما قال الفرزدق في مديحهم[2] فانهم لأَحقّ بالمُلك من الأَغالبة وفي نفسي انهُ يثبت لهم من وَجهِ الاتحاد الى آخر الزمان لان تمزّقهم فيما مضى قد حصل بالتفرّق كما ذكرت في الكلام عن ابي جعفر واما اليوم فانهم مجتمعون الى ادريس بن ادريس ولهُ دون غيرهِ من العلويين السلام عليك يا ابن رسول الله[3]

وقد كان مسير اهل البيت الى المغرب بايعاز البرامكة الامجاد وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم والمقلدون الولايات لكثير من اهل الشيعة الشريفة[4]. الاَّ انهم لا يتعمدون في ذلك ضرر الرشيد (وهو المؤتمن لهم على مملكتهِ). لان المغرب اذا انسلخ عن بغداد ما ضرَّ ذلك في الخلافة شيئاً لمناسبة عظم الممالك الاسلامية. فان التجزّوء لا يضرُّ بالدول الاَّ اذا كانت المملكة منحصرة في إِقليم غير متسع الى طرف الدنيا الآخر ثم كان في جوارها أُمَّة أُخرى متغلّبة فانها

(١) ابن خلكان ١ * ٢٢ (٢) الاغاني ١٤ * ٧٨ واتليدي ٩٤ والشبلنجي ١٧٠
(٣) ابن خردادبة ٧٩ (٤) المحاضرة ٢ * ٨

ينثال عليها جندها وتمتلكها جزءًا بعد آخر. واما الخلافة الاسلامية فان الجهاد في الاعاجم يعمل على استمرار ملكها وبقائهِ وتكون تجزئتها من الاطراف غير مضرَّة بها بل تعود عليها بما هو أَجمل فائدة لها اذ ان الملوك الذين يستقلون بأَمرهم في اطرافها يرجعون عنها العدو ويردّونهُ قبل ان يصل اليها فتعفو خزائنها من انفاق الاموال ورجالها من تغرير القتال وتبيتُ آمنةً في شأْنها بحراستهم اللّهمَّ الاَّ ان يكون فيهم من هو أَعظم شأْنًا منها واقوى سلطانًا وجندًا. وهذا بعيدٌ عن ان يكون في دولة متجزئة من الاسلام وحتى لو انضمَّ جندها كلها الى قيادةٍ واحدةٍ لَمَا ناوت الرشيد وانتزعت الخلافة منهُ وهو على ما نراهُ من عظم الشأْن وضخامة المُلك ولهُ الهند والسند وارمينية والكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان فهذه معظم الدنيا المعمورة وأَوفر اقاليمها ثروةً واطيبها تربةً وغلَّةً فلقد يجبى لهُ من إقليم واحد من هذه الاقاليم من نحو مصر أَو الهند مثلاً ما لا يجبى لغيرهِ من سائر اقاليم العالم

فكان يرى ملوكُنا البرامكة أَعزَّهم الله ان قيام الدولة العلوية في المغرب داعٍ الى صلاح الرشيد ونصرهِ وانها تكون مجنًّا للخلافة بما تجاهد لها وتردُّ أُمم النصرانية عنها خاسرين. وكان يقول لي جعفر انهُ لو لم يكن للرشيد في اقاليم أَفريقية الاَّ قضاة كما كان لملوك أُميَّة في الاندلس لَمَّا ظهروا على الفرنجة والجند بين ايديهم قليلٌ ولو

انهُ أتمنهم لاستنفدوا ما لهُ أو استنصحهم لكانوا عليهِ لا لهُ. فيثبت بعد ذلك ان حبهُ وآل بيتهِ للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والاسلام كلهِ لانهُ اذا قامت دولتهم في المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الاندلس في يد المسلمين وربما أعاد الله على يدهم ما استعادهُ الفرنجة من الاقاليم التي فتحها طارقٌ وزياد والله يبيد أمماً ويحيي أمماً لا اله الاَّ هو الواحد القهَّار

عمران بيت المال

لم يبقَ علينا لنبيّن عظم دولة الرشيد الاَّ ان نذكر قدر المال الذي يحمل اليهِ من جميع الممالك والبلدان فانهُ لم يسمع عن دخل دولة من دُوَل الاسلام انهُ تجاوز القدر الذي يحمل الى بيت المال في زمانهِ مع انهُ يسلك مع الملوك مسلك الحلم ولا يضرب عليهم الخراج الاَّ بموجب ميسرتهم. وان كان قد زال عنهُ القليل مما يحمل اليهِ من المغرب فانهُ قد استعاض عنهُ بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التي غلب عليها الروم من الاموال التي لا يصحُّ اخذها[1] من المسلمين كالخراج والعشور التي تؤخذ على جميع غلالهم ومحاصيلهم[2]. فان المحمول اليهِ في كل سنة نحوٌ من خمساية الف الف درهم من الفضة وعشرة آلاف الف الف دينار من

(۱) ابن جُبير ۷٦ (۲) الزرقاني ۲ * ۷٦

الذهب[1] فحمل الناسَ كثرةُ هذا المحمولِ على ان يعدّلوهُ بالوزن لا بالعدد فيقولون انهُ يبلغ ستة او سبعة آلاف قنطار من الذهب[2] الاَّ ان هذا اعياءٌ ينتهي بالتفريط الى المغالاة لان زنة القنطار ثلاثون الف دينار ولا يحتمل ان يكون في العالم الفا الف الف دينار حتى لو صحَّ افتراضنا بوجودها لما صحَّ ان تحمل كلها الى بيت المال ولا يبقى منها شيءٌ في ايدي الناس لمعاملاتهم . فان كان زعمهم بعيدًا عن الصدق فلا اقل من كونهِ يدلُّ على الكثرة وان المال يحمل الى بغداد بالصُبَر[3] لوفور الخير

وعندي ان ما يحمل اليوم الى بيت المال لم يكن يحمل نصفهُ الى خزائن الامويين والخلفاء الاولين من آل العبَّاس . فلا يبعد ان كان عمَّالهم يجبرون من الجزية مالاً لا يحملونهُ اليهم لاختلاف تقديرها بين ثمانية واربعين درهمًا من الاغنياء واربعة وعشرين من الصنَّاع واهل الحرف واثني عشر من اهل الفاقة والاعواز[4] دون ان يكون في الدواوين عَمَلٌ لذلك . فلما قام وزيرنا باعباء الدولة أَقرَّ على العمَّال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزيةٍ وخراجٍ وصدقاتٍ وغير ذلك حتى صار يقيّد الدخل في السجلات من قبل ان يحصل في يديهِ ولذلك لم يبقَ للغش سبيل الاَّ فيما يؤْخذ من المكوس على

(١) مأْخوذ من المقدمة وكتاب قدامة ورسالة بن خرادبة (٢) المقدمة ١٥٨ (٣) القزويني ١٠ (٤) المستطرف ١ * ١٢٨

السلع والزيادة في النفقات[١] التي يتصرَّف بها العمَّال وليس هو الاَّ القليل في جانب الكثير من دخل الدولة

اما واردات الاموال والغلال من البلدان فانها يطرأُ عليها الزيادة والنقصان بتنقل البلاد حولاً من حال ٍالى حال ٍولكن الزيادة غالبة عليها لان العدل بها حالٌ فقد كان حاصل السواد (وهي الارض[٢] ما بين الموصل وعبادان في الطول وما بين عذيب بالقادسية الى حلوان بالعرض) عشرين الف الف درهم في زمن الحجاج[٣] لكثرة الظلم فلما ارتفع عنها الجور اخذت بالعمران[٤] الى ان صار يحمل منها نحوٌ من ستين الف الف درهم لهذا الزمان وكان حاصل فارس واصبهان والكرمان في عهود الامويين ثلاثين الف الف درهم فلما انتظمت فيها الاحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة واربعين الف الف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر بعدما جباها عمرو بن العاص اثني عشر الف الف دينار[٥] الف الف وتسعمئة الف دينار وذلك لاختلال امرها فلما تولاَّها البرامكة جبوها للرشيد ثلاثة آلاف الف دينار واربعمئة الف دينار[٦] واستمرَّت على ذلك[٧] الى هذا اليوم

---

(١) المقريزي ١ * ٩٧ (٢) الماوردي ١٩٩ (٣) المستطرف وابن خرداذبة ٣٦ (٤) المستطرف ١ * ١٢٥ (٥) المقريزي ١ * ٩٨ (٦) الخطط ١ * ٨٢ (٧) اغاني ١١ * ١٢

ويحمل الى بغداد غير الاموال المقرَّرة والغلال الكافية الجند ارزاقهم والخيل علفها قدرٌ من المصنوعات والمحاصيل التي تكون في البلدان فيحمل من السواد مائتا الف حلَّة من الحلل النجرانيَّة ومائتان واربعون رطلاً من طين الختم الاحمر الذي يطبع بهِ على طرف الرسائل الدولية [١] . ويحمل من الاهواز ثلاثون الف رطل من السكر ومن فارس ثلاثون الف قارورة من ماء الورد ومن اصبهان عشرون الف رطل من الزبيب الاسود ومن مكران خمسمئة ثوب من المتاع اليماني وعشرون الف رطل من التمر ومئة رطل من الكمُّون ومن السند مئَة وخمسون رطلاً من العود الهنديّ ومن سجستان عشرون الف رطلٍ من السكر وثلاثمئة ثوب من الثياب المعنيَّة ومن خراسان الفا نقرةٍ من نقر الفضَّة واربعة آلاف برذون والف رأس من الرقيق يتخذون خدماً في دور الخلافة ويكون لامراء بني هاشم منهم نصيبٌ وافر وعشرون الف ثوب من المتاع وثلاثون الف رطل من الاهليلج والف وثلاثمئة قطعة من صفائح الحديد . ومن جرجان الف شقَّة من الابريسم ومن قومس خمسمئة نقرة من نقر الفضة ومن طبرستان والرويان ونهاوند ستمئة قطعة من الفرش الطبريّ ومائتا كسوة وخمسمئَة ثوب وثلاثمئة الف منديل وثلاثمئة جام ومن الريّ

(١) المقدمة ٢١٤

وقزوين عشرون الف رطل من العَسَل ومن همذان الف رطل من ربّ الرمّان واثنا عشر الف رطل من التين ومن الموصل وما اليها واعمال نينوى عشرون الف رطل من العَسَل الابيض ومن الجزيرة واعمال الفرات الف رأس من الرقيق واثنا عشر الف زقّ من العَسَل وعشرة بزاة لصيد الملوك وعشرون كسوة للبيت الحرام ومن ارمينية قدرٌ من البسط وخمسمئة وثلاثون رطلاً من الزقم ومائتا بغلٍ وعشرة آلاف رطل من الصونج ومن قنسرين والجند الف حملٍ من الزيت ومن جند فلسطين ودمشق كثير من الفاكهة اليابسة وثلاثمئة الف رطل من الزيت ومن افريقية مئة وعشرون بساطاً ومن اليمن شيءٌ كثير من المتاع وكذلك من نجد وعمان واليمامة والحجاز وكنكر وحلوان وماسبذان ومهرجان وشهرزور وآذربيجان ومصر وجند الاردن (١) يحمل كثير من المصنوعات التي تتصرّف بها الدولة وتصرفها على الجند وغيرهم من المقرّبين الى السلطان

وهذا المال كلهُ يتصرّف بهِ الرشيد دون ان يعارضهُ فيهِ احدٌ من ارباب الدولة الاّ فيما يعرضهُ عليهِ البرامكة من دفاتر الدواوين والموازنة بين دخل المملكة وخرجها . وقد تجمّع كثيرٌ في بيت المال منذ صدر هذه الدولة حتى ان ابا جعفر لمّا ادركهُ الموت قال

(١) المقدمة ١٥٦ وقدامة وابن خرداذبة

للمهديّ في وصيّتهِ انهُ خلَّف لهُ من الاموال ما ان كسر عليهِ الخراج عشر سنين كفاهُ لارزاق الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك[١] فاخبرني يحيى اعزَّهُ الله عن ابيهِ وكان قائمًا على بيت مالهِ انهُ بلغ الذي خلَّفهُ اربعة عشر الف الف دينار وستمئة الف الف درهم[٢] فلو لم يبقَ الاَّ هذا في خزائن الرشيد لكفى دولتهُ فخرًا وزينةً على جميع دول الاسلام فاما الفخر فيكون لها من حيث المنَعَة لانهُ ما دام بيت مالها عامرًا فلا تزال ممتنعةً على العدوّ واما الزينة فتأتيها من المال على الوجوه التي نستغني عن ذكرها بوجودها طبيعةً في الملوك المترفين الذين يتوسَّعون من نعيم العيش الى تزيين دولهم برواج الادب كما رأينا من الرشيد اقبالهُ على تقريب العلماء اليهِ وانتفاعهِ بعلمهم في دينهِ ودنياهُ

مجلس الغناء بدار الرشيد

وكان الرشيد يتخذ في كل عامٍ مجالس للعلماء والادباء والشعراء واهل الحرف والمهن ويجيزهم على موضعهم من العلم والصناعة بما وسعت لهُ يدهُ من الكَرَم . وان الذي كنت ارتاح الى شهودهِ من المجالس بدارهِ اذا حضر وقتهُ هو مجلس الغناء . على اني لم أَرَهُ في جميع السنين الماضية أَحفل منهُ في هذه السنة وكان

(١) ابن الاثير كتاب ٦ (٢) المسعودي ٢ * ١٩٤

الرشيد قد نشط لهُ وقام بلبستهِ التي يلبسها في الصيف وهي غلالة رقيقةٌ يتوشح عليها بإزار رشيديّ عريض العلم مضرج [١]. وكان بين يديهِ جامات ذهب وفيها دنانير [٢] منثورة يجيز بها من يطيب منهُ المسموع وتصلح منهُ الصنيعة. ومن حولهِ جماعة من بني هاشم والفضل وجعفر من البرامكة اعزَّهما الله وهما جالسان على سريرهِ بجانبهِ

ولما اجتمع المغنّون انفلقوا الى شطرين لغَرَض فيما بينهم على الغناء [٣] فمنهم المتعصّبون للغناء القديم وهم جماعة اسحق النديم ومنهم المقصرون عن ادائهِ والمغيّرون لهُ وهم جماعة ابرهيم بن المهديّ. وكان سبب هذا النزاع بين ابرهيم واسحق ان ابرهيم تغنَّى بلحنٍ قديم اضاع صناعَتهُ فردَّ عليهِ اسحق وعاب ذلك عليهِ فقال انا ملكٌ وابن ملكٍ اغني كما اشتهي وعلى ما التذُّ [٤] فتخالفا على ذلك فانضمّ الى غَرَض ابرهيم اسمعيل بن جامع وعمرو بن نابة [٥] وفليح بن ابي العوراء ويحيى المكيّ وشارية وزيق وبنو حمدون [٦] وحسين بن محرز والهذليّ وغيرهم. وبقي مع الموصلي المترفّعون عن الاغراض والآخذون بمحاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مخارق [٧] وعلوية وعريب وبذل [٨] وسليم بن سلام ومحمد الرف [٩] وزبير بن رحمان

(١) اغاني ٥ * ٣٢ (٢) اغاني ٩ * ٥٨ (٣) اغاني ١٧ * ٧٣
(٤) اغاني ٩ * ٣٥ (٥) اغاني ١٤ * ٥٢ (٦) اغاني ٩ * ٣٥
(٧) اغاني ١٢ * ٢٠ (٨) اغاني ٩ * ٣٥ (٩) اغاني ١٢ * ١٩

واحمد بن يحيي المكيّ ومحمد بن حمزة بن الوصيف [1] وغيرهم . وكان قوم ابرهيم قبل وزارة جعفر اكثر عدد رجالٍ من حزب اسحٰق لانهم كانوا ينضمون اليهِ ليتقربوا بكفالتهِ الى الرشيد [2] فلما أخذ البرامكة بناصر اسحٰق وشادوا بذكرهِ وجهروا بتفضيلهِ رجع الى غرضهِ كثير من المجيدين ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل آل هاشم والبرامكة وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحلونهُ كما يسمعونهُ فلم يكن من مفسدٍ لهُ الاَّ المقدَّمة اسماؤُهم وجماعة من اولاد الخلفاء مثل ابرهيم واخيهِ يعقوب واختهما عليّة [3] وابي عيسى بن الرشيد [4] وغيرهم ممَّن يترفعون عن ان يقيّدوا غناءهم بالمحفوظ من اصوات المتقدمين وان كانوا بموضعٍ جليل من هذه الصناعة فهذا ابرهيم ليس في الناس من هو أعلم منهُ بالنغم والوتَر والايقاعات ولا أطبع على الغناء [5] رأيتهُ اذا تغنَّى بمجلس الرشيد قربَ كل من في دور الخلافة من اقرب موضع يمكنهم ان يسمعوهُ [6] لحسن صوتهِ ولقليل ما يسمعون منهُ اذ كان لا يغني الاَّ على حال تصوّنٍ عن الغناء وترفّعٍ الاَّ ان يدعوهُ اليهِ الرشيد في خلوةٍ أو اذا كان جعفر عندهُ فيقول لهُ احبُّ ان تشرّف جعفرًا بان تغنيهُ صوتًا

---

(١) اغاني ١٤ * ٩١ (٢) اغاني ٥ * ٢٦ (٣) اغاني ٩ * ٨٩ و٥٣ (٤) اغاني ٩ * ٩٦ (٥) اغاني ٩ * ٣٥ (٦) اغاني ٩ * ٧٣

فيغني[1] . فكنتُ في ذلك اليوم في خدمة اميرنا فغنَّى ابراهيم على أَبيات لمروان بن ابي حفصة وفيها يقول

طرقتك زائرة فحيِّ خيالها　　زهراء تخلط بالدلال جمالها
هل تطمسون من السماء نجومها　　باكفكم أَو تسترون هلالها
أَو تدفعون مقالةً من ربكم　　جبريل بلَّغها النبيَّ فقالها

فلما بلغ الى قولهِ جبريل بلَّغها النبيَّ فقالها هزَّ حلقهُ فيهِ ورجَّعهُ ترجيعًا تزلزلت منهُ الارض[2] فما اظنُّ احدًا يقدر على اداء الاصوات التي يتغنَّى بها مثلهُ الاَّ اسحق المخالف لهُ على هواهُ والمقرّ بما لهُ من الفضل فيما يصنعهُ من الالحان لو لم يفسد الغناء القديم ويجعل للناس طريقًا الى الجسارة على تغييرهِ

وأَول من غنَّى في ذلك اليوم ابرهيم ابو اسحق وكان ذلك باشارة مسرور العبد لان امر المغنين مفوض اليهِ[3] واذا احبَّ الرشيد ان يسمع صوتًا اشار اليهِ فاشار هو الى المغنين فغنَّى ابرهيم

ولي كبد مقروحة من يبيعني　　بها كبدًا ليست بذات قروحِ
أَباها عليَّ الناس لا يشترونها　　ومن يشتري ذا علَّةٍ بصحيحِ

واللحن فيهِ ماخوري[4] لا يعرفهُ احدٌ غيرهُ مثلهُ. ثم غنَّى على ابياتٍ قالها في بعض قرى الريّ

---

(١) اغاني ٩ * ٥١　　(٢) اغاني ٩ * ٧٣　　(٣) اغاني ٦ * ٧٤
(٤) الاغاني كتاب ٥

انا في الريّ مقيمُ   في قرى الريّ اهيمُ
ربما نبّهني الاخـوانُ والليلُ بهيمُ
حين غارت وتدلّت   في مهاويها النجومُ
للتي تعصرُ لمّا   أينعت منها الكرومُ

ولحنها من الثقيل الاول باطلاق الوتر في مجرى البنصر[١] ثم غنّى

أَلا فاسلمي يا دار ميّ على البلى   ولا زال منهلاًّ بجرعائكِ القطرُ

الشعر لذي الرمّة والغناء لهُ بلحن خفيف الثقيل الثاني[٢] فأَجاد ابرهيم حتى كأَنَّ كلَّ ما في المجلس يجيبهُ ويردّد الصوت معهُ من حسن غنائهِ فطرب الرشيد حتى صار يقوم ويقعد ولاسيما من اللحن الذي سمعهُ في شعر ذي الرمّة لانهُ كان يحفظ ابياتهِ كلّها في صباهُ فكانِ اذا سمع فيها صوتًا أَعجبهُ اكثر من جميع الاصوات التي يصنعها المغنون فيما لا يحفظهُ من الابيات ففطن ابرهم لذلك منهُ وطلب اليهِ ان يقطعهُ شعر ذي الرمة ويحظر على غيرهِ من المغنين ان يداخلوهُ فيهِ فأَجابهُ الى ذلك فأَصاب ابرهيم عليهِ من الجوائز ما يتجاوز التقدير[٣]

ثم اشار مسرور الى اسمعيل بن جامع القرشيّ وهو من المتعصبين على الموصلّي فغنّى

لم تمشِ ميلاً ولم تركب على قتبٍ   ولم ترَ الشمسَ الاَّ دونها الكَلَلُ

(١) اغاني ٥ * ٢   (٢) اغاني ٥ * ٣٩   (٣) الاغاني كتاب ٥

تمشي الهوينا كأنَّ الريح ترجعها مشيَ اليعافير في جيئاتها الوَهَلُ

الشعر للاعشى والغناء فيهِ لابن سريج بلحن الرمل با لبنصر [١] ثم غنَّى بلحن خفيف الثقيل الاول با لوسطى [٢] على ابيات عمر بن ابي ربيعة

كأنَّ احور من غزلان ذي بقرٍ أعارها شَبه العينين والجيدا

اجري على موعدٍ منها فتخلفني فما أملُّ ولا توفي المواعيدا

كانني حين امسي لا تكلمني ذو بغيةٍ يبتغي ما ليس موجودا

ثم غنَّى بلحن الهزج با لوسطى [٣] على هذين البيتين

شكونا الى احبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما اقصر الليل عندنا

وذاك لان النوم يغشى عيونهم سراعًا وما يغشى لنا النوم أعينا

فأجاد اجادةً يرتاح اليها اهل الطَرب [٤] ممَّن يحبُّ الخلاعة في الاصوات فهو يميل الى ظرف الغناء والنغم الكثير العمل كما يميل الى ظرف المعاشرة والتفنن بخلاعة الملبس [٥]

ثم اشار صاحب الستارة [٦] الى اسحق ابن ابرهيم فجاءهُ غلامٌ من غلمان الدار بعودٍ هنديٍّ [٧] كان مودعًا لهُ في خزانة المجلس [٨] وقد أُصلحت اوتارهُ قبل ذلك الوقت لان العيدان لا تصلح في

---

(١) اغاني ٦ * ٨٢ و ٧٨ (٢) اغاني ٦ * ٨٢ (٣) اغاني ٦ * ٧٧ و٨٢ (٤) المستطرف ٢ * ١٨٨ واغاني ٤ * ٩٨ و٦ * ٦٥ (٥) اغاني ٦ * ٦٩ (٦) اغاني ١١ * ٧٧ (٧) اعلام الناس ١٢٠ (٨) اغاني ٥ * ١٠٩

مجالس الملوك[١] فضرب عليهِ وغنَّى على لحنٍ وضعهُ معبد في ابيات لابي صخر الهذليّ[٢]

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهرُ
فياحبَّها زدني جوًى كل ليلةٍ ويا سلوة الايام موعدك الحشرُ
واني لتعروني لذكراك هزَّةٌ كما انتفض العصفور بلَّلهُ القطرُ
هجرتكِ حتى قيل لايعرف الهوى وزرتكِ حتى قيل ليس لهُ صبرُ[٣]

فطرب الرشيد وقال لهُ زدنا يا ابا صفوان من غنائك وابو صفوان كنيةٌ يلقّبهُ بها عند التحبُّب[٤] فغنَّى

قل لمن صدَّ عاتبا ونأَى عنك جانبا
قد بلغتَ الذي اردتَ وان كنتَ لاعبا

الشعر والغناء لهُ[٥] ولحنهُ من الثقيل الثاني بالسبابة في مجرى الوسطى[٦] ثم غنَّى على ابيات المنخل اليشكري في بعض بنات الملوك المناذرة

ولقد دخلتُ على الفتاة الخدرَ في اليوم المطير
فدفعتها فتدافعت مشيَ القطاة الى الغدير
فلثمتها فتنفَّست كتنفُّس الظبي البهير[٧]

(١) اغاني ٥ * ٥٨ (٢) اغاني ٥ * ١٦ (٣) اغاني ٥ * ١٦ والوطواط ٩٠ وانليدي ١٤٢ (٤) اغاني ٥ * ٥٢ (٥) اغاني ٥ * ١٢٦ والشريشي ١ * ٢١٢ (٦) اغاني ٥ * ٥٧ و ٩ * ٥٤ (٧) اغاني ١٨ * ١٥٢

فأجاد في الغناء الى ما وراء الغاية حتى سبح القوم جميعًا فقال وهو يكاد ان يخرج من ثيابهِ لشدَّة بلوغ الطرب من نفسهِ والله ما الغناء الذي يلين العريكة ويفسح في الرأي[1] والصدر ويحدث طربًا في النفس الاَّ غناء هذا الرجل

ثم أُشير الى فليح بن ابي العوراء فغنَّى على لحنٍ صنعهُ في بيتين لعديّ ابن الرقاع العاملي[2]

وكأنها بين النساء اعارها عينيهِ أَحورُ من جآذر جاسمِ
وسنان اقصدهُ النعاس فرنَّقت في عينهِ سنةً وليس بنائمِ

ثم اتبعهُ بلحنٍ من الثقيل الاول باطلاق الوتر في مجرى البنصر[3] صنعهُ في بيتين للمؤمَّل من شعراء الدولة الاموية

أَلا يا ظبية البَلَدِ بَرَاني طول ذا الكمدِ
فردّي يا معذّبتي فؤَادي اوخذي جسدي[4]

وهو يعارض فيهِ اللحن الذي صنعهُ فيها ابرهيم النديم فاجاد ولكنهُ قصَّر عن ان ينحو صناعة الموصلي وان كان قد مضى في بعض كتبي السالفة من الثناء عليهِ ما يشهد لموضعهِ الجليل من الغناء[5] فانهُ

(١) الاغاني ٧ * ١٤٣ (٢) المستطرف والشريشي ٢ * ٢٨٠ (٣) اغاني ١٩ * ١٤٧ (٤) في قول الفارض

أَخذتم فؤَادي وهو بعضي فما الذي بضركمُ لو كان عندكمُ الكلُّ

التفاتٌ الى هذا البيت (٥) الاغاني ٤ * ٩٨ و ٩٩

قد وجد اليوم من برعهُ وبرع الناس كلهم في طيب المسموع ومحاسن الصنيعة وترجيع الألحان [1]

ثم أُشير الى مخارق من حزب اسحق وهو طيب الصوت يعدُّ وابرهيم بن المهدي وابن جامع وعمر بن ابي الكنات من أحسن الناس صوتًا [2] فغنى بصوتٍ رخيمٍ

يا ربع سلمى لقد هيجت لي طربًا   زدت الفؤَاد على علّاتهِ وَصَبَا

فكنت احسب ان الدنيا قد صارت احزانًا [3] بما المَّ في غنائهِ من ابراز معنى البيت وما وراءهُ من توجُّع العاشقين ثم غنَّى

فبتُّ فيما شئتُ من نعمةٍ   يمنحنيها نحرُها والفمُ
حتى اذا الصبح بدا ضوءهُ   وغارت الجوزاء والمرزمُ
خرجت والوطء خفيٌّ كما   ينسابُ من مكمنهِ الأرقمُ

الشعر لاسمعيل بن يسار والغناء لهُ بلحن الرَمَل [4]. ثم غنى يحيى المكي على لحنٍ صنعهُ في بيتين لمحمد بن أُمَيَّة من كتاب ابرهيم بن المهدي [5]

احبكِ حبًّا لو يفضُّ يسيرهُ
على الناس مات الناس من شدَّة الحبِّ
واعلم اني بعد ذاك مقصّرٌ
لانك في أَعلى المراتب من قلبي

(١) الاغاني وابن خلكان والاتليدي وحلبة الكميت (٢) اغاني ٩ * ٣٥
(٣) اغاني ٢ * ١٨٩ (٤) اغاني ٤ * ١٢٢ (٥) اغاني ١١ * ٢٤

ثم غنّى بلحن خفيف الرمل[1]

طرقتكَ زينبُ والمزار بعيدُ بمنًى ونحن معرّسون هجود
فكأنما طرقت بريَّا روضةٍ انفٌ تسحسح مزنها وتجودُ

فكان لحنهُ كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنيعة ولولا ذلك ما طرب الاذنَ سماعهُ وهو بمكانهِ من خشونة الصوت ثم غنَّى سليم بن سلّام من جماعة اسحق

أفاطم[2] مهلاً بعد هذا التدلّلِ
وان كنتِ قد ازمعتِ صرمي فاجملي
اغرّكِ مني ان حبكِ قاتلي
وانكِ مهما تأمري القلب يفعلِ

ثم غنّى بلحنٍ من الهزج الخفيف بالسبابة[3] صنعهُ في هذين البيتين

وقفتُ على ربعٍ لسلمى وعبرتي ترقرقُ في العينين ثم تسيلُ
أُسائل ربعًا قد تعفَّتْ رسومهُ عليهِ لاصناف الرياح ذبولُ

فطرب الرشيد وقال[4] لو كنت حكم الوادي لما زدت على هذا الاحسان في هزجلك ثم غنَّى حسين بن محرز بلحنٍ صنعهُ يحيى[5] المقدم ذكرهُ في هذين البيتين

هل هيَّجتك مغاني الحي والدورُ فاشتقت ان الغريب الدار معذورُ

---

(١) اغاني ٦ * ٢١ (٢) المسعودي ٢ * ٢٩٦ (٣) اغاني ٦ * ١٢
(٤) اغاني ٦ * ١٣ (٥) اغاني ٦ * ١٩

وهل يحلُّ بنا اذ عيشنا أنقٌ بيضٌ أوانسُ امثالُ الدمى حورُ

ثم غنّى

خمسٌ دسسْنَ اليَّ في لطفٍ حُورُ العيون نواعمٌ زهرُ
فطرقتهنَّ مع الجريّ وقد نام الرقيب وحلَّق النسرُ

الشعر للأحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر (١). فاجاد ولكنهُ لم تظهر لهُ صناعةٌ يسمو بها الى مقامات المتقدمين في الغناء وكذلك جميع من غنّى بعدهُ في ذلك اليوم قد ذهبت طلاوة اصواتهم وهم بين ابرهيم واسحق وابن جامع ومخارق وامثالهم من المجيدين الاَّ الزبير بن رحمان فاني وجدت لغنائهِ موقعاً حسناً من النفوس وكنت أرى الرشيد يتمايل طرباً من نغماتهِ فغنّى

رضيتُ الهوى اذ حَلَّ بي متحيّزاً نديماً وما غيري لهُ من ينادمهْ
أعاطيهِ كأس الصبر بيني وبينهُ يقاسمنيها مرَّةً وأُقاسمُهْ

الشعر لبشار بن برد والغناء لهُ هزج بالوسطى (٢) ثم غنّى

فردّي مصاب القلب انتِ قتلتهِ ولا تتركيهِ هائم القلب مغرما
الى الله اشكو بخلها وسماحتي لها عسلٌ مني وتبذل علقما

واللحن فيهِ لسياط من خفيف الثقيل الاول بالبنصر (٣). ثم تعاقب المغنون على طرح الاصوات في نوباتهم فلم استحسن منها الاَّ لحناً واحداً للهزليّ صنعهُ (٤) في شعر وضَّاح اليمن

---

(١) اغاني ١٦ * ٩٢ (٢) اغاني ١٧ * ٧٣ (٣) اغاني ٦ * ٨٩ (٤) اغاني ٦ * ٣٤

ان الوشاة اذا اتوكِ تنصَّحوا ونهوكِ عَنْ

اني تهيّجني اليكِ حمامتان على فَنَنْ

فاسقي خليلكِ من شرابٍ لم يكدِّرْهُ الدَّرَنْ

حتى اذا ظنَّ في نفسهِ اقتدارًا على الصناعة واراد ان يعارض اسحق باللحن الذي صنعهُ في شعر العبَّاس بن الأَحنف[1]

لا جزى الله دمع عينيَّ خيرًا وجزى الله كلَّ خيرٍ لساني

كنت مثل الكتاب اخفاهُ طيٌّ فاستدلوا عليهِ بالعنوانِ

أُسقِط في يدهِ وقصر دون بلوغ المرام. وكان في جملة المغنين رجلٌ اعمى يقال لهُ أَبو زكار وهو شديد التعصُّب للغناء القديم وكان آخر مَن غنَّى في ذلك اليوم بدأَ بلحنٍ صنعهُ في هذا البيت

يا راكب العيس التي وفدت من البلَدِ الحرام[2]

ثم بآخر لأَبرهيم النديم[3] صنعهُ في بيتين لعمر بن ابي ربيعة وهما قولهُ

ليت هندًا انجزتنا ما تعد وشفت انفسنا مِمَّا نجد

واستبدَّت مرَّةً واحدةً انما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر لهُ بهما صناعةٌ حتى تغنى[4]

يا ايها القلب المطيع الهوى أَنَّى اعتراك الطربُ النازحُ

تذكر جملاً فاذا ما نأَت طار شعاعًا قلبُك الطامحُ

هلَّا تناهيت وكنت امرءًا يزجرك المرشدُ والناصحُ

(١) اغاني ٨ * ١٦ (٢) اغاني ٦ * ١٥٠ (٣) اغاني ٥ * ٣٢ (٤) الاغاني

ما لكَ لا تترك جهل الصبا وقد علاك الشمطُ الواضحُ

ولحنها ثاني ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى . فأَحسن كل الاحسان في تأدية النغم كانما لا تظهر صناعتهُ الاّ بغناء ما في معناهُ زجرٌ وتذكير من الابيات

ولما آذنت الشمس بالغروب أوماأَ الرشيد الى المغنين ان يخلّوا صفوفهم وفرَّق فيهم الجوائز بقدر اهليتهم من الصناعة فمن مصيبٍ الف دينار ومن مصيبٍ خمسمئة ومن مصيبٍ دون[1] ذلك ثم أَوماَ الى من كان يتخلَّل الغناء بما يضرب بهِ من المعازف (وفرَّق فيهم من المال دون ما فرَّقهُ في المغنين) فأَصاب الجوائز السنيَّة أَربعة منهم وهم منصور زُلزُل وكان يضرب على عودٍ من العيدان الشبابيط التي صنعها معارضةً لعيدان الفرس وهي عَجَبٌ من العجب[2] وكأَنَّما تزازل المجالس بحسن نغمها[3] . وبرصوم الزامر[4] وهو أَحسن الناس زمرًا بنايٍ . كان اذا زمر فيهِ يحدث النغم الذي يريدهُ مع صحَّة المقاطيع والتقسيمات حتى كان بين يديهِ ينطق بلسانٍ آدميّ . وجعفر الطبَّال وهو حسن التوقيع على الطبل[5] وكان يضرب بالكوبة[6] في ذلك اليوم . ورابعهم الفريض وهو مشهورٌ بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدّف[7]

(١) راجع الاغاني (٢) اغاني ٥ * ٢٤ (٣) ابن خلكان ١ * ١١ (٤) اغاني ٦ * ١٢ (٥) اغاني ١٤ * ٥٤ (٦) القناويّ ٢١ (٧) الاغاني ٢ * ١٢٩

الرسالة السابعة

في ذكر آداب العَرَب

هذه رسالة اليك أُفردها لذكر آداب العرب وعلومهم فقد طالما شهدتُ مجالسهم بدار الرشيد في محاورة فقهاء وحلقات علماء ومنادمة ادباء ومناظرة جدليين [1] ومراواة اخباريين ونوبات [2] مغنين. وذلك من الحظوظ التي لم تتفق لغيري من المتصلين بالملوك لاني كنتُ أَقرب الناس مكانًا الى الرشيد تحت ظل البرامكة وكنتُ من الحظوة لديهِ بحيث اذا جلستُ الى منادمتهِ عَدَل عن جلال موضعهِ من الخلافة [3] ورجع الى محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الاخوان فكان يعمد الى مخدَّةٍ [4] يجعلها تحت فخذهِ ويمكّن منها جلوسهُ ثم يقول هلمَّ بحديثك [5] وهذا غاية ما يكون من الملوك اذا طابت نفوسهم من منادمة الجلساء. وكنتُ اذا انفردتُ بمجلسهِ دون أَحدٍ من المقربين اليهِ أَخرج اليَّ جواريهُ فيجلسنَ متشكلات بالزهور [6] ومكلَّلات باللؤلؤ والزبرجد [7] فيغنينَ

(١) المسعوديّ (٢) اغاني ٣٠ * ٦٤ (٣) اعلام الناس (٤) اغاني ٥ * ١٢٢ (٥) اتليديّ ١١١ (٦) اغاني ٧ * ٣٦ (٧) اغاني ٤ * ٦٢

ويضربنَ بالملاهي الى هدءٍ من الليل فاذا اتاهُ من الحرم [١] التفّاح المنقوش المطيَّب [٢] وغيرهُ من الفاكهة والحلوى عزم اليَّ ان اجلس الى طعامهِ واُجالسهُ على نبيذ [٣] التمر [٤] وغيرهِ من الشراب الذي لا ينهى الشرع عنهُ [٥] ولا يكون لهُ حكم الخمرة الّا اذا اسكر [٦] وكان يحبُّ ان احدّثهُ عن آداب الفرس وعلومهم وصنائعهم لانهُ كان في طبيعتهِ ميلٌ الى الأَدب واهلهِ [٧]. ولذلك كانت دولتهُ تزداد خيراً وصلاحاً [٨] وتشرق بهاء وجمالاً. واقبل اهل العلم عليهِ من كافة الوجوه يستمطرون غيث نداهُ فحقَّق لهم الآمال وساق اليهم الجميل واجرى عليهم الارزاق الواسعة [٩]

وكانت همَّة الرشيد مصروفةً الى ترجمة كتب الفلاسفة من قوم يونان وغيرهم بعد ان رأَى جعفراً وزيرهُ يبتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة بتعريبهِ [١٠] ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرَّب ذهباً (لان سوق العلم نافقةٌ عند البرامكة [١١] وهم الذين قرَّبوا العلماء واشاروا بعمل الكاغد لنسخ أَسفارهم [١٢]. لان الفضل رأَى الرقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل السلطان لاتكفي العلماء في مصنفاتهم ولا التراجمة في معرّباتهم فرأَى من عمل الكاغد ذريعةً الى نشر العلم الذي عني

(١) المسعودي ٢ * ٥٦ (٢) اغاني ١١ * ٣٥ (٣) اغاني والف ليلة وليلة (٤) المقدمة (٥) العقد ٣ * ٣٠٠ (٦) القناوي ٣٦ (٧) الفخري ٢٣٠ والشرقاوي ١٢٢ (٨) المسعودي ٢ * ٤٠١ (٩) كتاب الاغاني (١٠) ابن خلكان ١ * ٣٢٦ (١١) الفخري ٢٣٥ (١٢) المقدمة ٣٦٨

برفع مناره مع أهل بيته كافة[١]) فحسدهم الرشيد على ذلك وتشوّق الى الاطلاع على كنوز الحكمة[٢] فأنفذ رسلهُ في إحراز الاسفار القديمة وكتب في إشخاص التراجمة الذين يحسنون العربيَّة من الروم وغيرهم وتقدّم اليهم في تعريبها باقرب اللغات الى الاذهان

فلما تناول العرب هذه الاسفار تمهَّروا في استخراجها ووقفوا على اغراض الحكماء منها[٣] فصعدوا من الادب المقام الذي لم تبلغهُ امَّة قبلهم في المشرق. وهذا من الامور التي تدل على ذكاء العرب[٤] ونبل الهمَّة عندهم وانهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان. والاَّ فلا نجد في اخبار الامم السالفة من حاز من اطراف الدنيا مثل ما حازهُ المسلمون في مثل المدة التي وقع فيها الفتوح فقد كان من شأنهم عند ما صار الامر الى بني أُميَّة ان حازوا اكثر الاقاليم وابتزُّوا الأَعاجم سلطانهم ووصلوا من المشرق الى الهند والسند وتجاوزوا المغرب الى أَبعد من الاندلس شمالاً. وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح الاَّ مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المَدَنيَّة على قرب عهدهم بها ما لم تبلغهُ أُمم العلم من قبلهم. فمن الغريب الذي ينطق بفضلهم وذكائهم انهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة يونان فلقد

(١) العقد الفريد (٢) الدميري ١ * ٩٥ (٣) المقدمة (٤) المسعودي ١ * ٣٣٦

أهداني بعض علمائهم صحفًا وجدتهم فيها يرمون الى اغراضٍ من الفلسفة بعيدةٍ ويضيفون على قواعد اليونان شرحًا[1] اصابوا الرأي بالزيادة فيهِ بعد البحث والتمحيص[2] وذلك غير ما فتحوا من الابواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها واصلاحها وغير ذلك

وكان اول عهد العرب من العلم في خلافة ابي جعفر[3] لانهُ كان يعزّز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم ويعزم على اهل الكتابة ان يدوّنوا الاسفار لاذاعة العلوم بين الناس اذ لم يكن معروفًا عندهم الاَّ علم الرواية واخبار العرب وعلم الاحكام الشرعيَّة واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذي وضعهُ الله في صدورهم[4] وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الافلاك مما أخذوهُ عن الفرس وجماعة الهنود. فلما جاءت هذهِ الايام تسحب عليهم أذيال النعيم والدَّعَة بعد ان فرغوا من اعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة وجَّهوا هممهم الى النظر في العلوم والآداب[5] لتجديد ما طمس من العلم فكتبوا في جميع فروعهِ ومطالبهِ بحيث انهُ لو جمعت صحف امَّةٍ قديمة عهدٍ بالعمران لما وجدنا ما تحويهِ من العلم اعظم ممَّا نجدهُ فيما دوَّنهُ العرب من الصحف. واني لذاكرٌ ان الرشيد

(١) حجي خلفه ٢ * ٩٢ (٢) ابن خلكان ١ * ٣٦٢ (٣) السيوطيُّ وابو الفرج ٢٤٦ (٤) اغاني ٢٠ * ٥١ (٥) المقدمة

لما ركب الى الرقَّة في بعض اسفارهِ حمل معهُ ثمانية عشر صندوقًا[١] من اسفارهم مع انهُ لم يأْخذ منها الاَّ نخبةً ممَّا في خزائنهِ وكفى بذلك بيانًا على ما نروم ذكرهُ من كثرة الصحف[٢] التي دوَّنها العرَب بين تعريب وتأْليف

الطبُّ والاطباءُ

وكان ابو جعفر محص الله عنهُ ذنوبهُ يوجّه عنايتهُ الى علم الطبّ من بين العلوم فبنى لتعليمهِ حلقةً كبيرة فوَّض امرها الى طبيب اعجميّ يقال لهُ فرات بن شحناثا وهو من تلاميذ تياذوق[٣] الذي كان طبيبًا بدار الحجاج امير العراق . فتخرَّج عليهِ طائفة من النصارى[٤] دون المسلمين ولستُ أَعلم السبب في اعراضهم عن هذا الفنّ الاَّ ظنَّهم الكفاية فيما لديهم من المجربات التي توارثوها عن مشيخة الحيّ وعدم حاجتهم الى مثل هذه الصناعة في كسب الرزق وترفّعهم عنها كغيرها أَنفة بانهم أَهل ملكات وذلك خطأٌ واقع عليهم عارهُ لانهُ قد خلت منهم مراتب في دور الخلافة وتحوَّلت الى أُمم النصرانية وهم الذين برعوا عليهم في الطبّ[٥] وعرَّبوا كتب جالينوس وابقراط من حكماء يونان واضافوا اليها كثيرًا مما عرفوهُ

(١) اغاني ٥ * ٦٧ (٢) حجي خلفه (٣) ابو الفرج . ٢٠٠ (٤) اغاني ٩ * ١٢٨ (٥) المقدمة

من علم الحيوان بعد وقوفهم على مقالات ارسيخاس[١] وديموقراطيس[٢] وغيرهما من العلماء الذين يُرجع الى كلامهم في طبائع الحيوان وخواصهِ ومنافع النبات ومضارهِ

ولقد كان مظهر الطبّ في النصرانية رجل يقال لهُ ماسويه أَبو حنا وكان أُميًّا لا يعرف القراءة الاَّ انهُ تلقَّى الطب من افواه اليونان وطال بهِ المران لهُ والتجربة فيهِ الى ان بلغ منهُ المكان الذي لا يدفع . وكان لهُ ولدان يقال لهما يحيي[٣] ويوحنا فتخرَّجا عليهِ في الطب ومعهما ثالث يقال لهُ جبريل بن بختيشوع فبرعوهُ في شفاء الامراض . فاما يوحنا فانهُ صار طبيبًا بدار الخلافة ودوَّن رسالةً طويلةً اودعها ما عرض لهُ من التجربة في معالجة أَهل السقام واتخذ مجلسًا افردهُ للنظر في استنباط العلاجات باجتماع رأْي غيرهِ من الاطباء وكان الرشيد قد ولاَّهُ ترجمة الكتب[٤] التي وقعت اليهِ من مدوّنات الاطباء الحكماء مثل ابقراط وجالينوس وغيرهما فأَحسن تعريبها على ما وجَد فيها من الصعوبة التي نالت من نفسهِ اعظم مشقَّة وذلك بخلاف الكتب التي عُرّبت في خلافة المهدي وابي جعفر فانها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات اليها اذ كانت عاريةً من القواعد التي وضعها الحكماء وليس تحوى سوى علاجات

(١) المسعودي ١ * ٩٢ (٢) حجي خليفه ٣ * ١٢١ (٣) ابن الاثير ٦ * ١٢١ (٤) ابو الفرج ٢٣٧

أشار بها ضعفاء العقول من الاطباء وكانت الى الجهل والخرافة أقرب منها الى العلم والحقيقة فلم يجد المعربون في نقلها مشقّةً وعناء . اما الكتب التي عرّبها ابن ماسويه فهي من اصحّ وأنفس ما صدرت بهِ اقلام اليونان

واما جبريل بن بختيشوع فانهُ ماهرٌ في جميع العلوم الداخلة في علم الطبّ . ولهُ في الكلام على الحيوان (١) رسائل تدلُّ على سعة اطلاعهِ . وكان جعفر (٢) أيّدهُ الله شديد الحبّ لهُ والاحتفاظ بهِ حرصًا على ما وسع صدرهُ من العلوم فقرَّبهُ الرشيد اليهِ برأي البرامكة واتخذهُ في دور الخلافة موضع صالح الهنديّ الذي كان مقدّمًا من قبلهِ على اطباء بغداد (٣) . فلما صار الى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون الى رأيهِ فيما يشير بهِ من الادوية حملهم على الإعراض عن الدجّالين وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودلَّ ما بلغوهُ من الشيخوخة على بلوغ الخرف منهم فيزعمون انهم يطبّبون الناس بالمواعظ (٤) ليمتلكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيهِ من الخرافة فوفّقهُ العلم الى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل عليهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تميت الاذهان الضعيفة

ويأتي بعد جبريل بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية

(١) حجي خلفه ٤ * ١٢٥ (٢) ابو الفرج ٢٢٥ (٣) ابو الفرج ٢٢٨
(٤) المسعودي ٢ * ٥٨

من الاطباء وكلهم من الامة النصرانية الاَّ عيسى ابا قريش الصيدلاني وليس هو بطبيبٍ ماهر انما رُزق الشهرة بين الناس عن اتفاقٍ وقع لهُ بان بشَّر الخيزران لايام ابي جعفر بانها تحمل مولودًا ذكرًا يصير اليهِ امر الامَّة فلما القت ذا بطنها وكان غلامًا أَفرغت النعمة عليهِ واتخذتهُ طبيبًا في دار الخلافة[1]. وقد سمعتُ مَن يقول ان الخيزران انما قرَّبتهُ اليها لمهارتهِ في الحجامة وليس في الطب فان صحَّت الرواية فيكون عندي احق بالثقة من غيرهِ اذ لستُ اثق من الطبّ الاَّ بما يحفظ الصحة للصحيح واما العلاجات التي يزعمون انها تبعد العلَّة عن العليل بعد تمكنها فيهِ فما انا من الثقة بها على شيء لاني احسبها من باب الغوص على اسرار الطبيعة وطالما وجدتُ للاطباء في العلَّة الواحدة آراء متباعدة ومن المعروف عند العقل ان الخلاف في الامر الواحد لا يطابق الحقَّ فيهِ الاَّ وجهٌ واحدٌ . واما الحجامة فانها على خلاف ذلك والرأْي يجتمع فيها على حذف العضو الفاسد وفصلهِ . واني وان كنتُ على بُعدٍ من الطبّ فلا أَجد بُدًّا من الإقرار بفضل العرَب فيما استنبطوهُ من العلاجات وما وقفوا عليهِ من مركَّبات العقاقير التي لم يسبق اليها احدٌ من المتقدمين ولا غروَ فان الطبَّ صناعة لا تبلغ الغاية منها الاَّ على طول التجربة والمِرَان ولذلك كان المتأَخرون يفضلون بها المتقدمين في كل عصرٍ

(١) ابو الفرج ٢٢٩

وامَّةٍ وقد قال عليٌّ عليهِ السلام [1]

أَلا لن تنال العلمَ الاَّ بستةٍ　　سأُنبيكَ عن مجموعها ببيانِ
ذكاءٌ وحرصٌ واصطبارٌ وبلغةٌ　　وارشادُ استاذٍ وطولُ زمانِ

النجامة وعلم الاكوان

اما النجامة فانها كانت معروفةً قِدمًا عند العرَب كما سبق الإِلماع الى ذلك غير انها كانت محصورةً في نَفَرٍ من خواص الأَقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الاسلام . فلما جاء ابو جعفر قرَّب المنجمين اليهِ وقدَّم عليهم نوبخت المنجم المشهور [2] وكان ممَّن حفظ عن المجوس فاتخذ في الزوراء حلقةً شهدها كثير من الناس الاَّ انهُ لم يكن فيهم أَخلف لهُ في علمهِ من الموصلّي المنجم كتب في الاسطرلاب سفرًا اودعهُ من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أُصولاً يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون اليها في علم الافلاك

ثم نبغ بعدهُ في النجامة عليّ بن عيسى الاسطرلابي [3] وابرهيم الفزاريّ المنجم وتهرا في استخراجها من كتب الفرس . وقد عثرتُ في خزائن البرامكة على ارجوزة في علم الافلاك نظمها ابرهيم هذا المنجم [4]

(١) الكنز ١٢٩ والشبلنجي ٢ ١٠ (٢) القزويني (٣) المسعودي ٢ ☆ ٤٠٠ (٤) المسعودي ٢ ☆ ٤٠٠

فجاءت ناطقةً بحسن نظرهِ ولطيف مأخذهِ وسمو موضعهِ من هذا العلم. ثم نبغ بعدهُ تيوفيل بن توما الرهاوي وكان المقدَّم على جميع المنجمين في خلافة المهديّ وكانت لهُ معرفة تامَّة باليونانية حتى سعى الى ترجمة كتاب شاعرٍ يقال لهُ أُميروس عن فتح مدينة ايليون في العُصُر الخالية الى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة[1]. وأُميروس هذا شاعرٌ مجيدٌ كان يغترف المعاني من بحار التصوُّر ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمهُ بين الحكمة وكلام النبوَّة موقفًا لا يتخلَّص في مناولتهِ الاَّ العقول النيّرة والاذهان الثاقبة وقد اثنى عليهِ ارسطو في كتابهِ بمديح يرفعهُ الى أسمى مقامات الرجال[2]

اما المنجمون لهذه الايام فهم اثنان مشهوران ماشاء الله اليهوديّ واحمد بن محمد النهاونديّ ودونهما في الشهرة ثالثٌ يقال لهُ محمد بن موسى المنجم[3]. فاما ماشاء الله فيقال ان لهُ حظًّا في علم الغيب[4] وكان من جملة المنجمين الذين اتصلوا بأَبي جعفر وكسبوا الانعامات منهُ وهو اليوم بدار الترجمة آخذٌ عن امر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الافلاك. واما أَحمد النهاونديّ فانهُ بالموضع الاجلّ من علم الرصد أَلف فيهِ كتابًا سمَّاهُ المشتمال واودعهُ من تحقيق

(۱) ابو الفرج ۲۲۸ (۲) المقدمة ٥۲۱ (۳) اغاني ۱٥ * ۸۱

(٤) ابو الفرج ۲٤۸

النظر بما عرض لهُ من امور الفلك فيما رَصَدَ بمدينة جنديسابور ما لم يسبق اليهِ احد من المنجمين . والّف في الموازنة بين الفرس والهند واليونان على ما عرفوهُ من النجامة كتاباً آخر اودعهُ صورة الدنيا كلها بجورها وجبالها واوديتها واقاليمها وبلدانها وسائر اماكنها وجعل الدَرَجة خمسة وعشرين فرسخاً والفرسخ اثني عشر الف ذراع والذراع اثنين واربعين اصبعاً والاصبع ست حباتٍ وتسعين مصفوفة بعضها الى بعض[1] وهذا مما يحتاج الى دقّة النظر في معرفة عرض الارض ومناسبة الاقاليم وغير ذلك. وقد أهداني هذا المنجم نسخةً مصوَّرة من كتابهِ المستمال في شهور السنة الخامسة والثمانين ولكنهُ أخبرني انهُ لم يرسلهُ بين الناس لما يحتاج اليهِ من المراجعة والاصلاح فيما يعرض لهُ من امور الفلك الذي يباشر رصدهُ الى هذه الغاية

ولقد مضى في كلامنا عن الطبّ ان النصارى برعوا فيهِ على المسلمين وكذلك قولنا في هذا العلم ان الفرس برعوا فيهِ على العَرَب لانهم كانوا يتجافون عنهُ ويعدّونهُ والسحر الذي ينهى الشرع عنهُ علماً واحداً[2] . وذلك بخلاف الفرس فانما همهم موجَّه الى العُلَى في مباحثهم ومناظراتهم ولذلك كان انصبابهم الى الرصد وما ينبئ عنهُ من اشارات النجوم وحركات الكواكب اعظم من

(١) المسعودي ١ * ٢٧٨ (٢) الفناوي ٥١

انصبابهم الى ما سواهُ من العلوم . وكان المقرّب لهم في الاسلام ابو جعفر المنصور [1] كما ذكرتُ في مواضع كثيرة من الكتاب لأَجل ان يطلعوهُ على طوارئ الجوّ وحدوث الانواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب في بروجها [2] وينبئوهُ عن جَدْب الارض او خصبها بما يكون من معرفة ذلك قبل حدوثهِ وأَوانهِ منفعةٌ عظيمة للملوك . ثم قرَّبهم البرامكة لاستشارة الاسطرلاب في جلوسهم وركوبهم [3] وما يباشرونهِ من الاعمال وعقدوا لهم مجلساً يتناظرون فيهِ للزيادة على كتب الاعاجم ما يستنبطون من حركات الكواكب المتحرّكة والمتحيّزة واسبابها بطرق هندسية وركوز الكواكب الثابتة وما يرون من الافلاك التي تختص بالكواكب وغير ذلك. وتقدَّموا الى فنّ علمٍ بالنجامة ان يعرّب كتاب المجسطي لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا موضعاً للرصد يُعرَف بذات الحَلْق [4] فكان يجتمع فيهِ كثيرٌ من ادباء المسلمينِ الذين لم يشاركوا الاعاجم في هذا العلم الاَّ بما يلتمسون منهُ معرفة الايام والشهور والسنين [5] من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذي يسمونهُ بعلم الازياج [6]

(١) السيوطي (٢) المقدمة (٣) الاتليدي والاغاني (٤) المقدمة ٤٢٦ ويقول ان المأمون كان المحدث لها او المحدث منها (٥) المقدمة ٤٢٧
(٦) حجي خلفه ٣ * ٥٦٠

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هوت اليهِ افئدة المسلمين. كان شأن العَرَب بهِ في صَدر الاسلام ان يرحلوا من بلدٍ الى بلد ليسمعوهُ من الصحابة[١] ثم من الانصار ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير ان يدوّنوهُ في الصحف. فلما أَسرع الموت في العلماء وكانوا كلهم شيوخًا تسارع اهل العلم الى تدوينهِ[٢] على طريق الاسناد ولكن من غير ان يجعلوا للتمحيص فيهِ مجالاً. فكتب ابن جريح[٣] بمكَّة ومالك بن انس بالمدينة ومعمر باليمن وسفيان الثوريّ بالكوفة وهشيم بن بشير[٤] بالعراق والاوزاعي[٥] ببيروت من ساحل الشام وحماد بن مسلمة وشعبة بن الحجاج وابن ابي عروبة بالبصرة وذلك كلهُ في خلافة أَبي جعفر[٦]. وكان أَصحهم حديثًا عن النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم مالك بن انس وهو راس المحدّثين[٧] رأيتهُ اذا تحدث توضَّأ وجلس على صدر فراشهِ وسرَّح لحيتهُ وتمكَّن في جلوسهِ بوقارٍ وهيبةٍ ثم حدَّث فقلتُ لهُ في ذلك فقال احبُّ ان اعظم حديث رسول الله صلَّى الله عليهِ وسلَّم ولا احدّث بهِ الاَّ متمكنًا على طهارةٍ. وكان يكره ان يحدّث على الطريق

(١) حجي خلفه ٢ * ٢٧ (٢) الزرقاني ١ * ١٠ (٣) الزرقاني ١ * ١٠ والمقريزي ٢ * ٣٣٢ (٤) ابن خلكان ١ * ٩٢ واغاني ٥ * ٥٤ (٥) حجي خلفه ٢ * ٢٨ (٦) السيوطي (٧) ابن خلكان ١ * ٦٢٦

أَو قائمًا أَو مستعجلاً ويقول احبُّ ان اتفهَّم ما أُحدِّث بهِ عن رسول الله صلَّى عليهِ وسلم

ثم انهُ لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان اخذ اهل العلم في وضع علم الكلام صيانةً للدين والشرع ورجعوا الى تدوين الحديث ولكن بعد طرح الموضوع منهُ وتصحيح الفاسد المنقول. فكان أَوَّل من اخذ في ذلك ابو يوسف فقيه الاسلام وهو الذي آخذ المحدثين على اغلاطهم [1] ونبذ الموضوع من أَحاديثهم ولا سيما ما كان مسندًا منها الى أَبي هريرة فانهُ أَوقع عليهِ طعنًا وتقريعًا بما نقل من الحديث على غير تمحيص وامعان نظر [2]. ثم أَخذ إِخذهُ في تصحيح الاحاديث الفاسدة أَبو اسحق الفزاريّ وعبد الله بن المبارك وهما أَشهر الأَيمة لايامنا هذه والرشيد لا يسمع الحديث الاَّ عنهما ولا يلتمس الرد على الزنادقة الاَّ منهما. فكان اذا أَخذ على الزندقة جماعةً فقالوا لهُ على سبيل النكاية وهو يضربهم الحدود اين انت يا امير المؤمنين من الف حديثٍ وضعناها عن النبي ما فيها حرفٌ نطق بهِ قال لهم واين انتم يا اعداء الله من ابي اسحق وابن المبارك يتحلاَّنها فيخرجانها حرفًا حرفًا [3]

ولقد بلغني ممَّن لا مِرْية في كلامهِ ان هذين الامامين يؤَلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الايمَّة الى ان

(١) ابن خلكان ١ * ٢٧٦ (٢) ابو الفداء ١ * ١٩٨ (٣) السيوطي

يتعدياها الى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن من الزنادقة والمسلمين الذين يزعمون انهُ يحوي غير العربيّ الفصيح[1] من الكلام وهذان المذهبان فاشيان اليوم بين الناس والاول منهما اشدّ خوفًا منهُ على الاسلام لان زعم الآخرين ضعيف الحجة واهي الدعائم بما يعلم عن العرب من انهم خالطوا الأُمم في أَسفارهم وعلقوا من لغاتهم الفاظًا استعملوها في اشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح فما ورد في القرآن من الالفاظ الاعجمية فانما دخل في العربيّة الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق والاَّ فلا يكاد يرى فيهِ من هذه الالفاظ ما لم يرد[2] في شعر المتقدمين من الجاهليّة. وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون. واما الذين يذهبون الى ان القرآن مخلوقٌ[3] فلا بدَّ من ايجاد حجة تكون قامعةً لافترائهم على الله ومخمدةً لنار الفتنة التي كمنت طيَّ مذهبهم وهذا من الامور التي ينبغي ان ينظر الاولياء فيهِ بعين الحذر لان الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ويكون آخر امرها بوارًا على الدولة ومدعاةً لسقوط العرب الذين ما فتحوا الاقاليم وحازوا سلطان الاعاجم الاَّ بنخوة الدين وفتوَّة الاسلام . . .

ولقد عثرتُ من مدونات الفقه على كتبٍ جليلة واجلُّها كتابُ

---

(١) الاتقان ١ * ١٦٨ (٢) الاتقان ١ * ١٤٩ (٣) الدميريّ ١ * ٩٨

لابي حنيفة رحمهُ الله في الفقه الاكبر في الكلام [1]. وكتاب لمالك بن انس سمّاهُ الموطّأ وذهب في استنباط الاحكام الشرعيَّة من القرآن والحديث الى مخالفة ابي حنيفة على مذهبٍ ينفرد بهِ. وهو الكتاب الذي يقرأهُ الرشيد ويحفظهُ [2] على صدر قلبهِ تفضيلاً على غيرهِ من كتب الفقه. وعثرت ايضًا على كثيرٍ ممَّا دوَّن العلماء فيما يشتقُّ عن الفقه من علوم الاحكام منها لابي حنيفة وابي يوسف رحمهما الله ومنها لابن شبرمة وابن ابي ليلى [3] وقد افردا نظرهما في علم الفرائض. ومنها كتابٌ لفتى يقال لهُ يحيى بن اكثم جمع فيهِ ما استحسن من آراء اصحاب المذاهب وهو الكتاب الذي اصبو الى مطالعتهِ من بين جميع هذه الصحف الشرعيَّة وقد وجدت قِبل صاحبهِ من بلاغة الفطنة [4] وصدق الحَدَس ما يؤكّد لي انهُ ان مدَّ لهُ في العمر ليفضحنَّ الفقهاء

واما الكتب التي وقعت اليَّ في علوم الحديث فانها اكثر من ان تؤخذ بالاحصاء [5]. غير ان الافادة منها كانت محصورةً في ماجمعهُ كبار العلماء وبقي ان جملة ما في غير كتبهم مراجعةٌ واعادةٌ لما سبقوا الى تدوينهِ. فكان أحرى بالادب وأحرص للعلم لو صرف الباقون عنايتهم الى النظر في غير ذلك من العلوم وما أضاعوا العمر في نقل ما هو متداولٌ بين الناس ومسبوقٌ الى تدوينهِ من غيرهم من العلماء

(١) حجي خلفه ٤ * ٤٥٧ (٢) الزرقاني ١ * ٩ (٣) حجي خلفه ٤ * ٢٩٦ (٤) ابن خلكان ١ * ٩٢ (٥) حجي خلفه وكتاب الفهرست

اللغة وتصريف الكلام

امَّا اللغة فان العلماء قد وضعوا قواعدها على اصول وقفت عندها الغاية في الاصلاح وتدقيق النظر لانهُ سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلوم اضطرارًا الى تفسير القرآن اذ كانت الكتابة عندهم مفقودةً وكانت الفاظ العرب ضائعةً بين الرمال فاسرعوا الى التقاطها من اطلال الديار وبادروا الى تقييد اللغة على صحَّة الاسناد والرواية

وأَول مَن أَخذ في ذلك عبد الملك بن مروان من ملوك أُميَّة وقد عَبر الناس يقرأُون في مصحف عثمان نحوًا من اربعين سنةً وهو بلا علامات [1] فكثر التصحيف والغلط لوجود الحروف المتشابهة حتى انهُ كان يقرأُ بعضهم ما يجحد بآياتنا الاَّ كل ختار والاصل جبَّار وعذابي أُصيب بهِ من اشاء والاصل اساء وهم أَحسن أَثاثًا وزيًّا والاصل ريًّا والذين كفروا في عزَّة وشقاق والاصل غرَّة الى غير ذلك. فوكَّل النَصر بن عاصم ان يضع علاماتٍ لهذه الحروف المتشابهة فوضعها افرادًا وازواجًا [2] لها فكفَّ الناس عن التصحيف ثم اخذوا في ضبط اللغة لحفظ الحديث النبويّ والوقوف على الصحيح منهُ الى ان جاء هذا العصر والناس آخذون في تدوين العلم

(١) حجي خلفه ٢ * ١٥٤ (٢) ابن خلكان ١ * ١٧٥

فشرعوا في تدوين محفوظهم من لسان قريش وقيَّدوا ما كان يتناقل فيما بينهم عن طريق الرواية والاسناد

وأَول من دوَّن اللغة هو الخليل بن أَحمد البصريّ الذي قدّمت ذكرهُ في اول الكتاب وقد ضمَّن كتابهُ[1] أُصول اللسان العربيّ وقيَّد الالفاظ بالتصريف الاَّ ما كان دخيلاً عليهِ من كلام الاعجام فانهُ اكتفى من ذكرهِ بالاشارة اليهِ واسند الرواية فيما نقلهُ الى اكابر الحفَّاظ ولذلك صار كلامهُ حجَّةً يرجع اليها في منصرف الكلام ثم دوَّنها بعدهُ كثير من العلماء منهم ابو الحسن عليّ بن حمزة الكسائي مؤدب الامين والمأْمون[2] من اولاد الرشيد وهو فنُّ علمٍ بالنحو ومنهم سيبويه والفرَّاء والاخفش وعلمهم منفرد بالنحو الاَّ الفرَّاء فانهُ كثير الفضل على العربيَّة بضبطها وتخليصها[3] وقد بلغني عنهُ مكانٌ جليل من العلم ولكن لم يجمعني بهِ مجلسٌ الى هذا اليوم. ومنهم ابو عُبيدة معمر بن المثنى البصريّ وقد وقع اليَّ كتابٌ لهُ في فقه اللغة كتبهُ لتعليم الرشيد[4] في خلافة ابي جعفر فاودعهُ كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المرادفات التي وَرَدَت عنهم في جميع الاسماء والافعال والاوصاف[5] مشيراً الى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة واتى على متابعة الالفاظ التي تصف الاشياء على ازديادٍ

(١) المقدمة ١ . ٥ (٢) المسعودي ٢ * ٢١٢ والابشيهي ٢ * ١٢
(٣) ابن خلكان ٢ * ٢٢٨ (٤) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٥) الثعالبي

في معانيها او نقصٍ يبعدها عن الكناية بما لا يصحّ استعمالهُ لها من الوصف الذي اقامهُ على طبقات معلومة من كلام العرب

وهذا الكتاب يفتقر اليهِ كل كاتبٍ من ابناء العرب الذين ينزلون الامصار وينقطع عهدهم بأهل البداوة الذين يحافظون على قوام اللسان العربيّ[1] . لاني وجدت اللغة على قسمين قسم بدويّ وقسم حضريّ. فاما القسم البدويّ فهو لغة الجاهلية التي نجدها في اهل البادية لهذه الايام واما القسم الحضريّ فانهُ قطعة من لسان العرب يمازجها كلام السوقة[2] والفاظ المعرّبين فيما ينقلونهُ من كلام الفرس واليونان مما لا نجد لهُ مسمًّى في لسان العربان لان لغتهم انما وضعت للبادية حيث لاتكون هذه الاشياء التي نجد اسماءها في كتب الاعاجم كما ان في لغات الامصار اضرابًا عن تسمية الاشياء التي لا توجد الاَّ في بادية العَرَب

ثم اني وجدتُ في اهل اللغة قصورًا تسامحوا فيهِ وتغاضوا عنهُ جميعًا وذلك انهم عند ما يصرّفون الكلام يسردون لغات القبائل فيهِ من غير ان يشيروا الى ما كانت تختلف بهِ لغة قبيلة عن أُخرى. فلقد قيَّدوا للاسد نحوًا من الف اسم ولكن من غير ان يذكروا الاسم او الاسماء التي كانت تصفهُ بهِ عربان كذا وكذا وقيَّدوا للبعير والحيَّة وسائر الحيوانات والاشياء والاوصاف مثل ذلك

(١) يظهر هذا مما نقل الاصمعي وغيرهُ من كلام العرب (٢) اغاني ٢ * ١٧٢

أَو قريبًا منهُ على إِغفال ما نحن آخذون في الانتقاد بهِ عليهم حتى اني رأَيتُ لهم في تصريف الافعال الى ما يشتقُّ عنهُ من المعاني مضادةً غفلوا عن ذكر معناها بين معاشر العربان كقولهم عن وثب بمعنى الجلوس والوثوب وذلك من الاضداد التي لا اظنُّ انها تجتمع على كلمة واحدة في لغة القبائل فانما كان يراد بهِ الجلوس في لغة حمير والوثوب في لغة قريش الى غير ذلك[1]

وبديهيٌ ان تخالف المعاني عن الالفاظ قد يكون قصورًا في اللغة ومدعاةً للّبس في الكلام فلو قال قائل عذّر الله وكن من اعدائهِ واطعن قلب نبيّهِ المستقيم واقطع رُؤُوس أَيمَّة المعابد ولا تقرأ القرآن فتجد والجنَّة مشحونة بالكفرة والجامع مجلبة للمآثم لكان المتبادر من معنى كلامهِ كفرًا مع انهُ ربما يريد التسبيح بذلك حملاً على معناهُ في لغة قريش وغيرها فانما عذّر بمعنى بجّل والاعداء هم الانصار وطعن قلب النبي اي سلك وسط الطريق وقطع كطعن زنةً ومعنًى والامام الطريق الواسع وقرأَ جمع وجحد بخل والكافر

(١) وقد ورد في كتب اللغة كثيرٌ من اشتراك المعاني على الافعال التي تجيء بمعنى حدوث الامر الذي له نقيض من نفسهِ مثل الصعود والانحدار او الحضور والغياب فانهم يعبّرون عنها في بعض كلامهم بالفاظ تشترك بين المعنيين باعتبار ان الجبل لا ينزل منهُ الاَّ بعد صعودهِ ثم لا يعقب الصعود الاَّ انحدار وكما ان الرجل لا يحضر الاَّ بعد غيابهِ فانهُ لا يغيب الاَّ بعد الحضور . وهذه هي الافعال التي اسميها بافعال المشاركة وانها لكثيرة في كلام العَرَب

الحارث والجامع القدر العظيمة والمراد منها الشره الى غير ذلك.
فهذا الشان غير محمود في لسان العَرَب ولاسيما بعد ان توحّد بنزول القرآن وقد عجبتُ كل العَجَب كيف أُهمل اصلاحهُ لهذا الزمان وقد امتلأت صدور الرجال من العلم والادب والعرفان

الشعر في البداوة

العروض علمٌ وضعهُ الله في صدور العَرَب حتى ليس احدٌ منهم الأَّ وهو يقدر على قول الشعر طبعًا ركب فيهم قلَّ قولهُ او كثر[1].
كان اهل الجاهلية ينطقون بهِ عن بلاغةٍ لا يقصدون منها الاَّ المفاخرة بين الاقران بخلاف ما نجدهُ في شعرائنا لهذا الزمان فانهم يغصبون انفسهم على المديح[2] بما يستميحون الملوك عليهِ من الصلات.
وعندي انهُ كلَّما تباعدت اجيال الاعراب وامتزج بهم الاغراب وتجافوا عن سكنى البادية الى حيث لا يكون لهم مجالس لمناشدة الاشعار كدابهم[3] في سوق مجنّة وسوق عكاظ وسوق ذي المجاز فقدوا كثيرًا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم بهِ[4] على اتساع الحضارة فيهم الى ان يكلفوا طبيعتهم شيئًا لا يقدرون عليهِ فيقولون

(١) اغاني ٢٠ * ٥١ (٢) اغاني ٣ * ١٧٩ (٣) الاغاني والقزويني ٥٧ وابن خلدون وديوان الحماسة والموازنة وابن العميد وابو عبيدة (٤) المقدمة ٢١٤

البيت ويحككونهُ[1] اياماً

وكان الحامل للمتقدمين على الاجادة في العروض ان شاعرهم كان ينفرد بمذهبٍ واحدٍ من المذاهب المعروفة عندهم بين فخرٍ ونسيبٍ ومديحٍ وهجاءٍ من غير ان تكون لهُ محاسن فيما سواهُ . ثم ان كلام العَرَب[2] كان سائرًا لايامهم على الالسنة فلم يعانوا تكلفًا الى البلاغة[3] فيما قصدوا من هذه المذاهب التي انفردوا بها على انفرادهم من الاحوال في خصائص كانوا بها موصوفين كاسترسال امرءِ القيس في معاش الشباب بحيث أَتى من نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيرهِ موقعٌ مثلهُ من القلوب ومدخلٌ لطيفٌ وان هو الاَّ أَرق الغزَّالين حيث يقول

أَفاطم مهلاً بعد هذا التدلّلِ
وان كنتِ قد أَزمعتِ صرمي فاجملي
أَغرّكِ مني ان حبّكِ قاتلي
وانكِ مهما تأْمري القلبَ يفعلِ

وكجدّ عنترة بن شداد في الفروسيَّة بحيث أَتى في الحماسة[4] بما لم يسبق اليهِ أَحدٌ من القوَّالين كقولهِ

وسابقتني المنايا وهي طالبةٌ قبض النفوسِ اتاني قبلها السبقُ

(١) اغاني ٢ * ٣٥ (٢) اغاني ٥ * ٢٧٢ (٣) اغاني ٢ * ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ * ٧٧ (٤) الاغاني ٢ * ١٨٨

وكاسترسال حاتم الطائي في سعة العطاء[1] بحيث انهُ بنى قواعد الكرم على الحالين من اقبال الدنيا او إِدبارها فيقول[2]

ترى ان ما انفقتُ لم يكُ ضائري
وان يدي مما بخلتُ بهِ صفرُ

وكارتفاع السَّمَوْأَل بن عادياءَ في درجات المحاسن الشريفة بحيث انهُ اتى من الفخر في كلامهِ بما يسمو بهِ الى ارفع طبقات الشعر كقولهِ[3]

اذا المرءُ لم يدنس من اللؤْم عرضهُ
فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ
تعيّرنا انّا قليلٌ عديدنا
فقلتُ لها ان الكرامَ قليلُ

وكانقطاع أُميَّة بن ابي الصلت الى العبادة بحيث اتى في ذكر عامَّة الآخرة بما لم يشركهُ بهِ متقدّمٌ ولا متأخّرٌ[4] الى غير ذلك مما يتسع لهُ المجال فنقف منهُ على هذا الحد

وقد انتهت بلاغة الشعر الى المعلقات السبع وهي أَصدق شاهدٍ على فضل المتقدّمين بما قصدوا اليها من انسجام القول ونعت الشعائر التي تدلُّ على أَنفة النفس وعلوّ الهمّة على غير تكلفٍ لها

(١) ابن كتيبة والمستطرف ١ * ٣٠٤ (٢) اغاني ١٦ * ٩٦ (٣) ابن نباتة والاغاني ٦ * ٨٢ والوطواط ٧٦ والمستطرف ١ * ١٦٠ (٤) اغاني ٣ * ١٨٨

بما نعلم من انشادهم اياها ارتجالاً بين العشائر فان الحارث بن حلزة لما انشد عمر بن هندٍ معلقتهُ توكَّأ على قوسهِ وانشدها واقتطم كفهُ وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها[١] . فيظهر أن كان لهم في الشعر سرٌ ضاع عن المحدثين سرهُ لانقلابهِ عليهم من الطبيعة الى الصناعة[٢] لان العربان كانوا كلهم شعراء وكانت الحكمة سائرةً على السنتهم كما شهد النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم حتى اذا انشدوهُ قول طرفة من اصحاب المعلقات

ستبدي لكَ الايامُ ما كنتَ جاهلًا

ويأتيكَ بالاخبارِ مَنْ لم تزَوَّدِ

قال هذا من كلام النبوَّة[٣] . ثم ان النساء[٤] كنَّ يقلنَ الشعر ايضًا لايامهم حتى ان بعضهنَّ قد فضلنَ الرجال مثل ليلى والخنساء وكلتاهما شاعرة فصحاء فلقد وجدتُ في شعر ليلى كثيرًا من المعاني الحسان ومن كلامها[٥] فيما ابتدعتهُ من اقوال اهل السيف

مهفهفُ الكشح والسربال منخرقٌ عنهُ القميص لسير الليل محتقرُ
لا يأمن الناس ممساهُ ومصبحهُ في كلّ فجٍ وان لم يغزُ ينتظرُ

ووجدتُ في تأبين الخنساء لصخر والبكاء عليهِ ابياتًا[٦] يتخذها

---

(١) الاغاني وابو عبيدة (٢) الموازنة وكتاب الاغاني (٣) العقد الفريد ٣ * ١٢٢ (٤) المستطرف ١ * ٧٦ (٥) اغاني ٩ * ١٧١
(٦) الاغاني ٦ * ٨٢ والعقد ٢ * ٢٢ والانليدي ٣٥

رجال الادب مثالاً في رقّة الالفاظ التي لا تخرج الاّ من قلوب المتوجعين . وفي قولها[1]

وان صخرًا لتأتمّ الهداة بهِ   كانهُ علَمٌ في رأسهِ نارُ

وقولها

اذا القوم مدّوا بايديهم   الى المجد مدّ اليهِ يدا
فنال الذي فوق ايديهم   الى المجدِ ثم مضى مصعدا

ما يرفعها الى محاسن الشعر[2] ومساماة البلغاء من الرجال

وقد اجاد المتقدمون في براعة الاستهلال الى حيث يقف الحد وكانوا يذكرون ربوع الاحباب وتعفية الرياح رسومها وما يخالج قلوب العاشقين من الوجد والصبابة في وقوفهم بالعيس الى اطلال الديار الى ان يتخلّصوا منها الى ما يأخذون بهِ من مذاهبهم ولكن على انحطاطٍ يقعون بهِ اكثرهم بعد علوّهم في ابتداءاتهم الاّ الذين يتوسّطون في مطلعهم فيستمرّون على استوائهم او الذين يعلون علوًّا حسنًا ولا يزالون فيهِ على بلاغةٍ تسحر الالباب ولكنهم نفرٌ قليلٌ مثل امرىء القيس وزهير بن ابي سلمى والنابغة الذبياني وهم المقدَّمون على جميع الشعراء وموضعهم واحدٌ من البلاغة[3] الاّ انهُ غلب على ذي القروح التجمّل بالمعاني وبديع الوصف وعلى النابغة الاسترسال في البراعة وعلى زهير العناية بتقويم الالفاظ . وقد

(١) اغاني ٩ * ١٦٣   (٢) اغاني ١٤ * ١١٦   (٣) الاغاني والموازنة

سمعتُ الاصمعيَّ يقول وقد سُئل مَن اشعر العرَب انهم زهير اذا رغب والنابغة اذا طرب وامرء القيس اذا غضب وعنترة اذا ركب والاعشى اذا رهب[١] اه . ولئن كان في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يؤمن معهُ من الزَلَل عن محاسن الشعر والافراط في ظلم الشعراء حقوقهم فما انا براءٍ في ابيات العرَب ما يسمو الى كلام النابغة في ذكر مفاخرها من حبّ القتال وثباتها في الطعان والنزال بقولهِ[٢] في مديحهم

ولا عيبَ فيهم غير ان سيوفهم   بهنَّ فلولٌ من قراع الكتائبِ

ولا الى كلام زهير في معرض المديح وقد أَلقى عن المادحين فضول الكلام بقولهِ[٣]

وان يكُ من خيرٍ أَتوهُ فانما   توارثهُ آباءُ آبائهم قبلُ

ولا الى جمال الوصف الذي نظمهُ امرءُ القيس في معلقتهِ نظم اللآلىء في شذور الذهب فقد لا تحضر البلغاء انفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامهِ الذي ذهب مذهب المعجزات فان العرَب لم ينفكُّوا عن السجود لهُ وهو معلَّق في الكعبة[٤] الى ان ظهر الاسلام وفسدت فصاحتهُ بما نُزّل من كلام الله على النبيّ صلَّى الله عليهِ وسلَّم

---

(١) الاغاني وابو عُبَيدة   (٢) فقه اللغة ١٨٤ واغاني ٩ * ١٦٨   (٣) اغاني
(٤) الاغاني

واما الذين دون طبقتهم من الشعراء فانهم ينفردون بالخصائص التي لا يتعدَّونها الى التصرُّف بالمذاهب الواسعة كانفراد ابي داود بوصف الخيل (١) وانفراد علقمة بوصف الوحش وانفراد أَوس بن حَجَر بوصف الخمر (٢) الى غير ذلك . ولم يكن بينهم اقرب الى طبقة الثلاثة المتقدّمين من الاعشى ميمون بن جندل الاسديّ (٣) ولكنهُ كثيرًا ما كان يقع في الانحطاط (٤) او يأْتي بالالفاظ الغريبة التي تعجم على الاذهان وهذا يصحُّ ان يسمَّى لحنًا في شعرهِ وشعر غيرهِ من المتقدّمين وان كان بعض المتأَوّلين من الادباء يجدون لهُ مخرجًا للسلامة من العيب اذ يجوّزون للمتقدّمين ما ليس يجوّزونهُ للمتأَخرين

الشعر في الحضارة

ولقد وجدتُ في شعر الاسلاميين المتقدمين علوًّا كادوا ان يساموا فيهِ اهل الجاهلية ولذلك يصحُّ ان ينخرطوا في طبقاتهم وذلك مثل الأَحوص وذي الرمَّة (٥) وحسَّان (٦) بن ثابت وعمر بن ابي ربيعة (٧) والقطاميّ صريع الغواني (٨) وغيرهم فان لشعرهم من

(١) اغاني ١٥ * ٩٥ (٢) اغاني ١٥ * ٩٦ (٣) الاغاني ٩ * ١٤٠
(٤) الموازنة (٥) المستطرف ٢ * ٣٩ (٦) الاغاني ٤ * ٣ (٧) اغاني ٣ * ١٠١ (٨) اغاني ٢ * ٣٥

الديباجة والماء والرونق والحلاوة[1] ما لا نجدهُ الاَّ في شعر البلغاء من الجاهليين. وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين الى حيث نقف بلاغة الشعر كذكر الفخر والحماسة في كلام حسَّان اذ يقول

لنا الجفنات الغرّ يلمعنَ بالضحى   واسيافنا يقطرنَ من نجدةٍ دما

أَو ذكر الحكمة في كلام القطاميّ حتى انهُ لما انشد عبد الملك بن مروان قصيدتهُ اللاميَّة وانتهى منها الى قولهِ

قد يدرك المتأَني بعض حاجتهِ   وقد يكون مع المستعجل الزَّلَلُ

لم يتمالك من ان يقول لعمري هذا هو الشعر الصحيح. او ذكر عامَّة الشباب في كلام ذي الرمَّة وعمر بن ابي ربيعة[2] بحيث ان لهما في نعت محاسن النساء من الاوصاف البارعة مع عذوبة الالفاظ وجودة السبك ما ليس مثلهُ لاحدٍ من شعراء العرب[3] الى غير ذلك

ثم ان الشعر يقع في الحضارة بعد هؤُلاء المتقدمين ويفقد كثيرًا من البلاغة التي كانت على لسان الجاهليين لابراز معانيهم في افصح الكلام الاَّ انهُ لا ينحطُّ عنهُ في الاوصاف البارعة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسهُ فلقد نجد لبعض المحدثين من سعة التصرُّف بهِ سرعة خاطرهم الى النظم ما لولا ان تأَخرت ايامهم لحسبناهم من طبقات المتقدمين. على ان لغتهم ليست من الفصاحة[4] بالموضع الذي كان

(١) اليتيمة ٧ (٢) اغاني ٣ * ١٠١ (٣) المستطرف ٢ * ٢٩ (٤) اليتيمة والاغاني

للجاهليين والعذر لهم في ذلك ان شاعر البادية كان يلتمس الفصيح من الالفاظ حتى يسمو على كلام غيرهِ من الشعراء واللغات اذ ذاك كثيرة بين العربان واما اليوم فان اللسان الذي نُزّل فيهِ القرآن معروفٌ عند كل الناس ولا يضطرُّ الشاعر الى التماس الفاظٍ يفضل بها لسان غيرهِ لتوحد لغة قريش في كافة الامصار وانما وجب عليهِ ان يبتدع المعاني[1] التي لم يسبق اليها غيرهُ دون تكلفهِ الى تناول الغريب[2] من الكلام لان الالفاظ السوقية عندي لا تمنع ان تكون القصيدة جيدة[3]

ولقد قسمت الشعر في الاسلام الي طبقات ثلاثٍ أَقربها الى بلاغة البداوة أَبعدها عن حضارة الامصار. اولها عصر عبد الملك والشعر اذ ذاك في ثلاثة من تميم[4] وهم جرير والفرزدق وهو نبغة الشعر[5] والاخطل النصراني وهو المجيد في مدح الملوك[6] ووصف الخمر وكان المقدم عليهم جرير[7] بقولهِ في المديح وقد فضل الشعراء[8]

أَلستم خير من ركب المطايا وأَندى العالمين بطون راحٍ

وقولهِ في النسيب[9]

ان العيون التي في طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يحيينَ قتلانا

(١) المقدمة ٥٢٩ (٢) اغاني ٣ * ١٤٥ (٣) اغاني ٢ * ١٣٢ و ١٧٣
(٤) اغاني ١٩ * ٦ (٥) اغاني ٩ * ١٤٧ (٦) اغاني ٩ * ١٤٧ (٧) اغاني ١٠ * ٣ (٨) الاغاني والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ * ١٤٣ (٩) اغاني ١٤ * ١٧٧ والعقد ٣ * ٤٥١

يصرعنَ ذا اللبّ حتى لا حراك بهِ   وهنَّ إضعف خلق الله انسانا

وهذا من الكلام الذي تتناهى اليهِ رقَّة اهل الصبابة ولم نجد من بعد مثلهُ الاَّ في شعر جميل وكثيّر[1] وقد استرسلا في معاش الشباب وانقطعا الى النسيب[2] من مذاهب العروض . وقال جميل في موقف المتوجعين من العشاق[3]

وما زلتم يابثنَ حتى لو انني   من الشوق استبكي الحمام بكى ليا
وما أحدث النأي المفرّق بيننا   سلوًّا ولا طول الليالي تقاليا
على انني راضٍ بان احمل الهوى   واخلص منهُ لا عليَّ ولا ليا

واما الطبقة الثانية فانها عصر ابي جعفر وشعراؤُهُ مَن تقدم ذكرهم والطبقة الثالثة هي عصر الرشيد والبرامكة وشعراؤُهُ اكثر من ان يؤخذوا بالاحصاء ولكن لا ارى بينهم الاَّ ابا العتاهية وابا نواس وهما اشعر الناس[4] لهذا الزمان

اما ابو العتاهية فانهُ انقطع في شعرهِ الى ذكر عامة الآخرة[5] . لهُ أرجوزة حوت اربعة آلاف بيت واودعها من المعاني الجليلة ما ابرزهُ في احسن الصور وقد وجدت في أنشادهِ روائح الجنة في الشباب[6] قولاً يقبلهُ القلب ولا يفسّرهُ اللسان. والناس يذكرون

(١) اغاني ٤ * ٥٨   (٢) الموازنة ٤   (٣) الاغاني وتزيين الاسواق وابن خلكان ١ * ١٦١ والابشيهي ٢ * ٢٢٤   (٤) ابن خلكان ١ * ٩٢   (٥) ابن الاثير واغاني ١١ * ٣٢   (٦) اغاني ٣ * ١٤٢

انهُ خرج عن العروض بوزن ٍلم يذكرهُ الخليل بن احمد ولكنني لا اجد ذلك خطاً منهُ او تطاولاً على قواعد العلم لان الخليل لم يستوفِ الكلام في العلم الذي وضعهُ ولاسيَّما في بحر المديد فان من العروضيين من زاد فيهِ على ما ذَكَر (١) وقد كان ابو العتاهية من الحظوة عند الرشيد بحيث كان لا يفارقهُ في حضرٍ ولا في سفرٍ (٢) ثم آل امرهُ الى الزهد فلبس الصوف وعزف نفسهُ عن الدنيا (٣) وكان يقول (٤)

كانَّ كل نعيمٍ انت ذائقهُ   من لذَّة العيش يحكي لمعةَ الآلِ

فصار اذا استدعاهُ اليهِ ليصف لهُ ما هو بهِ من عزَّة الملك بادرهُ بالتذكير فيبكي الرشيد من مواعظهِ فيهمُّ الجلَّاس الى معاتبتهِ فيقول الرشيد لهم دعوهُ انهُ يرانا في عمًى فيكره ان يزيدنا منهُ (٥)

واما ابو نواس فان مذهبهُ من القول منافٍ لمذهب ابي العتاهية واكثر ما فيهِ الغزل والزهر والخمر تباعًا لما نجدهُ عليهِ من التماس الهزل (٦) والمزاح في حضرة الملوك انفسهم (٧) فهو يذكر ابليس والخمرة في شعرهِ كما يذكر أبو العتاهية الجنة والآخرة فيقول (٨)

عجبت من ابليس في كبرهِ   وخبث ما اضمر في نيَّتهْ

(١) المسعوديُّ ٣ * ٢٦٥   (٢) اغاني ٣ * ١٥٧   (٣) اغاني ١١ * ٢٣
(٤) اغاني ٣ * ١٦٣   (٥) الفخريُّ ٢٣٠ وابن الاثير ٦ * ٧٩ والطرطوشي ١٧ والكشكول   (٦) تزيين الاسواق ١ * ٧   (٧) اغاني والف ليلة وليلة وحلبة الكميت واعلام الناس   (٨) الف ليلة وليلة واعلام الناس ١١٩

ثم يقول في معرضٍ آخر (١)

وليلةٍ طال سهادي بها فجاءني ابليس عند الرقاد
وقال هل لك في قهوةٍ عتّقها العاصر من عهد عاد

ويقول في الخمر (٢) على سبيل الاستطياب

صفة الطلول بلاغة القدمِ فاجعل صفاتك لابنة الكرمِ

الى ان يقول (٣)

فعلت في البيت اذ مزجت مثل فعل الصباح في الظلمِ
فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السفر بالعلمِ

ويقول في المنادمة عليها (٤)

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

ويقول في وصفها مما لم يسبق اليهِ احدٌ (٥)

وحمراء قبل المزج صفراء دونهُ كأنَّ شعاع الشمس يلقاك دونها

ويقول (٦) في انشراح الصدور من شربها

اذا ما انت دون اللهاة من الفتى دعا همَّهُ من صدرهِ برحيلِ

ويقول في نعت صفائها مما ينتهي اليهِ جمال التصوُّر ورقة الكلام (٧)

رقَّ الزجاج ورافت الخمرُ وتشابها فتشاكل الامرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

(١) البديعي ١٢٠ (٢) الحصري ٣ * ٦٣ (٣) المسعودي ٣ * ٤٢٢
(٤) الوطواط ٤٥ (٥) المسعودي ٣ * ٤٢٢ (٦) اليتيمة ٩٦ (٧) وجدت
في ابن خلكان ان هذا القول ليس لابي نواس

ولهُ في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق[١] ما توسع فيهِ الى ادبٍ ليس للشعراء حظ بهِ مثلهُ وهذا مما يدلُّ على اقتدارهِ على الكلام وان كان مذهبهُ غير محمود عند اهل العبادة فما هو عندي الاَّ شاعر المسلمين حقيقةً واني أُفضل شعرهُ على شعر ابي العتاهية لان قصائدهُ كلها سليمة من العيب[٢] واما ابو العتاهية فانهُ وان تكن لهُ استخراجات لطيفة ومعانٍ ظريفة فقد يقول البيت النادر ثم يتبعهُ البيت السخيف البادر[٣]. وقد ذكر لي ورَّاق في درب القراطيس كنتُ آلف حانوتهُ ان مرَّ بهِ ابو العتاهية يوماً وعندهُ ديوان لأَبي نواس فوقع نظرهُ على هذا البيت

لن ترجع الانفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجرُ

فسأَلني لمن البيت فقلت لأَبي نواس فقال والله احبُّ ان يكون لي هذا البيت بنصف شعري[٤] اه. واظن انهُ لو وقف على قولهِ[٥]

ليس على الله بمستنكرٍ ان يجمع العالم في واحدِ

او قولهِ وهو أَمدح بيت للمحدثين

وكَّلت بالدهر عيناً غير غافلةٍ بجود كفّك تأسو كلما جرحا

لقال فيهما مثل ذلك. ولقد لقيتُ اسمعيل بن نوبخت في مجالس

---

(١) المسعودي ٢ * ٤٢٢ (٢) النبر واني وابن خلكان (٣) اغاني ٣ * ١٨٠ (٤) الطرطوشي ١٠ (٥) الاغاني واليتيمة ٢ ١٠٢

البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت الناس يقولون ان الاصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء فوالله ما رأيتُ أحق بهذا القول ان يقال فيهِ من أبي نواس لاني ما رأيت أوسع علمًا في كل شيء منهُ وليس في الشعراء من مبارٍ يعلق لهُ بغبار وكفى بتحقيق فضلهِ عليهم ان كلامهُ كلهُ موزون[1] مثل الشعر الذي رسخت في صدرهِ ملكتهُ وصار في نفسهِ طبيعةً ترفعهُ على جميع الشعراء

وقد لقيتُ في بغداد جماعةً من الشعراء مثل العمانيّ وأبي مصعب وابي الشيص وابي عبد الرحمن العطويّ وغيرهم واتصل بي اخبار جماعة ممن يتصرَّف بفنون الشعر ويبتدع المذاهب التي لم يسبق اليها الشعراء الى نظم القصائد التي ليس في ابياتها حرف يعجم كقولهم[2]

وحاولوا ردَّ امرٍ لا مردَّ لهُ والصرم داءٌ لاهل اللوعة الوصل

أو نظم الزهريات في كلامٍ لا ينحطُّ عن لغة الجاهليين في جود السبك وتقويم الألفاظ كقول بن أبي عُيينَة[3] الذي قدمت ذكرهُ في اوَّل الكتاب

فان جحدت فاذكر لها قصر معبدٍ بمنصف ما بين الأُبلّة والجبلِ
ومن حولنا الريحان غضّاً وفوقنا ظلالٌ من الكرم المعرَّش والنخلِ

ولكنهم قد كانوا في ايام ابي نواس وأشجع ومسلم بن الوليد فضاع فضلهم بين هؤلاء المجيدين[4] ولم يكن لهم ذكرٌ في مجالس الخلفاء

(١) ابن خلكان (٢) اغاني ٤* ١٠٧ (٣) اغاني ١٨*١٤ (٤) اغاني ١٥*١٠٨

الغناء وتحريرهُ واصلاحهُ

قد مضى اليك من الكلام عن الغناء في بعض كتبي السالفة ما يقضي بصحَّة ذوق العَرَب وحسن ما يصنعون من الاصوات وكان أَصل الغناء عندهم أَربعة نَفرٍ [1] ابن سريج وابن محرز وهما مكيَّان ومالك ومعبد وهما مدنيَّان . وكانت النساء ايضًا يشاركنَهم بهذا العلم فتقدَّمت عليهنَّ عزّة الميلاء بالغناء الموقَّع لانها كانت احسن الناس ضربًا بعودٍ [2] . وكان لها أستاذة يقال لها رائقة فتخرَّجت عليها ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنَّيا بالفارسيَّة فلقنت عزّة عنهما نغمًا والَّفت عليها الحانًا كثيرةً ليّنة [3] ثم ظهر طويس المغنّي فصنع الرمل والهَزَج [4] واول ما غنَّى بهِ على لحنٍ صنعهُ قولهُ [5]

قد براني الشوقُ حتى كدتُ من وجدي اذوبُ

ثم غنَّى ابن مسجح الغناء العربي المنقول من الفارسي [6] واشهرهُ بين الناس فكان ابن سريج يضرب بالعود على هذا الغناء المنقول الى ان ظهر معبد في المدينة المنورة وصنع من الاصوات البديعة ما فضل فيهِ غيرهُ من اهل زمانهِ وفيهِ يقول شاعر تلك الايام [7]

أَجاد طويسٌ والسروجيٌّ بعدهُ وما قصبات السبقِ الاَّ لمعبدِ

---

(١) اغاني ١ * ٩٨ (٢) اغاني ١٦ * ١٢ (٣) اغاني ٥ * ٥٧
(٤) اغاني ٤ * ٣٨ (٥) المستطرف ٢ * ١٨٨ (٦) اغاني ٣ * ٨٦
وابن نباتة (٧) ابن خلكان ١ * ٥٧١

وقد كان الغناء من قبل نقلِهِ عن الفارسيَّة مأخوذاً عندهم عن الآذان[١] فلما نقلوهُ عن قومنا اجادوا بتأليف الانغام الى ان فضلوهم في حسن الاصوات . وكان عهد العَرَب بالغناء في ايام الامويين ثم في خلافة ابي جعفر من بعدهم وكان هو المقرّب لهم والمتقدّم اليهم بتعريب كتاب اللحون الثمانية لبطليموس[٢] من علماء يونان حتى صيَّر الغناء في الناس صناعةً لكسب المعاش

وكان الحامل للعَرَب على إِجادة الغناء امرين الاول انفراد كل واحدٍ منهم بلحنٍ من الالحان ينقطع الى التفنُّن فيهِ حتى يفوق الحان غيرهِ من المغنين كانفراد معبد بالثقيل[٣] وابن سريج بالرَمَل وحكم الوادي بالهَزَج واحمد النصيبيّ بالانصاب[٤] الاَّ الخفيف الرمل فانهم يتشاركون فيهِ جميعاً بحيث لم اجد مغنياً اذا تغنَّى انفسهِ يكاد يغنّي الاّ خفيف رمل[٥] . والثاني ما كانوا يتناولونهُ من الخلفاء جوائز ومن الامراء واهل النعمة اجرةً واسعةً[٦] على غنائهم ممن يستدعيهم الى فَرَحٍ او يجمعهم لمناظرات الغناء ثم يخرج بدر الدنانير لإِجازة المحسنين[٧] منهم فسئل حنين المغني وقد نُدِب الى مأدبةٍ لا يعهد السماحة في صاحبها لمَ لا ترضى بالاجرة اليسيرة قال انما هي انفاسي اقسّمها بين الناس افتلومونني ان أُغلي بها الثمن

(١) اغاني ٥ * ٨٩ (٢) ابن نباتة (٣) اغاني ٦ * ٦٦ (٤) اغاني ٥ * ١٦١ (٥) اغاني ٧ * ٣٦ (٦) اغاني ٥ (٧) اغاني ١٤ * ٥٥

ثم ظهر عصر البرامكة وهم محبُّون للعلم ومقرّبون اهل الادب اليهم فكان ممَّن قرَّبوهُ من المغنين ابرهيم الموصلي وابنهُ اسحق وهما بمكانٍ جليل من الأدب الاَّ انهُ غلب عليهما الغناء بما وضعاهُ من الالحان فاشتهرا بالكناية بهِ وقد وضع ابرهيم اللحن الماخوري الذي لم يشركهُ فيهِ احدٌ وكان يظنُّ اصعوبة المأخذ في ابتداعهِ ان ابليس[1] القاهُ عليهِ في المنام. فانما طال ما تهوَّس بالغناء وامعن من النظر في ابتداع الالحان على اظرف الانغام موقعًا من القلوب حتى توهّم ان الارواح كانت تلقي عليهِ هذه الاصوات. وقد قالت الشعراء في مديحهِ على موضعهِ الجليل من الغناء[2]

ما لابرهيم في العلم بهذا الشأن ثاني
انما عمر ابي اسحق زينٌ للزمانِ
جنَّة الدنيا ابو اسحق في كل مكانِ
منهُ يجنى ثمر اللهوِ وريحانُ الجنانِ

وكذلك كانت اجازة ابنهِ اسحق فانهُ وضع الحانًا كثيرة في غناء العَرَب وجاء بلحن التخنيث[3] الذي لم يسبق اليهِ غيرهُ ولا قدر على حسن التغنّي بهِ مثلهُ احدٌ قط. وقد صنع الحانًا لا يقدر شبعان ممتلئ ولا سقَّاء يحمل قربةً على الترنم بها. وصنع غيرها مما لا يقدر

(١) الاغاني ٥ * ٣٦ وحلبة الكميت ١٥٨ وانليدي ١٠٠ والف ليلة وليلة
(٢) اغاني ٥ * ٩ (٣) اغاني ٣ * ٧٩

المتّكىءُ ان يترنم بهِ الاّ قعد مستوفزًا ولا القاعد حتى يقوم[1] .لانهُ سمى من اقتدارهِ على الغناء الى ان يجعل في نفس السامع تحركًا لما يغنّى بمعناهُ من الاشعار فيحملها على الكبر في معرض المديح وعلى الحماسة في معرض الفخر وعلى الرقّة في استرسال الهوى وعلى البكاء في موقف التذكير وذلك فضلاً عن اجادتهِ في ضرب العود . فلقد كنتُ يومًا بدار الرشيد وفي مجلسهِ عشر جوارٍ يضربنَ على العيدان فوقع خَلَلٌ في بعض الاوتار فعرفهُ من بين اربعين وترًا[2] تتحرّك بين اناملهنَّ فهذا اقتدارٌ عظيم على هذه الصناعة لم يبلغهُ منها قوم يونان مع طول مدّتهم[3] في الممارسة لها والمران عليها

ولقد كتب اسحق رسالةً مطوّلةً في الغناء صحّح فيها اجناسهُ وانغامهُ وطرائقهُ وميّزهُ تمييزًا لم يقدر عليهِ سواه[4] .وقد خطّأَ يحيى المكيّ فيما دوّن من الغناء[5] ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الاصوات الى مَنْ ابتدعها من المغنين[6] . الاّ انهُ كان يرى ان ليونس فضلاً فيما سبق الى تدوينهِ من الاغانيّ حتى ليس مرجع نسب الاصوات الاّ اليهِ اعظم من فضل يحيى المكيّ فيما حاول تمييزهُ من الغناء وتصحيح اجناسهِ على جهلٍ ساقهُ الى اضاعة الصناعة القديمة .

---

(١) اغاني ١ * ١٢٠ (٢) اغاني ٥ * ٤١ و٥٢ و ٦٠ (٣) اغاني كتاب ٥ (٤) اغاني ٦ * ١٨ (٥) اغاني ٥ * ٥٢ و٦ * ١٧
(٦) الاغاني كتاب ٥

لانَّ هذا هو المبدأُ الذي يتعصَّب لهُ اسحق[1] ويناظر فيهِ مَن يقول بضدّهِ من اولاد الخلفاء كما مرَّ في موضعهِ من الكتاب

ومن العجيب من حذاقة اسحق انهُ اقام طرائق الغناء من نفسهِ لا نقلاً عن كتب اليونان الاَّ ما اقتبسهُ من تقسيمات[2] اقليدس وما هو الاَّ النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمهِ فقد ميَّز اجناس الغناء كلهِ[3] وجعل الثقيل الاول اصنافًا فبدأَ فيهِ باطلاق الوَتَر في مجرى البنصر ثم اتبعهُ بما كان منهُ بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبَّابة في مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منهُ بالوسطى على هذه المرتبة ثم جعل الثقيل الاول صنفين الاول ما ذكرناهُ والثاني القدر الاوسط من الثقيل الاول واجراهُ المجرى الذي تقدَّم من تمييز الاصابع والمجاري وأَلحق بذلك جميع الطرائق والاجناس واجراها على هذا الترتيب . وميَّزها على اكثر من عشرة آلاف صوتٍ للمغنين لم يغيّر فيها لحنًا واحدًا وذلك بخلاف الذين دوَّنوا الغناء قبلهُ ومن بعدُ فانهم اضاعوا صناعة الغناء القديم الاَّ أَحمد بن يحيى المكيّ المقدَّم ذكرهُ في كتاب لهُ في الاغاني ونسبها يقال لهُ المجرّد[4] فهو اصلٌ يرجع اليهِ ويعوَّل عليهِ وما اعرف كتابًا بعد كتاب اسحق يقارب كتابهُ ولا يقاس بهِ . فكأَنَّهُ قام على مخالفة

(١) اغاني ٥ * ١٠٢ (٢) اغاني ١٥ * ٨١ (٣) اغاني ٥ * ٥٣

(٤) اغاني ١٥ * ٦٥

ابيهِ ومَن ذهب مذهبهُ في تغيير اصوات المتقدّمين ورجع الى الغناء القديم الذي سبق الى التعصُّب لهُ مغنٍّ يقال لهُ سياط وقد وفَدَ على المهدي وانا مقيمٌ بالرسالة في خراسان فلم يوفقني الحظ الى الاجتماع بهِ ولكن حسبي من الثناء على موضعهِ الجليل من هذه الصناعة (١) ان ابرهيم واسحق هما تلميذاهُ (٢) واليهما المنتهى في إجادة الغناء

لمعةٌ في علوم الفلسفة

ان العلوم الفلسفيَّة التي استخرجها العَرَب من كتب الاعاجم كانت مجهولةً بينهم من قبل الاَّ عند نَفَرٍ قليل من اهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقَّى (٣) عنهم حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم (٤) واما اليوم فانا نجدها في سكان الامصار من العراق ومصر والشام والحجاز الاَّ عربان البادية لانهم لا يوجّهون الى العلم عنايتهم وانما هُمُّهم (٥) ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الإلماع اليهِ في صدر الكتاب

وهذه العلوم الفلسفيَّة تقسم الى اربعة انواع (٦) رياضيَّة ومنطقيَّة وطبيعيَّة والهيَّة فاما العلوم الرياضيَّة وهي النجامة والعَدَد والهندسة والغناء فانهم قد نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للمتقدّمين من

(١) اغاني ٦ * ٦٥ (٢) اغاني ٦ * ٩ (٣) المقدمة ٤١٩
(٤) المقري (٥) المقدمة (٦) حجي خلفه ٤ * ٤٦٢

الفرس واليونان وقد مضى من الكلام عن النجامة والغناء ما يقضي بفضل الموصليين والخراسانيين فيما وقفوا عليهِ من علم الافلاك وفضل العَرَب فيما ابتدعوهُ من الاصوات المحكمة والانغام الحسان . ولم يكن موضعهم من العلوم العَدَديَّة وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهي الصناعة في استخراج العَدَد المجهول من قبل المفروض المعلوم[1] الاَّ موضعهم من النجامة والغناء في تحريرها واصلاحها والاعتبار في الاقسام التي تلتحق بها من فنّ المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الاوزانِ وغير ذلك . وهذه هي العلوم التي يمتازون بها عن سواهم من الامم بما وضعوهُ لها من القواعد التي لا غاية بعدها في الإصلاح

واما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيهِ الى كتاب بطليموس الذي اخرج الهندسة من القوَّة الى الفعل[2] وكتب اقليدس المهندس من حكماء يونان وقد عُرّبت رسائلها في خلافة ابي جعفر ثم أُعيد تعريبها في هذه الايام بقلَم مهندس يقال لهُ ابو كامل[3] في جلدٍ كبير سمَّاهُ كتاب الاركان[4] وفيهِ خمس عشرة مقالة لاقليدس يبحث في الاربعة الأُول عن السطوح وفي الخامسة عن الاقدار المتناسبة وفي السادسة عن نسب السطوح بعضها الى بعض وفي

---

(١) المقدمة ٤٢٢ (٢) ابن نباتة (٣) اغاني ٦ * ١٩١ (٤) المقدمة ٤١٩

السابعة الى التاسعة عن العَدَد وفي العاشرة عن المنطقات والقوى على المنطقات ومعناها الجذور وفي المقالات الخمس الباقية مطلبٌ واسعٌ في المجسَّمات [1] . وقد الحق العَرَبُ بالهندسة علم الهندسة المخصوص بالاشكال الكرويَّة نقلاً عن كتابين لميلاوش وثاودوسيوس وفيهما بحثٌ مسهبٌ في الكرات السماويَّة وما يعرض فيها من القطوع والدوائر باسباب الحركات [2] . والحقوا بها ايضاً علم المخروطات نقلاً عن كتاب ابولونيوس [3] من علماء يونان فعرفوا ما يقع من الاشكال والقطوع في الاجسام المخروطة وافادوا التجارة والبناء [4] بما وقفوا عليهِ من كيفيَّة رفع الاثقال [5] وجرّها وغير ذلك

واما العلوم المنطقيَّة ومنها الشعر والخطابة والجَدَل والبرهان والمغالطة وغير ذلك [6] فان إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم في العلوم الرياضيَّة الاَّ علم العروض فانهم قد بلغوا فيهِ الغاية التي لا وراءها مطمحٌ الاَّ لكلام النبوَّة . وان كان شعر الجاهليَّة جافياً لمكان اهلها من الخشونة وقيامهم في القفر بين الإبل والوحش والمنازل الخالية فان شعر المتمصّرين ليس بخالٍ من رقَّة الالفاظ وجمال الصُوَر وهم قائمون بين فرش الحرير واطباق الرياحين

---

(١) المقدمة ٤٢٤ (٢) المقدمة - (٣) المقدمة ٣٥٩ (٤) المقدمة ٣٥٨ (٥) حجي خلفه ٤ * ٤٦١ (٦) حجي خلفه ٤ * ٤٦٤

وآلات الطَرَب والقيان والندمان [1] . فلقد نسمع عن اهل الاندلس انهم يقولون شعرًا ارقَّ من النسيم [2] وذلك لغزارة المياه في آراضهم ونماء الرياحين في جنانهم وظهور ريح الصَبا عندهم حتى كان المرتحل منهم الى المشرق اذا استقبل نسيم الغرب ذابت نفسهُ من الشوق الى تلك الديار فقال

واذا ما هبت الريح صبًا صحت واشوقي الى الاندلسِ [3]

مع ان ديار العربان قفرة واقليمهم محرقٌ للابدان ومجفٌ للعقول وذلك ممَّا لا يولّد فيهم من رقَّة القول ما نجدهُ في شعر الاندلسيّين

اما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها الى كتبٍ في المنطقيَّات لارسطو الحكيم عُرّبت في خلافة ابي جعفر [4] بمناظرة عبد المسيح الحمّصي وهو من اشهر النقلة بعد سلاَّم الابرش [5] وهي تشتمل على رسائل ثمان أَربع منها في صورة القياس وأَربع في مادَّتهِ [6] . واما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دوَّنوا فيها اسفارًا كثيرة ولكن على غير تمحيص يرجع بهم الى محاسن العلم. الاَّ ابن العلاَّف [7] خطيب هذا الزمان في رسالةٍ لهُ بالخطابة بدأَ فيها بذكر اخبارِ سحبان وقسّ بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرَب الى ان أَتى على بيان القواعد التي تلزم آداب الخطابة في جميع اقسامها وانواعها

---

(١) الاغاني (٢) المقري وابن سعيد (٣) المقري (٤) المسعودي ٢ * ٤٠٠
(٥) حجي خلفه ٢ * ٩٧ (٦) المقدمة (٧) ابن خلكان ١ * ٩٢

واما العلوم الطبيعيَّة وهي[1] علم المبادي وعلم السماء وما فيهِ وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيهِ علم الطبّ فقد كان مرجعهم فيها الى كتب الاعاجم الاَّ ما وقفوا عليهِ بانفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النَظر في المادَّة التي يتمُّ بها كون الذَهَب والفضَّة با لصناعة. فتوصَّلوا بهِ الى معرفة امزجة المكوَّنات وحقيقة المعادن والمنفصلات الحيوانية من العظام والريش والبيض والعذرات وغير ذلك[2]. وكان الناس يصبون الى هذه الصناعة طمعاً بما في منوعاتها وأَمزجتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل حتى ان الملوك انفسهم كانوا يتمهَّرون في استخراج المركَّبات ومزجها على غير ترفُّعٍ عنها فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموي قد شغل نفسهُ بطلب الكيمياء ودوَّن فيها الرسائل المسهبة حتى افنى عليها عمرهُ[3]. وكذلك جعفر الصادق رضي الله عنهُ احد الايمَّة الاثني عشر ومن سادات اهل البيت قد ترك في مجاميعهِ اكثر من خمسمئة[4] رسالة لهُ في علم الكيمياء والزجر. الاَّ ان هذه الرسائل لم تكن حاويةً من العلم الاَّ ما وقف عليهِ اصحابها من طريق التجربة والمران فبقيت الكيمياء مفرَّقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيَّان الطرطوسي وهو تلميذ جعفر الصادق رضي الله عنهُ

(١) حجي خلفه ٤ * ٤٦٢ (٢) المقدمة (٣) اغاني ١٦ * ٨٨
(٤) ابن خلكان ١ * ١٤٦

فكتب سفراً جليلاً في علل المعادن [١] ودوَّن الكيمياء في سبعين رسالة ربطها باصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدّمين ما لم يؤيِّدهُ التحقيق في مجرباتهِ . وقد قسم هذه الصناعة الى قسمين منها القوَّة النفسيَّة وهي السيمياء ومنها القوَّة العلميَّة وهي الكيمياء وادخل العلوم السحريَّة مع السيمياء وذلك لان إحالة الاجسام النوعيَّة من صورةٍ الى أُخرى انما يكون بالقوَّة النفسيَّة لا بالصناعة العلميَّة وقد وَضَع القواعد على منهاجٍ لم يشركهُ فيهِ احد ولا قدر على مثلها حكماء اليونان أَنفسهم ولذلك نُسب اليهِ علم الكيمياء وصار يُسمَّى بعلم جابر [٢] . واما الذين اشتغلوا في الكيمياء غيرهُ فقد قصَّروا دون بلوغ الغاية التي بلغها منها وربما اكبَّ عليها جماعةٌ بما طمعوا اليهِ من منال الذَهَب ولذلك لم يقيّدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة وانما جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طيماوس وغيرهِ وزعموا ان لهم طريقةً لاستخدام الجنّ [٣] في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوهُ ولا فائدة مما نوَّعوهُ ووضعوهُ

واما العلوم الالهيَّة وهي السياسات والحرب والفلاحة وعلم الاخلاق وسياسة الاخلاق وغير ذلك [٤] فلم يكن للعرَب نابغة فيما نقلوهُ عن كتب اليونان وانما ينفرد حسن نظرهم في علم الكلام وهو

---

(١) حجي خلفه ٤ * ٢٤٦ (٢) المقدمة ٤٦٣ (٣) حجي خلفه ٢ * ٥٨٤

(٤) حجي خلفه كتاب ٤

فنّ العقائد الذي وضعوهُ تحفُّظاً[١] من العلوم الحكميَّة اذ كانت تخالف الشرع الشريف[٢] فتوسّعوا فيهِ الى أَدب كثير الفروع . وقد رأيتُ لهم كتباً في السياسة[٣] المدنيَّة يذكرون بها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة[٤] ليحملوا العامَّة على منهاجٍ يكون فيهِ حسن النوع وبقاؤُهُ فذلك احسن ما لهم من التآليف وامَّا فيما سواها من السياسات فقد كانت بضاعتهم منها نزرةً كما سبقت الاشارة اليهِ قُبَيل هذا

أَدبُ السِّيَرِ والحكايات

اما تسطير الحكاية والقصص فانهُ فنٌّ بل علمٌ بل أدبٌ هوت اليهِ أَفئدة العرَب . واول من سبق الى تدوينهِ عبدالله بن المقفّع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة[٥] والذي كان قائمًا بديوان الانشاء في خلافة أَبي جعفر[٦] لهُ كلام على الملوك يشهد بانهُ كان عارفًا بالسياسة[٧] وآيات في البلاغة تشير الى ان الحكمة قد نطقت من نواحيهِ الاَّ ان اهل زمانهِ قد توافقوا وهم دونهُ في العلم على ان يقولوا

(١) ابن خلكان ١ * ٦٨٧ (٢) حجي خلفه ٢ * ١٠٠ (٣) المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٢ * ١١٣ و ١١٤ (٤) حجي خلفه ٢ * ٨٤ (٥) المستطرف ١ * ١٥٩ والمقدمة وابن خلكان (٦) المحاضرة ٢ * ١٢٣ (٧) الفخري ٢١

ان كلامهُ كان اكثر من علمهِ [1] لانهم ارادوا ان لا يرفعوا عقلهُ الى مساماة البلغاء الذين أُوتوا الحكمة وفصل الخطاب. وقد كان تدوينهُ لهُ في تعريب [2] كتابٍ هنديّ يقال لهُ كليلة ودمنة [3] وهو يتضمَّن حكايات وضعت عن لسان البهائم وأُشير بها الى سلائقها من الحلم والخبث والقوَّة والجُبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق والحلم والمكر الى آخر السلائق لتثقيف العقول وترويض الاخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة لانهُ يستخرج من الاقوال الهزليَّة ضروبًا من الحكمة البليغة. وهو يشتمل على غرضين سياسيّ وأَدبي فاما السياسي فانهُ داعٍ الى العدل وزاجرٌ عن البغي وفيهِ بيان سلوك الملوك في آدابهم وتدبيرهم لأُمور ممالكهم وما ينبغي عليهم من العدول عن اللهو والغفول الى التيقظ والسهر واما الادبي ففي بيان المعايش في ظروفها وأَلوانها وسائر احوالها والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغي عليهم من سلوك الامور بعين العقل والبصيرة. ولذلك يُعدُّ من كتب الحكمة ونرى الفضلاء من الملوك قد اقبلوا عليهِ وطمحوا ببصرهم اليهِ حتى ان كسرى انوشروان أَنفذ طبيبهُ برزويَه الى بلاد الهند لانتساخهِ لهُ فترجمهُ الى الفارسية ولم يزل الملوك يعظمونهُ بعدهُ الى هذا اليوم

وقد وضع ابن المقفَّع في اول ترجمتهِ فصلاً سمَّاهُ باب عرض

(١) ابن خلكان واغاني ١٨ * ٧٦ (٢) المسعودي ١ * ٣٨ (٣) السيوطي

الكتاب [1] وأودعهُ من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع بهِ سائر ابواب الكتاب وذكر ان اغراض واضعهِ بيدبا الفيلسوف تنقسم الى أربعة احدها ما قصد اليهِ من وضعهِ على ألسنة البهائم ليسارع اهل الهزل الى قراءتهِ والثاني اظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والالوان ليكون أُنسًا لقلوب الملوك والثالث ان يشتدّ الحرص عليهِ المنزهة في صورهِ فيتخذهُ الملوك والسوقة ويكثر بذلك انتساخهُ ولا يبطل والغرَض الرابع وهو الأقصى مخصوصٌ بالفيلسوف خاصّةً

ولقد قرأتُ هذه الترجمة اكثر من مرّة بل اقول اكثر من مئَة مرّة وانا شغفٌ بها لمكانها من البلاغة [2] في أقرب الكلام الى الافهام وعهدي بجميع الكتب الاعجمية اذا عُرّبت عرّيت الّا هذا الكتاب فاني رأيتهُ في العربية أفصح منهُ في الفارسية . وقد كان صبية البرامكة يحاولون حفظهُ على اذهانهم ففطن لذلك ابان بن عبد الحميد الكاتب ونظمهُ لهم بالشعر حتى يسهل استظهارهُ عليهم ويقول في مطلع الكتاب [3]

هذا كتاب أدبٍ ومحنه وهو الذي يُدعى كليله دمنه
فيهِ احتيالات وفيهِ رشدُ وهو كتابٌ وضعتهُ الهندُ

الى آخر الابيات فاعطاهُ يحيى عشرة آلاف دينار واعطاهُ الفضل

(١) كليلة ودمنة (٢) المقدمة ٥٢٧ (٣) غاني ٢٠ ✲ ٧٣

خمسة آلاف جائزة على هذا الاستخراج لانهُ كان بموضع جليل من البلاغة التي توارثها عن ابيهِ (فانما كان عبد الحميد من فحول الكتَّاب وفخرًا للمسلمين فيما اتاهُ الله من البلاغة[1] التي جمعت سحر البيان واخذت بمجامع الجنان يقال انهُ لما ظهرت دعوة اهل البيت وكان عبد الحميد كاتبًا في دولة الامويين قال لمروان سأُصدر عنك كتابًا الى أبي مسلم فان قرأَهُ حصل عندنا وجهٌ من الآمال وان لم يقرأْهُ ذهبت الدولة منكم . فلما وصل الكتاب الى ابي مسلم وكان عالمًا بمكان عبد الحميد من البلاغة قال ابقوا الكتاب على طيّهِ فانما فيهِ سحرٌ غالبٌ) . على اني لو سُئلْتُ التفضيل بين هذين الاستخراجين لاقول ان ترجمة ابن المقفع حقيقة بان تكتب بماء الذهَب وتتحف بها خزائن الملوك

ولما رأَى الادباء إقبال الناس على هذا الكتاب تسارعوا الى تعريب غيرهِ من كتب السِيَّر والخرافة فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس[2] وفيهِ اخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الامثال التي توسّع العقول ترويضًا وترجموا عن الفارسية كتاب هزار افسان وسمَّوهُ الف ليلة وليلة ومعنى هزار افسان الف خرافة وكان السبب في وضعهِ كما هو معروف ان ملكًا من ملوك الفرس كان اذا تزوَّج امرأةً وبات معها ليلةً قتلها من غد اليوم غيرةً

(١) المسعودي ٢ * ١٦٢ (٢) المسعدي ١ * ٢٩٦

عليها من الرجال . فتزوَّج بجاريةٍ من بنات الملوك ممَّن لها عقلٌ ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد[١] . فلمَّا اتصلت بهِ ابتدأت تخرّفهُ وتوصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ومسألتها في الليلة التالية عن تمام الحديث الى ان أتى عليها الف ليلة وليلة وهو مع ذلك يباشرها الى ان رزقها الله منهُ ولدًا طرحتهُ اليهِ وأَوقفتهُ على حيلتها عليهِ وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد او يقال دينارزاد فكانت موافقةً لها على ذلك[٢] . وفي هذا الكتاب دون المائتي سَمَر[٣] لان السمور كان يحدّث بها في عدّة ليالٍ[٤] وهي من اظرف الحكايات التي وضعها الفرس في غالب الدهر

ولما راج سوق هذا الكتاب تداولهُ النسَّاخ والكتَّاب واضافوا اليهِ حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما نعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات ولاسيَّما ما يتضمَّن اخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحور وتزويجهم بناتهم من ملوك الانس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك الى ان صار جملة ما في الكتاب حكايات عربيةً لا يمازجها من كلام الفرس الاَّ القليل . وهي وان كانت بعيدةً عن الصدق ففضل العرب في اقتصاصها

(١) المسعودي ١ * ٢٩٦ (٢) الف ليلة وليلة (٣) وهي اليوم اكثر من ذلك (٤) الفهرست

انهم يتملكون فؤاد السامع برقَّة مأخذهم في تجميلها وتزويقها كالذي زعموا ان (١) صيادًا ألقى شبكتهُ في البحر نهارهُ ولم يتناول سمكةً فلمَّا أقبل لينصرف وقد اعياهُ الملال وضاقت بهِ الحال جرَّ الشبكة فاذا هي عليهِ ثقيلة فطمع ان تكون مشتملة على حوتٍ يستعيض بثمنهِ عن نَصَبِهِ في ذلك اليوم فلما جذبها الى الشاطئ وجد فيها قمقمًا من نحاس ففضَّ ختامهُ فصعد منهُ دخانٌ خيَّم على السماء فنظر في الدخان فاذا بهِ يجتمع ويتكوَّن الى ان وَضُح منهُ جان من صفتهِ كذا وكذا من الرواية. فلما تدانيا جرى بينهما حديثٌ يقبض النفس هيبةً وفَرَقًا بحيث لا ينتبهُ السامع الى ان هناك خرافة فاذا انتهت بهِ الحكاية الى ما أصاب الصياد من المال والجوهر بعد ما حلَّ بهِ من الهول والاعياء انبسط منهُ الخاطر المنقبض والتمس مثلاً لهذا المسكين فوجدهُ كثيرًا في الناس فرجع الى الحكاية فاذا فيهـــا سرٌ يرومهُ الكاتب من وراء الفكاهة

وإجماع الرأي على ان ليس في حكايات الناس وقصصهم واحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات فان فيها من الوصف البارع والتمثيل الساطع ما ينطق بفضل العرَب فيما تطرقوا اليهِ من وصف معايش الناس واخلاقهم وما يتقلَّبون عليهِ من الاحوال التي توسَّعوا بوصفها الى أدبٍ جزيل الفائدة جميل العائدة. فاما

(١) الف ليلة وليلة ١ * ١١

الحكايات التي ذكروا وقوعها في الاسلام فليس اقرب منها الى الماجريَّات التي تحدث في بغداد اكثر الايام اللهمَّ الاَّ ما أَرادوا ان يمزجوا بهِ اخبار الخلفاء لنكتةٍ يتشوَّقون الى الوقوف عليها من اتفاقات الملوك مثل حكاية الخليفة الثاني (١) وحكاية الخليفة والصياد (٢) الى حكايات كثيرة يظرّفون بها اخبار الرشيد وجعفر الاَّ فيما يذكرون عن تطوافهما ومسرور ليلاً في الاسواق متنكّرين (٣) عن ان يعرفهم أَحدٌ فان ذلك ليس بالموضوع وقد ذكرتُ مثل هذا (٤) في بعض فصول الكتاب ولكني جرَّدتهُ عن المبالغة التي يحمّل الرواة بها أَحاديثهم كوقوف الرشيد في معرض الخَطَر (٥) أَو وقوعهِ هو وجعفر تحت سيف الرجل الذي كاد ان يقتلهما لولا انهما تداركا امرهُ بحيلةٍ وجدا بها السلامة والنجاة

وأما الحكايات التي زعموا انها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والاوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وانما أَقبل خلقٌ من العوام على تصديقها لانقطاع اخبار الأُمم عنهم بحيث كان يتعذَّر عليهم معرفة غثّها من سمينها ولان ناقل الرواية كان يحدّثهم بان كذا وكذا من الامر الغريب جرى في كذا من البلدان

(١) الف ليلة وليلة والانليدي ١٢٦ (٢) الف ليلة وليلة (٣) الف ليلة ١ * ٥١ و ١ * ٢٨ والانليدي ١٢٦ (٤) اغاني ٦ * ١٢٧ (٥) الف ليلة وليلة ١ * ٢١

المتراخية الشقّة المتفاوتة السبيل . فلو حدّثهم ان في الشام مدينةً بُنيت من النحاس [١] أو في العراق بلدًا صار غديرًا ثم انقلب ماؤُهُ الى حجارة واسماكهُ الى أُناس [٢] لما صدقوا كلامهُ لانهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع وانما نقل اليهم ان ذلك كلَّهُ في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فاوسعوا مجالاً في صدورهم لتصديق كلامهِ بما كانوا يتشوَّقون الى الوقوف عليهِ من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البدواة والشقاء

ومن أظرف ما وَرَد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أَعربوا بهِ عن معاني النساء بين كاعبٍ حسناء وغانيةٍ هيفاء وشاعرة فصحاء وعجوز ذات دهاء . وما توسّعوا في كلامهم عن العشّاق ووصف هنائهم في الطلاق وتوجعهم ايام الفراق الى وضع الحكايات التي ترتاح اليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد ان يتمتَّع بهِ الانس وانما هو صورة تتمثل في الضمير على غير حقيقة لها الاَّ المجاز كالذي قيل عن فتىً من اولاد الملوك انهُ وقع الى جزيرةٍ كل مَن فيها نساءٌ وتجارها نساءٌ وجندها نساءٌ وكلهنَّ آية من آيات الحسن والجمال وانهُ قضى بينهنَّ ايامًا من النعيم اقلّ ما اصاب فيها من اللذة انهُ كان اذا طرح الشبكة في البحر على سبيل النزهة خرجت لهُ من الاصداف صبيةٌ من بنات الجان كانها حوريّة من حور

(١) المقدمة ١٢ والمسعودي (٢) الف ليلة وليلة

الجنان ... الى غير ذلك من الوصف الذي يحرّك القلب ويملك الجنان

وقد حلا لي من حكاياتهم ايضاً قصَّة السندباد البحري[1] وهي تشتمل على الحوادث التي وقعت لهُ في سفراتٍ سبعٍ أتى عليها جميعاً في طلب المال. وفي كل سفرة عجيبةٌ بل عجائب لم يسمع احدٌ بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مشقةً جزيلة لاستنباط الحيلة فيها على وجوهٍ تدفع الناس الى ركوب الاخطار لنوال العُلَى والفخار بما تمتلك بهِ أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البلدان التي وقع اليها السندباد ٠ وعلى بعض ألسنة الادباء ان هذه القصَّة ليست من وضع العَرَب وانما نقلوها عن الهند واليونان واضافوا اليها ما يحسن ان يكون في كلامهم حتى نفوا العجميَّة عنها فهذا كلام فيهِ بُعدٌ عندي لاني سمعتُ الرواة يحدّثون بمثل ذلك وفي مطلع الحكايات من ان الحَّمال اشتدَّ بهِ الحرُّ فحطَّ حملتهُ على باب التاجر في ظلٍّ يتردَّد اليهِ النسيم الرطيب وتفوح منهُ ريح العطر والطيب وانهُ كان يرى عزَّة ذلك التاجر في كثرة خولهِ وغلمانهِ ويسمع تغريد القماري والشحارير في جنانهِ وينشق من طعامهِ ريحًا احزنت منهُ النفس لانقطاع الامل منهُ وهو بمكانهِ من التعَب وشقاء الحال ما يستوقف الطرف ويشهد لبراعة الوصف فيما قُصد اليهِ من بيان

(١) المسعودي ١ * ٢٩٦

الفرق بين عيش الرخاء والنعمى وعيش الشظف والبلوى

وليس الظنُّ في هذه الحكايات السندبادية الاَّ ان واضعها رجلٌ قد عانى الاسفار وتقلَّب على متن البحار حتى ذكر ما عاينهُ من عجائب الامصار . وهذا شاهدٌ على صدق ما ذكرناهُ من تقلُّب الكتاب في ايدي الادباء الذين وسع علمهم جميعًا عن ان يضمهُ صدرُ واحدٍ من الرجال والاَّ فان في وصف الحروب من الحِيَل ما لا يستنبطهُ الاَّ مَن طال وقوفهُ في ساحات القتال وكذلك في ذكر نوادر الزواج من المعمَّيات ما لا يستنبط الفتوى لهُ الاَّ مَن انفرد نظرهُ في علوم الاحكام الشرعيَّة[1] وحتى لو يكن ما يقال في ذلك لوجدنا في اختلاف الاقلام دليلاً آخر على اشتراك الادباء في تأْليفهِ لانا نجد منهم مَن يسترسل في المغالاة الى ان يذكر عن فارس من الفرسان انهُ قتل في معركةٍ واحدةٍ كذا وكذا من الاعداء وهم الجمع الذين لا يتولى أَحدٌ احصاءهم في يومٍ واحدٍ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاجٍ لم يتعدَّهُ الى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها على الصدق وانما ذكر الاخبار للنظر في عادات الناس واخلاقهم وكيف يتقلَّبون بالزمان أَو يتقلَّب الزمان بهم وذلك مثل ما قصد الادباء في كلامهم عن العربان ان يذكروا المحامد التي تفاخروا فيها على جميع الامم من الكَرَم والمروءة والعفاف والمساوي التي تفانوا بها من

(١) حلبة الكميت والانليدي ١٠٦ و ١٤١ والف ليلة وليلة

طلب الثأر وادراك الغنائم او مثل ما قصدوا في حوادث هذه الايام ان يذكروا أَخبار النساء وما يكون من تحايلهنَّ في تسيير الرسائل الى الشبان (١) وادخالهم عليهنَّ في الصناديق (٢) ورفعهم اليهنَّ من تحت الليل (٢) في الزنابيل المعلَّقة الى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد. وهذا هو الفرع الخاصُّ الذي أَرتاح اليهِ من حكايات الف ليلة وليلة لانهُ ينبئ عن أَخبار العرَب الخاصة وفيهِ حسنٌ وبراعةٌ ووصفٍ ليس مثلها في أَدب الحكايات

تدوين الأَخبار وأَيَّام الناس

انما وضع العرَب هذه الحكايات بعد ان توغَّلوا بالاسفار في أَطراف البلدان حتى انهم تجاوزوا الصين (٤) الى ما وراء فرغانة فاستفادوا بذلك من غير الاموال باحوالٍ شاهدوها وعادات جروا على سننها ومبانٍ تقلَّدوا منها الزينة والاحكام وشرائع تفقَّهوا في استخراجها للأَحكام. وكانت عادة السافرة بعد عودتهم الى الديار ان يحدّثوا الحيَّ بغريب ما نظروهُ وعجيب ما سمعوهُ (٥) فمن هذه

(١) اغاني ٦ * ١٦٠ (٢) اغاني ٦ * ٤٠ والشربشي ٢ * ٢٤٦

(٢) العقد والف ليلة وليلة واغاني ٥ * ٤٢ واتليدي ٢٠٤ والمقدمة ١٨

(٤) اتليدي ٧٧ (٥) الشربشي

الاحاديث المنقولة ما اتصل بي من ان في بعض الأُمم مَن هم عراض الوجوه وسود الجلود أَطول ما فيهم اربعة اشبار[1] وفي جلودهم نقطٌ حمرٌ وصفر وبيض وان فيهم من لهُ أَجنحة يطير بها او رأس كلب على بَدَن آدميٍ أَو وجه آدميّ على بدن ثور او أَسد[2]. وسمعت من يحدّث ان من البلغار من طولهُ اكثر من ثلاثين ذراعًا يأخذ الفَرَس تحت ابطهِ كما نأخذ الولد الصغير ويكسر بيدهِ ساقهُ كما نقطع باقة البقل[3] الى غير ذلك. وليس الظن في هذه الاساطير التي يتناقلها الاخباريون من اهل الاسفار الاَّ انهم رأَوا رسومها على الآثار التي تخلَّفت عن الهنود والفرس السالفة وغيرهم من اهل العصور الخالية فحدَّثوا بها على طريق الرجم بالغيب كأَنَّ من امثال هذه الخلائق المشوَّهة ما كان في قديم الزمان او لا يزال موجودًا فيما وراء الأَقاليم لهذه الايام

ولما دارت هذه الاساطير بين الناس اشفق اهل الادب على اخبار العرب من دخول الفساد عليها فتسارعوا الى تقييد التاريخ في الاوراق حتى لا يتشوَّه من تمادي الرواية على أَلسنة العوام. وقد كان شعر العربان[4] محفوظًا[5] في اهل العلم فنقلوهُ الى الكتب للدلالة على ما يرومون اثباتهُ من الاخبار وعيَّنوا وقوع الحوادث

(١) ابن خردادبة ٦٢ (٢) القرماني ٥ * ٥٤ (٣) المستطرف ٢ * ١٦٢

(٤) القناوي ١١٩ (٥) ابن الاثير وابن خلدون

السالفة مثل ما كان يعيّنهُ العربان في الجاهليَّة بقولهم هذا جرى في ايام كسرى وهذا في حرب البسوس[١]. واما الحوادث التي وقعت في الاسلام فقد ارَّخوها بالسنين والشهور والايام وكانت أَصح في النقل والرواية من ايام العرب لان شأن الرواة عليها من الخلاف والاختلاف والمخالفة ما هو اشهر من ان يذكر (والحوادث اذ ذاك محفوظةٌ بالانواء وطلوع النجم) ولم يسلم منها عن الفساد الاَّ علم الأَنساب الذي حفظتهُ العصبيَّة في العربان[٢] حتى اتصلت انساب اشرافهم الى ابرهيم الخليل مثل انساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات[٣]

واول من سبق الى تدوين التاريخ محمد بن اسحق[٤] في كتابهِ عن المغازي والسير[٥] واخبار المبتدإِ. ولم يكن التاريخ قبلهُ مجموعًا ولا معروفًا ولا مصنَّفًا[٦] ثم تتابع أَهل العلم على تدوينهِ من بعدُ ووضع محمد المعروف بالواقديّ كتابًا في فتوح الشام ضمنهُ كثيرًا من سير الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأَتى على ذكر الحروب التي سُعّرت نارها في الشام على عمَّال الروم الاَّ اني رأَيتهُ يسوق الحديث جزافًا في كلامهِ عن الجند والقتلى فهو يقول انهُ سار الى قلعة كذا خمسون الفًا والى حصن كذا ثمانون الفًا والى بلد كذا تسعون الفًا ممَّا لم يكن

(١) الاغاني (٢) المقدمة (٣) العقد الفريد (٤) حجي خلفه ٢ * ٦٢٤
(٥) المقدمة ١٧٠ (٦) المسعودي ٢ * ٤٠١

قدر نصفهِ في المسلمين كما ثبت عند ايمّة النقل وكذلك قولهُ عن الروم انهُ قُتِل منهم كذا وكذا من الآلاف وهو قدرٌ يتجاوز عدد اهل الشام كلهم من الروم وغيرهم. فانما ينفرد فضل الواقدي في علم الفقه والحديث وليس لهُ باع فيما سواهُ من العلوم

وقد كتب في التاريخ بعدهُ عبد الله الاصمعي وحمَّاد الراوية وهما يعرفان اخبار العرب ويمليانها على ظهر قلبهما. الاَّ ان الخلل في رواية حمَّاد انهُ يقول الشعر على لسان المتقدمين (١) فهو اقرب الى المؤاخذة عليهِ في فساد التاريخ من الثناء عليهِ فيما يصنع من الشعر الذي لا ينحطُّ عن كلام الجاهليين . يقال انهُ روى الفين وتسعماية قصيدة لكل حرفٍ من الحروف الابجدية ماية قصيدة كبيرة سوى المقطعات (٢) .
واما الاصمعي فليس من الامور التي ننتقد بها عليهِ الاَّ انهُ كثير الرواية وواسعها حتى يكون فيها بعض المرية عند كثير من اهل العلم ليس لغرابتها او لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل في مدوناتهِ. وهذا لا ينقص فضلهُ في العلم وانما هو واقعٌ عليهِ من باب تعظيم الشيء الذي يتفاوت قدرهُ عن ان يكون مثلهُ في صدور الرجال

ثم اني وجدتُ حمَّادًا والاصمعيّ جميعًا قد وقعا في الخطإِ والقصور الذي وقع فيها اهل الرواية قبلهما ومن بعدُ. فاما الخطأُ فهو إعراضهم

(١) الاغاني وابن خلكان (٢) الاغاني ٥ * ١٦٥

جميعًا عن ذكر محاسن الاعاجم من النصارى وغيرهم حتى لا يشغلوا كتبهم في ذكر مذاهب كفرهم كما يزعمون . واما القصور فانهم يذكرون الحوادث من غير ان يستوعبوا مبدأها ومعادها ولا ان ينظروا في عللها واسبابها ولا ان ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت بهِ دولهم بعد ان تسلموها وهي بمكانٍ عظيم من النفاذ والسلطان

هذا ما اعلّقهُ في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم بما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما توسعوا الى النظر فيهِ من جميع انواع العلوم والفنون والصناعات [١] اذ كان لهم من النقّاشين والمصورين والرسّام في المشرق الاقصى ما يدلُّ على ان لهم من الصناعة ايضًا مكانًا غير مدفوع فلقد رأَيت من عملهم صورًا على الورق الصقيل تظهر خارجةً وليست بخارجةٍ وداخلةً وليست بداخلةٍ [٢] . ورأَيت من رسومهم على الآنية والعيدان والقباب ما يبهر البشر في جمال الاشراق وتمام الحسن [٣] . وهذا كلهُ قد توصلوا اليهِ في عصر الرشيد الذي سُمّي بالعروس [٤] لخصبهِ ونضارتهِ وكثرة خيرهِ وانتشار علمهِ فان ما ذكرتُ في هذه الرسالة عن آداب العرب [٥] لشاهدًا ناطقًا ببلوغ الغاية من الحضارة والعمران اذ كان العلم مرآةً يرتسم فيها حال الأُمم في كل عصر ومكان

(١) المقدمة (٢) كليلة ودمنة (٣) المقري (٤) المسعودي ٢ * ٤٠١ الشرقاوي ١٢٢ (٥) المسعودي ٢ * ٤٠١

و

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أوَّل شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة النبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم والله اسأل ان يجمّل حالنا بالستر الجميل وهو بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ لاربَّ سواهُ

الرسالة الثامنة

ذكر الرسالة الى قيصر الروم

هذا هو كتابي التاسع أُفردهُ لذكر الرسالة الى انبرذور الفرنجة وانا اكتبهُ اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وأفريقية . كان الرشيد لأَول وصول رسول الانبرذور الى الحضرة قد استدعاني اليهِ فأَصبتهُ في مجلسهِ متنقّلاً كانهُ يريد امرًا عظيمًا[1] فاستدناني اليهِ[2] وقال أنَّا اتانا من ملك الفرنجة رسولٌ يقرئُنا منهُ السلام فرأينا ان نوجّهك اليهِ بالطافٍ تروم اليهِ ان يتقبّلها في سبيل المودَّة لغايةٍ نرغب فيها اليهِ من التعصب على بني أُميَّة الذين يمزّقون الاندلس فيما هو واقع بينهم من الحروب[3] . فاذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من انفاذك اليهِ

(١) المسعودي ٢ * ٢١٥ (٢) اغاني ٥ * ٤٨ (٣) المقري وابن الاثير

واجهد بان تسترق لبَّهُ بخلابة لسانك وتقدَّمْ اليهِ بالوعد الجميل في انَّنا نوفّيهِ حقهُ يوم الفتح ونصرف اليهِ نفقة الحرب من بيت المال ونجري الارزاق الواسعة على جندهِ ونقاسمهُ ما تحوي خزائن الظالمين من المال والجوهر واستصحب معك هذا اليهوديّ الذي جاء بهِ رسولهُ فهو يترجم عنك اليهِ وخذهُ بالتعظيم الكثير لانهُ شيخٌ مترفٌ جليل القدر فيما نقل الرسول الينا. وقد تقدمنا الى مسرور ان يصحبك بالخدام في الدواب والخيام الى ساحل الشام فاذا عدت الينا وانت آخذ على مصر وصل الليثَ ان يوجّه معك طائفةً من الحَرَس الى عيذاب فتوافينا الى البَلَد الحرام حيث توافقنا حاجّين والله نسأَل ان يحوطك بحراستهِ ويأخذ بعونك فيما تقدمنا بهِ اليك من امر الرسالة

فلمَّا أَذنني بالانصراف أَتيت البرامكة لاستطلعهم رأيهم في المصلحة فلقيت جعفر متنزهًا في البستان وبين يديهِ جماعة من الندمان فلما اقبلت عليهِ قال ما انت وخوض البحور قل غير مأمور فقلت ومن أَين ذلك للسلطان قال انما انا الذي اشرت على الرشيد بان يوجهك في هذه الرسالة الى سلطان المغرب ثم اومأَ الى الجلاَّس فتنحَّوا عن موضعنا فاستدناني اليهِ وقال بمَ أَوصاك فقلتُ بكذا وكذا من الامر فوجم ساعةً ثم قال سبحان الله إِلامَ يتمادى بهِ تغرير التبال لقد أَشرتُ عليهِ ان يقلع عن مناجزة الأُمويين اذ لنا في المشرق ما يشغلنا عن قتالهم وفي ظهور الخوارج الذين يقارعونهُ على الخلافة

في كل حين ما ان ضعفنا عنهم مرَّةً واحدة لفسدت دولتهُ[1] فساداً لا تقوم لها من بعدهِ قائمةٌ. ولو ان الرشيد عن موعظتي غنيٌّ بما عندهُ من العقل والعلم الاَّ ان الملوك قد تطمح نفوسهم الى ما وراء العسر من طمع الاستيلاء وقد قال الله تعالى لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم. فما لنا وللامويين وقد كفانا الله شرَّهم فان يكونوا في شقاقٍ[2] فلندعهم ينادون بالويل والحَرَب الى ما وراء البحور وليس لنا ان نلقي برجالنا في المواضع المجحفة ونرد بهم موارد الفناء فاني لأَرى الجند يتفانى قبل الاشراف على تلك المتالف كما اني احسب الانبرذور على ما يؤثر عنهُ من ايثار الرفق ولزوم التُؤدة لا يوافق صاحبنا على ما يروم من الايقاع بملوك أُميَّة وهم مطمئنون في ديارهم ومعتصمون في قلاعهم وقد عمروا امصارهم ودوَّنوا دواوينهم[3] وشكوا حصونهم بالرجال واتخذوا الاهبة لهم والعدَّة والكراع[4] ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب. انما كان أَولى بالرشيد ان يرى دول الاندلس درعاً منيعاً للاسلام لانها لو دخلت في حوزتهِ لم يأْمن إن ارسل الجند أَن يخونهُ القواد او مات الانبرذور عن خلفٍ لا يرعى العهود أَن يوجّه من يقبض على عمَّالها من لدنهُ. وقد اتاني ان أُعاودهُ في هذا الشان فان رغب عما فرط منهُ والاَّ فليفعل ما كان فاعلاً لبلوغ امنيَّتهِ

(١) الفخري ٣٥ (٢) ابن الاثير ٦ (٣) العقد ٢ * ٣٥٧ (٤) المقري

فلما كان الغد بكر جعفر الى الرشيد واختلى معهُ ساعةً جيّدة يقلّب عليهِ الآراء ولكن من غير ان يحيل عنهُ مرامهُ فاستدعاني اليهِ وسلّمني كتابهُ الى الانبرذور وأمرني بان اتجسّس اخبار العمّال وانفقّد أُمورهم حيثُ مررتُ وأوصاني برجلٍ من الامويين في دمشق كثير المال والجاه ان اتحقّق لهُ عن حالهِ[1] حتى اذا كان يخشى من استمالة اهل الشام الى الفتنة رفعتُ ذلك اليهِ ليتدبّر امرهُ . ثم قال واذا مثلتَ بين يديهِ (يريد الانبرذور) فقل لهُ عن أُميّة انهم كفروا النعمة وسعوا في الارض فسادًا وانّا أَحقُّ بالمُلك منهم لمكاننا من قرابة النبيّ صلّى الله عليهِ وسلّم . ثم أذنني بالانصراف وكان يظهر لي من الميل اليّ والتعطُّف عليّ بحيث انهُ كان يدعوني بلفظة الحبيب[2] كلّما بدأ بالكلام بعد انقطاعهِ

وكان من أَلطاف الخليفة الى الانبرذور فيلٌ عظيم ابيض جاء المهديّ هديّة[3] من بعض ملوك الهند واقمشة فاخرة من الوشي وبُسُط ديباج من طبرستان واعطرة من اليمن والحجاز ومسك وصندل واعواد ندٍّ من الهند وسرادق عظيم مجلّل بالحراير والبكل ومزولة كبيرة تدلُّ على الاوقات وهي من عمل صنّاع بغداد وشطرنج بديع الحسن قد اتخذت ادواتهُ من العاج المنقوش وهي من عَمَل

---

(١) الاتابدي والابشيهي ١ * ٨٤ (٢) اغاني ٦ * ٥٧ (٣) اغاني ٩ * ١٢٦

ممثّل من النصارى يُعرَف بيوسف الباهليّ وقد نقش اسمهُ على الاداة التي تمثّل شخص الملك وهي من الحسن بحيث يكبر الناظر صناعتها قد مثّلت فيلاً يلفُّ خرطومهُ على فارسٍ مقاتل . وعلى رأسهِ جنديّ يأخذ بزمامهِ ومن حولهِ ثمانية فرسان يراد بهم الرمز الى الجنود الثمانية الذين يحوطون الشاه في الشطرنج . وعلى ظهرهِ هودجٌ مزخرفٌ بانواع الرسوم قد استوى فيهِ ملك على رأسهِ تاجٌ مثل تيجان ملوك حمير[1] . فظهر من حذاقة الرسَّام في هذا التصوير ما يستحق عليهِ الثناء الجميل لانهُ مثَّل اصحاب الفيلة كما هُم وجعل في آذانهم اقراطًا وعلى زنودهم اساور وعلى ابدانهم القراطق وهي لباس الهنود[2] واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والازمَّة والركائب وقلَّد الفرسان انواعًا من السلاح الاَّ المقاتل الذي اخذهُ الفيل بخرطومهِ فانهُ رامٍ سلاحهُ الى الارض ومناضل عن نفسهِ احتيا لاً في الخلاص وعليهِ سمة التوجُّع والانكماش مما يشهد للممثّل بانهُ من مهرة الصنَّاع[3]

طريق الرسالة الى دمشق

ولقد رسم عليَّ طريق الوجهة بان اسير الى الكوفة ثم الى دمشق ثم الى بيروت على ساحل البحر . وكان مسيرنا في غاية البطء رفقًا

(۱) المسعودي ۱ * ۲۱٥ (۲) المستطرف ۲ * ۲٦ (۳) هذا الاثر لم يزل محفوظًا في دار الافرنج لهذا الزمان

بالفيل والدواب المحمَّلة فاجتزنا بعد الانفصال عن بغداد بمدينة النيل التي مصَّرها الحجاج [١] وهي في منتصف الطريق بين بغداد الى الكوفة [٢] . ثم عطفنا الى الانبار [٣] ثم الى مدينة الكوفة . فنزلتُ بها في رحْبَة خنَيس الانصاري من أُجداد [٤] استاذي رحمهُ الله وهي في مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل [٥] وقد طاب لي المقام بين اهلها بما وجدتُ فيهم من الحبّ لاهل البيت ولا سيما في قوم كندة من ملوك النصرانيَّة وهم من غلاة الشيعة [٦] واكثرهم عالمٌ وحكيمٌ واديبٌ كانَّ بيتهم مهبط العلم ومفجر الحكمة . وقد لقيتُ منهم اسحق الكنديَّ وهو عامل الرشيد على الكوفة قلَّدهُ الامارة بايعاز البرامكة الذين قصدوا تعظيم الشيعة [٧] وائتلاف قلوب الرعيَّة على حين لا تمسُّ الخلافة بمكروهٍ . لكن الائمَّة ينكرون ذلك عليهم لظنهم ان ذلك عجزٌ في الاسلام فانما نظرهم ضعفٌ بل قصورٌ في نظر اهل السياسة لان استخدام النصارى دالٌّ على عظمة الرشيد واستفحال ملكهِ حتى انهُ يتمكن من الانتفاع بعلمهم وهو آمن من الفتنة التي يخشى ان تعصف ريحها من ناحيتهم

ولقد وجدتُ الكوفة من اعظم مدن العراق [٨] فيها ماءٌ وشجرٌ

(١) الفناوي ١٢٥ (٢) ياقوت ٤ * ٨٨٢ (٣) المسعودي ٢ * ١٤
(٤) ياقوت ٢ * ٧٦٢ (٥) اغاني ٥ * ١٦٦ (٦) الوطواط ١٢٥
(٧) المحاضرة ٢ * ٨ (٨) ابن جُبير ٢١٢

ونخيل[١] وقدّرتُ ان تكون في الكبر كنصف بغداد فحقّ تسميتها بالكوفة لاجتماع الناس فيها من قولهم تكوَّف الرمل اذا ركب بعضهُ بعضاً[٢] . وقد زارني فيها كثير من ادبائها المشهود لهم بالفضل الاَّ انهُ لم يتهيأ لي زيارتهم لقصر الوقت معي الاَّ اسحق اميرهم فوجدتهُ من العلم والعقل بالموضع الذي اكتفي من الدلالة عليهِ باني استحسر بعدهُ عن الاسلام وهو يسكن دارًا مباركةً تعزى الى عقيل بن ابي طالب[٣] وهي بازاء المسجد المبارك الذي قال فيهِ عليٌّ عليهِ السلام ان ركعتين فيهِ تعدلان عشرًا فيما سواهُ من المساجد وان البركة منهُ الى اثني عشر ميلاً من حيث اتيتهُ[٤] . زرتهُ قبيل الانفصال عن المدينة ولم أرَ في عمد المساجد ما هو اطول من عمدهِ[٥] ثم زرتُ مشهد عليّ[٦] عليهِ السلام وتبرَّكتُ منهُ وقرأتُ عندهُ شيئًا من القرآن

ولما ركبتُ من الكوفة تخلَّفت عني الدواب المحمَّلة فانقطعتُ في الفلاة مع جماعة من الحَرَس ورحنا نفوّز القفر بعد القفر حتى اذا عظمت عليَّ مشقة السفر تذكرتُ طيب بغداد[٧] وظرائفها[٨] فحننتُ الى مجالس البرامكة وكنتُ اقول متمثلاً بقول الرشيد[٩]

على اهل بغداد السلام فانني ازيد بسيري عن ديارهم بُعْدَا

---

(١) الفناوي ١٣٦ (٢) تقويم ١ . ٣ (٣) اغاني ٤ * ١٨٢ (٤) ياقوت ٤ * ٣٢٥ (٥) ابن جبير ٢١٢ (٦) تقويم ١ . ٣ (٧) اغاني ٥ * ٩٤ و ١٧ * ٧٥ (٨) القزويني (٩) ياقوت ١ * ٦٨٨

ولم أَزل مجدًّا في السير حتى بلغتُ دمشق في اثنتي عشرة ليلة [١] ولواني أَسريتُ في الليل لكنتُ بلغتها في ثمانية ايام [٢] فما دونها . فنزلتُ فيها عند قاضيها الامام عمر بن ابي بكر بن تميم القرشي العدوي [٣] في دارٍ بناها عويمر ابو الدرداء وهو اول مَن ولي القضاء على دمشق [٤] . وكان القضاة قبلهُ يسكنون قصر الحجاج [٥] المعروف بالقصر الكبير

اما الشام فانها بلادٌ مباركة كثيرة الخيرات وافرة الغلَّات الَّا انها نكدة الحظ في تغلب الامم عليها ولذلك قلَّت عمارتها لهذه الغاية بعد تغلُّب الكَلدان عليها والفُرس الأُولى والفراعنة واليونان والروم والفُرْس الثانية ولاسيَّما قُبَيل ان دجا الاسلام وقد كانت تمزقها الحروب التي تسعَّرت نيرانها بين بني عامر المتغرضين للفُرْس وآل غسَّان المتغرضين للروم [٦] فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت احوالها الى الانحلال بعد ان كانت جامعتها في عظمةٍ لم يكن مثلها في الدُّوَل الَّا قليلاً وكانت التجارة فيها كاعظم ما يكون من النفاق وللعلوم والصنائع سوقٌ رائجة فدَرِست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى ليس من مصانعها اليوم الَّا ردومٌ شاخصة وآثارٌ ناقصة

وانما دَعَا اهلها الى الفساد وجَلَبَ عليهم المذلَّة وطمح بأَبصار

(١) اغاني ٥ * ١٦٦ (٢) اتليدي ٣٦٢ (٣) قضاة الشام
(٤) قضاة الشام (٥) الاتليدي والمستطرف ١ * ٢٨٧ (٦) ابن الاثير

الملوك الى غزوتهم ما وقع بينهم من الشقاق وكان من ميلهم بالاغراض مع هوى النفس فكان ظهور المرسلين فيهم باعثًا الى تعصب بعضهم على بعضٍ وان كانت مواعظهم داعيةً الى المحبة والاتحاد وهذا هو الأَمر الغريب الذي لم يسمع بمثلهِ في البلدان. فان الشام ما برحت مهبط الوحي ومسقط النبيين ومهجر الاولياء[1] الطاهرين الذين كانوا يتخذون الانصار لنفوسهم ويرومون ادخال الناس في شيعهم ليجمعوا ما كان شتيتًا من شملهم ومتفرقًا من كلمتهم واغراضهم الَّا انهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التي كانوا يرومونها في الدين ولا السياسة . . . فانما يجبُ لاهل الشام ان يكون فيهم جامعة الالفة ولا يتعصبوا بأَميالهم الى غير ما يقصدون منهُ الوحدة . فما تحصل عظمة الامم الَّا بالاجتماع والعُصْبَة سنَّة الله في خلقهِ فانظر الى الدول الروميَّة كيف عبث بها العدوُّ حين وقع فيها الانقسام والتجزّوء وانظر الى الدولة الامويَّة لم يقارعها ابو مسلم على الخلافة الَّا عند ما تخالف عنها صبيتها فيما يرمون بهِ الى طمع التَرَف والنعيم وانظر الى اهل البيت السلالة الشريفة والذريَّة الصالحة كيف وقعت بهم الشدة وهم متفرقون على اغراضٍ لاتجمع بينهم الى الوحدة فلما اجتمعوا في المغرب الى ادريس قام لهم ملكٌ يرتجف لهُ الشرق فان تنظر الى ذلك كلهِ والى كثيرٍ مَّا وقع وما هو واقعٌ في الممالك تجد ان الأُمم لا تقوم دولهم

(١) فاكهة الخلفاء ١٢٥

الاّ برابطة الاجتماع والعصبة فان يحلّوا منها العقدة او يحاولوا الانقسام ينذرْ امرهم بالانحلال وتتداعَ أحوالهم الى التلاشي والاضمحلال

ذكر دمشق

عودٌ ولما وفدتُ على دمشق وسرَّحتُ الطرف ناحية الغوطة وسع مني الصدر الى ان حسبتُ نفسي في جنَّةٍ من جنان السماء ولا غرو فان مياهها واشجارها ورياحينها لأفضل ما في الدنيا من المتنزهات[١] يسير الرجل في رياضها يومهُ ولا تصيبهُ اشعَّة الشمس لالتفاف شجرها بعضهِ على بعض . وهي في اسمى مقام بين مدن الاسلام بعد دار السلام قد اشتبكت فيها العمارة[٢] وتنزَّهت عن المثل في النضارة. لكنها ليست بمفرطة الكبر وربما كانت الى الطول أميل منها الى العرض[٣] وهي لا تخلو من السقايات[٤] في شيء من اسواقها ولا بيوتها ومبانيها طباق فوق طباق[٥] وتحتوي من الخلق على العَدَد الذي لا يعلمهُ الاَّ الله. والناس على مذاهب في مَن بناها من الاوَّلين فمنهم مَن يقول ان عاداً اول من نزلها من الناس وانها هي ارم ذات

(١) ياقوت ٢ * ٥٨٩ ونفويم ٢٥٢ وابن خردادبة ١٢٤ (٢) القزويني ١٢٦ (٣) ابن جبير ٢٨٥ (٤) المقري ١ * ٢١ وياقوت ٢ * ٥٩٠ (٥) ابن جبير ٢٨٥

العماد[1] ومنهم مَن يذهب الى ان بانيها الغادر غلام نمرود[2] او دمشاق بن كنعان ومنهم مَن يزعم ان الذي اختطها هو دمشقس مولى الاسكندر الرومي[3] ومنهم مَن يرتإي غير ذلك . الاَّ انهُ ليس على ما يقولون حجَّة ترجع بهم الى صدق الرواية ولا سيما عند الذين يعزون بناءها الى الروم فان الردّ عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد ان أَتى موسى عليهِ السلام على ذكر دمشق اكثر من مرَّة في كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في تحقيق بنائها فان هي الاَّ مدينة اوليَّة[4] صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جَفنَة وبني أُميَّة دهرًا طويلاً واصابها من العزَّة والعمارة ما قلَّ ان يصيبهُ غيرها من المدن القواعد ولو كان البناء الذي شادهُ فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقي ماثلاً الى هذه الغاية لكانت دمشق زينة الدنيا ولكنهم رفعوهُ بالطين واللبن فأَتى عليهِ الانحلال وأَدثرت الايام آثارهُ[5] فلم يبقَ منهُ الاَّ قلعةٌ من الحجر تعزى الى الروم[6] وقصرٌ يقال لهُ قصر جيرون وعليهِ ابواب عجيبة من النحاس[7] وبناءٌ يقال لهُ البريض فيهِ كثيرٌ من العمدان وتزعم العامة انهُ كان يجري منهُ الشراب في قديم الزمان[8] وقصران من الحجر لعمر بن عبد

---

(١) ابن خرداذبة ٧١ والقرماني ٥ * ١١٨ والشريشي ١ * ٣٠٧ (٢) الكنز ٣٢ (٣) القرماني ٥ * ١٩٢ (٤) تقويم ٢٥٢ (٥) ابن خاقان ٥ (٦) تقويم ٢٥٢ وابن جبير ٢٩٠ (٧) المسعودي ١ * ٢٤٢ (٨) المسعودي ١ * ٢٩٧

العزيز [١] وللوليد بن عبد الملك [٢] وهما جميع ما تخلَّف عن ملوك أُميَّة لان ما أَفلت من آثارهم من معول الزمان لم ينجُ من سخط ابي جعفر [٣] كما مرَّ في موضعهِ من الكتاب

ولقد وجدتُ اهل دمشق احسن الناس خَلقًا وخُلقًا ورأَيتهم يكرّمون الفقراء ويلتمسون منهم ان يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل [٤] ولو ان فقيرًا اعرض عن كسرتهم قالوا ويحنا لو علم ان فينا خيرًا لتناول من طعامنا [٥] وقد بلغني عن فضلائهم انهم يزهدون في هذه الحياة الدنيا وينقطعون الى الله تعالى متبتّلين في جبل لبنان [٦] غير اني لا اطلق هذه الرواية الاَّ على فئة قليلة من الصالحين لان جمهورهم مائل الى اللهو والطَرَب [٧] ولاسيَّما في يوم السبت فانهم لا يشتغلون فيهِ الاَّ بالمجون والتهتُّك لا يبقى فيهِ للسيّد حجرٌ على المملوك ولا للوالد على الولد ولا للرجل على المرأَة [٨] وهذا امرٌ غريبٌ لم أَرَهُ في غير دمشق [٩] ولا اعلم ان كان النصارى يشاركونهم في ذلك لاني رأَيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والاحياء وانما هم متألّبون على كنيسةٍ معظمةٍ عندهم تُعرَف

(١) ابن جبير ٢٩٢ (٢) المقدمة ١٥٤ (٣) ابن الاثير والمسعودي ٣ * ١٤٢ والخميس ٢ * ٢١٤ (٤) ابن الابشيهي ١ * ١٢ (٥) ابن جبير ٢٨٨ (٦) ابن جبير ٢٨٩ (٧) القزويني ١٢٨ (٨) ابن بطوطة ١ * ١٩٧ (٩) القزويني ١٢٨

بكنيسة مريم[1] وهي من اعظم بيعهم بعد بيت المقدس

وبقيتُ في دمشق ثمانية ايام الى ان وفد الغلمان بالدواب المحمَّلة وكنتُ قد استقصيتُ البحث عن هذا الامويّ الذي اتعب خاطر الرشيد امرُهُ فلم اجد لهُ غرضاً في السياسة ولا هو طامعٌ بملكٍ ولا امارةٍ ولا يحدّث نفسهُ بشيءٍ مما يقلق بال الرشيد فأمسكتُ عن السعاية بهِ لاني رأَيتهُ وهو خلوٌ من هذه الاغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه[2] ليس الاَّ وقد تهيَّأَ لي بالاستطلاع عن امرهِ ان اقف على اخبار اقاربهِ من الخلفاء وغيرهم متابعةً لما نُقل اليَّ عن خبرهِ فوجدتُ في الاولين منهم عقلاً وسياسةً الاَّ انهُ لما صار الامر الى صبيتهم المترفين استرسلوا في القصف والتهتُّك[3] وانعكفوا على اللهو والطَرَب واستخفُّوا بامر الرعيَّة وأَغفلوا عن مصالح المُلك[4] فازالهُ الله عنهم والبسهم الذلَّ بذنوبهم[5]

قد انتهى تَرَف ملوكهم الى يزيد بن الوليد[6] وهو الذي اخذت الخلافة بالانحلال بين يديهِ لقيام اهل بيتهِ عليهِ وتحرَّكَ الدعاة بايامهِ في خراسان بما وجدوا فيهِ من قلَّة الخبرة بالمُلك وانعكافهِ على اللهو والطَرَب[7] وقيام خلافتهِ بين الكاس والوَتَر[8] . وقد استرسل

(١) ابن جبير ٢٨٥ (٢) الاتليدي ١٢١ (٣) اغاني ١٢ * ١٦٥
(٤) المقدمة (٥) القزويني (٦) الدميري ١ * ٩٠ (٧) المسعودي ٣ * ١٤٦ (٨) ابن خاقان ٤٤

في التبذير حتى أنفق ما جمعهُ اجدادهُ في بيت المال لانهُ افرط في الكَرَم افراطًا فاحشًا حتى لم يقل لا في سؤَال سُئِلهُ[١] وكان اذا وصل الشعراء عدَّ ابياتهم واعطاهم عن كل بيتٍ أَلف درهم[٢] . وكان يتأَنق بصنوف الملاذ من المطعم والملبس حتى انهُ لبس القلنسوة من الوشي[٣] مذهَّبةً واتخذ العقود من الجوهر كالنساء وكان يغيّرها في اليوم مرارًا لشغفهِ بها[٤] وكان يتختم بالياقوت ووقع من خواتيمهِ الى بني العباس[٥] خاتم يساوي اكثر من اربعين الف دينار واذا أُخرج من محبسهِ اضاء المكان من شدَّة لمعانهِ وكان يسترسل في الطَرَب الى ان يوجه رسلهُ[٦] في طلب المغنين من الحجاز وغيرهِ ويعاقر معهم الخمرة[٧] ويشرب الهَفْنَجَة وهو الشراب الذي كان يشربهُ ملوك الفُرْس اياماً معدودةً على غير انقطاع[٨] فتبعهم في ذلك . واصطنع بركةً صبَّ فيها الخمر[٩] وكان يلقي نفسهُ فيها من الطَرَب المفرط[١٠] ثم يخلع ثيابهُ على الندمان[١١] ويسقيهم الخمر بيدهِ[١٢] وكان اذا سُئِل عن الشراب وعذل عليهِ قال .

يا ايها السائل عن ديننا نحن على دينِ ابي شاكرِ

(١) ابو الفرج ٢١٠ (٢) اغاني ٦ * ١٤٨ (٣) اغاني ٦ * ٤٤
(٤) اغاني ٦ * ١٢٩ (٥) المستطرف ٢ * ٩١ (٦) اغاني ٣ * ١١٧
(٧) اغاني ٣ * ٩٨ و ٦ * ١٤٤ (٨) اغاني ٦ * ١٢٠ (٩) الدميري ١ * ٩٠ (١٠) الاغاني وحلبة الكميت (١١) اغاني ٦ * ١٤٥
(١٢) اغاني ٦ * ١٢٠

نشربها صرفًا وممزوجةً بالسخن احيانًا وبالفاتر[1]

وكان ماجنًا رديء المذهب حتى ترك صوم رمضان[2] وغشي امهات اولاد ابيهِ[3] . فلم يعظم امرهُ على الرعيَّة من وجهٍ واحدٍ وانما هي وجوهٌ قد اثقل بها عليهم حتى حملهم الى الجسارة عليهِ فنصبوا عليهِ الحرب وقتلوهُ . هذا نتفٌ من اخبارهِ حدثتني بهِ مغنّيةٌ كانت لهُ يقال لها برق الافق[4] وهي اليوم عجوزٌ تكاد ان تنال الارض بوجهها من الكبر وقد اخبرتني في بعض كلامها ان الجوهر كان في صباها متداولاً في الناس فلما جمعهُ يزيد من كل وجهٍ وغالى بهِ غَلا ثمنهُ منذ ذلك الحين[5] فهذا شيءٌ من الافراط لم يسمع بمثلهِ في أَحدٍ من الملوك المسرفين فان تنظر الى ما كان عليهِ بنو أُميَّة من العزَّة وما صاروا اليهِ من الذلّ تجد ان الله سبحانهُ وتعالى لا يغيّر نعمةً على عبدهِ حتى يغيّرها العبدُ على نفسهِ بارتكاب المعصية وكفران الجميل

ولمَّا طال مقامي في دمشق تهيأَ لي ان ازور اماكنها المشهورة فزرتُ موضعًا يقال ان هابيل وقابيل قد نزلا فيهِ[6] وموضعًا يقال لهُ باب الساعات[7] ويزعم اهل الاخبار ان كانت فيها قارة تقدَّم عليها القرابين فما قبلهُ الله منها ابتلعتهُ نارٌ من السماء وما لم يقبلهُ بقي موضعهُ

---

(١) الاغاني والوطواط وابن الاثير (٢) الوطواط ٦٢ (٣) ابن الاثير ٥ * ١١ وابو الفدا والطبري (٤) اغاني ٢ * ٨٧ (٥) الاغاني كتاب ٦ (٦) القزويني ١٢٦ (٧) ياقوت ٢ * ٥٨٨

على الصخرة . وزرتُ مشاهد جماعة من اهل البيت والصحابة والتابعين والاولياء الصالحين[١] في جبل قاسيون ومقابر الشهداء[٢] وجبّانة باب الصغير[٣] وبينها قبور بني أُميّة متهدمة والرخام عليها متكسّر[٤] . وزرتُ قريةً في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة[٥] ويزعم الناس انها مولد ابرهيم خليل الله[٦] والى ما فوقها حجارة مصبوغة بالدم يقولون فيها عن قابيل بانهُ رضّ عليها رأْس هابيل[٧] ثم جرَّهُ الى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم[٨] . وفي حضيض الجبل مغارة أُخرى تسمّى مغارة الجوع ويزعمون ان سبعين نبيًّا ماتوا فيها من الجوع او اني أَستحي ان انقل حديثهم على سمينهِ فانهم ليقولون سبعين الف نبي[٩] كانَّ كل مَن عاش في الشام نبيٌّ او وليٌّ وفي طرَف الجَبَل مما يلي الغرب ربوة[١٠] يقول المفسّرون انها هي المذكورة في قولهِ تعالى وآويناها الى ربوةٍ ذات قرارٍ معين[١١] (ويردُّ عليهم آخرون بان المراد بها ربوة في الاسكندريّة[١٢] من ديار مصر) وهناك مسجدٌ يقولون ان المسيح عليهِ السلام آوى الى مغارةٍ بجانبهِ وفيهِ حجرٌ قد انفلق الى شطرين ولم ينفصل أَحد الشقَّين عن الآخر بل اتصلا

(١) ابن جبير والشريشي ٢ * ٢٢٦ والطبقات ١ * ٢٩ والمسعودي ٢ * ٤٢ (٢) قضاة الشام (٣) ابن خلكان (٤) ابن جبير ٢٨٢ والمسعودي ٢ * ١٤٢ وابن الاثير ٥ * ١٢٠ (٥) ابن جبير ٢٧٥ (٦) ياقوت ٢ * ٥٨٩ (٧) القزويني ١٢٦ (٨) ياقوت ٢ * ٥٨٨ (٩) القزويني (١٠) ابن بطوطة ١ * ٢٢٢ (١١) القزويني ١٢٨ (١٢) المحاضرة ١ * ٣

كرمّان مشقوق[1] . ولهذا المكان منظر حسن الى البساتين والخضرة في جميع جوانبهِ ولا إشراف كاشرافهِ حسنًا وجمالاً واتساع مسرحٍ للابصار . وفيهِ تنقسم امواه المدينة الى أنهار سبعة[2] اكبرها نهر ثورى ونهر يزيد[3] وهما فيهِ نهرٌ واحدٌ يعرف بنهر بَرَدَى . وهناك بعض قرًى مثل نَيْرب ومزَّة والسهم والسطر[4] وفيها الجوامع والمرافق والحمَّامات[5] الاَّ انهُ لا يظهر منها الاَّ ما سما بناؤُهُ لتطاول الشجر عليهِ وفيها من الفواكه والتفَّاح والخوخ المسمَّى عندهم بالذراقن[6] وسائر الاثمار ما ليس في البلاد مثلهُ[7] صحَّةً وطيبًا والى ما يليها من طرف الجَبَل موضعٌ يقال لهُ عين برما[8] كان معمورًا لايام معاوية بجماعة من الخراسانيين ثم توالى عليهِ الخراب[9] بما ظلم الخلفاء بعدهُ حتى أصبح الى هذه الغاية قليل العَيْن وبقي الأَثر من عمارتهِ وذهب العين

ولقد كانت دمشق فيما خلى من الزمان يعيبها كثرة الوحول في أَزقتها وتراكم الطين في ساحاتها واماكنها فلما أَقام بها الامويون شرعوا فى إزالة الاقذار منها[10] وقايةً من الطاعون الذي كان ينزل بها تباعًا في السنين السالفة[11] وهذا هو الأَثر الذي تشهد لهم

(١) ابن جبير ٢٨١ والقزويني ٢٨ (٢) تقويم ٢٥٢ (٣) ابن خلكان ١ * ٢٧٨ (٤) كليات ٢٠٢ (٥) ابن جبير ٢٧٩ (٦) اغاني ١ * ٢٦ (٧) الكنز ١٤٤ (٨) المسعودي ٢ * ٨٣ (٩) المسعودي ٢ * ٦٣ (١٠) ابو الفداء ١ * ٢١٧ (١١) المسعودي وابن الاثير

البلاد بهِ كما تشهد بجميل عنايتهم في تشييد البناء على الهندسة التي ليس اعظم منها وقعًا في القلوب ولا أَتمَّ حسنًا وجمالاً في العيون كالذي يبلغنا عمَّا بنوهُ[1] في الاندلس من القصور[2] التي تحار في جمالها عقول الفرنجة . فقد شاهدتُ دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم الباقية في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنيَّة بالحجر والصفاع والعُمُد ومفروشةً بالرخام الاخضر[3] وهي تتناهى بالبهاء والاشراق حتى يُضرَب المثَلُ[4] في احكام رسومها وجلالة بنيانها ولو لم يكن من تمام زينتها الاَّ العمدان المزخرفة منصوبةً في اروقتها فرادى وازواجًا[5] لكفى البصائر روعًا ووسع الابصار ابتهاجًا فاذكر انهُ لما أَدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الاشجار[6] الغريبة لم يتحول نظري عن القصر لما راعني من حسنهِ المفرط واعجبتُ بهِ من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل المستغرب لما بين يديهِ وهو بين[7] أَساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن[8] مخرَّمة وخرجات مزيَّنة وطيقان مجسمة وما بينها من الرسوم العجيبة[9] ما تجول فيهِ الافكار فتجلُّهُ وتميل اليهِ الانظار فما تملُّهُ

---

(١) ابن الاثير كتاب ٥ و ٦ (٢) المقري (٣) الوطواط ١١١

(٤) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤ (٥) المقري (٦) الوطواط ١١١

(٧) الف ليلة وليلة (٨) اغاني ٥ * ١٠ (٩) المقري في نفح الطيب

ذكر جامع الوليد المعروف بالجامع الأُموي

هو أَفخر مأثرةٍ للملوك أُميَّة في دمشق بناهُ الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المذكور وكان ذا همَّةٍ في تشييد العمارات[1] والمساجد حتى كانت الناس لأَيامهِ اذا تلاقوا في الأَسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة[2] وعن ايّ بناءٍ شرع فيهِ خليفتهم كدأْبهم من التساؤُل عن الخير في ايام عمر بن عبد العزيز وعن الطعام في ايام سليمان بن عبد الملك وعن اللهو في ايام يزيد بن الوليد وليس في الاسلام كلهِ مثل[3] هذا الجامع حسنًا[4] واتقانًا وجمال رسم[5] وهو مائل الى الجهة الشمالية من المدينة وسمعت عن سفيان الثوري انهُ قال ان الصلوة فيهِ بثلاثين الف صلوة[6]

كان موضعهُ قبل الاسلام بيعةً للنصرانيَّة[7] تعرف بكنيسة مار يحنا[8] ومن قبل ذلك بيت عبادة لأَهل جاهليتهم[9] فلما دخل المسلمون المدينة عنوةً تحت قيادة خالد بن الوليد أَخذوا نصف الكنيسة ثم دخل عبيدة بن الجراح[10] صلحًا فانتهى الى نصفها

---

(١) ابن جبير وياقوت ١ * ٥٩١ وابو الفدا ١ * ٢٠٩ وابن الاثير ٥ * ٤ والفخري ١٥١ والمقدمة ٢١٠ (٢) القزويني ١٢٧ (٣) الشريشي ١ * ٢٠٨ (٤) تقويم ٢٣٠ وابن بطوطة ١ * ١٩٧ (٥) ابن جبير ٢٦٢ (٦) ابن بطوطة ١ * ٢٠٤ وابن جبير (٧) ابن الاثير (٨) ابو الفدا ١ * ٢١٠ (٩) ياقوت ٢ * ٥٩١ (١٠) ابن الاثير

الآخر وقد وقع الصلح بينهُ وبين النصارى فبقي نصفها في ايديهم (١) وكانوا يزعمون ان الذي يهدم بيعتهم يجنّ (٢) فلما صارت الخلافة الى الوليد قال أَنا أَول من يجنّ في سبيل الله ثم بدأَ الهدم بيدهِ (٣) فبادر المسلمون واكملوا تخريبها حتى هاجت النصرانية وعلا صياحهم فعوَّضهم الوليد عنها بمالٍ جسيم وأَرضاهم بعدَّة كنائس صالحهم عليها (٤) ثم وجَّه الى ملك الروم (٥) في اشخاص اثني عشر الفًا من العَمَلة والصنَّاع والمرخّمين وتقدم اليهِ بالوعيد في ذلك ان توقف (٦) ثم اكمل هدمها سوى حيطانها وأَنشأَ فيها النسر والقناطر وحلَّاها بالذهب (٧) وعلق عليها الاستار من الوشي والابريسم وبقي العمل فيها نحوًا من تسع سنين وكان يعمل فيها الف مرخّم والعمُد العجيبة (٨) من الرخام والمرمر تأْتيهم من كنيسة للنصارى في انطاكية تعرف بمزور (٩)

وغرم الوليد على هذا الجامع من الدنانير المصرية زنة مئة وأَربعة واربعين قنطارًا بالدمشقي (١٠) وذلك يعادل عشرة آلاف الف دينار (١١) وقد قرأْت في بعض المجاميع ان جملة المنفوق عليهِ كان اربعمائة صندوق وفي كل صندوق ثمانية وعشرون الف

(١) الواقدي (٢) ابن بطوطة ١ * ١٩٨ (٣) ابن جبير ٢٦٤
(٤) الخميس ٢ * ٣١١ (٥) المقدمة ٣١٠ (٦) ابن جبير ٢٦٣
(٧) الخميس ٢ * ٣١١ (٨) تقويم البلدان ٢٣٠ (٩) المسعودي ١ * ٢٧١
(١٠) الخميس ٢ * ٣١١ (١١) ابن جبير ٢٦٣

دينار[١] ففي القدر الحاصل منهُ توافق بين الروايتين . وكان المتولي على النفقة عمر بن عبد العزيز[٢] (من قبل ان يتولى الخلافة) فاتخذ في المسجد ستمئة سلسلة من الذهب للقناديل والثريَّات[٣] ونزَّل جدرانهُ بفصوص الذهب من الفسيفساء ممزوجةً بانواع من الأَصباغ الغريبة تمثّل اشكالاً من الرسوم ليس أَبهج منها في العيون ورفع عمدانهُ الرخام المجزَّع طابقًا فوق طابق[٤] فاتَّخذ الأَساطين الضخمة فيما يجاري الارض والسواري الدقاق فيما يعلو[٥] القباب وفي خلال ذلك صور المدن والاشجار بالالوان والذهب[٥] وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد ربنا الله لا نعبد الاَّ الله أَمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيهِ عبد الله الوليد أَمير المؤْمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين[٧]

اما طول هذا الجامع (من الشرق الى الغرب) فهو مئتان خطوة او ثلاثمئة ذراع[٨] وعرضهُ من القبلة الى الجوف مئة وخمس وثلاثون خطوة . ولهُ أربعة ابواب أَولها الباب الشرقي ويعرف بباب جيرون عليهِ عمودان من الحجر في غاية الافراط طولاً وعرضاً يقال انهما من بقايا الكنعانيين[٩] اذ ليس في وسع اهل هذا الزمان

(١) اتليدي ٥١ (٢) المسعودي ٢ * ١١٩ (٣) يافوت ٢ * ٥٩٥
(٤) القزويني ١٢٧ (٥) ياقوت ٢ * ٥٩٣ (٦) القزويني ١٢٧
ويافوت ٢ * ٥٩١ (٧) المسعودي ٢ * ١٢٠ (٨) ابن بطوطة
١ * ١٩٩ (٩) القزويني ١٢٧

قطعها ولا نقلها ثم الباب الشماليُّ ويعرف بباب الناطفيين وكان مدخل الكنيسة قدمًا ثم الباب الغربيُّ ويعرف بباب البريد ثم الباب الجنوبيُّ ويعرف بباب الزيادة وهو يفضي بالخارج منهُ الى دار معاوية[1] المعروفة بالخضراء والتي نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط . وفيهِ ثلاث مقاصير اشرفها[2] المقصورة التي اتخذها معاوية عند ما كان نصف الكنيسة في يدهِ وتعرف بالمقصورة الصحابيَّة وهي أَول مقصورة صنعت في الاسلام[3] بناها وقاية لنفسهِ من الخوارج ان يغتالوهُ في اوقات الصلوة كما اغتالوا عليًّا عليهِ السلام فكان اذا سجد قام الحَرَس على راسهِ بالسيوف[4] والى جانب هذه المقصورة خزانة مغشاة بالرسوم فيها المصحف الذي وجههُ عثمان الى الشام[5] واخرج اليَّ منها صاحب الوقوف خاتمًا من الفضة للوليد نقش عليهِ يا وليد انك ميتٌ ومحاسبٌ وآخر لاخيهِ سليمان وكلماتهُ آمنت بالله مخلصًا[6] فأَخذتها لأُطرف بهما المأمون عند وصولي الى بغداد

وعلى هذا الجامع قبَّة دورها ثمانون خطوة[7] عليها رصاص يمتدُّ منها الى ان يغطي سطوح الجامع كلَّها[8] بالواح طولها اربعة اشبار في عرض ثلاثة وربما اعترض فيها نقص او زيادة وهيئة السقوف

(۱) ابو الفدا ١ * ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ (٣) ابو الفدا ١ * ١٩٩
(٤) الفخري ١٢٩ (٥) ابن بطوطة ١ * ٢٠٢ (٦) الخميس ٢ * ٣١٤
والمسعودي ٢ * ١١٩ (٧) ابن جبير ٢٩٦ (٨) القزويني ١٢٧

من الخارج كنسر ناشر جناحيهِ[1] وكأن القبَّة رأسهُ . وهي من سمو الارتفاع بحيث انك تراها من ايّ موضع استقبلت دمشق . واما صحن المسجد فانهُ من اجمل المناظر كلها على جدرانهِ آيات من القرآن ورسوم بالذهب تحيّر البَصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومتنزههم لا يزالون فيهِ بكرة وعشيَّة بالقراءة او بمبادلة الحديث[2] والى جانبهِ مما يلي الشرق مسجد مذهَّب لأمير المؤمنين عليّ عليهِ السلام وآخر لعائشة يقال انها كانت تسمع فيهِ الحديث وكلاهما من عليّ وعائشة لم يدخلا دمشق على انهُ يقال في مسجد عليّ عليهِ السلام انهُ رُؤي في المنام مصليًا موضعهُ[3] واما موضع عائشة فلا مندوحة فيهِ والله اعلم

ولهذا الجامع ثلاث صوامع[4] واحدة بالجانب الشمالي وهي مذهَّبة من اسفلها الى اعلاها[5] وفيها مقاعد ومجالس واثنتان بالجانب الغربي واحداها اكبر الصوامع الثلاث . ووجدتُ في أروقتهِ ودهاليزهِ وصحنهِ وفي المساجد المتشعّبة منهُ ماء يجري بلا انقطاع وشاهدتُ في البلاط القبليّ قبالة الركن الايمن من المقصورة الصحابية تابوتًا معترضًا من الاسطوانة وفوقهُ قنديل موقود أبدًا في ليلٍ ونهار يقال انهُ مشهد رأس يحيى بن زكريا[6] عليهِ السلام

(١) ابن جبير ٢٩٦ (٢) ابن خلكان وابن جبير (٣) ابن جبير
(٤) ابن بطوطة ١ * ٢٠٣ (٥) الشريشي ١ * ٢٠٨ (٦) ابن جبير ٢٧٥

على الصخرة . وزرتُ مشاهد جماعة من اهل البيت والصحابة والتابعين والاولياء الصالحين[١] في جبل قاسيون ومقابر الشهداء[٢] وجبَّانة باب الصغير[٣] وبينها قبور بني أُمية متهدمة والرخام عليها متكسرٌ[٤] .وزرتُ قريةً في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة[٥] ويزعم الناس انها مولد ابرهيم خليل الله[٦] والى ما فوقها حجارة مصبوغة بالدم يقولون فيها عن قابيل بانهُ رضَّ عليها رأْس هابيل[٧] ثم جرَّهُ الى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم[٨] . وفي حضيض الجبل مغارة أُخرى تسمَّى مغارة الجوع ويزعمون ان سبعين نبياً ماتوا فيها من الجوع او اني أَستحي ان انقل حديثهم على سمينهِ فانهم ليقولون سبعين الف نبي[٩] كانَّ كل مَن عاش في الشام نبيٌّ او وليٌّ وفي طرَف الجبَل مما يلي الغرب ربوة[١٠] يقول المفسّرون انها هي المذكورة في قولهِ تعالى وآويناهما الى ربوةٍ ذات قرارٍ معين[١١] (ويردُّ عليهم آخرون بان المراد بها ربوة في الاسكندريَّة[١٢] من ديار مصر) وهناك مسجدٌ يقولون ان المسيح عليهِ السلام آوى الى مغارةٍ بجانبهِ وفيهِ حجرٌ قد انفلق الى شطرين ولم ينفصل أَحد الشقَّين عن الآخر بل اتصلا

(١) ابن جبير والشريشي ٢ * ٢٢٦ والطبقات ١ * ٢٩ والمسعودي ٢ * ٤٢
(٢) قضاة الشام (٣) ابن خلكان (٤) ابن جبير ٢٨٢ والمسعودي ٢ * ١٤٢ وابن الاثير ٥ * ١٢٠ (٥) ابن جبير ٢٧٥ (٦) ياقوت ٢ * ٥٨٩ (٧) القزويني ١٢٦ (٨) ياقوت ٢ * ٥٨٨ (٩) القزويني
(١٠) ابن بطوطة ١ * ٢٢٣ (١١) القزويني ١٢٨ (١٢) المحاضرة ١ * ٣

كرمّان مشقوق[١] . ولهذا المكان منظر حسن الى البساتين والخضرة في جميع جوانبهِ ولا إِشراف كاشرافهِ حسنًا وجمالاً واتساع مسرحٍ للابصار . وفيهِ تنقسم امواه المدينة الى أَنهار سبعة[٢] اكبرها نهر ثورى ونهر يزيد[٣] وهما فيهِ نهرٌ واحدٌ يعرف بنهر بَرَدَى . وهناك بعض قرًى مثل نَيْرب ومزَّة والسهم والسطر[٤] وفيها الجوامع والمرافق والحَّامات[٥] الاَّ انهُ لا يظهر منها الاَّ ما سما بناؤُهُ لتطاول الشجر عليهِ وفيها من الفواكه والتفَّاح والخوخ المسمَّى عندهم بالذراقن[٦] وسائر الاثمار ما ليس في البلاد مثلهُ[٧] صحَّةً وطيبًا والى ما يليها من طرف الجَبَل موضعٌ يقال لهُ عين برما[٨] كان معمورًا لايام معاوية بجماعة من الخراسانيين ثم توالى عليهِ الخراب[٩] بما ظلم الخلفاء بعدهُ حتى أَصبح الى هذه الغاية قليل العيْن وبقي الأَثر من عمارتهِ وذهب العين

ولقد كانت دمشق فيما خلى من الزمان يعيبها كثرة الوحول في أَزقتها وتراكم الطين في ساحاتها واماكنها فلما أُقام بها الامويون شرعوا فى إِزالة الاقذار منها[١٠] وقايةً من الطاعون الذي كان ينزل بها تباعًا في السنين السالفة[١١] وهذا هو الأَثر الذي تشهد لهم

---

(١) ابن جبير ٢٨١ والقزويني ٢٨ (٢) تقويم ٢٥٢ (٣) ابن خلكان ١ * ٢٧٨ (٤) كليات ٢٠٢ (٥) ابن جبير ٢٧٩ (٦) اغاني ١ * ٢٦ (٧) الكنز ١٤٤ (٨) المسعودي ٢ * ٨٣ (٩) المسعودي ٢ * ٦٢ (١٠) ابو الفداء ١ * ٢١٧ (١١) المسعودي وابن الاثير

البلاد بهِ كما تشهد بجميل عنايتهم في تشييد البناء على الهندسة التي ليس اعظم منها وقعًا في القلوب ولا أتمَّ حسنًا وجمالاً في العيون كالذي يبلغنا عمَّا بنوهُ[١] في الاندلس من القصور[٢] التي تحار في جمالها عقول الفرنجة . فقد شاهدتُ دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم الباقية في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنيَّة بالحجر الصفاع والعُمُد ومفروشةً بالرخام الاخضر[٣] وهي تتناهى بالبهاء والاشراق حتى يُضرَب المثلُ[٤] في احكام رسومها وجلالة بنيانها ولو لم يكن من تمام زينتها الاَّ العمدان المزخرفة منصوبةً في اروقتها فرادى وازواجًا[٥] لكفى البصائر روعًا ووسع الابصار ابتهاجًا فاذكر انهُ لما أدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الاشجار[٦] الغريبة لم يحول نظري عن القصر لما راعني من حسنهِ المفرط وأعجبتُ بهِ من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل المستغرب لما بين يديهِ وهو بين[٧] أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن[٨] مخرَّمة وخرجات مزيَّنة وطيقان مجسمة وما بينها من الرسوم العجيبة[٩] ما تجول فيهِ الافكار فتجلُّهُ وتميل اليهِ الانظار فما تملُّهُ

(١) ابن الاثير كتاب ٥ و ٦ (٢) المقري (٣) الوطواط ١١١
(٤) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤ (٥) المقري (٦) الوطواط ١١١
(٧) الف ليلة وليلة (٨) اغاني ٥ * ١٠ (٩) المقري في نفح الطيب

ذكر جامع الوليد المعروف بالجامع الأُموي

هو أَفخر مأْثرةٍ لملوك أُميَّة في دمشق بناهُ الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المذكور وكان ذا همَّةٍ في تشييد العمارات[1] والمساجد حتى كانت الناس لأَيامهِ اذا تلاقوا في الأَسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة[2] وعن ايّ بناءٍ شرع فيهِ خليفتهم كدأْبهم من التساؤُل عن الخير في ايام عمر بن عبد العزيز وعن الطعام في ايام سليمان بن عبد الملك وعن اللهو في ايام يزيد بن الوليد وليس في الاسلام كلهِ مثل[3] هذا الجامع حسناً[4] واتقاناً وجمال رسم[5] وهو مائل الى الجهة الشمالية من المدينة وسمعت عن سفيان الثوري انهُ قال ان الصلوة فيهِ بثلاثين الف صلوة[6]

كان موضعهُ قبل الاسلام بيعةً للنصرانيَّة[7] تعرف بكنيسة ماريحنا[8] ومن قبل ذلك بيت عبادة لأَهل جاهليتهم[9] فلما دخل المسلمون المدينة عنوةً تحت قيادة خالد بن الوليد أَخذوا نصف الكنيسة ثم دخل عبيدة بن الجراح[10] صلحًا فانتهى الى نصفها

---

(١) ابن جبير وياقوت ١ * ٥٩١ وابو الفدا ١ * ٢٠٩ وابن الاثير ٥ * ٤ والفخري ١٥١ والمقدمة ٢١٠ (٢) القزويني ١٢٧ (٣) الشريشي ١ * ٢٠٨ (٤) تقويم ٢٢٠ وابن بطوطة ١ * ١٩٧ (٥) ابن جبير ٢٦٣ (٦) ابن بطوطة ١ * ٢٠٤ وابن جبير (٧) ابن الاثير (٨) ابو الفدا ١ * ٢١٠ (٩) ياقوت ٢ * ٥٩١ (١٠) ابن الاثير

الآخر وقد وقع الصلح بينهُ وبين النصارى فبقي نصفها في ايديهم (١) وكانوا يزعمون ان الذي يهدم بيعتهم يجنّ (٢) فلما صارت الخلافة الى الوليد قال أَنا أَول من يجنّ في سبيل الله ثم بدأَ الهدم بيدهِ (٣) فبادر المسلمون واكملوا تخريبها حتى هاجت النصرانية وعلا صياحهم فعوَّضهم الوليد عنها بمالٍ جسيم وأَرضاهم بعدَّة كنائس صالحهم عليها (٤) ثم وجَّه الى ملك الروم (٥) في اشخاص اثني عشر الفًا من العَمَلة والصنَّاع والمرخّمين وتقدم اليهِ بالوعيد في ذلك ان توقف (٦) ثم اكمل هدمها سوى حيطانها وأَنشأَ فيها النسر والقناطر وحلَّاها بالذهب (٧) وعلق عليها الاستار من الوشي والابريسم وبقي العمل فيها نحوًا من تسع سنين وكان يعمل فيها الف مرخّم والعمُد العجيبة (٨) من الرخام والمرمر تأْتيهم من كنيسة للنصارى في انطاكية تعرف بمزور (٩)

وغرم الوليد على هذا الجامع من الدنانير المصرية زنة مئة وأَربعة واربعين قنطارًا بالدمشقي (١٠) وذلك يعادل عشرة آلاف الف دينار (١١) وقد قرأْت في بعض المجاميع أن جملة المنفوق عليهِ كان اربعمائة صندوق وفي كل صندوق ثمانية وعشرون الف

(١) الواقدي (٢) ابن بطوطة ١ * ١٩٨ (٣) ابن جبير ٢٦٤
(٤) الخميس ٢ * ٢١١ (٥) المقدمة ٢١٠ (٦) ابن جبير ٢٦٢
(٧) الخميس ٢ * ٢١١ (٨) تقويم البلدان ٢٣٠ (٩) المسعودي ١ * ٢٧١
(١٠) الخميس ٢ * ٢١١ (١١) ابن جبير ٢٦٢

دينار[١] ففي القدر الحاصل منهُ توافق بين الروايتين . وكان المتولي على النفقة عمر بن عبد العزيز[٢] (من قبل ان يتولى الخلافة) فاتخذ في المسجد ستمئة سلسلة من الذهب للقناديل والثريّات[٣] ونزّل جدرانهُ بفصوص الذهب من الفسيفساء ممزوجةً بانواع من الأَصباغ الغريبة تمثّل اشكالاً من الرسوم ليس أَبهج منها في العيون ورفع عمدانهُ الرخام المجزّع طابقًا فوق طابق[٤] فاتّخذ الأَساطين الضخمة فيما يجاري الارض والسواري الدقاق فيما يعلو[٥] القباب وفي خلال ذلك صور المدن والاشجار بالالوان والذهب[٥] وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد ربنا الله لا نعبد الاَّ الله أَمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيهِ عبد الله الوليد أَمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين[٧]

اما طول هذا الجامع (من الشرق الى الغرب) فهو مئتان خطوة او ثلاثمئة ذراع[٨] وعرضهُ من اللقبة الى الجوف مئة وخمس وثلاثون خطوة . ولهُ أربعة ابواب أَولها الباب الشرقي ويعرف بباب جيرون عليهِ عمودان من الحجر في غاية الافراط طولاً وعرضًا يقال انهما من بقايا الكنعانيين[٩] اذ ليس في وسع اهل هذا الزمان

(١) انليدي ٥١ (٢) المسعودي ٢ ☆ ١١٩ (٣) ياقوت ٢ ☆ ٥٩٥
(٤) القزويني ١٢٧ (٥) ياقوت ٢ ☆ ٥٩٣ (٦) القزويني ١٢٧
وياقوت ٢ ☆ ٥٩١ (٧) المسعودي ٢ ☆ ١٢٠ (٨) ابن بطوطة
١ ☆ ١٩٩ (٩) القزويني ١٢٧

قطعها ولا نقلها ثم الباب الشماليُّ ويعرف بباب الناطفيين وكان مدخل الكنيسة قدمًا ثم الباب الغربيُّ ويعرف بباب البريد ثم الباب الجنوبيُّ ويعرف بباب الزيادة وهو يفضي بالخارج منهُ الى دار معاوية[١] المعروفة بالخضراء والتي نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط . وفيهِ ثلاث مقاصير اشرفها[٢] المقصورة التي اتخذها معاوية عند ما كان نصف الكنيسة في يدهِ وتعرف بالمقصورة الصحابيَّة وهي أَول مقصورة صنعت في الاسلام[٣] بناها وقاية لنفسهِ من الخوارج ان يغتالوهُ في اوقات الصلوة كما اغتالوا عليًّا عليهِ السلام فكان اذا سجد قام الحَرَس على راسهِ بالسيوف[٤] والى جانب هذه المقصورة خزانة مغشاة بالرسوم فيها المصحف الذي وجههُ عثمان الى الشام[٥] واخرج اليَّ منها صاحب الوقوف خاتمًا من الفضة للوليد نقش عليهِ يا وليد انك ميتٌ ومحاسبٌ وآخر لاخيهِ سليمان وكلماتهُ آمنت بالله مخلصًا[٦] فأَخذتها لأُطرف بهما المأمون عند وصولي الى بغداد

وعلى هذا الجامع قبَّة دورها ثمانون خطوة[٧] عليها رصاص يمتدُّ منها الى ان يغطي سطوح الجامع كلَّها[٨] بالواح طولها اربعة اشبار في عرض ثلاثة وربما اعترض فيها نقص او زيادة وهيئة السقوف

(١) ابو الفدا ١ * ٢٠٤ (٢) ابن جبير ٢٧٥ (٣) ابو الفدا ١ * ١٩٩
(٤) الفخري ١٢٩ والمسعودي ٢ * ١١٩ (٥) ابن بطوطة ١ * ٢٠٢ (٦) الخميس ٢ * ٢١٤
(٧) ابن جبير ٢٩٦ (٨) القزويني ١٢٧

من الخارج كنسر ناشر جناحيهِ [١] وكأَن القبَّة رأْسهُ . وهي من سمو الارتفاع بحيث انك تراها من ايّ موضع استقبلت دمشق وأما صحن المسجد فانهُ من اجمل المناظر كلها على جدرانهِ آيات من القرآن ورسوم بالذهب تحيّر البَصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومتنزههم لا يزالون فيهِ بكرة وعشيَّة بالقراءة او بمبادلة الحديث [٢] والى جانبهِ مما يلي الشرق مسجد مذهَّبٌ لأَمير المؤْمنين عليّ عليهِ السلام وآخر لعائشة يقال انها كانت تسمع فيهِ الحديث وكلاهما من عليّ وعائشة لم يدخلا دمشق على انهُ يقال في مسجد عليّ عليهِ السلام انهُ رُؤي في المنام مصليًا موضعهُ [٣] واما موضع عائشة فلا مندوحة فيهِ والله اعلم

ولهذا الجامع ثلاث صوامع [٤] واحدة بالجانب الشمالي وهي مذهَّبة من اسفلها الى اعلاها [٥] وفيها مقاعد ومجالس واثنتان بالجانب الغربي واحداها اكبر الصوامع الثلاث . ووجدتُ في أَروقتهِ ودهاليزهِ وصحنهِ وفي المساجد المتشعّبة منهُ ماءً يجري بلا انقطاع وشاهدتُ في البلاط القبليّ قبالة الركن الايمن من المقصورة الصحابية تابوتًا معترضًا من الاسطوانة وفوقهُ قنديل موقود أَبدًا في ليلٍ ونهار يقال انهُ مشهد رأْس يحيى بن زكريا [٦] عليهِ السلام

(١) ابن جبير ٢٩٦ (٢) ابن خلكان وابن جبير (٣) ابن جبير
(٤) ابن بطوطة ١ * ٢٠٢ (٥) الشريشي ١ * ٢٠٨ (٦) ابن جبير ٢٧٥

ومن حوله عمدٌ عجيبة قد ظهرت فيها عروقٌ أُخرى من اجناسها حتى يخيّل للعين انها منزّلة فيها بايدي الصنّاع . وفي الجملة فان محاسن هذا الجامع أعظم من ان تحاط بوصفٍ والناس لا يزالون فيهِ متفرّجين ومتنزّهين ولذلك أقام فيهِ صاحب الوقف حرساً وكّلهُ باخراجهم منهُ بعد صلوة العتمة [1] لاني احسب الزائر لو تردّد اليهِ زمانهُ لراى في كلِّ يومٍ ما لم يرهُ قبل [2] ذلك من جمال الرسم واحكام الصناعة [3] كما أُحسب انهُ لا يزورهُ احدٌ الّا ويجدد الدعاء لبانيهِ [4] وان لم يكن غرضهُ مع الأمويين

المرور ببعلبكّ وركوب البحر من بيروت

رجع الى اقتصاص الرحلة . ركبتُ من دمشق في غد اليوم الذي سفّرتُ فيهِ الغلمان الى بيروت وملتُ في منتصف الطريق الى بلدةٍ غنّاء ذاتِ سور قديم يقال لها بعلبكّ (ومنها الى الزبداني وهي مدينة على طرف وادي بردَى ثمانية عشر ميلاً [5]) وهي ذات اشجار وانهار وعيون وخيرات كثيرة [6] وفيها الكرم الخصيب . ولقيت فيها فيلسوفاً من النصارى يقال لهُ قسطا بن لوقا [7] صحبني

(١) اغاني ٦ * ١٢٨ (٢) القزويني ١٢٧ (٣) ياقوت ٢ * ٥٩٢
(٤) ابن جبير (٥) تقويم البلدان ٢٥٥ (٦) ابن بطوطة ١ * ١٨٥ (٧) المقري (في ترجمة يعقوب الكندي)

الى زيارة الآثار الموجودة فيها وأخبرني عنها بما سترى بعضهُ في سياق الحديث

فان آثار بعلبك قد أخذت بمجامع قلبي حيرةً واعجاباً واعظمها هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر[١] وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر ما لا يتأتى حفر مثلهُ في الخشب مع ارتفاع جدرانهما وعظم حجارتهما وطول اساطينهما ووسع فتحها وعجيب بنيانهما مما يذهل الألباب تحيُّراً[٢] في اقتدار الرجال على مثل هذه العظائم. وقد اخبرني قسطا هذا الفيلسوف انهُ لا يرى هذين الهيكلين الاَّ من بنيان أُمةٍ ماهرةٍ في علم الهندسة كما انهُ لا يرى الحنايا التي تقلُّها الاَّ أعتق من الآثار الظاهرة ففي ظنهِ انها وضعت لايام سليمان عليهِ السلام حتى اذا جاءت الروم هدموا المعبد العتيق ورفعوا الهياكل الماثلة مكانهُ

اما الحجارة الثلاثة العظيمة التي تُعدُّ من عجائب[٣] الاكوان فقد رفعها الروم بتعاون ايدي عبيدهم على ما جرت عادتهم من استخدام أَسرائهم في البنيان وليس كما تزعم العامة من ان الجان بنوا ذلك لسليمان كدأبهم مما يقولون[٤] في كل أَثر لا يقدر ان يأْتي بمثلهِ اهل هذا الزمان وانما رفعها الروم بالحيل الهندسيَّة والقوة الآدميَّة[٥]

(١) المسعودي ١ * ٢٩٦ (٢) المسعودي ١ * ٢٩٦ (٣) المحاضرة ١ * ٢١ (٤) القرماني ٥ * ٨١ و ١٧٠ والقزويني والف ليلة وليلة والمحاضرة ١ * ٤٤ والمسعودي (٥) المقدمة ٢٥٨

استدلالاً مما نجد في اطرافها من الأنقرة التي تقضي بانها كانت تُرفع جرًّا بالأمراس بان تمهَّدَ لها الارض سطحًا من التراب ينتهي الى حيث هي مرفوعة ثم تجرُّ بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الاطراف حتى لا تغوص في التراب وصغيرة الجرم حتى تحتمل الثقل وتكون اشدَّ صلابة من البكرات المستغلظة التي تستمرُّ عرضةً للقصف ولا تأْتي بالمقصود من استعمالها لرفع الاثقال

ولقد كانت سياسة الروم مع الأُمم التي يتغلَّبون عليها ان يأْخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها اليهم ويبيتوا في أَمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار الى تحريسها بالجند اذ تنبئُ الاخبار السالفة انهم كانوا يملكون معظم الدنيا فلو دعاهم حفظ البلدان الى اقامة الجند فيها لاقتضى لهم آلاف أُلوفٍ وهذا بعيدٌ عن ان تقوم دولة من دول العالم بكفالتهِ . فلما دانت لهم الشام وكان بعل معبودًا فيها من الصائبة وغيرهم (كما قال الله تعالى بالاشارة اليهم أَتدعون بعلاً وتذرون احسن الخالقين[1]) بنوا لعبادتهِ هذا الهيكل على شكل غريب يقصدون منهُ المعجزة ليظهروا ضخامة ملكهم لاهل المشرق واقتدارهم على عظائم الأُمور اذ ليس للظن بانهم قصدوا اليهِ المَنعَة موضع في تأَمل العقلاءِ . فهذا احد اللولبين اللذين يفضيان بالراقي عليهما الى سطوح الهيكل قد اتُّخذ

(١) المسعودي ١ ☆ ٢٩٦

أَعلاهُ بما هو زائدٌ عن النصف من حجرٍ واحدٍ فُصِّلَتْ منهُ الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاتهِ وكذلك الحجارة الثلاثة قد اتُّخذت في أَعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبكَّ من حيث هو مستقبلٌ لها. فلو انهُ أُريد بها المَنَعَة لاقتضى ان تكون في اسفل الجدار لا في أَعلاهُ كما انهُ لو أُريد ذلك من اللولَب لكان النصف المتخذ من قطعةٍ واحدةٍ قائمًا فيما يداني الارض أَو يماسُّها حتى اذا وَهَى عليهُ بقي هو في موضعهِ او تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مردًّا لمهاجمة العدوّ

ثم انهُ لما انقرضت الروم الأُولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أَخذوا في تعظيم النصرانيَّة رأَوا ان بقاء هذا الهيكل محجَّةً للناس تنشغف أَفئدتهم بما فيهِ من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهي دونهُ في البهاء والاشراق مضرٌّ بالنصرانية وحابسٌ لها عن ان تعمَّ الشام فعمدوا الى تخريبهِ ومحو الاثر الماثل منهُ وكان في القسطنطينيَّة فطريك ذو عقلٍ وعلمٍ ودهاء يقال لهُ فم الذهب يوحنا فاشار على القيصر ان يتخذهُ كنيسةً لعبادتهم حتى تحصل المنفعة منهُ مع حفظ الاثر الجميل فاتخذهُ كذلك وفي رواية انهُ أَشار عليهِ بان يشغل فيهِ الفاسات فما فعل او يقال انهُ فعل. فانظر الى شأن هذا الهيكل كيف تقلبت بهِ الاغراض فقد شادهُ الروم الأُولى لغرضهم في الدنيا ثم خربهُ الروم الثانية لغرضهم في الدين ثم

مثلت آثارهُ لهذا الزمان لتنطق بعزَّة الله وتشهدان ليس من باق إلاَّهُ

ولما انفصلت عن بعلبك مررتُ بسهل أفيح يقال لهُ البقاع وعرَّجتُ فيهِ على موضع يسمَّى بكرخ نوح[١] ويزعم اهلهُ ان فيهِ قبر صاحب الفلك عليهِ السلام . وكنت أرى بقربهِ من كل قرية من قراهُ ردومًا قد تراكمت امثال التلال كانها من بقايا امة قد خلتْ .

وصرفتُ من بعلبك الى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة المسلك فيهِ وكنتُ اميل الى عيون القرى لتنزيهِ النفس ورواءِ الظماء وانها لكثيرة في هذا الجبَل المبارك وهي تمذغ في شغفاتهِ . واقمتُ في بيروت حرَسها الله ثلاثة ايام في انتظار الريح الموافقة وهي مدينة جليلة[٢] على ضفة البحر طيّبة الاقليم عليها سور من حجارةٍ[٣] وتحفُّ بها عمارةٌ مشتبكة في سفح لبنان كان يستعذبها الوليد بن يزيد المقدم ذكرهُ فيقول[٤]

ربَّ بيتٍ كأنهُ متْنُ سهمٍ ... سوف نأتيهِ من قرى بيروتِ

ثم يقول[٥] والنفس تائقةٌ اليها والفؤاد شَغِفٌ بجماها

ألا يا حبذا شخصٌ ... حما لقياهُ بيروتُ

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام وفي مرساها مجتمع كثير من السفن[٦] التاجرة ويجلب منها حديد[٧] لبنان الى ديار مصر . والى شرقها نهرٌ

(١) ابن بطوطة ١ * ١٣٢ (٢) تقويم البلدان ٢٤٧ (٣) الادريسي
(٤) اغاني ٦ * ١٢٣ (٥) ياقوت ١ ٧٨٥ واغاني ٦ * ١١٧ (٦) الادريسي
(٧) ابن بطوطة ١ * ١٣٢

يغلظ في الشتاء قد بنى لهُ اهلها من قديم الزمان قناةً[1] يجرُّون الماء عليها اليهم والى غربها مشهد الاوزاعيّ رحمهُ الله وهو مولود بعلبكّ[2] وفخر المحدثين من اهل الشام لهُ في علوم الحديث[3] مدوَّنات جمع فيها الصحيح المرويّ عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم وعنهم واستخرج الاحكام الشرعيَّة على مذهب ينفرد بهِ اهل تلك البلاد وقد كان لبيروت شأْن عظيم في مطرف الايام وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومَن قام بعدهم بثقل الدول الجسام وكان للعلوم فيها سوقٌ ليس بعدها غاية في الرواج حتى انها دعيت بمدينة الحكمة. وكان فيها للروم منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها[4] جلوًّا لا رجوع لهم بعدهُ باذن الله . ثم عاد اليها العمران من بعدهم بقيام الخلافة في دمشق اذ كانت المدن لا تصلحُ الاَّ بقيامها بالمُلك او قيام المُلك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود وينطلق الأَمن للتجارة

وان كنت قد شهدتُ لهذه المدينة بطيب الهواءِ فلستُ بالناكر ما في ريحها الشمالي من الرطوبة التي تؤْتي الرأْس أَلمًا لا يشعر بهِ اهلها الاَّ الغريب الزائر[5] غيران هبوبهُ فيها ليس بالمتدارك حتى نعدَّهُ من عيوب الاقاليم وانما الغالب على بيروت ريح الصبا الذي

(١) تقويم البلدان ٢٤٧ (٢) طبقات ١ * ٥٠ (٣) ابن خلكان
(٤) الواقدي (٥) القزويني

ينعش النفس يأتيها من جهة الغرب حيث الرمال المنبسطة على شاطئ البحر فربما وجدت هذا الموضع اصلح للسكنى من البَلَد العتيق وفي نفسي انهُ اذا توفّر عمرانهُ عن ان يسع اهلَهُ فلا بدَّ ان يحدثوا ابناءهم فيهِ اذ كان أَدرى عن ريح الشمال وأَقرب الى استقبال نسيم الصبا

وركبت البحر من هذه المدينة في أَول يوم من شعبان واقلعت مركبنا بهواء شمالي ليس بالثقيل ولا بالخفيف ولكنهُ لطيف ارسلهُ الله علينا من كرمهِ ولطفهِ. واستمرَّ سيرنا في البحر نحواً من عشرين يوماً. الى ان اقبلنا على مالطة وهي جزيرة من اول بلاد الفرنجة وبها كنائس لأُمم النصرانيَّة وهم ينغلون فيها فبتنا ليلةً في مرفإِها وتسوَّقنا منها الزاد ثم اقلعنا عنها الى مرشيلية في ساحل الديار الرومية الى غرب اللنبردية (١)

لقاء الانبرذور والمنصرف من الرسالة

ولما أَقبلنا على مرشيلية لم نرَ بها شيئاً من محاسن العمران . ولا وجدنا في أَهلها أَثرًا من ظواهر المدنيَّة وانما كانوا من قبل ان تملكهم الانبرذور يهيمون في القفر على وجوههم ولا معاش لهم الاَّ الغزو والسرقة شأْن الأُمم في خشونتهم وباديتهم فلما استولى على ممالكهم

(١) تقويم ٢١٩

أَقام عليهم أَميرًا فوَّض اليهِ الجند والقضاء وجباية الاموال وجعلهُ بمنزلة الوزير في الاسلام واقام تحت يدهِ طائفةً من العمَّال يتولَّون المناصب في ولايتهِ ولهم القاب معروفة عندهم مثل المركيس[1] وغيرهِ. ولم أَرَ في عمارة مرشيلية المزخرفة الَّا الكنائس التي نصبها هذا الانبرذور وهو الذي نصَّرَ أُمَّتهُ ونصَّر القسيسين والرهبان بعد ان اذاقهم اهل جاهليتهم صبر البلاء بل أَمرَّ ونار الاضطهاد بل أَحرَّ فلما اطمأَن لهُ المُلك نظر بعين العناية اليهم وأَحسن بالنعم الطائلة عليهم واتخذ منهم اولياء يستشيرهم في أُمورهِ[2] ويرجع في السياسة الى رأْيهم اذ كان القوم من دونهم همجًا لا يعرفون القراءة ولا نيط عن بصائرهم تمائم الجهل ومعظمهم عبدٌ للمتموّل من التجَّار يموتون جوعًا بين يديهِ وهم يبلّلون أَرضهُ بعرَق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرةٍ يرتمقون بها على الحيوة. فأَين هذا من حضارة العرَب وصلاح أَمرهم واتساع المعايش بين ايديهم واحتذائهم أَشرف السنن العادلة فكانَّ الله تعالى قد اختصَّ امَّتهُ من الفضل والنعمة[3] بما حرَم منهُ أُمم المغرب فانما العرَب أَحلى منهم وأَحلم وأَعلى وأَعلم وأَقوى وأَقوم وأَعطى وأَعطف وأَحصى وأَحصف وأَشرى للفخار وأَشرف وأَنفى للعار وآنف وكفاهم من نعم الله السابغة ما ركّب في طبائعهم من الانفة وكبر النفس فاذكر انك رأَيتهم يتظلَّمون[4] الى الخلفاء من العمَّال الجائرين ويبذلون

(١) الانس الجليل ١ * ٢٨٩ (٢) المقدمة (٣) المسعودي ١ * ٢٣٦
(٤) الماوردي ١٥٦ والابشيهي ١ * ١٢١ وابن عون والسيوطي

نفوسهم دون احتمال الضيم ولو طرفة حين

وقد شاهدتُ في ديار القوم كثيرًا من الأُمور التي اخاف إِن أَتيت على بيانها ان تسوق بي الحديث الى الخروج عما انا بصددهِ من ذكر الرسالة. وقد وجدتُ عاداتهم غير منطبقة على عادات المشارقة بل ان كثيرها مستهجن او باقٍ على خشونة جاهليتهم. ومن الغريب المألوف عندهم ان النساء يمشينَ في الاسواق بلا نقاب (١) ويجالسنَ مع الرجالِ حاسراتٍ عن الوجوه وهذا استرسالٌ لا اظنُّ انهُ تصان معهُ الأعراض مثل صيانتها في المشرق من وراء الحجاب وقد وقع بيني وبين الامير الذي صحبني في مرشيلية مذاكرة في هذا الامر فكان يظنُّ ان المرأَة ذليلة في ملتنا وان حظور ظهورها الى الرجال واقعٌ عليها من قبيل التحقير والاسترقاق فلما ذكرتُ لهُ ان الله تعالى قد وفاهنَّ حقوقهنَّ في الدنيا والدين ووعد الصالحات نعيمًا مقيمًا في الآخرة وامر بان تجرى عليهنَّ الوراثة التي لم تكن لهنَّ قبل الاسلام قال صحيح ولكن العامة عندنا ترقُّ طباعهم وتحسن اشارتهم ويعذب كلامهم و يظرف معشرهم الى خلالٍ محمودة من الرقَّة يكتسبونها من هذه المخالطة ثم لا تكون في المشرق الذي لا تجمع مجالسهُ الاَّ الندماء والغلمان

وكان امير مرشيلية عند ما اتصل بهِ خبر وصولي بالرسالة

(١) الانليدي

قد أخرج اليَّ الجند ولم يترك شيئًا من مظاهر الاحتفاء الاَّ اجراهُ في سبيل تعظيمها والاجلال لها . فلما سألتهُ عن الانبرذور اخبرني انَّ لهُ غيبة في رومة لامرٍ بينهُ وبين الباب (وهو خليفة الأمم النصرانيَّة[1]) وانهُ يمكث عندهُ اربعين او خمسين يومًا . فاستطولتُ هذه الغيبة منهُ وخفتُ فوات الحج فرأيتُ ان اوافيهُ الى رومة . فركب معي من لدن الامير رسولٌ الى القيصر وخضنا عباب ذلك البحر الذي لم تشقهُ بعدُ سفن المسلمين حتى منَّ الله علينا بالوصول الى ساحل رومة سالمين بعد ان تهنا عنهُ مسيرة عشرين ميلاً وكدنا ان لا نهتدي اليهِ لولا ان رأى الربَّان في الليل نارًا تنبعث من أُطمةٍ[2] يقال لها بركان[3] في لغة الروم وموقعها فيما اخبرنا الرسول قبالة رومة الى الجنوب[4]

ولما اقبلنا على رومة انهى الرسول الى الانبرذور قدومي من لدن الرشيد فسيَّر اليَّ امراء دولتهِ واهل حاشيتهِ وبطانتهِ فساروا بي الى حيث هو مقيم في قصر الباب وهو قصرٌ بل قصورٌ قد جمعت بين الضخامة والاحكام وعني البابون من خلفاء المسيح عليهِ السلام في تجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهةً توصف بالحسن وكنتُ حين جاوزني الامراء مقاصيرها الى مجلس الانبرذور[5] قد رأيتُ على

(١) تقويم البلدان ٢٠٩ (٢) المسعودي ١ * ١٩٦ (٣) ابن جبير ٢٢١ وتقويم البلدان ٢٠٠ (٤) الادريسي (٥) هكذا وردت في ابن خلكان ١ * ٨٤

جدرانها صور ملوكٍ وأئمّةٍ وعبّادٍ قد طحنتهم رحى المنون من املاك العصور الخالية. فلما دخلت عليهِ اصبتهُ جالسًا على منصّةٍ من فوقها قبّة عليها كتابة بالرومية وهي مجلّلة بالذهب وعلى رأسهِ تاج مرصّع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد وفي يدهِ قضيب المُلك وعليهِ حلّة من الوشي كاعظم ما يكون من حلل الملوك وبين يديهِ حَرَسٌ قد وقفوا بالسيوف المشهرة وبينهم طائفة من الجثالقة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشي الذي يقيمون بهِ الصلوة في اعيادهم ومواسمهم ولكن كالذي لم نرَهُ فيمن يجاورنا منهم في المشرق حسنًا يكاد ان يأخذ بالابصار لشدّة لمعانهِ

فلمّا مثلت بين يديهِ قمت بما وجب عليَّ من تعظيمهِ والاجلال لهُ وبلّغتهُ سلام الرشيد على لسان المترجم. فكلّمني بترفُّع الملوك الذين يحاولون القاء المهابة في قلوب الوافدين عليهم ولكن من غير ان يكون في نفسهِ جبروت وشكر من الرشيد مودّتهُ واثنى عليهِ ثناء جميلًا. وكان الامراء والرهبان يمدّون اليَّ اعناقهم ويحدقون بي ابصارهم كأنهم لم يروا من قبلي مشرقيًا ثم أشرت الى الترجمان ان يذكر لهُ هدية الرشيد وانهُ يطرف بها جلالتهُ لارتباط المودّة فيما بينهما فشكرني على ذلك مرّةً ثانية ثم استدناني منهُ وامرلي بالجلوس واخذ في مسألتي عن الرحلة تعطفًا عاد اليهِ بعد الترفُّع فكنت أُجيبهُ بما تقتضيهِ الرسوم من حمد الله على ما اتاهُ من الملك العظيم والثناء

عليهِ بما اوجد للرعية من الخير والعمران ثم سأَلني عن الدولة في المشرق وانهُ يروم ان يكون الدهر في صفاء للرشيد فأَجبتهُ بما في الاشارة منهُ تحفُّظ عن ذكر أَمر أُمَيَّة والملأ من الاعيان حاضرون فسأَلتهُ ان يأْذن لي بالدخول عليهِ في خلوةٍ وانفراد فأَجابني الى ذلك وهو يظهر ائْتناسهُ بي وتوسُّمهُ الخير مما وقع بينهُ وبين الرشيد من التوادّ

ولمَّا انصرفت عن حضرتهِ أَوقف لصحبتي من عظماء دولتهِ اميرًا ملك قلبي برقة نفسهِ واحسن منقلبي بلطيف أُنسهِ لم يترك اثرًا مشهورًا في رومة من قصرٍ منيف ولا منزل مشرق ولا مشهد مزخرف الَّا سار بي اليهِ واراني ليعظم في عينيَّ أَمر الفرنجة فما كنت لاكبر من مبانيهم الَّا الكنائس المعظمة وتأَنقهم في تنميقها بالرسوم التي تتناهى في الحسن وجمال الزينة وهذا أَثرٌ من الصناعة ينفردون بهِ دون المشارقة الذين تنهاهم ملتهم عن الرسم[1] (وانما هم في حاجةٍ الى صناعتهم كلَّ ما بنوا قصرًا او مسجدًا كما علمتَ[2]) الَّا انهُ لا يصحُّ استفرادهم بالحذاقة فيهِ دونهم لانقطاع الموازنة فيما يتركهُ البعض ويأْخذ فيهِ الآخرون وفي نفسي انهُ لو لم يكن منهيًا عن المسلمين في شرعهم لما بعد ان يبرعوا فيهِ الروم فقد رأَيت من عمل الرسَّام في المشرق الأَقصى ما يقرب ان يكون في جودة عملهم ورأَيت صورًا من

(١) المقدمة ٢٢٨ (٢) المقدمة وابن جبير ٢٦٢

بلاد الصين وقعت الى البرامكة وهي تمثّل رجالاً ونساء واولادًا بحيث ان الناظر ليميز بين الانسان الضاحك والباكي حتى انهُ ليميّز بين ضحك السرور وضحك الشماتة [١] وهذا شأن من الدقة لم أرَ مثلهُ في كثير من صور الروم

فأعظم ما تصفحت من كنائس رومة بيعة بطرس حواريّ المسيح عليهِ السلام وهي من عجائب الدنيا [٢] فيها من الرسوم والنقوش والاصباغ والذهب [٣] ما اذكرني جامع دمشق في بهائهِ وجمالهِ وهي أبدع بنايةٍ شاهدتها في دار الروم وامتدادها مع مقاصيرها نحو من ستمئة ذراعٍ [٤] وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك [٥] وهي مسقوفة بالرصاص ومفروشة بالرخام المجزّع وعلى يمين الداخل من آخر ابوابها حوض عظيمة للمعموديَّة يجري فيها ماءٌ ابدًا من النهر الذي يشقُّ المدينة [٦] . وفي صدرها كرسيٌّ مذهبَّة يجلس عليها الباب في ايام المواسم وتحتهُ باب مصفَّح بالفضة يؤدّي الى سردابٍ فيهِ مشهد بطرس عليهِ السلام (فيما يزعم الروم) ولكن اهل الشرق من الروم الملكيَّة [٧] يردّون ذلك عليهم ويذهبون الى ان بطرس انما قبض في انطاكية وليس في رومة وان كرسي انطاكية هو المقدّم على كرسي رومة وفي هذه الأقاويل نَظَرٌ لا موضع لهُ في هذا الكتاب وفي خارج الكنيسة عمودٌ من رخام

(١) القرماني ٥ * ٢٢٤ (٢) المقريزي والمحاضرة ١ * ٢١ (٣) القزويني (٤) تقويم ١٩٩ (٥) ابن خردادبة ٩٢ (٦) تقويم ٢١١ (٧) المسعودي ١ * ١٤٩

قائمٍ على قواعد اربع من النحاس وفي اعلاه عمود من الصفر قد رفعت على رأسهِ كرةٌ مذهبة يراها كلُّ من في رومة كأنها علَم لموضع الكنيسة

ولما كان الغد استدعاني القيصر اليهِ فلقيتهُ في ثيابٍ من الديباج وعليهِ تاج من الجوهر كاحفل ما كان عليهِ بالامس كانهُ يريد ان يظهر لي عظم سلطانهِ[1] بما تحوي خزائنهُ من الجوهر والمال فلما أمر لي بالجلوس بلّغتهُ ما اوصاني بهِ الرشيد من امر أُميَّة وما يروم من موافقتهِ عليهم ولكن بايجاز أَبعدت عنهُ التوكيد ليكون لهُ اشارة من المصلحة ليس غير فخاطبني بما في معناهُ قريبٌ من كلام جعفر اعزّهُ الله فاكبرتُ ذلك من غير ان أَعجب منهُ اذ كنتُ أَعلم ان عقول الحكماء قد تتوارد وتتلاقى . ولما ذكرتُ لهُ قرابة العبّاسيين من النبيّ صلّى الله عليهِ وسلّم فكر في نفسهِ حتى ظننتُ انهُ سيقول لي ان من الناس مَن هو أَقرب منهم ومن أُميَّة اليهِ ثم انبسط لهُ مجال الحديث فقال اني لأَرى الاسلام اليوم أَقلّ اجتماع عصبةٍ منهُ في ايام الخلفاء الراشدين لتجزئتهِ بين المشرق والمغرب على اني أَرى دولة الرشيد اعظم هذه الدُول واوسعها رقعة مملكةٍ . واما أَمر الامويين فانهُ لا ينالهُ الاَّ على تمادى الايام اذ لا يدلُّ الشقاق الواقع اليوم بين السلطان وعمّيهِ على ضعفهم عن مردّ العدوّ فلو شدّ صاحبك عليهم

(١) اغاني ٣ * ٢١

لحوَّطوهُ باطرافهم وقاتلوهُ بغرضٍ واحدٍ تدعوهم اليهِ الحالة التي يقعون فيها من الخناق والاشراف على الخَطَر . فلقد كنتُ أَرى تغلُّبهُ على الاندلس من قبل ان يوافيها الامويون وقد كان قضاتها على اغراضٍ أَفضت بها اجلت عن الحروب فيما بينهم الى تغلُّب الجيرة عليهم واما اليوم وقد وافوها بالاموال[1] فليس من السداد ان يبادئهم بالقتال على حين يأْتون من افريقية بالمرتزقة من الجند (وهم الرجال الذين يكرون نفوسهم للحروب[2]) وربما تعذَّر عليهِ مداهمتهم من المغرب بما هو واقعٌ من الفرقة بينهُ وبين العلويين فيكون لهُ عدوَّان من الامويين واهل البيت وقد يقال في الامثال ان الزبيْرَ اذا جمع منهُ حبلٌ يوثق بهِ الفيل المغتلم ثم انهُ ذكر لي عند ما استنهضتهُ الى مظاهرة الرشيد ان بينهُ وبين الاندلس ملوكاً يتعذَّر عليهِ ان يطأَ ديارهم الاَّ بعد قتالهم وقهرهم وانهُ يوجّه همَّهُ الى مناجزة الملوك الذين لجهة المشرق كانما يريد ان يستولي على القسطنطينيَّة . هذا ما وقع بيني وبينهُ من الحديث وقال في خاتمة المفاوضة قل لامير المؤْمنين اني عُنيتُ بحاجتهِ واكون بمظاهرتهِ فيما يروم واقرأْ عليهِ السلام

هذا ما كان من امر الرسالة لم تتوسَّع المصلحة منها الى ما وراء التواد الظاهر من السياسة كما رأَيت . ولبثت في رومة ثلاثة ايام وانا على بتاتها . وكان الانبرذور قد اتخذ لي وليمةً دعا اليها عظماء دولتهِ

(١) المقدمة ١٥٨ (٢) المسعودي ٢ ⁎ ٤٠٩

وتكرَّم عليَّ بخاتم من الياقوت في سبيل التعطُّف ثم أَحبَّ اليَّ ان آخذ على تونس لاوجّه اليهِ منها برمَّة امام عظيم من أَيمَّة النصرانيَّة يقولون انهُ من اهل الجنَّة[1] فأَجبتهُ بالامتثال الى ذلك فسيَّر في صحبتنا مركبًا من اسطوله لتحملها اليهِ واقلعت مركبنا عن رومة في يوم شديد الحرّ من رمضان كان الحرارة فيهِ تشمل الاقاليم المرتفعة ايضًا وقد حق تسميتهُ برمضان من الرمَض وهو ان تحترق الرجال من شدَّة الحرّ[2]

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وانا على متن السفينة
وبيني وبين تونس مسيرة يومٍ وليلة والله أَسأَل
ان يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل
بالتيسير والتسهيل
لا ربَّ
سواهُ

(١) وهو مار قبريانوس (٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد المغرب

كتبتُ اليك الرسالة الثامنة بعد الانصراف من الرسالة واليوم اكتبُ اليكَ من المشاعر المباركة بعد بلاغها الى الرشيد فاني لما قفلتُ من ديارِ الروم عرَّجت بتونس من بلاد المغرب فاكرم عاملها من لدن ابن الأَغلب وفادتي وأُخرج اليَّ زورقًا حماني بهِ الى المدينة لان البحر يبعد عنها نحوًا من عشرة اميال [1] وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي باخراج عظام الامام النصراني الى مركب الروم لابعادهم عن مرفإِ المسلمين اهتمامي بما سواهُ من الامور. ثم اني نظرت في شأْن ابن الاغلب ابرهيم وانقطاع اهل الشيعة عنهُ الى حوزة ادريس بن ادريس رضي الله عنهُ من غير ان اكشف عمَّا بالنفس من الميل مع اهل البيت اذ كنت اوجبتُ على نفسي ان أَقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي حمَّلني مجاشمها فاتصل بي من اخبارِهِ معهم جسيم حملت خبرهُ الى البرامكة واذكرني حال العلويين في المغرب ايام عليّ وابي بكر وعمر رضي الله عنهم من الصلاح يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي صلى الله عليهِ وسلم ولا

(١) تقويم ٢٨ و ١٤٨

يقيهون من ابهة الملك الاَّ ما تدعوهم اليهِ حاجات الخلافة وكذلك أَهل الشيعة من اتباع سنن الهداية والمحافظة على القراءة التي قرأَها عليٌّ عليهِ السلام . الاَّ ان الأَغلبيّ دمرَّ الله ملكهُ ينقم عليهم امر الدنيا والدين ولا ذنب لهم الاَّ انهم يعادون من يعاديهِ الله بمعاداتهِ أَهل البيت ومن عهد[1] اليهِ النبيُّ بالخلافة من بعدهِ حيث يقول أَما ترضى ان تكون مني بمنزلة هرون من موسى[2]

وهذه القراءة التي ينقمها الاغلبيُّ على أَهل الشيعة قد كان لها شأنٌ عظيم في صدر الاسلام وأَسالت من دماء المسلمين بحارًا بما تعصَّبوا لهُ من الاغراض. كان صدور الخلاف بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة ابن أَبي كعب[3] وكان اهل الشام في خلافة عثمان بن عفان قد انقطعوا الى قراءةٍ يعارضون بها اهل العراق وزعموا انهم أَخذوها عن المقداد بن الاسود وكان عثمان يقرأُ على قراءتهم وينقم على اهل الحرمين والعراق قراءتهم على قراءة ابي موسى الاشعري[4] فنغَّص عليهِ ذلك عليٌّ أَمير المؤمنين[5] ثم حمل عليهِ الناس وقتلوهُ وكانت تلك اوَّل فتنةٍ في الاسلام .وكان عثمان في خلافتهِ قد عقد مجلسًا من الصحابة على ان يحمل الناس على قراءةٍ واحدةٍ[6] في جميع الأَقاليم والأَطراف فجمع الرقاع والادراج واللخاف والعُسُب التي كان مكتوبًا بها المصحف وأَمر بان تحرق كلها وان تنسخ من

(١) السيوطي (٢) العقد الفريد ٢ * ٢٧٥ وابو الفداء ١ * ١٥٧

(٣) الكندي (٤) ابو الفداء ١ * ١٧٦ (٥) الكندي (٦) الزمخشري

المصحف الذي كتب في خلافة ابي بكر رضي الله عنهُ وكان مودعًا عند حفصة[1] زوج النبي صلى الله عليهِ وسلم اربعُ نسخ[2] يبعث بها الى الديار الاسلامية فتولى نسخها زيد بن ثابت الانصاريّ[3] وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن ابي بكر[4] وقال لهم عثمان ان اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما القرآن نُزّل بلغتهم[5] ... وهذه المصاحف المنسوخة لم تزل محفوظةً في مكة والكوفة والشام الاَّ المصحف الذي خلّف في المدينة فانهُ فقد في الحروب التي أثارها يزيد بن معاوية على اهل الحرمين

ولما انفصلت عن تونس ركبتُ البحر توًّا الى الاسكندرية وفي النفس ان ابلغها في خمسة عشر يومًا فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا على الأعقاب مسيرة ايام بضعةٍ ثم انهُ هدأ ثائر النوّ وطاب لنا الريح فسرنا بمعونة الله الى ان عاينًّا منار هذا الثغر المحروس والقطر المأنوس لليالٍ خلون من شوال فلما طلع النهار انتصب أمامنا في عظمهِ[6] وهول مرآهُ[7] حتى كأنهُ عمودٌ يلقى القبَّة الزرقاء ويصل بين الارض والسماء

رسا أَصلهُ تحت الثرى وسما بهِ ... الى الجوّ فرعٌ لاينال طويلُ

(١) ابو الفداء ١ * ١٦٦ (٢) الفخري وابن جبير ١٩٥ (٣) ابو الفداء ١ * ١٧٦ وابن جبير ١٠٢ (٤) الكندي (٥) ابو الفداء ١ * ١٧٦
(٦) ابن بطوطة ١ * ٢٩ (٧) ابن جبير ٢٧ وعبد اللطيف ٦٤

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدي بهِ أَصحاب السفن[١] عن بُعد سبعين ميلاً[٢]. وربما قدَّر الناس في ارتفاعهِ نحواً من مئة وخمسين باعًا وهم يقولون ان بانيهُ الاسكندر الروميُّ او ملك من خلفائهِ يقال لهُ بطليموس[٣] قاسى مع رومة حروبًا صعابًا في البرّ والبحر فبناهُ لارتقابهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الامويّ[٤] انهُ سوَّل لهُ جهلة قومهِ ان يهدمهُ[٥] طمعًا بالوصول الى ما في جوفهِ من الكنوز فشرع في اسباب الهدم حتى قوَّض جانبًا من الاثر[٦] ثم تعاظمت عليهِ النفقة وهو لا يجد ما يستعيض بهِ عنها فكفَّ عن عجزٍ لحقهُ ولومٍ قد استحقَّهُ

وكان مقامي في الاسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الابيورديّ[٧] ثلاثة ايام وكنت احبُّ معما لقيتُ من انسهِ ان امدَّ بساط الاقامة فيها لولا اني خفت فوات الحجّ فانصرفتُ عنها في اليوم السابع من شوال وكنت قد استقريت كثيرًا من اماكنها المشهورة ووقفتُ على ما اتَّسعَ لاهلها من طرق المعاش. فرأَيت ان اجل الكتاب بذكرهِ ليبقى فخرًا للمسين في استيلائهم على هذه المدينة التي ليس اعظم منها في ديار الروم

(١) تقويم البلدان ١٠٥ (٢) ابن جبير ٣٧ (٣) المقريزي ١ * ١٥٧
(٤) تقويم ١٠٥ (٥) الابشيهي ٢ * ١٧٨ (٦) المحاضرة ١ * ٤٣
(٧) ابو المحاسن ١ * ٥٢٢

في ذكر الاسكندرية

فان الاسكندرية مدينةٌ متجرةٌ من اعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعًا[١] وأحفلها بنيانًا واليها المنتهى في المَنَعَة والحصانة اذ كانت مبنيَّةً على لسان من الارض والبحر يحدق بها من جميع جهاتها. ولذلك يصعب منالها على العدوّ وان لم يكن وراءها وعرٌ ولا هضاب[٢] يتعزَّز بها جانبها من البرّ. ولقد كانت في قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة[٣] فلما تبوَّأها الاسكندر الروميُّ[٤] وصارت كرسيَّ الملك بعدهُ فتجلت بجَلاَل الحضارة وتحلَّت في حلل النضارة واتصلت عمائرها تحت الارض[٥] آزاجًا يجتمع فيها ماء النيل كاتصالها فوق الارض وأُقيمت اسواقها في نهاية من الابداع[٦] وشوارعها في غايةٍ من الاستقامة والاتساع بحيث ان الغريب يسير فيها نهارَهُ أجمع فلا يضلّ[٧]

ولقد لقيتُ في كثيرٍ من اماكنها وممرَّاتها[٨] عمُدًا والواحًا من رخام[٩] تحمل العامة على الظنّ بانها هي ارم ذات العماد[١٠] التي لم يخلق مثلها في البلاد[١١]. واعظم ما شاهدتُ منها العمود المعروف بعمود

(١) المقريزي (٢) المقدمة ٥ . ٣ (٣) المقريزي ١ * ١٤٧ (٤) القزويني ٩٦ والقرماني ٥ * ١٢٨ وتقويم ٢ ١١٢ (٥) ابن جبير والمقريزي ١ * ١٥٠ (٦) ابن جبير ٣٦ (٧) تقويم البلدان ٢ ١١٢ (٨) ابن جبير ٣٧ (٩) المسعودي والمقريزي ١ * ١٤٤ (١٠) ياقوت (١١) المسعودي والمقريزي ١ * ١٦٢

السواري [1] وهو ماثلٌ في العنان الى طرف المدينة تحفُّ بهِ غابةٌ من النخيل [2] . وصفتهُ انهُ حجرٌ صلْدٌ من الصوان الاحمر [3] يبتدئُ من قاعدةٍ غليظةٍ وينتهي الى تاجٍ يكلّلهُ با لرسوم والناس يقولون انهُ كان في اعلاهُ قصر معلّق في الجوّ لاهل العلم [4] والرئاسة وان كانت فيهِ خزائن كتب أَحرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب اذ كتب اليهِ [5] الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنهُ غنًى وان كان فيها ما يخالفهُ فلا حاجة اليهِ فتقدَّم باعدامها [6] . ولكن هذا قول يحتاج الى التدقيق والنظر لاني انزّهُ عمر عن مثل هذا المنكر. وظني بهذا العمود انهُ نصبهُ الروم معارضة للعمدان التي نصبها الفراعنة أَمثال المسلات وطمعًا بتخليد آثارهم في مصر الى انقضاء الدهر

وقد رأَيتُ اهل الاسكندرية اصحاء الذوق لطاف الطباع والخُلُق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعتدال الحرّ والبرد في اقليمهم [7] على ان اكثرهم مهازيل الاجسام وهان البنية [8] ووجدتُ لهم تصرُّفًا واسعًا با لتجارة [9] لان المال متوفّر في ايديهم والخيرات تأْتيهم من جميع البلاد فيتصرفون في الليل با لبيع والشراء

---

(١) القزويني ٩٧ وتقويم ١١٣ (٢) ابن بطوطة ١ * ٣٠ (٣) عبد اللطيف ٦٣
(٤) المقريزي ١ * ١٥٩ (٥) ابو الفداء وابو الفرج ١٨١ والمقريزي ١ * ١٥٩
(٦) ابن العميد (٧) الخطط ١ * ٤٣ (٨) المقريزي ١ * ٤٤ (٩) المحاضرة

كتصرفهم بهِ في النهار[1] . وسمعتُ انهم بلغوا من سعة العيش الى ان بنوا في مدينتهم الف حمَّام واربعمئة ملهىً واثني عشر الف دكان[2] وهذا شيءٌ من الكثرة لم يسمع بمثلهِ في البلدان

اما المسلمون في الاسكندرية فهم على ما رأينا من القول بخلافة اهل البيت وشرائعهم على مذهب مالك[3] الاَّ انهم يجاهرون بالبسملة في صلواتهم ويبتدئون بها عوض الخطبة[4] كأَني بهم قد اخذوها عن اهل الشام اذ كان الاتصال فيما بينهم مستمرًّا على غير انقطاع . واما اهل الذمة فانهم يزيدون عن اربعمئة الف[5] بين نصارى ويهود يؤَدون جزيتهم الى الرشيد دينارًا واحدًا مؤْمنيًّا[6] بعد ان ضربها ابن العاص عليهم دينارين واستمرَّت على ذلك في عهود الخلفاء[7] . وهم في الاسكندرية وسائر الديار المصرية مللٌ كثيرة من النصرانية الاَّ ان معظم سوادهم[8] روم يرجعون في امورهم الى فطاريكهم بالقسطنطينية وقبطٌ ينكرون على الباب خلافة المسيح ويرجعون في ملتهم الى بطرك لهم يسمَّى[9] مرقص كمرجع المشارقة الى بطركهم في انطاكية[10]

---

(١) ابن جبير ٣٩ (٢) ابو المحاسن والمقريزي والمحاضرة ١ * ٥٩ والقرماني ٥ * ١٢٧ (٣) المقريزي (٤) المقريزي ٢ * ٣٢٤ (٥) ابن خردادبة ١٢١ والمحاضرة ١ * ٥٩ والمقريزي ١ * ١٦٢ (٦) ذكر الاغاني انهُ سُمّي بالمأْموني نسبةً الى ميمون بن عامر ١٧ * ٧٢ (٧) السيوطي وابن الاثير (٨) الخطط ٢ * ٤٩٢ (٩) المقريزي ٢ * ٤٩٢ (١٠) المسعودي ١ * ٢٧١

وهؤلاء القبط هم اهل مصر الاولون وفي ايديهم الكنائس المعظمة التي ليس مثلها عند الروم اذ كانوا السابقين الى تشييدها والحافظين لها من تطامعهم تحت ظلّ الاسلام واعظمها بيعتان احداهما كنيسة مرقص (۱) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوَّام (۲) فيها رسومٌ عجيبةٌ وصور تمثل الحواريين والاولياء الذين ظهرت عليهم الكرامات في ملتهم والثانية كنيسة يوحنا المعمدان (۳) قد مُوّه سقفها بالذهب وصُوّرت فيهِ ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دورٌ كثيرةٌ لهم قد رفعت على طباق ثلاث (٤) وارتفعت على دور المسلمين مع ان المطاولة عليهم في البناء (٥) محظورة على اهل الذمة (٦) . وهذا امرٌ يتغاضى عنهُ الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم باشياء ان تبدُ منهم في العراق أو الحرمين تجلب عليهم الحَيْن في اقلّ من طرفة عين وذلك مثل مجاهرتهم بالانجيل (۷) واخراج آنيتهم الى الاسواق وحمل صلبانهم على رؤُوس الرماح وغير ذلك (۸) مما لا ينقمهُ عليهم المسلمون (۹) فكأنَّما يتسامحون في أمرهم تجنبًا من اثارة السواكن أو تطامعًا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم واشبهت ان تكون الفة الى الصفاء بل مودةً الى الخلة والاخاء وقد وقع لهم وانا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونهُ عيد الميلاد و يتخذونهُ في اليوم الذي ولد فيهِ عيسى

(۱) المقريزي ۲ * ٤۹۲ (۲) المقدمة ۱۷۸ (۳) الخطط ۲ * ٥۱۹

(٤) القرماني والمقريزي ۱ * ۱٦۲ (٥) المستطرف ۱ * ۱۳۸ (٦) ابن عابدين

(۷) المقريزي (۸) ابن جبير ۳۰۹ (۹) الخطط ۲ * ٤۹٤

عليهِ السلام وهو اليوم التاسع والعشرون من كيهك[١] وعادتهم في نزول هذا الموسم بهم من كل سنة ان يحيوا ليلهم كلهُ بالسرور ويخرجوا آنيتهم الى الاسواق وينوّروا كنائسهم بالشموع المليحة الاصباغ . فكنتُ ارى كثيراً من المسلمين يبتاعون لاولادهم من هذه الشموع المسمَّاة بالفوانيس ويحرقونها في أَزقَّة المدينة[٢] كانهم يشاركون النصارى بافراحهم ويظهرون الانس بهم الى انقضاء الليل الآخر

ووجدتُ القوم من الروم والقبط وسائر الملل النصرانية يتأَنقون بصنوف الملبس من الخزّ والديباج والوشي الذي يصنعون في مدينتهم ويضرب المثل بحسنهِ في البلاد[٣] ونوع من الكتان يتنافسون في لباسهِ الى ان يبيعوا الدرهم من المَخيط ثوباً بدرهم فضة[٤] فكنتُ احبُّ ان يجمل ظهور النعمة في لباس المسلمين[٥] مثل ظهورها في اهل الذمة وقد طالما حدَّث الرواة عن النبي صلى الله عليهِ وسلَّم انهُ اتخذ جبةً مكفوفة بالحرير[٦] ولبس ثياباً باربعة آلاف درهم وصلَّى بها[٧] وكذلك حدثوا عن عائشة انها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوباً من الخزّ[٨] وعن جماعةٍ من العلماء والفقهاء انهم لبسوا الثياب المهدَّبة[٩] . فلا أَرى موضعاً بعد هذا لان يكون لبس الحلل

(١) المسعودي ١ * ٢٧٢ والمقريزي ١ * ٤٩٤ (٢) المقريزي (٣) اغاني ٥ * ٧٦ (٤) المقريزي ١ * ١٦٣ (٥) تزيين الاسواق ٢ * ١٥١ (٦) مجمع الانهر ٧٩٤ (٧) مجمع الانهر ٧٩٤ (٨) الزرقاني ٤ * ١٠٤ (٩) البخاري

الفاخرة[١] محظوراً في الشرع كما اني لا أَرى استخدام الذهب حين الحاجة اليهِ مخالفًا للنصوص الشريفة ان لم يقصد منهُ المباهاة والاسراف مثل شدّ الاسنان بهِ من الكبر[٢] وغير ذلك مما يقول بتجويزهِ العلماء[٣]

الديار المصرية والنيل

توسَّع بي الكلام الى ما خرجتُ بهِ عن اقتصاص الرحلة ولكني أَعود الى ذكر الامور التي شاهدتها في ديار مصر فاني ركبتُ من الاسكندرية اريد الفسطاط ثم اسوان ثم عيذاب الى طرف الصحراء من ساحل البحر. فمررت بدمنهور وصاوبرمة وطنتدة وقليوب[٤] في أَسرع مدَّة من الزمان اذ ليس في مصر جَبَلٌ ولا مسلكٌ وَعْرٌ يعترض الركبان. وكانت العمارة متصلة في طريقنا الى الفسطاط ومن حولها اخضرارٌ في السهل يمتدُّ مع البصر الى ان ينقطع. فاخبرني من كان يصحبني من لدن الليث ان البلاد تتنوَّع مثل هذا المنظر أَربعًا في كل سنة[٥] فتكون ثلاثة شهورٍ لؤْلؤَةً بيضاء أَولها شهر ابيب[٦] المعروف بتمُّوز عند المشارقة يركبها النيل الى ان تصير

(١) ابن عابدين ٥ * ٢٤٤ (٢) ابن خلكان ١ * ١٤٧ والعقد الفريد ٢ * ٣٦٢ (٣) مجمع الانهر ٧٩٦ (٤) ابن جبير ٤٠ . (٥) المقريزي والمحاضرة (٦) المنوفيّ

ضياعها في بحر من الماء ولا سبيل اليها الآ على الزوارق[1] وثلاثة شهور مسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو اقطوبر ينكشف الماء عن الارض و يترك عليها طينًا علكًا اسود فيهِ دسومة صالحة للزراعة يقال لهُ الابليز[2] وثلاثة شهور زمردة خضراء أولها شهر طوبة الذي يمرُّ بنا اليوم يخم الزرع ويظهر ربيع الارض حتى لا يبين الثرى من خلالهِ . ثم ثلاثة شهور سبيكة حمراء تبتدئُ من برمودة المعروف بابريلس عند الروم[3] فيتورَّد الزرع ببلوغ الحصاد و يكون كالسبيكة الذهب في المنظر والمعاد

وانما يجلب الخيرات الى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجزر ما يحمل اليها النيل من الطين والدسومات و يفيض عليها من الماء في ايام من السنة معلومات فكانما تستعيض بالمنفعة منهُ عن الشتاء الذي يحبسهُ الله عنها رفقًا بمصالحها ان تختلَّ ومساكنها الطين ان تبتلَّ[4] وقد قال سبحانهُ وتعالى بالاشارة عنهُ[5] في محكم كتابهِ أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجزر فنخرج زرعًا تأكل منهُ انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون فجعلهُ الله عزَّ وجلَّ من المغمورة والاستبحار[6] بحيث انهُ يكفي البلاد كلها من غير ان يكون فيها نهرٌ ولا عينٌ ولا مسيل ماء غيره[7] . والناس يجمعون محاسنهُ في ثلاثة[8]

(١) المقريزي (٢) عبد اللطيف ٣ (٣) المسعودي ١ * ٢٧٢ (٤) المنوفي وعبد اللطيف (٥) المنوفي (٦) المسعودي وابن جبير (٧) عبد اللطيف (٨) المقريزي ١ * ٦١ وتقويم البلدان ٤٥

الاول غمورتهُ الى ان يكون بحراً (١) تسير فيهِ السفن والثاني بُعْد منفجرهِ الى ما وراء الخطّ من جبال القمر (٢) والثالث طيب مسلكهِ على رمال تروّقهُ وتأخذ الممزوجات الغريبة منهُ . فربما اني وجدتُ لهُ خلّةً من الخير والبركة افضل من هذه المحاسن بانهُ يزدرع عليهِ ما لا يزدرع على نهرٍ غيرهِ في العالم (٣) فكأيٍّ مما تجتمع فيهِ محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك من الانهر ثم لا تحصل المنفعة منهُ مثل ما يحصل لاهل مصر من بركة نيلهم

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان انهُ يبتدئُ بالزيادة في شهر أبيب (٤) (والقبط يقولون اذا دخل ابيب كان للماء دبيب) ثم يغلظ في مسري وهو شهر آب ويزيد بعد ذلك زيادةً عظيمةً الى ان يقف حدُّها في منتصف توت وهو شهر أيلول ثم لا يلبث من بَعْدُ حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدودهِ (٥)

كأنَّ النيل ذو فهمٍ ولبٍّ   لما يبدو لعين الناس منهُ
فيأتي حين حاجتهم اليهِ   ويمضي حين يستغنون عنهُ (٦)

وإجماع الرأي في هذا الفيضان على ان منشأهُ السُحُب الماطرة (٧) الى ما وراء خط الاستواء (٨) وللقبط فيهِ اقوالٌ كثيرة لا موضع لها في هذا

---

(١) ابن بطوطة ١ * ٧٧ (٢) المقدمة والمحاضرة والمنوفي والمقريزي وابن خرداذبة (٣) ابن بطوطة ١ * ٧٧ (٤) عبد اللطيف ١٠٩ (٥) المنوفي (٦) المقريزي ١ * ٦٢ واسحاقي ١٢٢ (٧) تقويم البلدان ٤٥ (٨) عبد اللطيف وتقويم ٦٤

الكتاب [١] وهم يزعمون انهم يعرفون قدر فيضهِ (قبل حدوثهِ) من هبوب الريح في اول يومٍ من بونة وهو شهر حزيران عند المشارقة. وقرأتُ في بعض الكتب ان هذا النهر هو نهر العَسَل في الجنَّة [٢] وان حائدًا اليهوديّ الذي تاهَ في الارض دهرًا لم يستقرَّ فيهِ بموضع وصل الى الجنَّة مما وراء السودان [٣] فوجد أَرضًا ذهبًا وترعًا ذهبًا وتلاعًا ذهبًا [٤] ورأَى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب. فهذا تصوُّرٌ لطيفٌ كنتُ أَقرأُ مثلهُ في دواوين الشعراء فأَحببتُ ان اذكرهُ لك حتى اذا كنتَ بعيدًا عن ان تتعجَّب منهُ من حيث الحقيقة فلا أَقلَّ من كونك تُعْجَبُ بهِ من حيث المجاز

ولما وصلتُ الى الفسطاط نزلتُ على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب [٥] رضي الله عنهُ فلما أَصبحتُ وكان يوم الجمعة أَجمعتُ في جامع عمرو بن العاص [٦] وهو من المساجد المشهورة في الاسلام حسنًا وغرابة صنعٍ وجدتُ على حائطهِ القرآن الكريم مكتوبًا بالسواد على أَلواحٍ من الرخام الابيض فيقرأُهُ الانسان وهو قاعدٌ [٧] ثم زرتُ مشهد رأْس الحسين [٨] رضي الله عنهُ ومشهد زينب [٩] بنت يحيى بن زيد بن الحسين "رضهم" الى مشاهد كثير من

(١) راجع المقريزي في الكتاب الاول ٥١ و٥٧ (٢) المحاضرة والزرقاني ١ * ٣٥٧ والمقريزي ١ * ٥١ (٣) اسحاقي ٢٦١ (٤) المنوفي (٥) المحاضرة ٢ * ٨٩ (٦) المقريزي ٢ * ٢٤٦ وتقويم البلدان ١١٩ (٧) القزويني ١٥٧ (٨) ابن جبير ٤٧ (٩) المقريزي وابن جبير ٤٢

اهل البيت والصحابة والشريفات العلويّات. ولما مالت الشمس ركبتُ الى موضع من غربي المدينة يقال لهُ الجزيرة وهو مجتمع اللهو والنزهة لاحاطة الماء بهِ وهناك المقياس الذي يعتبر فيهِ قدر زيادة النيل[١] بناهُ سليمان بن عبد الملك في آخر المئة للهجرة وهو عمود رخامٌ ابيض مفصَّلٌ على اثنين وعشرين ذراعًا من الاذرع القديمة التي كان يتعامل بها من قبل ان وضع الرشيد الذراع السوداء التي تزيد عنها باصبع وثلثي اصبع[٢]. وهو مبنيٌّ في موضعٍ ينحصر الماء فيهِ فاذا انتهى الفيض الى ان يستوفي ثماني عشرة ذراعًا منغمرةً فيهِ فهي الغاية في طيب العام[٣]

وقد أخبرني عبد الرحمن هذا القاضي النبيل ان ما يركبهُ النيل بمصر يبلغ مئة الف الف فدان[٤] والفدان عندهم اربعمئة قصبة والقصبة عشرة اذرع (وهو القدر الذي وجدهُ هشام بن عبد الملك عند ما مَسَحَ البلاد[٥]) وكلها ذات خيرات كثيرةٍ وغلاَّت وفيرةٍ تحمل على الظن بان اهلها في رَغَدٍ من العيش فاخبرني عبد الرحمن أن الامر على خلاف ذلك وانما غلب على عامتهم من اهل الزراعة الخمول[٦] وتولاهم الشقاء وما انفقوا المال الذي اعطاهم الله في مطالب السعة بل دفنوهُ تحت اطباق الارض وتظاهروا الى

(١) ابن جبير ٥١ (٢) ابن خردادبة ٦١ والماوردي والمسعودي ١ * ٤٠ والخطط ١ * ٥٩ (٣) ابن بطوطة ١ * ٧٨ (٤) المقريزي ١ * ٨٠ (٥) المحاضرة ٢ * ١٩١ (٦) الخطط ١ * ٤٥

ملوكهم بالفقر والمسكنة رجاءَ ان يرفقوا بهم في الجبايات فكأَنَّ تمحّلهم هذا اوجب للتضييق عليهم بما قد تسامع من كثرة الدفائن في ديارهم وكان ملوكهم أَقدر ممن سواهم (من الملوك) على تناول المال منهم بالرفقِ أَحيانًا وبالشدَّة(١)

في وصف الاهرام

وفي غد اليوم الذي وصلتُ فيهِ الى الفسطاط ركبتُ الى اهرام الجيزة وهي ثلاثة كبيرةٌ موضوعة على خط مستقيم(٢) الى غرب النيل من اهول ما بناهُ المتقدمون(٣) واجلهُ خطرًا وابقاهُ على الايام اثرًا فالعهد بجميع الاشياء يخشى عليها من طوارق الحدثان الَّا هذه الاهرام صبرت على مرّ الايام حتى راح يخشى منها على الزمان(٤) اثنان منها عظيمان وواحدٌ دونهما في العظم ... وهذان الكبيران متناهيا السمو يخيّل للرائي اليهما انهما نهدان قد نهدا في صَدْر الديار المصريَّة وهما مبنيان بحجارة بيضٍ صلدةٍ(٥) قد اقتلعت من مغائر تحت الارض بعيدةٍ يدخلها الفارس برمحهِ فيرتاح فيها . ولقد تقدَّمتُ الى بعض من كان يصحبني من لدن السلطان ان يطلق سهمًا الى أَعلى الهرمَيْن فرمى بهِ عن قوس غليظةٍ وساعدٍ قويّ فسقط السهم

(١) المقريزي ١ * ٨٠ (٢) عبد اللطيف ٥١ (٣) الشربشي ٢ * ١٠١
(٤) المقريزي (٥) عبد اللطيف

دون ثلثي المسافة[1] . وصفة الهرم انهُ بناءٌ مخروطٌ مضلع مثلَّث الزوايا مربَّعها[2] يبتدئُ من قاعدةٍ عريضةٍ ويضيق ما مثَل في العنان[3] حتى ينتهي الى سطح صغير يكون مبرك بعيرين في الهرم الصغير ومبرك ثمانية في الهرمين الكبيرين وهذا نمطٌ في البناء يوثقهُ متانةً تصبر على ممَرّ الليال[4]

اما السبب الذي دعا الفراعنة الى نصب هذه الاهرام فلم يزَل مستترًا تحت ظل الابهام فمن قائل انها بنيت مستودعًا للعلم[5] ومن قائل انها اتخذت لحجز الرمال الثائرة من القفر على الفسطاط ومن قائل انها بنيت لدفن الكنوز[6] واحتكار الحبوب لايام يوسف[7] عليهِ السلام الاَّ ان ما يذهبون اليهِ من أَمثال هذه الآراء بعيدٌ عما لدينا من القياس الظاهر للاشياء فان العلم لا تحفظهُ الحجارة ان لم يستودع في صدور الرجال والرمل لا يحجزهُ سدٌّ غير متصل العمارة (وبين الهرم والآخر فرجةٌ واسعة المجال) والحبّ لم يحتكرهُ فرعون الى دهر لا انقضاء لهُ وفي موضع لا يقدر منهُ ان يتناولهُ فما الظن في وضع هذه الاهرام الاَّ لحودًا[8] للفراعنة الذين كانوا يقولون بالرجعة الى هذه الدار ويعنون بتحصين مدافنهم عن ان تعبث بها يد الادهار بما كانوا يطمعون من حفظ حليهم واموالهم الى يوم النشر كما كان يصنع في

(١) تقويم البلدان ١٠٨ وعبد اللطيف (٢) عبد اللطيف ٥٣ (٣) ابن بطوطة ١ * ٨١ (٤) الخطط (٥) ابن بطوطة ١ * ٨٣ (٦) المقريزي ٢ * ١٢٣ (٧) المحاضرة ١ * ٢٤ (٨) المقريزي وتقويم ١٠٨

جاهليتهم أهل مصر[١] بان يجعلوا مع الاموات مالهم وجميع ما لهم ليجدوهُ بين ايديهم يوم رجعتهم الى هذه الدار[٢] كما كانوا يزعمون

وقرأتُ في بعض الكتب ان باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال لهُ سوريد[٣] وجَّه زواياهُ الى بعض الابراج السماويَّة وزَبَرَ عليهِ أَنا سوريد الملك اكملتُ بناءَ الهرم في ست سنين فمن جاءَ بعدي وزعم ان لهُ ملكًا مثلي فليهدمهُ في ستين سنة (وقيل ستمئة سنة[٤]) والهدم أيسر من البنيان وقد كسوتهُ بالديباج الصرف فليكسهُ هو بالحصر والحصر أهون من الديباج[٥] اه. فاما توجيه زواياهُ الى بعض الكواكب كما يرتأُون فهو افتراضٌ ليس بما يعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم لها موضعٌ للردّ عليهِ واما الكتابة التي يعزونها الى سوريد فاني لم اجد لها اثرًا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أَعلم ان كانت مرسومة فيهِ انهُ يقرأُها احد من الناس[٦] وحتى لو انهُ حصل هذا المفاد من قراءَتها لما صحَّ ان تكون كسوتهُ بالحصر معجزةً لعظماءِ الملوك وسعتهُ من الركن الى الركن ثلاثمئة وست وستون خطوة[٧]. وانما المعجزة في هذه الآثار هو إِحكام بنائها[٨] على هذا الاستواءِ دون ان يتخلَّل الحجارة شيءٌ تلتصق بهِ من الكلس ولا غيرهِ من المواد[٩]. حتى لو ان نجارًا اتخذ صندوقًا من

(١) عبد اللطيف (٢) المحاضرة ١ * ٣٧ (٣) جواهر البحور (٤) ابن بطوطة ١ * ٨٢ (٥) المحاضرة ١ * ٣٤ والمقريزي (٦) ابن جبير ٦ (٧) ابن جبير ٥ . (٨) عبد اللطيف ٥٣ (٩) المقريزي

الخشب لَمَا أَحكم عملهُ[1] ووصل قطعهُ مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تدخل فيهِ الابرة وان صغرت

واذا وقف الزائر الى هذه الاهرام امتلأَت عينهُ من الروعة والهَوْل ووقع في نفسهِ ان الفراعنة الذين نصبوها كانوا ضخام السلطة عظام الصول ولم يتعدَّ الى ما وراء ذلك من تأَمُّل العقلاء الذين احسبُ ان الأَثر الذي يوسع العقول تأَملاً واعجاباً أَحبُّ اليهم من العظم الذي يملأُ العيون روعاً وارهاباً . فانما تمثلتُ الذين رفعوها من الفراعنة جبابرة قد ظلموا الرعية فيما آتاهم الله من الملك واستهلكوا العباد في مشاقَّ لا فائدة منها ولا طائل تحتها الاَّ ان تنطق بظلمهم على ممرّ الأَزمان أَو اني تمثلتهم في نفسي ملوكاً قد كثر المال بين ايديهم فما انفقوهُ في البرّ والاحسان ولا انتفعوا بهِ من بلوغ أَغراض العمران بل رفعوا بهِ جبالاً من الحجارة الصوان . وليس في احد الوجهين منصرفٌ لهم عن لوْمٍ بهم او لوْمٍ عليهم فان انفقوا المال في غير سبيلهِ فقد اسرفوا بالملك وان قبضوا الاجور عن العَمَلة بعد ان انهكوا ابدانهم بالعنَت الشديد فقد ضلُّوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأَبخس الاثمان

ورأَيت على مقربةٍ من الهرم الكبير صورةً عجيبةً من الحجر قد قامت كالصومعة[2] ومثلت رأْساً آدمياً وعنقاً بارزةً من الارض

(١) الابشيهي ٢ * ١٧٧ (٢) المقريزي ١ * ١٢٢

في غاية العظم يسميها الناس بأَبي الأَهوال[١] وهي تشهد لصناع ذلك الوقت باجادتهم في فنون الرسم وصحَّة التمثيل لانهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الاعضاء على كبره وجعلوا عليهِ حمرةً لا يزال دهانها محفوظًا مع الحجر[٢]. وكأَنَّ الزمان يُعيرهُ رونقًا وجدَّةً فيظهر للناظر اليهِ انهُ ذو مسحة وجمال وان شفتيهِ تنفتحان للابتسام. وأَخبرني عنهُ حاجب الليث ان كانت لهُ لحية تكسرت على تمادي الايام[٣] وان جثتهُ مدفونة تحت الارض ويقتضي القياس بالنسبة الى رأسهِ ان يكون طولها سبعين[٤] ذراعًا الى غير ذلك مَّما حدثني بهِ عن هذا الصنم وعن غيره من آثار فرعون فيقول وهو أَعرف الناس بالبلاد ان بمصر ثمانين كورة وفي كل كورة مدينة عظيمة وفي كل مدينة آثار حسان[٥] ورسوم مثلان

الى عيذاب فجدَّة فالبلد الحرام

كان انفصالنا عن الفسطاط في بكرة يوم قارسٍ بردهُ وكانت العمارة متصلة في طريقنا على شواطئ النيل فاجتزنا ببلدٍ يعرف بمنية الخصيب وفيهِ الاسواق والمرافق والحمامات[٦] ثم اجتزنا ببلدةٍ يقال لها انصنا وهي تبعد عنهُ مرحلةً[٧] قويَّةً فيها شجر اللبخ[٨]

---

(١) ابن جبير ٥٠ (٢) عبد اللطيف ٥٩ (٣) الخطط (٤) عبد اللطيف ٥٩
(٥) المقريزي (٦) ابن جبير ٥٤ (٧) تقويم البلدان ١١٥ (٨) المقريزي ١*٢٠٤

الذي تصنع منهُ السفن وكثير من العمدان والصخور المحلَّاة بالنقوش وفي بعض الكتب انها كانت مسكنًا لسحرة فرعون. ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان[1] يقال لهُ حائط العجوز[2] وهو يمتدُّ من الفسطاط الى جهات اسوان يزعم المحدثون من اهل الاخبار انهُ بنتهُ ملكة يقال لها دلوكة[3] وقاية لابنها من الوحش ان يهاجمهُ في مزاولة القنص[4] مع ان الاقرب الى العقل من ذلك ان يكون بناؤُهُ خوفًا من الآدميين وغزواتهم وليس من الوحوش التي يصحُّ ان تكون في هذا الجانب منهُ كما تكون في الجانب الآخر. ثم مَرَرنا بمَنْفَلُوط من برّ الغرب[5] وفيها قمحٌ مشهور برزانة حبّهِ ثم باسيوط وهي من النيل على ثلاثة اميال فيها الافيون المصريّ الذي يحمل الى سائر البلاد[6] وهو عصارة وَرَق الخشخاش الاسود الذي ينبت فيها[7] وفي جوارها. ثم ركبنا مرحلتين الى اخميم[8] وهو بَلَدٌ مشهور فيهِ البَرْبَى العظيمة التي صورت فيها الافلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في برج العقرب[9] وهي مرفوعة من صخور منحوتة وفيها اربعون سارية منقوشةً بالرسوم والنقوش[10] وعليها سقفٌ من الحجر مغشًّى بالاشكال الغريبة حتى ليس فيهِ مغرز ابرة الَّا[11] وفيهِ رسم او

(١) ابن جبير ٥٥ (٢) المسعودي ١ * ١٧٢ والمستطرف ٢ * ١٧٧
(٣) المقريزي ١ * ٢٨ و ١٩٩ (٤) المسعودي ١ * ١٧٢ (٥) تقويم ١١٣ وابن جبير ٥٧ (٦) القزويني ٩٩ (٧) تقويم البلدان ١١٥ (٨) ابن جبير
(٩) ابن بطوطة ١ * ١٠٤ (١٠) القزويني ٩٤ (١١) ابن جبير

نقش او رمزٌ بالخط المسند لا يعلم ما هو فسبحان من أباد امةً اقتدرت على عظائم الامور لا اله الّا هو رب العرش العظيم

ثم تمادى بنا السير من هذا البَلَد الى دَنْدَرة وهي مدينة عتيقة يقال انها من بناء قفطريم [1] بن مصرايم بن حام بن نوح عليهِ السلام وفيها بَرْبَى عظيمةٌ من آثار الفراعنة يحفُّ بها نخيلٌ كثير [2] ثم ركبنا منها الى قوص من برّ الشرق وهي من اعظم مدائن [3] مصر [4] فيها قبائل من عربان عدن وغيرهم [5] وليس بمصر أرض يسكنها العربان الّا قوص واسوان وجهات بلبيس [6] وربما كانوا في اسوان اكثر منهم في بادية قوص اذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر [7] (وليس هذا أول عهد العربان بمصر فقد تنبئ الاخبار السالفة انهم غزوها في عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها زمنًا فيما لا كفأ لهُ من سعة العيش ونفاذ السلطان) وقوص هذه المدينة هي فرضة [8] التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين وفيها جبالٌ وحجارة يجري فيها النيل من غير ان يكون سبيلٌ لجريان السفن [9] عليهِ (وهي المعروفة بالجنادل والصخور) فتنقل بضاعات المسلمين الى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة الى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع

(١) المقريزي ١ * ٢٣٢ (٢) ابن جبير ٦١ (٣) المقريزي ١ * ٢٣٦

(٤) ابن بطوطة ١ * ١٠٦ (٥) تقويم البلدان ١١١ (٦) المقريزي ١ * ٨٠

(٧) المسعودي ١ * ١٩١ (٨) تقويم البلدان ١١١ (٩) المسعودي ١ * ٤٧

التجار فيها وتوارد الحجاج اليها في ذهابهم وايابهم [(١)] على مراكب النيل

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي قفرةٌ نفرةٌ لا عمارة فيها البتّة فكنا نبيتُ بها حيث جنّ الليل علينا [(٢)] ثم نفوّز الى ورود الماء على آبار أو مناهل نكاد ان لا نبقي فيها جرعة ماء بعد سقاية دوابنا وكنتُ اذا اصابنا رقدة من حرّ أجلس في هودج على ظهور الجمال وارخي عليه الاستار محركًا للهواء فيهون عليّ احتمال عنتها الشديد . الاّ ان صحبي من لدن السلطان كان يجهد العطش [(٣)] دوابهم في الايام الآتية لان السموم كانت تنشف المياه في الاسقية فكانوا يحتالون لذلك بان يستصحبوا أبعرةً فارغة من الاحمال ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نهلاً وعللاً حتى تمتلئ اجوافها ثم يشدوا افواهها كيلا تجترّ فتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الاسقية نحروا بضعةً من هذه الجمال وسقوا خيلنا بما في بطونها [(٤)] . هذا شيءٌ من المشقة لم ينزل بنا اشدُّ منهُ في جميع ما طرقناهُ من البلاد ولم نزل في مكابدة عنائهِ الشديد حتى سهّل الله وصولنا بالسلامة الى عيذاب والحمد لله على جميل ما اولاهُ حمدًا يبلغ رضاهُ ويستفيض النعمة من علياهُ

هذه المدينة هي آخر بلاد مصر [(٥)] وعاملها مفوّض من لدن الليث

(١) ابن جبير ٦١ (٢) ابن جبير ٦٢ (٣) المقريزي ١ * ٢٠٢ (٤) القزويني ١٢ (٥) ابن جبير وابن بطوطة ١ * ١٠٩

وهي موسعة باسباب الكسب من الحجاج الاَّ ان مبانيها أَشبه ببيوت القرى منها ببيوت المدن[1] وكلُّ ما فيها مجلوبٌ اليها حتى الماء[2] . وليس لاهلها حرفة للتعيُّش الاَّ تعمير السفن التي يسمونها بالجَلَبات واحدها جَلَبَة وهي ملفَّقة الانشاء (لا يستعملون فيها المسامير[3] وانما يخيطون الاخشاب بالليف ويخلِّلونها بدُسُر من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة[4]) وآفة لحجَّاج البيت يغرق كثير منهم بسببها في بحر فرعون ذي الاهوال الموصوفة[5]

ولما أَخذتُ بها نصيبًا من الاستراحة ركبتُ البحر ثلاثة ايام الى جدَّة[6] من ساحل اليمن وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج[7] وبها آثار عدَّة تدلُّ على قدم اختطاطها وتنطق بانها دخلت في ولاية الفرس وفيها قبَّة مشيَّدة يقال ان موضعها كان منزلاً لحواء عليها السلام ومسجدٌ بناهُ عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ وجامعٌ بناهُ الرشيد منذ ثلاث سنين[8] وهو أَحفل بناية في المدينة . فمكثتُ فيها بقيَّة النهار ثم ركبتُ عنها من تحت الليل الى القرين[9] وهو محط رحال الحجاج (إِسراعًا بموافاة الرشيد الى المدينة المنورة على ساكنها افضل السلام وازكى التحيَّة اذ كنتُ علمتُ بركوبهِ اليها من مكَّة في

---

(١) تقويم البلدان ١٢١ (٢) المقريزي ١ * ٣٠٢ (٣) ابن جبير ٦٨ (٤) المسعودي ١ * ٧٨ (٥) ابن جبير ٧١ والمقريزي ١ * ٣٠٢ (٦) تقويم البلدان ١٢١ (٧) الادريسي والقزويني والمقريزي ١ * ٣٠٢ (٨) ابن جبير ٧٣ (٩) ابن بطوطة

صباح اليوم الذي وصلتُ فيهِ الى جدَّة) فبلغتهُ في جوف الليل ثم أَسريتُ منهُ الى مكَّة المكرَّمة مَهْوى الافئدة الصالحة[١] فقضيتُ الواجب من مزار المشاعر المباركة وابتهلتُ الى الله تعالى في موضع استجابة الدعاء[٢] من البيت العتيق والحمد لهُ عزَّ وجلَّ على ان شرَّفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم

في ذكر المشاعر المباركة

اما مكة باركها الله فانها بطن وادٍ[٣] بين الجبال تسع من الخلق ما لا يعلمهُ الاَّ الله[٤] لان الحجاج الوافدين عليها يزيدون عن الف الف في كل موسم اذ كان الحجُّ مفروضًا على المسلم ولو بالعمر مرَّة[٥] لقولهِ تعالى ولله على الناس حجُّ البيت من استطاع اليهِ سبيلاً[٦] فلو قدَّرنا في عدد الرجال اربعين الف الفٍ وقدَّرنا العمر اربعين سنةً لاقتضى ان يكون نصيبها منهم الف الفٍ في كل سنة أَو يزيدون بمن يحجّ اكثر من مرَّة في زمانهِ . ويقال في اجتماع الناس فيها من جميع الاطراف انهُ لو جمع ما يباع ويشرى فيها من السلع والمآكل والبضاعات في ثمانية ايام بعد الموسم لأَقام الاسواق[٧] في العراق كلهِ وَعَمَّ كلَّ واحدٍ من اهلهِ نصيبهُ من حاجتهِ

(١) المقدمة (٢) ابن بطوطة ١ ☆ ٢٠٠ (٣) ابن بطوطة ١ ☆ ٣٠٢ وتقويم البلدان ٨٧ (٤) ابن جبير ١٠٨ (٥) ابن عابدين ٢ ☆ ٢١٢ (٦) آل عمران (٧) ابن جبير ١١٩

ولها كرّمها الله ثلاثة ابواب اولها باب المعلّى[1] وهو الى الشرق الشماليّ ومنهُ يخرج الى الحجون وهو جبلٌ بأعلى مكة لهُ ذكرٌ في الاشعار[2] وفيهِ صلب الحجّاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبهُ على الخلافة . ثم باب المسفل وهو الى الجنوب ومنهُ دخل خالد بن الوليد يوم الفتح[3] ثم باب العمرة وهو الى الغرب على طريق الشام وأمامهُ جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكانها أهوت لتسجد لبيت الله اشهرها جبل حِراء[4] وهو الذي اهتزَّ تحت النبي صلى الله عليهِ وسلم ومعهُ ابو بكر وعمر بن الخطاب فقال لهُ اثبت حِراءَ فما عليك الاّ نبيٌّ وصديق وشهيد[5] . وكان صلى الله عليهِ وسلم يختلف اليهِ ويتعبَّد بالخلوة فيهِ وعليهِ نُزّلت أَول آية من القرآن الكريم[6] وهي آية اقرأْ باسم ربك الذي خلق[7]

وكفى بهذه المدينة شرفًا[8] ان بناها آدم عليهِ السلام[9] وهبط اليها جبريل المَلَك الكريم ونُزّل فيها الوحي على النبيين وخصَّها الله من المشاهد المباركة والمواضع التي هي مقدس الطهارة ومظهر نور الملائكة بما ليس مثلهُ في جميع العالم. فمما تبركتُ بزارهِ من مواضعها الميمونة مشهد مولد النبيّ صلى الله عليهِ وسلَّم وقبَّة الوحي[10] التي ابتنى

(١) ابن بطوطة ١ * ٣٠٤ (٢) ابن خلكان ١ * ٢٩٨ (٣) ابن بطوطة ١ * ٣٠٤ (٤) تقويم البلدان ٧٨ (٥) ابن جبير ١١٢ (٦) الازرقي وابن جبير (٧) المسعودي ١ * ٣٠٧ وابو الفداء ١ * ١١٧ (٨) الشريشي ٢ * ١١٤ (٩) المقدمة ٣٠٦ (١٠) الازرقي

فيها صلى الله عليهِ وسلم بخديجة ام المؤْمنين (١) وكان فيها مولد الحسن والحسين رضي الله عنهما. والموضع الذي كان يقعد فيهِ صلى الله عليهِ وسلم تبرَّكتُ بلمسهِ وتقبيلهِ. وزرتُ دار ابي بكر ودار جعفر بن علي بن ابي طالب ذي الجناحين (٢) ودار الخيزران التي قدمت ذكرها في بعض الرسائل السالفة وهي على باب زقاق الخرازين وبمقربةٍ من القصر المعروف بمنزل الابجر (٣). وكنتُ أُحبُّ ان أزور المشاهد المباركة التي في الجبال واتبرك بالغار الذي آوى اليهِ النبيُّ صلى الله عليهِ وسلم في جبل أَبي ثور (٤) كما ورد عنهُ الخبر في كتاب الله (٥) ولكنهُ لم يتيسَّر لي ذلك لقصر الوقت فيما لم يتيسَّر لي مزارهُ من المواضع الميمونة التي هي في نفس المدينة

واما البيت المقدَّس فقد بناهُ ابرهيم الخليل (٦) لقولهِ تعالى واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت . واخذ الناس في تعظيمهِ والحج اليهِ من الجاهلية والفرس والتبابعة وغيرهم ممَّن دنا ونأَى. ثم صارت الولاية عليهِ بعد ولد اسمعيل الى آل جُرْهم وكانت سدانة البيت ومفاتيحهُ معهم والى ذلك يشير (٧) مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي بقولهِ

وكنا ولاة البيت من بعد ثابتٍ

نطوف بذاك البيت والامر ظاهرُ

(١) ابن جبير (٢) ابن جبير ١١٤ (٣) الاغاني ٢ * ١١٦ (٤) الانس الجليل (٥) ابن جبير (٦) المقدمة ٢٠٦ (٧) ابو الفداء ١ * ١٢٠ واغاني ١٢ * ١٠٨

الى ان يقول وهو البيت المشهور [1]

كأَنْ لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيسٌ ولم يسمرْ بمكة سامرُ

ثم صارت ولايتهُ الى خزاعة [2] ثم الى قريش بعدهم وكانت صورة ابرهيم واسمعيل ماثلة [3] فيهِ لايامهم فأَحسنوا ولايتهُ وجدَّدوا بناءهُ كما اشار زهير بقولهِ [4]

فأَقسمتُ بالبيت الذي طاف حولهُ رجالٌ بنوهُ من قريشٍ وجرهمِ

ثم صارت ولايتهُ بعد الخلفاء الراشدين الى عبد الله بن الزبير فنزع عنهُ كسوتهُ المسوحَ والانطاعَ وكساهُ بالديباج الملوَّن . وكان يطيّبهُ حتى يوجد ريح المسك من خارج الحرم [5] . فلما رماهُ يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث الى صنعاء في الفضة والكلس فحملها ثم شرع في البناء على اساس ابرهيم [6] فما كاد يستكمل بناءهُ حتى وفد الحجاج لقتالهِ بعد يزيد وحاصرهُ بالزحوف والترامي وأَحرق مكة بالمنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة [7] . فكتب اليهِ عبد الملك ان يعيد بناءها على قواعد قريش [8] كما كانت في ايام النبيّ صلى الله عليهِ وسلم [9] فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليهِ الى هذا اليوم

وهذا البيت المكرَّم مبنيٌّ بالحجارة الصمّ السمر ومفروش بالرخام المجزَّع وفيهِ عُمد ضخمة من الساج وسقفهُ مغشًّى بالحرير الملوَّن

(١) ابن جبير ١٠٩ (٢) المقدمة ٦ ٢ (٣) المسعودي ١ * ٢٠٥

(٤) ابو الفداء ١ * ١٢٠ (٥) الابشيهي ١ * ١٥ (٦) الازرقي (٧) ابن الاثير (٨) المقدمة ٢٠٧ (٩) ابو الفداء ١ * ٢٠٨

وهو قريب من التربيع ونصفهُ الاعلى من الفضة المذهَّبة[١] ولهُ اربعة اركان اولها الركن الشرقي الذي فيهِ الحجر الاسود ومنهُ ابتداء الطواف ولا يُدرى قدر ما دخل الحجر في الركن[٢] وانما سعتهُ الظاهرة ثلثا شبر وطولهُ واحدٌ وهو الحجر الذي وضعهُ النبي بيدهِ[٣] صلى الله عليهِ وسلم على ما هو معروف عند الكلّ. ثم الركن العراقي وهو شماليّ ثم الركن الشاميّ وهو غربي ثم الركن اليماني وهو جنوبيٌّ. وارتفاع هذه الاركان ثمان وعشرون ذراعًا الاَّ الركن الشرقي يزيد عنها ذراعًا[٤] في الارتفاع لانصباب السطح الى الميزاب[٥]. وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعًا[٦] وبابها في الصفح الذي بين الركن العراقي والركن الشرقي على احد عشر شبرًا من الارض وهو من الفضَّة والذَّهَب المنقوش طولهُ ست اذرع وزيادة[٧] وعرضهُ أَربع وهو قريب من الحجر الاسود ويسمَّى ما بينهما الملتزم وهو موضع استجابة الدعاء[٨] يتزاحم الناس بهِ في طواف البيت بحيث انهُ لا يخلو منهم ساعة من نهار ولا ليل. فأَخبرني أَمير مكة انهُ لا يوجد من يخبر انهُ راهُ دون طائفٍ بهِ ومصلٍّ فيهِ وأَخبرني وهو غاية ما يكون من احترام الدين ان في مكة من الصالحين مَن لم يدخل الكعبة تعظيمًا لها[٩] اذ نزل فيها الوحي واذ أُسّست على التقوى والرضوان

(١) ابن جبير ٨١ (٢) ابن بطوطة ١ * ٣١٢ (٣) المسعودي ١ * ٣٠٥
(٤) ابن بطوطة ١ * ٣٠٧ (٥) ابن جبير ٨٠ (٦) الكنز ١٢١ (٧) الكنز ١٢١ (٨) ابن بطوطة ١ * ٣٠٠ وابن جبير ٨٠ (٩) القزويني ٧٧

وفي الركن العراقي المذكور بابٌ يسمَّى باب الرحمة ينتهي بالراقي عليهِ الى سطح البيت وتحتهُ قبوٌ فيهِ حجر مغشى بالفضة[١] تبرَّكت بلمسهِ وتقبيلهِ وهو مقام ابرهيم سليل الوحي وتحت الميزاب المذهب في صحن الحِجْر قبر اسماعيل عليهِ السلام وموضعهُ رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نكت تنفتح عن لونهما الى الخضرة الصفراء[٢] حتى كانهما للنظر تجزيعٌ بايدي الصنَّاع . والى جانبهِ مما يلي الركن العراقي قبر هاجر أُمهُ وموضعهُ رخامة خضراء ايضاً . وفي مقابلة ركن الحجر الاسود قبةٌ[٣] بئر زمزم[٤] وهي البئر التي شرب منها الخليل سُمِّيت بزمزم لقراءة سابور عندها حين حجَّ الى البيت . والزمزمة عند العَرَب هي قراءة المجوس[٥] . وداخلها مفروش بالرخام وعمقها فيما يقال احدى عشرة قامة اربعٌ سماءٌ وسبع ماءٌ وهو لمن شربهُ كما قال النبيُّ عنهُ طعام طُعْمٍ وشفاءُ سُقْمٍ

اما الحرم فانهُ يحدق بالبيت العتيق من جميع جهاتهِ وهو قائم على عُمُد من الرخام ولهُ صوامع سبعٌ اكبرها في دار الندوة[٦] وأَصغرها على باب الصفا[٧] وهو اكبر أَبواب الحرم وليس مثلهُ في الزينة الأَّ باب السلام وباب السدرة وباب الندوة[٨] . وشاهدت في الحرَم الشريف مصحفاً بخط زيدٍ بن ثابت الانصاريّ[٩] نسخهُ بامر عثمان

---

(١) الماوردي ٢٧٨ (٢) ابن جبير ٨٦ (٣) تقويم البلدان ٨٧ (٤) الشريشي ٢ * ١١٤ (٥) عجائب المخلوقات ١٩٩ (٦) انليدي ٧٦ (٧) ابن جبير ٨٩ (٨) الكنز ٣٠٢ (٩) الكندي

بن عفّان في سنة ثمان عشرة للهجرة[1] ولا ادري في اي مكان كان قبل ان يوضع فيهِ لانهُ لم يكن ثمَّةَ في تلك الايام جدار وانما كان موضعهُ دور[2] لم تتم زيادتها بالحرم الاَّ في خلافة الوليد بن عبد الملك كما لم يتمَّ بناؤُه على ما نراهُ اليوم الاَّ في خلافة المهدي رحمهُ الله وهو الذي زيَّنهُ[3] بالرسوم وكتب اسمهُ في مواضع كثيرة منهُ تبرُّكًا بالخير الذي صنع. ومما كتب على سارية خارج باب الصفا امر عبد الله محمد المهدي أصلحهُ الله بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين[4] ومئة

موافاة الرشيد الى المدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذي الحجة. ومررتُ في طريقي الى المدينة المنورة بمنازل عربان لم يتعربوا بالاسفار ولا سبق لهم عهد بحضارة الامصار فوجدتهم يقولون[5] بالقيافة والعنقاء والبومة التي تأخذ بثأر المقتول[6] وغير ذلك مما كان يقول بهِ اهل الجاهلية. وسمعتُ ان في مجاورتهم عربان لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم الاَّ بتعظيم عيسى عليهِ السلام ولفظ الجيم في كلامهم كافًا مخفَّفةً فينادون الرجل يا ركل[7]... فوصلتُ من مكة الى

(١) ابن جبير ١٠٢ (٢) المقدمة ٣٠٨ (٣) الخميس ٢ * ٣٢٠ (٤) ابن جبير ١٠٧ (٥) المقدمة والف ليلة وليلة والمسعودي ١ * ٢٥٧ و٢٨٣ (٦) اغاني ١٦ * ٩٦ وتزيين الاسواق ١١٨ (٧) اغاني ٩ * ١٣٩

بطن مرّ[1] وهو وادٍ خصيبٌ ذو عين فوارة[2] ثم عطفتُ منهُ الى عسفان وهي مدينة تحفُّ بها الجبال وفيها كثير من شجر المقل[3] وآبار منسوبة الى عثمان بن عفان[4] ثم ركبتُ الى الخليص وهو موضعٌ في بسيطٍ من الارض وفيهِ خيامٌ لقبيلتين كبيرتين من العَرَب يقال لهما كنانة وخزاعة وهم متقاربون في المنزل لان بينهم نسبًا لم ترمَ فيهِ العصا[5]. ثم امتدَّ السير من خليص الى بدر وهي قرية كثيرة الخيرات[6] كانت بازاء موضع من مواضعها يقال لهُ القليب[7] وقعة النبيّ[8] المباركة التي أَعزَّت الدين وقهرت المشركين[9] ثم اقلعتُ الى الصفراء وهي تبعد عن بدرٍ بريدًا ثم الى الروحاء وهي موضع بئر يقال ان عليًّا عليهِ السلام قاتل فيها الجنَّ[10] ثم رحتُ أُفوّز في البطاح والهضاب حتى اقبلت على المدينة المنوّرة حرسها الله وزادها شرفًا بمنهِ وكرمهِ

وبعد ان تبركتُ بمزار المسجد المكرم وصلَّيت في الروضة[11] التي بين القبر المقدّس والمنبر الذي كان موطى الرسول صلّى الله عليهِ وسلم ركبتُ الى قصر الامارة حيث حلت ركاب الرشيد فاصبتهُ في مجلس اشبه ان يكون من مجالس قصرٍ لهُ في بغداد يقال لهُ قصر

(١) تقويم البلدان ٩٤ (٢) ابن جبير ١٨٥ (٣) ابن جبير ١٨٦ (٤) الازرقي (٥) تزيين الاسواق ١١٤ (٦) تقويم البلدان (٧) القزويني ٥١ (٨) ابن جبير ١٨٩ (٩) ابن الاثير (١٠) ابن جبير ١٩١ (١١) ابن جبير ١٩٤

الفرجة[1] وهو مزخرفٌ بالصدف[2] الأَبيض وفيهِ كتابة بالصدف الاحمر والأَخضر كانها للعين ياقوت و زبرجد[3] فلما رآني ابتسم اليَّ وابتدرني بالسؤَال عن أَمر الرسالة فاخبرتهُ بما توسَّم القيصر في غايتها من الخير وما وجدتُ في البلاد من عدل العمال ودعائهم لهُ في مساجد مصر والمغرب[4] وذكرتُ لهُ من كلام الانبرور ما اقتضتهُ جلالة[5] الخلافة... فحمدني على حسن القيام بهذه المهمّة ولكن من غير ان يظهر اليَّ ذلك الصفاء الذي كان يشرفني بهِ قبل انزاحي عن بغداد . فلما اذن لي بالانصراف مضيت الى موضع البرامكة فوجدتُ في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ليس من تجافيهم اليَّ عن الصفا ولكن من ادمان فكرتهم في أَمر ظننت انهُ وقع بينهم و بينهُ في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين التي تصادف محلاً في قلوب العباسيين

هذا ختام رسالتي اليك عن رسالتي الى الانبرذور وأَحبُّ قبل ان أُفارق هذه المواطن المقدسة ان اذكر لك شيئاً عن المدينة المنورة لاتبرك بذكرهِ وانت والكتاب. فاني وجدت المسجد المكرم قائمًا على اعمدة من الحجارة اللامعة وسقفهُ من الساج المخرَّم[6] وجدرانهُ منزَّلة بفصوص من الفسيفساء تمثل أشجارًا واثمارًا وازاهر

(١) الف ليلة وليلة ١ * ١١٥ (٢) المقدمة ٣٥٧ (٣) ابن خلكان ١ * ٢٨٣ (٤) ابن الاثير (٥) السيوطي ١ * ١٥٨ (٦) ابن جبير والسيوطي

بابدع ما يكون من الصناعة وهي من عمل الروم والقبط[١] فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز[٢] بامر الوليد بن عبد الملك[٣] . ووجدت الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزَّرةً الى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت[٤] واعلاها مضمخ بالمسك والطيب[٥] . والقبر المقدَّس وجدتهُ مبنيًّا برخام نقشهُ وردان[٦] المرخّم الماهر وعلى رأْسهِ صندوق من الابنوس مختم بالصندل ومصفح بالفضة طولهُ خمسة اشبار في ارتفاع اربعة وعرض ثلاثة . والى طرف القبر[٧] مما يلي اقدام النبي صلى الله عليهِ وسلم رأْس ابي بكر وعمر[٨] رضي الله عنهما وعليهما قناديل من فضة وذهب[٩] وبين الركن الجوفي والركن الغربي من المسجد موضعٌ عليهِ سترٌ مسبلٌ يقال انهُ كان مهبط جبريل[١٠] عليهِ السلام

اما المدينة المنورة فانها بمكان من العظم والاتساع ويدلُّ تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام[١١] مع ما هو فيها من الآثار العتيقة على قدم اختطاطها وعلوّ شأْنها بين مدن الحجاز[١٢] ولها اربعة ابواب اعظمها باب الحديد وهو من الحديد[١٣] ثم باب البقيع حيث

(١) القزويني ٧١ (٢) ابن الاثير ٥ * ٤ (٣) ابو الفداء ١ * ٢٠٩ وابن بطوطة ١ * ٢٧١ (٤) ابن بطوطة ١ * ٢٦٣ (٥) ابن جبير ١٩٢ (٦) الاغاني ١٧ * ٨٤ (٧) ابن بطوطة ١ * ٢٦٤ (٨) تقويم البلدان ٨٧ (٩) ابن جبير (١٠) ابن جبير ١٩٢ (١١) الاتقان ٢ * ١٦٧ (١٢) ابن الاثير (١٣) ابن جبير ٢٠٠

الآثار المذكورة والمشاهد المباركة[١] وفيها قصورٌ ليس فيما ينقل السافرة اعظم منها في ديار العَرَب واعظمها قصرٌ للمقداد بن الاسود في الموضع المعروف بالجرف[٢] وهو مجصَّص الظاهر والباطن[٣] وقصر لعثمان بن عفان مشيَّد بالحجر والكلس وابوابهُ من الساج والعرعر[٤]. وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والانصار واهل البيت الكريم[٥] فزرتُ منها قبر السلالة الطاهرة ابرهيم بن النبي صلَّى الله عليهِ وسلم وقبور ازواج النبيّ وأولادهِ ومشاهد آل عليّ عليهِ السلام[٦] وموضعها رخامة مكتوبٌ عليها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مبيد الامم ومحيي الرمم هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليهِ وسلم سيدة نساء العالمين وقبر الحسن بن عليّ بن أَبي طالب رضي الله عنهُ وعليّ بن الحسين بن عليّ بن أَبي طالب ومحمد بن عليّ وجعفر بن محمد رضي الله عنهم اجمعين[٧]. فللهِ درهُ من قبرٍ ما اكرمهُ وما اشرفهُ[٨]

والى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال لهُ قباء[٩] وفيهِ كان مبرك الناقة بالنبيّ صلى الله عليهِ وسلم وموضعهُ المسجد المبارك الذي أُسس على التقوى والرضوان[١٠] وفي صحنهِ شبه محرابٍ على مصطبة

(١) ابن بطوطة ١ * ٢٨٦ (٢) المسعودي ١ * ٣٢٢ (٣) المقدمة ١٢٨
(٤) المسعودي ١ * ٣٢٢ (٥) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ (٦) المسعودي ٢ * ١٨٣ (٧) ابن جبير ١٩٨ (٨) ابن خلكان ١ * ١٤٦
(٩) ياقوت (١٠) ابو الفداء ١ * ١٢٣ وابن بطوطة ١ * ٢٨٨

يقال انهُ اول موضع ركع فيهِ[1] النبيّ صلى الله عليهِ وسلم وفي قبلتهِ بئر معروفة ببئر أريس يقال ان النبي صلى الله عليهِ وسلم تفل فيها فعاد ماؤُها عذبًا صافيًا بعد ان كان آجنًا أُجاجًا[2] وفيها سقط خاتمهُ صلى الله عليهِ وسلَّم من يد عثمان بن عفان فأضاعه[3]. هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والقليل دليل على الكثير والله يخصُّ بقاعًا من الشرف والتكريم بما لا يخص بهِ غيرها من البقاع ولهُ في ذلك حكمةٌ تعالت عن ان يدركها العباد

الرشيد والبرامكة في مكة

هذا الحاقُ بالرسالة اكتبهُ اليك من ظاهر الحيرة وانا منفصلٌ عن الرشيد في كتابٍ احملهُ الى الرقة من لدنهُ لاعلمك بما هو واقع بينهُ وبين البرامكة من الامر العظيم. كان انفصالنا عن المدينة المنورة في غد اليوم الذي كتبت فيهِ اليك هذه الرسالة وعلمتُ فيما نقل اليَّ نافذ من خدم البرامكة ان الرشيد تحول عليهم خوفًا من استمالتهم الناس بما وسعوا لهُ من الجود والمعروف حتى اذ جلس في مكة للعطاء جلس معهُ يحيى فاعطى مثل عطائهِ واذا جلس الأمين جلس معهُ الفضل فاعطى مثل عطائهِ واذ جلس المأمون جلس معهُ جعفر فاعطى مثل عطائهِ. ثم استرسلوا واولادهم من بعدُ

(١) ابن جبير ١٩٩ (٢) ابن جبير ١٩٩ (٣) تقويم البلدان ٨٧

في سعة الهبات حتى ذهبت عطياتهم مثلاً بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة الى قول الشعر في مديحهم على الكرم وكانوا يقولون والله هذا عام الاعطيات [١] وينشدون

اذا نزلوا بطحاء مكة اشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ

فادخل ذلك على الرشيد حسداً وريبةً من تمام النعمة عليهم . وعلم الفضل بن الربيع منهُ ذلك فأوغر صدرَهُ عليهم بالخوف واغرى جماعة ممن لا يميل معهم من الشعراء ان يقولوا في رقعةٍ رفعها الى الرشيد [٢]

قل لأمين الله في ارضهِ ومن اليهِ الحلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً مثلك ما بينكما حدُّ
امرك مردودٌ الى أمرهِ وأَمرهُ ليس لهُ ردُّ
وقد بنى الدار التي ما بنى الـفرس لها مثلاً ولا الهندُ
الدُّرُّ والياقوت حصباؤُها وتربها العنبر والندُّ
ونحن نخشى انهُ وارثٌ ملككَ ان غيَّبك اللحدُ

فسقي قلبهُ عليهم من العداوة التي يمازجها الخوف من زوال الملك عنهُ فاستدعى من كان في مكة من بني هاشم وبعث الى المدينة في استقدام اهل الحلّ والعقد ثم جدَّد البيعة بحضرهم للمأمون بعد الامين [٣] وكتبها من بعدها الى محمد القاسم ولقَّبهُ بالمؤتمن فصيرَّ ولاية العهد الى ثلاثة من اولادهِ [٤] كما قالت الشعراء في مديحهم لهُ [٥]

---

(١) الفخري (٢) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٣) ابو المحاسن ١ * ٥٢٢
(٤) اتليدي ١٢١ (٥) السيوطي

ابو أمين ومأمون ومؤتمن　　اكرم بهِ والدًا برًّا وماولدا

ثم انهُ ولَّى المأمون خراسان وهذان الى آخر المشرق[١] وضمَّ الى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم[٢] وفرَّق في الناس نحوًا من الف الف دينار[٣] ليوهمهم بسعة الكرم ويحطَّ في قدر البرامكة على ما تناقلت الالسنة من كثرة عطائهم وهو يظن انهُ يفعل هذا تحذُّرًا منهم على نفسهِ مع انهم هم الآخذون في إِقامة ملكهِ وتوطيد الخلافة لاولادهِ في المشرق وان كانوا لا يحبُّون قسمتهُ اليوم بين المأمون والمؤتمن لِما يتوقعون بعدهُ من حدوث الشقاق ومسيل الدماء على غير فائدة الاَّ الوهن والانحلال

وكان الرشيد يصانع البرامكة ويوهم استرسال نفسهُ اليهم حتى لا يبقي لهم مجالاً الى سوء الظن بهِ على ما عقد النية من ازالة النعمة عنهم فاذا جلسوا اليهِ اظهر الرضى عنهم والاقبال عليهم بحسن العاطفة[٤] ليوهمهم ان الامر على ليالي الجلاء فكان يغرُّهم ذلك منهُ الاَّ جعفر لانهُ كان اعلم الناس بهِ وحتى اذا اهداهم مسروقًا[٥] غلامهُ قال لي والله ان في اهدائهِ الينا لحيلةً لم يغم عليَّ امرها وقد هجس في قلبي انهُ أَراد إِيهامنا برضاهُ حتى لا نظن بهِ سوءًا[٦] فيما داخلهُ من الحسد . . . وقد أَخبرني جبريل بن بختيشوع ان الرشيد تحوَّل عليهم بتمحُّل الفضل بن الربيع الذي يتعصَّب على اهل البيت ويذكر لهُ

(١) ابن الاثير　(٢) الطبري وابو الفرج　(٣) ابن الاثير ٦ * ٦٢
(٤) الانليدي　(٥) الاغاني ٣ * ١٤٠　(٦) الانليدي

ما على باب البرامكة من الجيوش والغلمان والمواكب ويخوفهُ استفحال ملكهم في خراسان وفارس ويوهمهُ تحلّهم في ازالة الامر من يدهِ وان مال الدولة كلهُ في أيديهم[1] والملوك لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدرهُ عليهم من الخوف بعد ان أوغرهُ عليهم من العداوة

هذا ما اتصل بي من اخبار الرشيد مع البرامكة في مكة. وقد تحوَّل عليهم[2] لامرين لا أرى لهُ مندوحةً في كليهما فاما استفحال ملكهم في الاسلام وتزلُّف الملوك اليهم بالهدايا السنيَّة فانهُ غير مضرٍّ بالرشيد الاَّ ان يكن ضعيف البصيرة ناعس الهمَّة. وقد مضى من اقامتهم دولتهُ وتعظيمهم شأنهُ ما يُعلم بهِ ان سيفهم خادمٌ لنصرهِ. واما وفور المال في أيديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد ان تولوا الوزارة خمسين سنة. وليس فيها فيءٌ من اموال المسلمين كما يزعم الواشون عليهم الى السلطان. فكان الواجب على الرشيد ان يذكر نعمتهم عليهِ وانهُ ما بلغ المجد الاَّ بفضل جعفر ولا قامت دولتهُ الاَّ بأبيهِ[3] يحيى وليس ان يدبَّ فيهِ الطمع ويداخلهُ الحسد[4] ويمدَّ عينيهِ الى ما ادخروهُ لولدهم بعد ان دبروا امر نفسهِ وولدهِ وحاشيتهِ[5] والاَّ فان تخوُّف الملوك ممَّن لديهم من الوزراء دليل على فتور الهمَّة فيهم كما ان تصديقهم لكلام الواشين دليلٌ على بعدهم عن الحزم واعراقهم في الجهل والحماقة

(١) المقدمة ١٤ (٢) أغاني ٥ * ١١٠ و ١١٢ (٣) ابن الاثير والفخري

(٤) الدميري (٥) الاتليدي

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية أَخبرني بما هو واقعٌ في نفس الرشيد من الحسد وقال انهُ يجترئ على عظام الأُمور وما كفى اننا أَقمنا ملكهُ ودبرّنا أَمرهُ وخفَّفنا عنهُ المجاشم المتعبة حتى صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة فوالله لئن لم يرجع عن غيّهِ ليكوننَّ ذلك وبالاً سريعاً عليهِ[1] . فقلت ياسيدي ليس للرشيد عنكم مرغبٌ فلا أَظن انهُ يحرم دولتهُ منكم فقال تمهَّلْ عن نفسك ان لنا فارس وخراسان[2] والمواطن المباركة فان يجاهرنا بالعدوان تذهَبْ منهُ الخلافة الى أَربابها من اهل البيت . . فلما علمتُ منهُ ذلك اعملت في تهدئة خاطرهِ على علمي بانهُ سريع الفيء من غضبهِ . فلم يهدأ ثائر صدرهِ وانما رجع الى ما كان فيهِ من الفكرة وأَمرني بان لا أُفارق بابَهُ في ذلك الوقت

وكان الفضل بن الربيع لا يفتر عن السعاية بهِ الى الرشيد ساعةً من ليل ولا نهار ويخوفهُ منهُ المحلّ في مؤامرة جاريةٍ بينهُ وبين الفرس . فكان يختال الرشيد باستبقاء جعفر عندهُ واستقبالهِ باللين والدالَّة حتى يوهمهُ بزوال ما عندهُ من الحقد . وكان جلوسي اليهِ في ذلك الوقت قد أَقلقهُ كل القلق فرأَى ان يفصلني عنهُ بالحيلة التي لا تردُّ على الملوك بان يوجهني الى الرقة في كتاب من لدنهُ الى عاملها وهو يقول ان بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح الى انفاذك

(١) اتليدي (٢) ابن خلدون

بالرسائل فكن عند رجائنا فيك. فادركت الحيلة من ذلك الأمر ولكن أشار اليَّ جعفر بان لا أُخالف امرهُ حتى نطمع في حسن النجاح ونطفق من المراد بما قد تمَّ عليهِ العزم من المناداة بخلافة اهل البيت

فانفصلت عنهُ بالحيرة في اليوم الذي نزل فيهِ السفن الى العمر الذي بناحية الانبار [1]. وكان الرشيد في الحيرة قد غلب عليهِ الخوف حتى اذا تناول الطعام خاف [2] ان يكون فيهِ سم فاستبقى على مائدتهِ الاطباء وكلهم مخالفٌ للبرامكة الاَّ جبريل بن بختيشوع وقد طوى عنهُ سرَّ ما عزم عليهِ من ازالة النعمة عنهم الاَّ فيما بدر منهُ الحسد حين رأى اقبال الملوك على بابهم [3]. وانا اليوم اسير الى الرقة سيرًا حثيثًا حتى لا يفوتني الرجوع الى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج

(١) ابن خلكان ١ * ١٥١ (٢) المسعودي ٢ * ٢١١ (٣) الفخري

الرسالة العاشرة

عهدي بالايام يوم نعيم ويوم بؤسٍ ولكني
لا اعهدها يوم لا شيء

اكتب هذه الرسالة اليك والدمع جارٍ في الآماق ليس على البرامكة وهم احياء في الناس ولكني ابكي على الدنيا[1] التي ذهب خيرها[2] وعفت البليَّة رسوم محاسنها حتى كانها طَلَلٌ من هذه الاطلال التي يهجرها الانس ولا يقف اليها الاَّ الباكون النادبون

كنتُ قبل الوصول الى الرقة قد وافاني من لدن البرامكة رسول يستقدمني اليهم ويعلمني ان الكتاب الذي أَحملهُ الى عاملها يأْمرهُ فيهِ الرشيد بان يستبقيني عندهُ ويحبسني دون الرجوع الى الحضرة لِما داخلهُ فيَّ من الريبة . ففضضتُ الكتاب فوجدتُ فيهِ تلك الاشارة فاصابني من الذهول والانقباض ما لا يقع في نفس الرجل الذي يستسلم للحيْن . ووقفتُ أتساءَل فيما داخل الرشيد بي من السوءِ بعد ان ادَّيت رسالتهُ الواجب من الاخلاص وخدمتُ دولتهُ خدمة الناصح الأَمين فلم اجد لهُ بابًا للمظنة الاَّ فيما هو بيني وبين البرامكة

(١) العقد الفريد ٢ * ٢٧ (٢) اعلام الناس

من الخلطة والصفاء[1] ... فقمتُ لساعتي وتبدَّلت زيي بزيّ الحجاز الجاف[2] ثم ركبت الى بغداد في هذا التنكُّر حتى لا يعرفني أَحدٌ من الناس

فلما بلغتها وجدتُ في اهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم او اثر منكر[3] فاستدللت من ذلك على وقوع الامر بينهم وبين الرشيد . غير اني لم أَجد في النفوس اضطرابًا كما كنت اتوقع ان يكون فاسرعت الى منازل البرامكة فوجدتها مغلقة[4] وعلى ابوابها حرَس واقفون بالسيوف فاسودَّت الدنيا في عيني وكدتُ أَفقد رجليَّ من الجهد الاَّ انهُ لم يكن لي وانا طلبة الخليفة ان اطيل الوقوف تلقاء دورهم فتراجعت امشي على غير دراية الى لقاء صديق اتوجَّع اليهِ واستطلع منهُ عن الخبر حتى قربت من منزل اسحق النديم فنظرتُ ان لا يكون أَحد ناظرًا اليَّ ثم دخلت عليهِ البيت وحسرتُ عن وجهي اللثام فلما عرفني ترقرقت في عينيهِ الدموع وقال بمَ أَندب البرامكة أَأُعزيك ام أُعزي نفسي أَم أُعزّي بفقدهم الأَيام[5] ثم بكى حتى خنقتهُ العبرة فكنت في ذلك الوقت بعيدًا عن ان أَعي من شدَّة اليأس ولم يكن اسحق يكلمني عن نكبتهم الاَّ بالتقطع الذي تمازجهُ الزفرات ...

(١) وفي كتب التاريخ ان الرشيد قبض على صنائع البرامكة وأسبابهم ومن هو مقرَّب اليهم ومعروف بمخالطتهم (٢) اغاني ١ * ٢٥ و ٣ * ١٢٢ (٣) الانليدي ١٧٤ (٤) اعلام الناس (٥) العقد الفريد ٢ * ٢٧

قد علمتَ فيما مضى من الرسالة السالفة ما كان موقف البرامكة مع الرشيد[1] هو يحاول الايقاع بهم حسداً[2] على ما آتاهم الله من النعمة وهم يسلكون معهُ مسلك المودَّة ويهدون لهُ طرق الهداية حتى يرعوي عن غيهِ ويقلع عمَّا داخلهُ من الحقد[3] والاَّ استقدموا عليهِ أهل البيت الى الحرمين ونادوا لهم بالخلافة التي عهدها اليهم النبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلم[4] وقام الناس بدعوتها في ايام ابي مسلم كما مرَّ في موضعهِ من الكتاب . وقد علمتَ ان الفضل[5] كان موقناً بزوال النعمة عنهُ في استبقاء البرامكة وانهُ كان يخوّف الرشيد مؤَامرتهم ويذكر لهُ ان الخلافة في موقفٍ بعيدٍ عن التخلُّص من دهائهم اذ كانت الملوك طوع أمرهم واموال الدولة كلها في أيديهم[6] حتى ملأَ صدرهُ عليهم من العداوة[7] واحدث في نفسهِ موجدةً على جعفر النفس الزكية . ثم علمتَ ان الرشيد كان أهداهم في مكَّة مسروقاً غلامهُ ليوهمهم برضاه[8] ولكنك لم تعلم انهُ كان بينهُ و بين هذا الغلام مواطأَة لنقل احاديثهم اليهِ ومراقبتهم في جميع ما يباشرون من الاعمال حتى اذا نقل اليهِ الكلام الذي كان يحدّثني بهِ جعفر في المشاعر المباركة عمد الى هَدْرِ دمهِ الزكيّ ووجَّهني الى الرقة امثال المجرمين الذين في نفوسهم تبعةٌ من شرٍّ والعياذ بالله

(١) اغاني ٥ * ١١٠ و ١١٢ (٢) ابو الفداء ٢ * ١٧ (٣) الفخري
(٤) السيوطي (٥) هو الفضل بن الربيع (٦) المقدمة ١٤ واغاني ٥ * ٢١
(٧) ابن الاثير ٦ * ٦٢ (٨) اعلام الناس ١٦٨

فمما حدثني اسحق ان الرشيد كان قبل اليوم الذي نكبهم فيهِ قد ركب الى أرباض المدينة ومعهُ اسمعيل بن يحيي الهاشمي وجماعة من أقاربهِ فبينما هو يسير اذ نظر الى موكبٍ عظيم قد اعترضهُ بالبعد فقال لاسماعيل يا اسمعيل لمن هذا فقال لاخيك جعفر فالتفت يميناً وشمالاً الى مَن معهُ فاذا هو شرذمة يسيرة. ثم نظر الى الموكب الذي فيهِ جعفر فلم يرَهُ فقال يا اسمعيل ما فعل جعفر وموكبهُ فقال يا سيدي قد مضى اخوك في طريقهِ ولم يعلم بموضعك فقال ما رآنا أهلاً لان يزيّننا بموكبهِ ويجمّلنا بجيشهِ فقال العفوَ يا امير المؤمنين لو علم بموضعك ما تعدّاك ولا سار الاَّ بين يديك. ثم سار حتى انتهى الى ضيعةٍ عامرة ومواشٍ كثيرة وعمارة حسنة فقال يا اسمعيل لمن هذه الضيعة فقال لاخيك جعفر فسكت ثم تنفس الصعداء. ثم سار ولم يزل يمرُّ بكل ضيعة اعمر من الاخرى وكلّما مرَّ وسأَل اسمعيل عن ضيعةٍ قال هي لجعفر ولاخوتهِ حتى وصل الى الحضرة. فلما خلا مجلسهُ قال يا اسمعيل انظر الى البرامكة أَغنيناهم وأَفقرنا اولادنا وأَهل بيتنا فاني لا اعرف لاحدٍ من أَولادنا ضيعةً من ضياع[1] البرامكة على طريقٍ واحدٍ بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق في سائر البلدان. فقال يا أَمير المؤمنين انما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأَموالهم وجميع ما يملكون هو

(١) الدميري ٢ ☆ ١٥٤

لكَ فنظر اليهِ نظرة جبار وقال ما عدَّ البرامكة بني هاشم الاَّ عبيدهم وخَوَلهم وانهم هم الدولة ولا نعمة لبني العباس الاَّ وهم المنعمون عليهم بها فقال أَمير المؤْمنين أَبصر من غيرهِ بخدمهِ ومواليهِ فقال والله يا اسمعيل انك لتعلم اني قلتُ هذا وكاني أَراك ان تعلمهم بكلامي فتتخذ لك عندهم يدًا واني آمرك ان تكتم هذا الامر فانهُ ما علم بهِ أَحدٌ غيرك ومتى بلغهم شيءٌ مما جرى علمت انهُ ما افشاهُ الاَّ انت فقال يا أَمير المؤْمنين اعوذ بالله ان مثلي يفشي بسرّك[1] ثم ودَّعهُ وجاءهُ من الغد وهو في محلٍّ من قصرهِ يشرف على دجلة وبازائهِ منزل جعفر فقال يا اسمعيل هذا ما كنا فيهِ بالامس انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب[2] وانا ما على باب داري احدٌ فقال يا أَمير المؤْمنين ناشدتك الله ان لا تعلّق نفسك بشيءٍ من هذا فانما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك وبابُهُ باب من أَبوابك فاذا لم يكن الجند على بابهِ فعلى باب مَن يكون[3] فقال والله ان البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجنوا الاموال[4] وانصرفوا عن خدمتي الى محبَّة العلويين وانا لا اصبر على مثل ذلك[5]

وكان جعفر في ذلك الوقت يعتزم على الركوب الى خراسان وهو عالمٌ بما أَضمر الرشيد لهُ ولاهل بيتهِ فما أَحبَّ ان يتركهم بغير حراسةٍ وانما ابقى في يد الفضل رجالاً تبين فيهم الامانة ليقيهم من

(١) من اعلام الناس ١٦٦ (٢) الفخري (٣) الاتليدي ١٦٧ (٤) المقدمة ١٤ (٥) ابو الفداء ٢ * ١٧

مكايد الرشيد وحتى اذا قدم الحرمين بالدعوة وجد في العراق من يستعين بهِ على العباسيين . غير ان الرشيد كان قد فطن لما باشرهُ من تعبية الجند فايقن بالاشراف على الخطر الاَّ ان يتمحَّل في امرٍ يغلبهُ بهِ قبل ركوبهِ الى خراسان[1] فارسل الى بني هاشم من تحت الليل ان يضموا اليهم جماعاتهم وأَمر الفضل بن الربيع ان يحوّط دور الخلافة بما بين يديهِ من الحَرَس والغلمان وأَرسل الى يزيد بن مزيد انهُ اذا ركب جعفر من الغد الى دور الخلافة يبعث بمن يحوّط البرامكة ويقبض عليهم[2] واستبقى الامر سرًّا لم يستخدم في قضائهِ الاَّ[3] جماعة من اقاربهِ دون الغلمان. ثم ارسل في تلك الليلة الى البرامكة من يقول لجعفر انهُ يمكّنهُ من بيوت المال ان يتناول منها ما يشاءُ وان يأْخذ الجند من ينتخبهُ فيهم وان امانتهُ فيهِ فوق كل امانةٍ وامثال هذه المصانعة[4] حتى لا يبقي لهم مجالاً الى الظنّ والعلم بما هو آخذ في تدبيرهِ من المكيدة. وكان جعفر يعلم بما في تمحّل الرشيد من المصانعة ولكنهُ ظنَّ انهُ يريد بها استمالتهُ وآلهُ اليهِ ورجوعهم الى الثقة بهِ لا انهُ يريد نكبتهم[5] في صباح تلك الليلة

فلما اصبح الرشيد استدعى خادمهُ مسروراً[6] وقال لهُ قد انتخبتك لأَمرٍ لم ارَ لهُ محمداً ولا عبد الله ولا القاسم فحقق ظنّي واحذر ان

(١) الانليدي ١٧١ (٢) ابو الفداء ٢ * ١٨ وابن الاثير ٦ * ٦٢ (٣) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٤) الانليدي ١٦٨ و ١٧١ (٥) اعلام الناس (٦) اغاني ١١ * ٥٤

تخالف فتهلك فقال مسرور لك عليَّ امرة مطاعة فمرني بقتل نفسي لافعل[١] فقال امضِ الساعة الى الحديقة وحوّطها بالحَرَس وضمَّ اليَّ جماعةً من الغلمان[٢] ثم اذهب الى جعفر وجئني بهِ وقل لهُ انهُ وردت كتبٌ من خراسان فاذا دخل الباب لا تَدَع من معهُ يدخل بعدهُ فاذا تمكَّنت منهُ فخذ راسهُ ولا تراجعني بذلك[٣] فاذا فاتك الامر فاياك ثم اياك . فسار مسرور الى جعفر فاصابهُ في منزلهِ قد طرح نفسهُ ليستريح[٤] فقال لهُ سيدي اجب امير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة في خريطة البريد من خراسان[٥] . فلبس جعفر ثيابهُ وتقلَّد سيفهُ ثم ركب في جماعةٍ من الحَرَس والجند اذ لم يكن بمأمن من غدر العباسيين . غير انهُ لما دخل الباب طلع عليهِ من في الحديقة من الحَرَس وحاولوا ردَّ غلمانهِ وهم غير مأمورين بالقتال فاستفردهُ مسرور وبضع عشرة نفَر دخلوا معهُ الباب فجرَّد عليهِ السيف واستقدم من معهُ من العبيد والخصيان فهدروا دمهُ الزكيَّ[٦] . فالشر لست انسبهُ الى مسرور هذا الخادم اللعين (فانما هو ذئبٌ قد استرعاهُ الرشيد ومن استرعى الذئب فقد ظلم) ولكني أُوفّيهِ نصيبهُ من اللعنة بان اجرى باقسى ما يكون[٧] ولا ارى بينهُ وبين العقاب الاَّ الموت ان ينزل بهِ ويسوقهُ الى عذاب الآخرة

(١) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٢) اغاني ١١ * ٥٤ (٣) ابن الاثير ٦ * ٦٣
(٤) اتليدي ١٧٣ واغاني ١١ * ٥٤ و ٦ * ٢١٢ والف ليلة وليلة (٥) الفخري
(٦) ابن خلكان (٧) اتليدي

هذا ما بلغني من اسحق ثم سمعت في احاديث الناس ان جعفر لما صار في وسط الحديقة ولم يرَ معهُ الجند ارتاع لذلك وندم على ركوبهِ في تلك الساعة فقال لمسرور يا اخي ما القضيَّة فقال يا سيدي ان امير المؤمنين قد امرني بقتلك فيقولون ان جعفر بكى وجعل يقبّل مسرورًا ويقول لهُ انت تعلم كرامتي لك دون خَوَل الرشيد وان حوائجك عندي مقضية في جميع الاوقات وأَنت تعرف مكانتي من الرشيد وما يوجه اليَّ من الاسرار ولعلَّ ان يكون بلَّغوهُ عني باطلاً فهذه الف الف دينار أَو قالوا عشرة آلاف الف أَدفعها اليك الساعة وخلني اهيم على وجهي فقال لا سبيل الى ذلك فقال احملني اليهِ واوقفني بين يديهِ فلعلهُ اذا وقع نظرهُ عليَّ تدركهُ الرحمة فيصفح عني فقال وهذا ايضًا لا سبيل اليهِ[1] ولا يمكنني مراجعتهُ فقال توقَّف عني ساعة وامضِ اليهِ وقل لهُ انك فرغت مما أَمرك بهِ واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد فان فعلت ذلك وسلمتُ فاني اشهد الله وملائكتهُ اني اشاطرك في نعمتي وأُولّيك من الامور جسيمًا. ولم يزل بهِ وهو يبكي فيما يقولون حتى طمع في الحيوة فقال لهُ ربما يكون ذلك . ثم انهُ وكّل بهِ غلمانًا من السودان يحفظونهُ ومضى الى الرشيد وهو جالس يقطر غضبًا فلما رآهُ قال لهُ ثكلتك امك ما فعلتَ فقال يا امير المؤمنين قد انفذتُ امرك قال فاين رأْسهُ

(١) اغاني ١١ * ٥٤

قال في قبة الحديقة قال ائتني الساعة بهِ [١] فرجع مسرور وجعفر يصلي وقد ركع ركعةً فلم يمهلهُ ان يصلي الثانية حتى سلّ سيفهُ وضرب عنقهُ وأخذ رأسهُ وطرحهُ بين يدي الرشيد وهو يشخب دماً . فتنفس الصعداء وبكى بكاء شديدًا وراح يقول من باب المعاتبة يا جعفر ألم احلّكَ محلّ نفسي يا جعفر ما كافأْتني ولا عرفتَ حقّي ولا حفظتَ عهدي يا جعفر ما ذكرتَ نعمتي ولا نظرتَ في صلاح أَمري يا جعفر قد غرّتكَ نفسك فدار عليك الدهر . وكان يقول هذا وينكث الارض بشيءٍ في يدهِ ويقرع اسنانهُ بالقضيب أَثر كل كلمة [٢] وكان ذلك بين سلخ المحرّم [٣] واوّل صفر [٤]

وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة

فلما اتصل بي خبر البرامكة نفرت الدمعة من عينيّ وتفطّرت مرارتي من النَدَم على قتل هذه النفس الزكيّة اذ لم يكن في اليد حيلةٌ على حكم الله الاّ البكاء بذلك البكاء المرّ الذي ينبعث من القلب مثل النار بل احرّ . فكنتُ مثل الرجل الذي يبصر في منامهِ بهَوْل عظيم قد نزل بهِ ولكن من غير ان يدرك سرّهُ ولا ان يجد لنفسهِ مردّاً يتقي بهِ شرّهُ وإن كان يسوءُني من الرشيد تمحُّلهُ في مصانعة

(١) ابن الاثير ٦ * ٦٢ (٢) الانليدي ١٧٢ (٣) ابن خلكان ١ * ١٥٢
(٤) ابو المحاسن ١ * ٥٢٦

البرامكة[١] قبل مسير جعفر الى خراسان حتى ذهلوا عن تدبير ما يتَّقون بهِ مكايدهُ لظنهم بانهُ كان يقابلهم بالمعروف ليقبلوا عليهِ بالميل مع انهُ كان يريد قتلهم[٢] والعياذ بالله من شرّ ما صنع فانما كان يسوُّني اكثر من ذلك ما بلغني عن جهد يحيى هذا الشيخ في محبسهِ[٣] وشديد ما يقاسي مع الفضل من العذاب[٤] حتى انهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليهِ[٥] ويشتهيان طعامًا الى الحرَّاس فلا يجدان مَن يطبخهُ لهما فيضطران الى ان يحضّراهُ بأيديهما ويقوما على القدر[٦] مع جلالة قدرهما كلها . فهذا شيءٌ يفطّر الافئدة رحمةً على هؤلاء الملوك الذين اخذهم الرشيد غدرًا[٧] تعيبهُ بهِ الايام واني لاحسب جعفر بما أُصيب من المكروه اكبر حظًّا من ابيهِ وسائر اخوتهِ بانهُ استشهد في دعوة اهل البيت ولا صار الى هذا الهوان الذي صاروا اليهِ وهم الذين عرفتهم رؤُوس الملَّة[٨] والذين اتوا دولة الرشيد بحكمتهم منعةً لم يكن مثلها لدولةٍ من دول الاسلام

ولقد كنتُ أُحبُّ ان اتوصَّل الى موضع البرامكة او استنبط حيلةً لانقاذهم مما يعانون من الشدَّة . غير اني رأَيتُ الامر لا يتم على الوجه الذي نرومهُ الَّا بالقوَّة التي تغالب الحرَس . واذ كان جماعتنا في بغداد فئةً قليلة من الرجال واكثرهم داخلٌ في جيش الخليفة

(١) الاغاني ١١ * ٥٤ (٢) العقد الفريد ٣ * ٢١ (٣) الاتليدي ١٧٧
(٤) ابن الاثير والعقد ٣ * ٢١ (٥) الابشيهي ٢ * ١٢ (٦) الاتليدي ١٧٨ والدميري (٧) الفخري (٨) ابن خلدون

وتحت أُمرة العباسيين لم اجد مجاهرة الرشيد با لعدوان قبل العودة الى فارس من الرأي السديد ليس خوفًا على نفسي من القتل لان النفوس لا يعظم بذلها في سبيل البرامكة ولكن رحمةً بهم من جور الرشيد الذي يضيق عليهم [1] بقدر ما يرى من الناس ميلاً الى الوصول اليهم او الثأر بدمهم . فقد بلغني من بعض المقرَّبين الى دور الخلافة انهُ لما قام عثمان بن نهيك ليثأَر بجعفر وهو يقول والسيف صلتٌ في يدهِ يا ضُلَّ ما تجري بهِ العصا واجعفراهُ واسيداهُ والله لاقتلنَّ قاتلك ولأَثأَرنَّ بدمك [2] اعتزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا الكريم النفس على التضييق عليهم وتفريقهم في المحبوس [3] المنقطعة وقبض ضياعهم عن اهل بيتهم [4] حتى يقتلهم با لشدَّة التي هي أَمرُّ من السيف

ولقد مضى عليَّ اليومَ في بغداد وانا متقطّع النفس سبعة واربعون يومًا لم آلُ فيها جهدًا للوصول الى البرامكة وانا لا أُحصل على ذلك مع كل ما بذلتهُ من المال وكنتُ احبُّ ان أَلقى أَحدًا من خدمهم وحجابهم فلم أَجدهم في بغداد وكأَني بهم قد تصدعوا في الآفاق [5] في جملة مَن هرَب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم [6] ومن هو معروفٌ بمخالطتهم من الشعراء وسائر اهل الادب . غير اني رأَيتُ

(١) ابن الاثير ٦ * ٦٣ (٢) ابن الاثير ٦ * ٦٦ (٣) الاتليدي وابو الفرج وابن الاثير (٤) ابو الفداء ٢ * ١٨ واغاني ١٨ * ٧٩ واتليدي ١٧٤ وابن الاثير ٦ * ٦٣ (٥) الاتليدي ١٧٤ (٦) اغاني ٣ * ١٨٣

فيمن بقي من الطامعين اليهم دموعًا يسترونها عن الوشاة وماوجدتُ فيهم الاَّ منقبض النفس ومَن تذيبهُ الرحمة على مقتل النفس الزكيَّة حتى كانهم صدعٌ واحدٌ في لوم[1] القاتل . فما اذكر اني نزلتُ مرَّةً الى السوق الاَّ ورأَيتُ على الجدران اشعارًا في رثاء جعفر او البكاء على اهل بيتهِ فمما بقي في ذهني من هذه الابيات قول بعضهم[2]

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وامسك مَن يجدي ومن كان يجتدي

فقل للمطايا قد أَمنت من السرى ... وطيّ الفيافي فدفدًا بعد فدفدِ

وقل للمنايا قد ظفرتِ بجعفر ... ولن تظفري من بعدهِ بمسوَّدِ

وقل للعطايا بعد فضل تعطَّلي ... وقل للرزايا كل يوم تجدَّدي

ودونك سيفًا برمكيًّا مهندًا ... أُصيب بسيفٍ هاشميٍّ مهنَّدِ

وقولهم[3]

يا منزلاً لعب الزمان باهلهِ ... فابادهم بتفرُّق لا يجمعُ

ان الذين عهدتهم فيما مضى ... كان الزمان بهم يضرُّ وينفعُ

أَصبحت تفزع من رآك وطالما ... كنَّا اليك من المخاوف نفزعُ

ذهب الذين يُعاش في اكنافهم ... وبقي الذين حياتهم لا تنفعُ

وقولهم[4]

لعمرك ما في الموت عارٌ على الفتى ... اذا لم تصبهُ في الحيوة المعايرُ

ومن كان ممَّا يحدث الدهر جازعًا ... فلابدَّ يومًا ان يرى وهو صابرُ

---

(١) ابو المحاسن ١ * ٥٢٧ والفخري وابن الاثير ٦ * ٦٧ والاتليدي وابن عبد ربه
(٢) ابو الفداء ٢ * ١٨ وابن الاثير ٦ * ٦٤ (٣) الاتليدي ١٨٠ (٤) اغاني ١٥ * ٢٦

فلا يبعدنْك الله عني جعفرًا بروحي ولو دارت عليَّ الدوائرُ
فآليت لا أنفكُّ ابكيك ما دعت على فَنَنٍ ورقاء او طار طائرُ

وقول بعضهم[1]

أَما والله لولا خوف واشٍ وعينٌ للخليفة لا تنامُ
لطفنا حول قبرك واستلمنا كما للناس بالحجر استلامُ
فما ابصرت قبلك يا ابن يحيى حسامًا حتفهُ السيف الحسامُ
على اللذات والدنيا جميعًا ودولة آل برمك السلامُ[2]

فكان يرى الرشيد من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة فمنع الشعراء من رثائهم[3] تحت معاقبة القتل[4] وأَمر الحرَّاس ان يرفعوا الرقع التي تعلق في الاسواق لئلا يثير ثائر الشعْب من الشغَب[5] الاَّ انهُ لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرومها من محو ذكرهم[6] بعد ان زينوا الاسلام بملكهم نحوًا من خمسين سنةً وانطبعت محبتهم في قلوب الناس[7] بما صنعوا من المعروف ووسعت ايديهم لهُ من العطاء[8]. ثم ان خوفهُ من غوائل هذا الامر لا يتوقف على فتن الدولة فقط فربما وصلهُ ان فارس قد قامت فيها القيامة

(١) اغاني ١٥ * ٢٦ (٢) العقد الفريد ٣ * ٣٢ (٣) الفخري والاتليدي وحلبة الكميت (٤) الاتحافي ٩٨ والف ليلة وليلة ١ * ٤٧٢ (٥) اعلام الناس ١٧٤ (٦) ابن الاثير ٦ * ٧٥ والعقد الفريد ٣ * ٢٦ وابن خلكان (٧) ابن الاثير ٦ * ٧٠ وابو الفداء ٢ * ١٧ (٨) المقدمة ١٥٦ والمستطرف ١ * ١٩٥

وخراسان[1] قد عصفت فيها ريح الفتنة والمغرب قد تضعضع حكمهُ في يد ابن الاغلب والروم قد امتنعوا عن تأدية الجزية[2] لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم[3] والذين لا أَراهم يثبتون فيها زمنًا طويلاً كما اشار ابو نواس الى ذلك بقولهِ[4]

ما رعى الدهر آل برمك لمَّا ... ان رمى ملكهم بامر فظيعِ
ان دهرًا لم يرعَ عهدًا ليحيى ... غير راعٍ زمام آل الربيعِ

حتى اذا اتصل بهم خبر الروم وامتناعهم عن الجزية لم ينبههم العزم ولا الحزم على إبلاغ الرشيد بانفسهم[5] وانما اتخذوا طريقة البلاغ على لسان الندمان فقال شاعرٌ[6] على سبيل الاستخفاف بالامر وهو بعيدٌ عن سياسات الدول

نقض الذي اعطيتهُ نقفورُ ... فعليهِ دائرة البوار تدورُ
ابشر امير المؤمنين فانهُ ... غَنَمٌ أَتاك بهِ الالهُ كثيرُ

فتأَمل في هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في ايام البرامكة[7] كيف صارت الى رجال لا عَزْمة عندهم ولا عزيمة . فان يبلغك عن انحطاطها خَبَرٌ فيما بعد فتعلم ان فتور الصدور هو صدور الفتور

(١) الاتليدي ١٧٤ (٢) ابو الفداء ٢ * ١٨ (٣) ابن عبد ربهِ ٣ * ٥٤
(٤) المحاضرة ٢ * ١١٤ (٥) اغاني ١٧ * ٤٥ (٦) السيوطي وابن خلدون والمسعودي ١ * ١٥٨ والاغاني ١٧ * ٤٥ وابن الاثير ٦ * ٦٦ (٧) الف ليلة وليلة

وهذه الجنود التي تراها في قبضة الرشيد لا تظن انها تنفع دولتهُ ان لم يكن عندهُ عقلٌ يدير بها سياستهُ. فكم نرى من دولة كانت عظيمة في العالم ثم عمى ساستها الجهل فانحطت بفقدان الحكمة. ومن دولةٍ كانت خاملة الذكر ثم تولّى امرها رجال عقلاء فاصلحوا ما فيها من الاختلال وصعدوا بها من العزّة المقام الذي لا ينال. فتأمل في الدولة الاموية كيف قامت بمعاوية بطل الملة في السياسة والتدبير حتى انهُ ضمّ الاسلام الى مصلحة واحدةٍ من طرف المغرب الى اقصى المشرق ثم اقام دولتهُ على هذا الاساس المتين وتأمل بعدهُ في الحجاج بن يوسف كيف اصلح ما فسد من العراق وازال ما وقع في اهلهِ من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين اقرب الى طاعة الامويين من الشام ثم تأمل في الدولة العباسية كيف قامت على آثار تلك الدولة فيما دبَّرهُ ابو مسلم رحمهُ الله وكيف عجز ابو جعفر بعد مقتلهِ عن ردّ الفرس والاكراد الاَّ بخالد البرمكي الذي ضمن لهُ الكفاية عليهم بالرأي[1] دون الجنود وانظر الى دولة الرشيد كيف زهت في وزارة البرامكة بالذي[2] لم تزهُ بهِ دولة الهادي ووزراؤهُ اغفال من آل الربيع. فهذه دولٌ لم تزهُ بقوة الجند كما يسبق الى وهم الناس لانهُ لم يكن لابي مسلم من الرجال ما كان لملوك مروان ولا كان للرشيد ما لم يكن للهادي قبلهُ. وانما كان المعزّز لها رجالٌ يرسلون

(١) ابن خلكان ١ * ١٤٩ (٢) الزمخشري في كتابهِ ربيع الابرار

من عقولهم على الناس اشعةً تحوّطهم مثل اشعة الشمس ولاسيما هولاء البرامكة الذين احرم الرشيد دولتهُ من مساهمتهم اياهُ وتدبيرهم امرهُ فلست اعلم ما سيكون شأنهُ مع صهب السبال اذان بهِ اليوم من التأسف على جعفر ما يشغلهُ عن الدنيا كلها فقد بلغني ممن هو مقرّب اليهِ انهُ يذكرهُ لكل طلوع شمس ويبكي عليهِ بتحرّق النفس ولا يستطيع ان يخلو بنفسهِ بعد مقتلهِ الاَّ ان يكون عندهُ جماعة يسلو بمسامرتهم عما فرط منهُ في امرهِ [1] فاذا خلا مجلسهُ احبَّ الى قومهِ ان يدخلوا عليهِ ايًّا كان [2] من الندمان ليستأنس بهم ويلهو بمنادمتهم عمَّا هو فيهِ من البلاء وقد رأى خلل السياسة في دولتهِ وكثرة الاراجيف

فيما يتحدث بهِ الناس من اسباب نكبة الرشيد بالبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة المرَّة دائرًا على السنة الناس تخالفت آراؤهم فيما دعا اليها الرشيد وان كانت تتوافق خواطرهم في لومهِ والبكاء على جعفر فمن قائلٍ انهُ نكبهُ واهل بيتهِ لاستبدادهم في الدولة [3] واحتجافهم اموال [4] الجباية حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل اليهِ . ومن قائلٍ انهُ حنق على جعفر

(١) العقد الفريد ٣ * ٢٨ (٢) ابن خلكان ١ * ٣٢ (٣) المقدمة ١٤
(٤) ابن الاثير ٦ * ٦٢

من قولهِ لي انهُ لئن لم يرجع عن سوء مظنتهِ فيهم ليكوننَّ ذلك وبالاً سريعًا عليهِ [1] . ومن قائل انهُ تنغص من الفضل ان يكون اكرم [2] من اولادهِ وجعفر افصح منهم لسانًا واحكم سياسةً وان محمدًا قد فضلهم في المروءة [3] وموسى قد غلبهم في الشجاعة فنكبهم لذلك . ومن قائل انهُ ما نكب جعفر الاَّ غشيانهُ العباسة اخت الرشيد [4] ويروون لذلك من الخبر ان الرشيد كان لهُ مجلس معهُ بالليل فقال لهُ يومًا يا جعفر لا يطيب لي ذلك الاَّ بحضر اختي العباسة ولكن لا يجوز الاَّ ان كتبتُ لك عليها لاباحة النظر من غير ان تقربها فيقولون انهما اتفقا على ذلك وان الرشيد عقد لهُ عليها وصارت تحضر مجلسهُ الى ان بلغ عشقهُ من فؤَادها فيزعمون ان كانت لجعفر امرأة تزيّن لهُ الجواري كل ليلةٍ فجاءَت العبَّاسة لها واغرتها بالمال على ان تزيّنها لهُ وتدخلها عليهِ في جملة جوارٍ بهِ ففعلت ذلك فظنَّ جعفر انها جاريتهُ فواقعها وهو لا يعلم انها العباسة فلما اصبحوا قالت لهُ انا العباسة وقد كنت اسأَلك ان تساعدني على مودتك فتأْبى فلما ايستُ منك احتلتُ عليك بما رأَيت في هذه الليلة وان لم تواظب لاكوننَّ سببًا في زوال نعمتك وهل انت الاَّ زوجي فقال لها جعفر

(١) الاتليدي ١٦٨ (٢) الاتليدي ١٨٢ والمستطرف ١ * ١٩٥ والوطواط ٢٤٩ وابو الفداء وابن نباتة (٣) ابن خلكان ٢ * ٢٦١ (٤) ابن الاثير ٦ * ٦٢ والفخري والاتليدي ١٦٥ وابن خلكان والدميري ٢ * ١٥٢ وابو الفرج ٢٢٣ وابو الفداء ٢ * ١٧

ويحكِ اهلكتني واهلكتِ نفسك فيزعم الذين يتناقلون هذه الحكاية انهُ لم يزرها من بعدُ حتى ظهر امرها للرشيد . هذا ما يتحدَّث بهِ العوام عن نكبة هؤُلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالارزاء وسحب عليهم اذيال الفناء . والخواصُّ يتناقلونهُ كلهُ الاَّ خبر العباسة ينكرون وقوعهُ ليس لتنزيه جعفر عن المنكر بل لزعمهم انهُ غير ممكن الوقوع لمكان العباسة من جلالة القدر وسلالتها من الاشراف الذين كانوا عظماء الملة والدولة (١) . فلو علموا ان جعفر كان من نسب الاشراف في الفرس (٢) ما كان الرشيد في العرب وان العشق ميلٌ يملك النفس حتى يرجع بها الى الشهوة النفسانية ولا يبقي موضعاً للمقامات والرتب اذا خرج بصاحبهِ عن حدّ الاعتدال لما ظننتهم ينكرون هذا الامر من حيث يبالغون في شرف العباسة بل يرون انهُ كان في الامكان حدوثهُ وان هو لم يحدث . فكنت احسب من تناقل هذه الاحاديث ان للرشيد يداً في اشاعتها بين الناس ليعمي عليهم امر البرامكة وانهم راحوا شهداء في دعوة اهل البيت (٣) فليمتع قليلاً من الدنيا فانما ايام الشباب فيهِ سريعة الزوال دارسة الطلال

ويعلم في الحساب اذا التقينا غداً يوم النشور مَنْ الظلوم (٤)

---

(١) المقدمة ١٢ (٢) المسعودي (٣) الفخري وابو الفداء ٢ * ١٧ والدميري ٢ * ١٥٢ وابن خلدون وابن الاثير ٦ * ٦٢ (٤) اتليدي ١٧٨

ولستُ اطيل لك الكلام على هؤلاء الملوك الذين توارثوا المجد طرافًا وكانوا نكتة محاسن الملة كما علمتَ[1] اذ لو اني كتبت اليك عنهم غير ما ذكرتُ لما بقي عندي الاَّ البكاء والعويل على اني لا أُحبُّ ان اختم رسالتي اليك الاَّ بذكر هذه المأثرة التي هي لهم من كثير ما صنعوا في الورَى من الجميل وذلك ان الرشيد مع ما تقدم فيهِ من النهي عن رثائهم[2] بلغهُ ان شيخًا يحضر ليلاً الى آثار دورهم وينشد شعرًا ويذكرهم ذكرًا كثيرًا ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف فدعا مسرورًا هذا الخادم اللئيم وسارَّهُ بالامر وامرهُ بان يمضي من تحت الليل حتى يرد تلك المنازل التي كانت مظهر الانس فيما اتى الله اهلها من النعم وان يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما لهُ واظنهما ياسر[3] ومروان[4] حتى اذا جاء الشيخ وبكى وندب وانشد ابياتًا قبضوا عليهِ وجاؤوا بهِ اليهِ . فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما في آخر الليل الى موضع الخراب فاذا هم بغلام قد اتى ومعهُ بساط وكرسيّ حديد واذا شيخ قد جاء ولهُ جمالٌ وعليهِ مهابة ولطف وآثار نعمةٍ فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول[5]

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسُّفي عليهم وقلتُ الآن لا تنفع الدنيا

(١) المقدمة وابن خلكان وابن عبد ربهِ (٢) الاتحافي ٩٨ (٣) ابن خلكان ١ * ١٥٢ (٤) المسعودي ٢ * ٢١٥ (٥) العقد الفريد ٢ * ٣٢

مع ابيات اطالها فلما فرغ قبضوا عليهِ وقالوا لهُ أَجب أَمير المؤْمنين ففزع فزعًا شديدًا وقال دعوني حتى أُوصّي بوصيَّة فاني لا اوقن بعدها بحيوة ثم تقدَّم الى بعض الدكاكين واستفتح واخذ ورقة وكتب فيها وصيتهُ وسلمها الى غلامهِ . ثم سار بهِ مسرور الى دار الرشيد فلما مثل بين يديهِ زجرهُ وقال لهُ مَن انتَ وبما استوجبَ البرامكةُ منك ما تفعل في خرائب دورهم فقال يا أَمير المؤْمنين ان للبرامكة ايادي خطيرة عندي افتأْذن لي ان احدثك بحالي معهم قال قل فقال يا أَمير المؤْمنين انا المنذر بن المغيرة من اولاد الملوك وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال فلما ركبني الدين واحتجتُ الى بيع ما على رأْسي ورؤُوس اهلي وبيتي الذي ولدتُ فيهِ أَشاروا عليَّ بالخروج الى البرامكة فخرجتُ من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأَة وصبيًّا وصبية وليس معنا ما يباع ولاما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوتُ ببعض ثياب كنتُ اعددتها لاستتر بها فلبستها وخرجتُ وتركتهم جياعًا لا شيءَ عندهم ودخلتُ شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة فاذا بمسجد مزخرفٍ وفي جانبهِ شيخ بأَحسن زيٍّ وزينةٍ وعلى الباب خادمان وفي الجامع جماعة جلوسٌ فطمعتُ في القوم ودخلتُ المسجد وجلستُ بين ايديهم وانا أُقدّم رجلاً وأُوخر أُخرى والعرَق يسيل مني لانها لم تكن صناعتي واذا بخادم قد أَقبل ودعا القوم فقاموا وانا معهم فدخلوا دار يحيي بن خالد ودخلتُ

معهم واذا بيحيى جالسٌ على دكَّةٍ لهُ في وسط بستان. فسلَّمنا عليهِ وهو يعدُّنا مئة وواحداً وبين يديهِ عشرة من ولدهِ واذا بغلام أَمرد قد عذر خدَّاهُ قد أَقبل من بعض المقاصير وبين يديهِ مئة خادم متمنطقون في وسطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من الف مثقال ومع كل خادم مجمرةٌ من ذهب وفي كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر فوضعوهُ بين يدي الغلام وجلس الغلام الى جنب يحيى . ثم قال يحيى للقاضي تكلَّم وزوّج بنتي عائشة من ابن عمّي هذا فخطب القاضي وزوَّجهُ وشهد اولئك الجماعة واقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطتُ والله يا أَمير المؤمنين ملْءَ كمّي ونظرتُ فاذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولدهِ والغلام مئة واثناعشر رجلاً واذا بمئة واثني عشر خادماً قد اقبلوا علينا ومع كل خادم صينيَّة من فضة عليها الف دينار فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينيَّة فرأَيتُ القاضي والمشايخ يصبُّون الدنانير في اكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الاوَّل فالاوَّل حتى بقيتُ وحدي لا أَجسر على اخذ الصينيَّة فغمزني الخادم فجسرتُ واخذتها وجعلت الذهب في كمّي واخذت الصينيَّة في يدي ثم قمتُ وجعلتُ التفت الى ورائي مخافة ان أُمنع من الذهاب فبينما أَنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني اذ قال للخادم ائْتني بهذا الرجل فرددتُ اليهِ فأَمر بصبّ الدنانير والصينيَّة وما كان في كمّي ثم أَمرني بالجلوس

فجلستُ فقال لي ممَّن الرجل ولمَ تتلفَّت يمينًا وشمالاً فقصصتُ عليهِ قصتي فقال للخادم ائتني بولدي موسى فاتاهُ بهِ فقال لهُ يا بنيَّ هذا رجل غريبٌ فخذهُ اليك واحفظهُ بنفسك ونعمتك فقبض موسى على يدي وادخلني الى دارٍ من دورهِ واكرمني غاية الاكرام واقمتُ عندهُ يومي وليلتي في ألذّ عيش واتمّ سرور فلما أَصبح دعا باخيهِ محمد وقال لهُ ان الامير قد امرني بالعطف على هذا الرجل وقد علمتَ اشتغالي اليوم في دار امير المؤمنين فاقبضهُ اليك وحوّطهُ بنعمتك ففعل ذلك واكرمني غاية الاكرام فلما كان من الغد تسلَّمني اخوهُ العبَّاس فبتُّ ليلتي عندهُ بين غناءٍ وانوارٍ وبهجة ثم تسلَّمني اخوهُ خالد [1] ولم أَزل في أَيدي البرامكة يتداولونني مدَّة عشرة ايام لا اعرف خبر عيالي وصبياني أَفي الاموات هم أَم في الاحياء . فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادمٌ ومعهُ جماعة من الخدم فقالوا لي قم فاخرج الى عيالك بسلام فقلتُ واويلاهُ سلبتُ الدنانير والصينيَّة واخرج الى عيالي على هذه الحالة انَّا لله وانَّا اليهِ راجعون فرفع الستر الاول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع . فلما رفع الخادم الستر الاخير قال لي مهما كان لك من الحوائج فارفعها اليَّ فاني مأمورٌ بقضاء جميع ما تأمرني بهِ فلما رفع الستر رأَيتُ حجرةً كالشمس بهاءً واشراقًا واستقبلني منها رائحة الندّ والعود ونفحات المسك واذا بصبياني وعيالي يتقلَّبون في الحرير والديباج وحمل اليَّ الف الف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشورين بضيعتين

(١) العقد الفريد ٢ * ٢٨

وتلك الصينيَّة التي كنت اخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق وأَقمتُ يا امير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أَمن البرامكة انا ام رجلٌ غريب اصطنعوني فلما نزلت بهم الفادحات اجحفني عاملك على العراق والزمني على هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلها بهِ. فلما تحامل عليَّ الدهر كنتُ في آخر الليل أَقصد منازل القوم فاندبهم واذكر حسن صنيعهم اليَّ واشكر جزيل تعطفاتهم عليَّ. فقال بكم غصبك قال بكذا وكذا من المال فقال هو مردودٌ لك وتستمر وعقبك من بعدك على ما كان لك في ايام البرامكة. فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدَّة الحزن فلما رأَى الرشيد كثرة بكائهِ قال لهُ يا هذا قد احسنَّا اليك بالذي كنتَ تتظلَّم منهُ فما يبكيك فقال يا أَمير المؤمنين وهذا ايضًا من صنائع البرامكة اذ لو لم آتِ منازلهم فابكيهم واندبهم حتى اتصل خبري بأَمير المؤمنين ففعل بي ما فعل من أَين كنتُ اصل الى امير المؤمنين. فدمعت عينا الرشيد وظهر عليهِ حزنهُ وقال لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابكِ وإياهم فاشكر[1] . . . ولله در أَبي نواس اذ يقول[2] في وداع الدنيا بعد نكبتهم

سلامٌ على الدنيا اذا ما فقدتمُ

بني برمكٍ من رائحين وغادِ

(١) الفخري والاتليدي ١٩٩ والمستطرف ١ * ٢٤٢ (٢) الوطواط ١١٢

خاتمة الكتاب

أَودعتُ رسالتي اليومَ اليك سطورًا قد كتبتها بدموع العين وانا بين حزنٍ على هؤلاء الشهداء وخوفٍ من الرشيد ان يعلمهُ بموضعي الرقباء فيقطعني عسفهُ والعياذ بالله عن الاستصراخ بدعوتهم في فارس وخراسان(١) وسائر بلدان اليمن والخير لاني علمتُ من بعض المقرَّبين اليهِ انهُ يطلبني طلبًا شديدًا ويجعل لمَن يأْتيهِ بي مالاً جسيمًا فربما كان هذا الكتاب آخر عهدي بمراسلتك بعد اليوم ...

وإِن كنتَ قد رأَيتَ فيما تقدم اليك من الكتب السالفة ان العرب قد حصَّلوا في زماننا هذا ما لم يختلد بصدورهم فيما مضى من عصور الخلفاء وانهم نبغوا في جميع فنون الآداب وانواعهِ واستوعبوا علوم الدين بما حوَّطوهُ من تمام العناية وسنُّوا شرائعهم على المذاهب التي تنتهي اليها الغاية في صحة المبدإِ وجميل المعاد وتجرَّوا في علوم الفرس والروم واليونان على طريقة وضعوها بالزيادة فيما نقلوهُ من فلسفتهم وسائر علومهم وأَجادوا الاجادة التامَّة في جميع انواع الفنون والآداب والصناعات(٢). فانما الفضل في ذلك كلهِ للبرامكة وليس للرشيد وهم الذين رفعوا منار العلم(٣) وقرَّبوا اليهم الادباء واجزلوا اعطيتهم بالمال الكثير(٤) فقد كان عصرهم(٥) تاجًا على هامة الدهر

(١) الاتايدي ١٧٤ (٢) المقدمة (٣) العقد الفريد ٣ * ٢٨ (٤) ابن خلكان (٥) الزمخشري في كتابهِ ربيع الابرار

ونوراً اضاء المشرق شعاعهُ حتى انقلب من الخمول الى سمو الارتفاع ومن عماوة الجهل الى سعة الاطلاع فما هو عندي الاَّ الزمن الذي يبقى عند العرَب الى آخر الدهر محموداً بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة اسباب المعاش (١) والانتفاع من علوم الاعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك الذين كانوا جمال المشرق وزينة العالم (٢) ومَنَعَة هذه الدولة التي لم تقم من قبلهم الاَّ بالحيل والمكايد فانك لتعلم ان الدعوة التي قام بثقلها أبو مسلم انما كانت لذريَّة النبي صلى الله عليهِ وسلم وهم اولاد الحسن والحسين رضي الله عنهما لم يكن للعباسيين غرَضٌ في انضمامهم اليها الاَّ لمقارعة بني مروان في جملة من انضمَّ اليها من اهل البيوتات فلما خدمهم السيف رأوا ان ينفردوا بالخلافة دون أربابها من اهل البيت وصرفوهم عنها بالحيلة التي كان يمازجها ابو جعفر بتذليل العمَّال وظلم الرعية في الخراج (٣) حتى يوقع بهم الثقل ويقعدهم عن الخروج عليهِ (٤) في دعوتهم. فكان عظماء الملة يرون ذلك منهُ ولكنهم لم يروا ان يحملوا الامَّة على الخلاف ضنًّا بالنفوس الصالحة ان تسيل دماؤُها في اقتتال المسلمين بالمسلمين. فثبت لهُ الملك من هذا الوجه لم ينازعهُ فيهِ ولا قارعهُ عليهِ الاَّ جماعات متفرقة من اهل الدعوة ومن كان لا يضمهُ الغرَض الى جامعةٍ واحدة في جميع الانحاء فلم

(١) الف ليلة وليلة (٢) ابن الاثير ٦ * ٧٥ وابو الفداء ٢ * ١٨ (٣) الماوردي ١٢٧ (٤) الفخري

يستطيعوا مقاومتهُ ولا يبلغوا من غرضهم بهِ الاَّ ان جعلوا لهُ سبيلاً الى غلب جماعةٍ منهم بعد جماعةٍ فلما مات وكان قد اعماهُ حبُّ الولد حتى خلع ابن عمهِ عن ولاية العهد وصيَّرها الى المهديّ من بعدهِ . لم يكن في الناس الاَّ من ينغص ذلك عليهِ فيما كانوا ينغصون عليهِ من الظلم وسياسة القتل[1] فخاف الربيع ان تذهب الخلافة من ابنهِ ولهُ بصيرها اليهِ مصلحة لا تكون لهُ في دولة غيرهِ من اهل البيت ولا من العباسيين انفسهم ففتق لهُ عقلهُ تلك الحيلة[2] التي تسارع اليها اهل الحلّ والعقد على غير رضىً من نفوسهم الاَّ الخوف من ابي جعفر وهم يظنونهُ في عالم الاحياء . فلما استوثق لهُ الامر استهلَّ خلافتهُ باستمالة الناس بالاحسان والمعروف[3] حتى لا تنفر منهُ قلوبهم ولا يظنون فيهِ تتبُّعاً لسيرة ابيهِ من الظلم والجبروت فاقام لهم ديوان المظالم[4] ورفع عنهم ضرائب الخراج الفادحة وأَوسع لهم اسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم من إساءة ابيهِ اليهم حتى استمالهم لغرَضهِ واستملكهم في سلطانهِ فلم يبقَ عليهِ بعد ذلك الاَّ ان يأْمن خروج اهل الدعوة في جمعٍ غير متفرّق فرأَى ان يستميل الحرمين وهو الموضع الذي ينادى فيهِ بالحقوق المقدسة لاربابها من اهل البيت ففرّق في أَهلهِ الاموال الجسام ووالى عظماءهم بالجميل وبنى لهم البيت العتيق وعهد اليهم بالولايات والامارات واجرى

(١) الخميس ٢*٣٢٤ (٢) ابن الاثير ٦*١٢ (٣) السيوطي (٤) الماوردي ١٤٠

الارزاق الواسعة على مَن استخدم في الجند من اولادهم[١] كما علمت . فلما خلَت منهُ الخلافة وصارت الى الهادي بعدهُ وهو بمكانهِ من الغفلة وقلَّة الخبرة بأُمور الملك وانعكافهِ على اللهو والملذات عاجل العباسيون في قتلهِ[٢] خوفًا من ذهابها من يدهِ الى مَن تجمع عليهِ آراء المسلمين وتجتمع اليهِ كلمتهم من جميع الاقاليم والاطراف . فرأى البرامكة وهم أَهل العقل والتدبير ان ليس للعلويين بعد ذلك كلهِ مطمعٌ في المشرق بازاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف فانصرفوا عن تدبير امر الحرمين لهم الى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب[٣] . وراموا ان يعظّموا دولة الرشيد ويضمّوا المشرق كلهُ الى جناحهِ حتى ينصرف عن مقارعة اهل البيت ويقنع بما دبَّروا لهُ من السلطان العظيم الذي لم يكن مثلهُ لاحدٍ من الخلفاء قبلهُ[٤] . فكان من بعض ما أَشاروا بهِ اليهِ لتعميم هذا السلطان ان يأْخذ الرعية باللين والعاطفة بعدان امَّنوهُ خروجهم في الدعوة التي كان يخشى ان تعصف ريحها من ناحيتهم . فجرى على ما رسموا لهُ من سياسة الحلم والرفق مدَّةً من الزمان ثم غلبت عليهِ طبيعة العباسيين من الحسد[٥] فرجع الى العسف[٦] والغلظة واوقع بالناس من الشدَّة ما خصَّ اقبحهُ بمَن كان اصلح لهُ من أَقرب خواص اهل بيتهِ اليهِ

(١) ابن الاثير ٦ * ١٨ (٢) ابن الاثير ٦ * ٣٦ (٣) ابن خلدون
(٤) الفخري والسيوطي . (٥) الاتابكي ١٦٨ (٦) الاغاني ٣ * ١٧٨

فهذه هي دولة العباسيين التي اشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة وانها لتحتاج الى رجال عقلاء يديرون سياستها ويدبّرون أَمرها لانها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بامور الملك لَمَا قامت لها قائمةٌ بعد ذلك اذ كانت دولة حيل ومكايد[1] وكانت الحقوق فيها لاربابها من اهل بيت النبيّ صلى الله عليهِ وسلَّم ... فاليوم اترك الاسلام بين رايات خضرٍ وسودٍ وبيضٍ فاما العلويُّون فانهم اهل البيت ومَن لا تخرج محبَّتهم من قلوب المسلمين واما العباسيُّون فانهم حائزون على أَمر المشرق وهم اهل سيف[2] شديد الوطأَة واما الامويُّون فانهم يرتقبون للخلافة من وراء البحور ويرومون استعادة الملك الذي ذهب من أَيديهم بغفلة صبيانهم في دمشق والمسلمون في عُرْض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق . فاذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهي متفرقة على اغراض لا تضمها الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبيَّة الدين الى جامعة الاسلام ففي الملَّة ملوك عظام احسبهم ينتبهون الى ما بهم من الانقسام ويقيمون على اساس الجامعة دولةً تهتزُّ لها دول الفرنجة والله يرفع الامم التي تسبّح بحمدهِ وتقدّس لهُ الى اسمى مكان من الشرف والعظمة

لا اله الَّا هو ربُّ العرش

العظيم

(١) الفخري (٢) ابو الفداء ١ * ١٩٧

الخلاصة

يقول مؤلف الكتاب هذا ما انتهى اليهِ كلام صاحب هذه الرواية من ذكر مآثر الاسلام في ذلك الوقت الذي لم يدلّ بما انتهى اليهِ من عظمة الرشيد على ما كان يخشى بعدهُ من وقوع التجزُّؤ في المسلمين لان الاغراض لم تزل مستكمنةً في النفوس حتى انحازت فيما بعد الى ما بعد عن العصبة الى ان اتاح الله للاسلام رجوع صولتهِ اليهِ على يد السلاطين الظافرين من آل عثمان وهم الذين غلبوا على القسطنطينية بعد ان جمعوا اليهم كلمة المسلمين ثم اقاموا فيها على اساس الجامعة دولة تملك المشرقين والمغربين وتضمّ اليها البرين والبحرين لا زالت دولتهم محفوفة بالنصر المبين وسلاطينهم غرّة على جبين السلاطين ما توالى الملوان وتعاقب القمران

وكان الفراغ من تبييض هذا الكتاب في السنة الثانية والثمانين بعد الثمانمئة والالف وهي السنة السابعة من خلافة أمير المؤمنين المؤيد بالنصر السلطان الغازي عبد الحميد خان أيّدهُ الله بالاسلام وايّد الاسلام

بهِ بمنّ الله

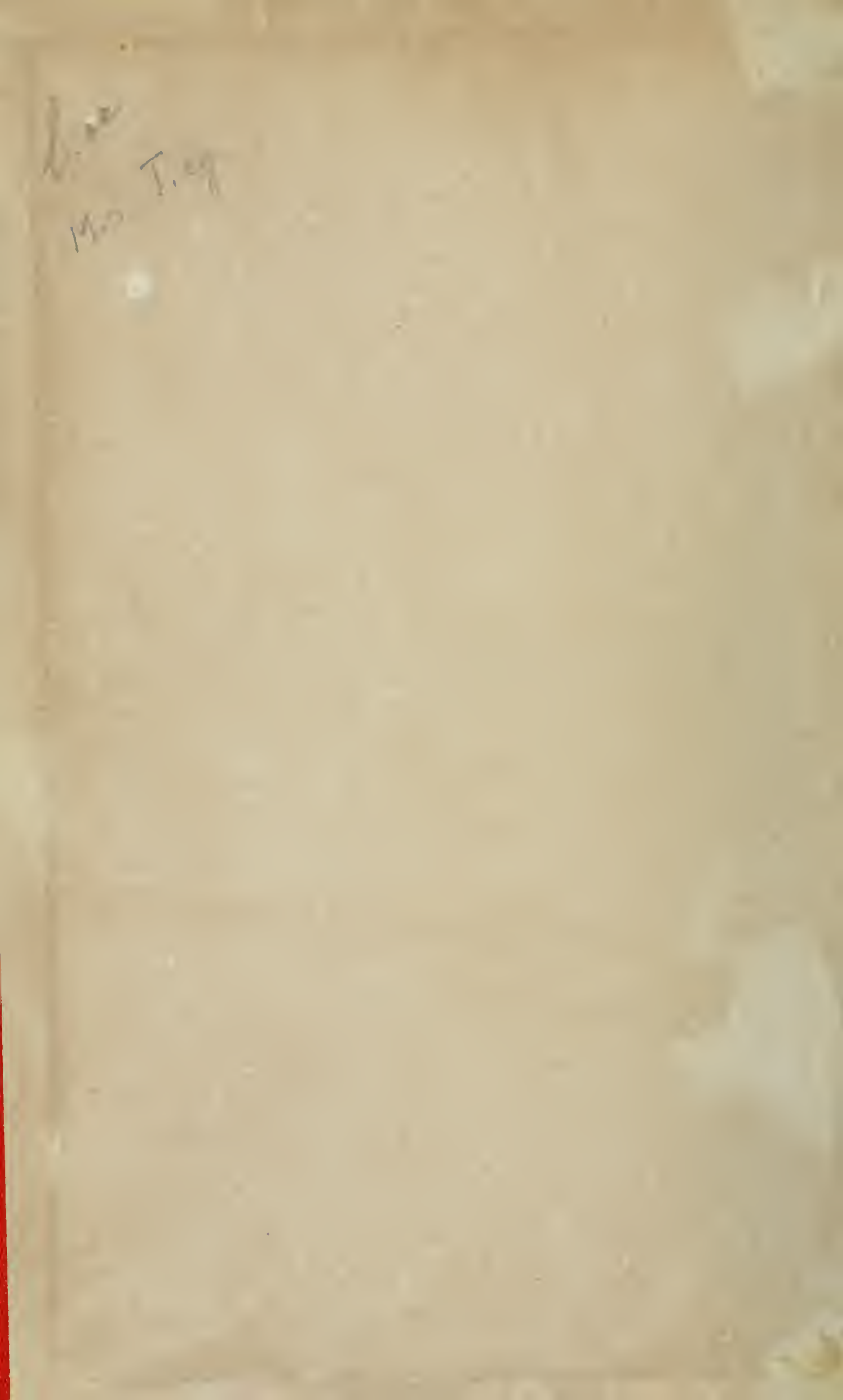
وكرمهِ

اصلاح خطا

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابهُ
٣	٣	يتيسَّر	يتيسَّر
٢٢	٤	رفعةُ	دفعةُ
٢٣	٧	خالد بن رملك	خالد بن برمك
٢٣	١٦	النهردان	النهروان
٣١	١٢	ان تناهي	انهُ تناهى
٣٧	١٣	من أولاد	من اولاد الملوك
٤٣	٣	نكب بهِ	نكبهُ
٤٤	١	مكين عند السلطان ومكين لديهِ	حظيٌّ عند السلطان ومكين لديهِ
٧٤	٩	بشار	لبشار
٧٨	٤	بمكانة من البخل كما علمتُ	بمكانهِ من البخل كما علمتَ
٨٧	٧	ورفعٌ	ودفعٌ
٩٩	١٤	كلمة	كلمتهُ
١٠٣	٤	بهِ	بها
١٠٩	٩	ووجهم	ووجوههم
١٢٣	١٠	واذا زارهم	واذ الرشيد زارهم
١٢٣	١٣	اسباب النعيم	اسباب النعيم والكبر (ابن جبير ٢١٩)
١٢٦	٥	في الصدور	في ذات الصدور
١٢٩	٨	امتاعهنَّ	امتناعهنَّ
١٤٨	١٥	والكمكان	والكمكمان
١٥٣	٩	حتى انهم	حتى لقد
١٥٦	١١	احتمل	يحتمل
١٥٧	١٥	ويقيم	ويقوم
١٥٩	١٠	وامام الناس ومشهور	وايام الناس ومشهودٌ

صوابهُ	الخطأ	السطر	الصفحة
جبريل	جزبل	١٢	١٦١
تجلّلت	تجأت	١	١٦٢
ناحيتَهُ	ناحية	١٥	١٦٩
خيرهم	ضيرهم	٨	١٧١
وَلَد سرّية	ابناه سراري	٤	١٧٠
ما	١٠	١٢	١٧٥
تواريه الارض و ياكلهُ التراب	تواريك الارض و ياكلك التراب	١٢	١٧٥
فَقْدُ	فُقْد	١٥	١٧٥
صنوف	صنوف	٤	١٨٤
دحمان	رحمان	١٦	١٩٤
بعض	بعد	٧	٢٠٢
يعزّز	بعزّر	٧	٢٠٩
صَلى الله عليهِ وسلم	صلى عليهِ وسلم	٢	٢١٩
على	عن	٧	٢٢٥
بعض	بعد	١١	٢٢٧
المتقدمين	المتفدمين	٥	٢٣٢
دواد	داود	٢	٢٣٢
وسرعة	سرعة	١٦	٢٣٣
اجادة	اجازة	١٤	٢٤٢
حفظ	حسن	٤	٢٥١
صوابهُ من الحلم والمكر والجراءة . . . والحمق الى آخر	من الحلم والخبث والقوة . . . والمكر	٤	٢٥٢
التِلاق	الطلاق	١١	٢٥٨
ذات قرارٍ ومعين	ذات قرار معين	١٢	٢٨١

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابهُ
٢٨١	٩	استحي	استحيي
٢٧٤	١٢	عنها	عليها
٢٨٢	٦	والصفاع	والصفاح
٢٨٦	١٢	اللقبة	القبلة
٢٩٠	٥	مثلهُ	مثلهِ
٢٩١	١٢	الصائبة	الصابئة
٢٩٥	٤	ابناءهم	بناءهم
٢٩٦	٥	نصّر القسيسين	نَصّر القسيسين
٢٩٨	١٧	الانبرذور	الانبرور
٣٠١	١٤	من الروم الملكية	من الروم الّا الملكيَّة
٣٠٨	١٥	للمسين	للمسلمين
٣٠٢	١٠	الدرهم من	منهُ الدرهم
٣١٥	١٥	المغمورة	الغمورة
٣١٦	٥	فكأيِّ	فكأيّنْ
٣١٩	١	فكأنّ	فَكَانَ
٣٢٢	٧	العظم	العظيم
٣٢٣	٤	وطولهُ واحد	وطولهُ شبرٌ واحد
٣٢٣	٧	أمهُ	أُمّهِ
٣٢٩	١٤	حتى اذ	حتى اذا
٣٤٠	١	عطيانهم	اعطيانهم
٣٤٢	١٢	المحُل	التمحُّل
٣٤٥	١٢	ما لا ينفع	ما ينفع
٣٥١	١٦	أجرى	أجرى الجريمة




UNIVERSITY OF TORONTO
3 1761 00397013 4